كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان

المقدسي الدمشقي الشافعي

المعروف بأبي شامة

المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلق عليه

إبراهيم شمس الدين

٢

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



[وفاة فتح الدين بن أسد الدين شيركوه]

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شِيركُوه؛ أخو ناصر الدين، وقبره بالمقبرة النجميَّة إلى جانب قبر ابن عمه شاهِنْشاه بن أيوب[1] في قُبَّةٍ فيها أربعة قبور، هما الأوسطان منها.

وفي هذه الأخوين، ناصر الدين وفتح الدين، يقول العرقلة حَسَّان[2]: [السريع]

لله شِبْلا أَسَدٍ خَادِرٍ ما فيهما جُبْنٌ ولا شُحُّ[3]

ما أقبلا إلا وقال الورى قد «جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ»[4]

[فتح نور الدين حصن المنيطرة]

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المُنَيْطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار إليه على غِرَّة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهز الفُرْصَة، وسار إلى المُنَيْطرة وحصرها، وجَدَّ في قتالها، وأخذها عَنْوَةً وقهراً، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأَمْن مَنْ به، فأخذتهم خيلُ الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لِدَفْعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا، وإنما ظنُّوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرَّقوا وأيسوا منه[5].

---

(١) قتل شاهنشاه بن أيوب على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ، وانظر أيضاً الجزء الأول (وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤٥٢).

(٢) البيتان في ديوان عرقلة الكلبي ص٢٠، وخريدة القصر، قسم شعراء الشام ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) الأسد الخادر: المقيم في عرينه.

(٤) ما بين مزدوجين، اقتباس من سورة النصر في القرآن الكريم **﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾** [النصر: ١ ـ ٣].

(٥) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٩/ ٤٨١.

هذا قول ابن الأثير، وذكر القاضي ابن شداد[١] أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين كما سيأتي، والله أعلم.

[وفاة الجليس بن الحباب]

وفيها توفي الجليسُ بن الحباب[٢] بمصر. قال العماد في «الخريدة»: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحَبَّاب الأغلبي السَّعْدي التَّميمي؛ جليس صاحب مصر، فضله مشهور، وشِعْرُه مأثور، وكان أوحد عصره في مِصْره نظماً ونثراً، ترسُّلاً وشعراً، ومات بها في سنة إحدى وستين، وقد أناف على السبعين. أنشدني له الأمير نجم الدين بن مَصَال[٣] من قصيدةٍ يقول فيها[٤]: [الطويل]

ومن عَجَبٍ أنَّ السيوفَ لديهمُ ... تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذكورُ
وأَعْجَبُ مِنْ ذا أنَّها في اكُفِّهمْ ... تأَجَّجُ ناراً والأكُفُّ بُحُورُ

قال: وأنشدني له الشَّريف إدريس الإدريسي[٥] قصيدةً سيَّرها إلى الصَّالح بن رُزِّيك[٦] قَبْلَ وزارته، يحرِّضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس

(١) القاضي ابن شداد: هو يوسف بن رافع، تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ٧/ ٢٢٣: الجليس بن الجبّاب، بالجيم المعجمة، والباء المشددة، وكذلك في فوات الوفيات ٢/ ٣٣٢، وهو الأصح.

(٣) نجم الدين بن مصال: لم أجد له ترجمة في المراجع والمصادر التي بين يدي، ولعله كان والي الإسكندرية في هذا الوقت، وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ.

(٤) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٥) الشريف إدريس الإدريسي: هو إدريس بن الحسن بن علي بن عيسى، الإدريسي، الحسني الإسكندراني، أبو الحسن، ولد في مصر سنة ٥٤٥هـ. كان فاضلاً أديباً شاعراً مجيداً، عالماً بأيام العرب، والتاريخ والأخبار، راوية للدواوين والأشعار، له مصنفات في الأنساب والتواريخ، سمع من الحافظ ابن عساكر وابنه القاسم، ومن القاضي الفاضل، وروى عنه العماد الكاتب، والقاضي ابن الخشاب، وابن أبي طي، والشريف أبو المحاسن عبد الله بن محمد الهاشمي، توفي في حلب سنة ٦١٠هـ (بغطية الطلب في تاريخ حلب، لكمال الدين ابن العديم ٣/ ١٣٢٤ ـ ١٣٣٣).

(٦) هو الملك الصالح، طلائع بن رزيك الأرمني، وزير العاضد العلوي، صاحب مصر، قتل سنة ٥٥٦هـ. وكان سبب قتله، أنه تحكم في الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، ولأنه هو الذي ولاه، ووتر الناس، فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم عليه في ذلك إنسان يقال له ابن الداعي، فوقفوا له في دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين (انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥١).

وزيرهم قَتَلَه وقتل أخويه يوسف وجبريل[١]، يقول فيها[٢]: [الطويل]

أصادِفُهُمْ قولاً وغيباً ومَشْهَداً نَحَوْهم على عمدٍ بفعل أعادي
فأين بنو رُزِّيك عنها ونصرُهُمْ وما لهُمُ من مَنْعَةٍ وذِيادِ
تدارك من الإيمان قَبْلَ دُثورِهِ حُشَاشَةَ نَفْسٍ آذنَتْ بنفادِ
فلو عايَنَتْ عيناكَ بالقَصْرِ يومهمْ ومَصْرَعَهُمْ لم تَكْتَحِلْ بِرُقادِ
فَمَزِّقْ جموعَ المارِقينَ فإنَّها بقايا زُرُوعٍ آذَنَتْ بحصادِ

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة[٣]: [الطويل]

ولما تَرَامى البَرْبَرِيُّ بجهله إلى فَتْكَةٍ ما رامَها قَطُّ رائِمُ
رَكِبْتَ إليه مَتْنَ عَزْمَتِكَ التي بأمثالها تُلْقَى الخطوبُ العظائمُ
أَعَدْتَ إليهم مُلْكَهُمْ بعد ما لوى به غاصِبٌ حَقَّ الإمامة ظالمُ

وأنفذ إليه في المعنى[٤]: [الطويل]

أَعَدْتَ إلى جِسْمِ الوزارة رُوحَهَا وما كان يُرْجَى بَعْثُها وَنُشورُها
أقامَتْ زَماناً عند غَيْرِك طامثاً فهذا الأوان قَرْؤُها وطُهورُها
من العَدْلِ أن يحظى بها[٥] مُسْتَحِقُّها ويخلَعها مردودةً مُسْتَعِيرُها
إذا مَلَكَ الحسناءَ مَنْ لَيْسَ كُفْأها أشارَ عليه بالطَّلاق مشيرُها

وله يشكو طبيباً[٦]: [الوافر]

وأَصْلُ بَلِيَّتي مَنْ قد غَزَاني من السُّقْمِ المُلِحِّ بِعَسْكَرَيْنِ
طبيبٌ طِبُّهُ كغُرابِ بَيْنٍ يُفَرِّقُ بينَ عافيتي وبيني
أتى الحُمَّى وقد شاخت وباخَتْ فَرَدَّ لها الشبابَ بِنُسْخَتَيْنِ
ودَبَّرَها بِتَدْبيرٍ لطيفٍ حكاه عن سِنانٍ أو حُنينِ[٧]

(١) تقدّمت قصة قتل الظافر في الجزء الأول.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٠، ما عدا البيت الأول.
(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.
(٤) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٣.
(٥) يحظى بها: كذا في الأصل، وفي «خريدة القصر»: (يحيا بها)، بدل: «يحظى بها».
(٦) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٧) سنان: هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة، الطبيب الحراني، كان نصرانياً ثم أسلم، وتوفي ببغداد سنة ٣٣١هـ، من تصانيفه: «رسالة إلى ابن رابق»، «رسالة إلى أبي الحسن علي بن عيسى»، «رسالة في أخبار آبائه وأجداده»، «رسالة في الاستواء»، «رسالة إلى بجكم»، =

وكانت نوبة في كل يوم فصيرها بحذق نوبتين

قلت: الأبيات الرَّائية تمثل بها الجليس، وهي لِصُرَّدُرّ[١]، قرأتها في «ديوانه»، وهي من قصيدة مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير[٢]، ويهنئه بعوده إلى الوزارة، وأول القصيدة[٣]: [الطويل]

لحاجةُ قَلْبٍ ما يُفيق غُرورُها وحاجةُ نَفْسٍ ليس يُقضى يَسيرُها
وَقَفْنا صُفوفاً في الدِّيارِ كأنَّها صحائفُ ملقاةٌ ونحن سُطُورُها
يقولُ خليلي والظِّباء سوانحٌ أهذي التي تهوى؟ فقلتُ نَظِيرُها
وقد قُلْتما لي ليس في الأرضِ جَنَّةٌ أما هذه فوقَ الرَّكائبِ حُورُها؟
أراكَ الحِمى قُلْ لي بأيِّ وسيلةٍ وَصَلْتَ إلى أنْ صادَقَتْكَ ثُغورُها!
وما لي بها عِلْمٌ فهل أنت عالِمٌ أَأَفْوَاهُهُا أَوْلَى بها أم نُحورُها
على رِسْلِكُمْ في الهَجْرِ إنَّا عصابةٌ إذا ظَفِرَتْ في الحُبِّ عَفَّ ضَميرُها
فقل للَّيالي كيفَ شِئْتِ تَقَلَّبي ففي يد عَبْلِ السَّاعِدَيْنِ أمورُها

= «رسالة في تاريخ ملوك السريانيين»، «رسالة في سهيل»، «رسالة في شرح مذهب الصابئيين»، «رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر»، «رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة»، «رسالة في النجوم»، «كتاب التاجي في سيرة عضد الدولة» (كشف الظنون ٥/ ٤١٠).

وحنين: هو أبو زيد، حنين بن إسحاق العبادي، المسيحي الطبيب البغدادي المشهور، توفي سنة ٢٦٠هـ. له العشرات من المصنفات، منها: «آلات الغذاء»، «اختصار ستة عشر كتاباً لجالينوس»، «اختلاف الطعوم»، «أسماء الأدوية المفردة»، «تدبير الأصحاء»، «تركيب العين»، «تدبير الأمراض الحادة»، «جوامع كتاب جالينوس في أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً»، «كتاب البيطرة»، وغيرها الكثير (كشف الظنون ٥/ ٣٣٩، ٣٤٠، وانظر أيضاً عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٥٧ ـ ٢٧٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(١) صرَّدُرّ: هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب، أبو منصور البغدادي، أحد نجباء شعراء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وسمي بصرّدر لأن أباه كان يلقب بصربعر لشحه، فلما نبغ ولده وأجاد في شعره قيل له: صرّدُرّ، توفي في طريق خراسان سنة ٤٦٥هـ، له ديوان شعره مشهور، وكتاب في الحساب (كشف الظنون ٥/ ٦٩١ ـ ٦٩٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) كان وزيراً للقائم ولابنه المقتدي بأمر الله، ثم عزل عنها، فخرج سنة ٤٧٦هـ إلى السلطان ملكشاه باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٨٣، ٤٦٤. ووفيات الأعيان ٥/ ١٢٨.

(٣) الأبيات في ديوان صردر ص٥٦ ـ ٦٢، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.

أمانيُّ في نَفْسِ الوِزَارَةِ بُلِّغتْ ... به كُنْهَها حتى استحقَّتْ نذورُها
لوَتْ وَجْهَها عن كلِّ طالبِ مُتْعةٍ ... إلى خاطبٍ حلَّ عليه سُفُورُها
إذا مَثَلَ الأقوام دون عَرِينه ... تساوى به ذو طَيْشِها ووقورُها
تكاد لِما قد أُلبِستْ مِنْ سكينةٍ ... تَرِفُّ على تلك الرؤوس طيورُها

[عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية]

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزالُ يحدِّث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدُّخول إليها، يتحدَّث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيِّجه على العود زيادة حقده على شاوَر وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهَّز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفي ذلك يقول العرقلة[1]: [السريع]

أقول والأتراكُ قد أزْمَعَتْ ... مِصْرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ
رَبٌّ كما ملَّكْتَها يوسف الصِّـ ... ـدِّيقَ من أولادِ يعقوبِ
يملكها[2] في عَصْرِنا يوسفَ الصَّـ ... ـادِقَ من أولادِ أيوب
من لم يَزَلْ ضرَّابَ هامِ العِدَى ... حقًّا وضرَّابَ العَرَاقِيبِ

ثم إن أسد الدين جَدَّ في السير على البرّ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطْفِيح، وعبر النِّيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجِيزة مقابل مصر، وتصرَّف في البلاد الغربية، وأقام بها نَيِّفاً وخمسين يوماً.

[استغاثة شاور بالفرنج]

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصَّعْب والذَّلُول، فتارةً يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدِّ والتشمير، وتارةً يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّوري على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم. فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي. وكان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد

---

(١) هو حسان بن نمير الكلبي، أبو الندى، الأديب النحوي، ولد سنة ٤٨٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ، له ديوان شعره. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٧٨ ـ ٢٢٩، وفي كشف الظنون ٥/ ٢٦٥، توفي عرقلة سنة ٥٩١هـ. والأبيات في ديوان عرقلة ص١٢ ـ ١٣.
(٢) يملكها: كذا في الأصل، وفي الديوان «ملكها».

فبلغوا مكاناً يُعرفُ بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم، فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على قتالهم ولقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم. إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثَّبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة؛ لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعُبُور النِّيل إلى الجانب الشَّرْقي والعَوْد إلى الشَّام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟! وحُقَّ لعسكرٍ عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارِهم وقلّ ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزْغُش[1] ـ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال: من يخاف القتل والجراح والأَسْر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلَبَةٍ وبلَاءٍ تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموالَ المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟! قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاحُ الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكانٍ آخر فينهبها أهل البلاد.

ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة. فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم. فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلّف من الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين

(١) صاحب شقيف، كان ممن أرسله نور الدين مع أسد الدين لفتح مصر سنة ص٥٦٤، استشهد في معركة الكرك سنة ٥٧٩هـ كما سيأتي في الجزء الثالث.

فهزموهم، ووضعَ السَّيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[1].

[تسلم شيركوه الإسكندرية من غير قتال واستنابة صلاح الدين فيها، وعوده إلى الصعيد]

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في طريقها من القرايا والسَّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه، وجبى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية ـ وبها صلاح الدين ـ في عسكرٍ يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدَّ الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك.

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلْح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلَّمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين. فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوّال.

[حصار الفرنج والمصريين للإسكندرية]

وأما الفرنج فإنهم استقرَّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شِحْنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكرٍ إليهم، ويكون للفرنج من دَخْلِ مصر كل سنة مئة ألف دينار. هذا كله يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولا يعلمُ بشيء من ذلك؛ قد حكم عليه شاور وحجَبَهُ. وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعةً من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

(١) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣ ـ ٤.

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي ـ وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف ـ ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجَمْع الكلمة بمصر على طاعته، وبجمع كلمة الإسلام، وبَذَل مالاً يحمله كل سنةَ. فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً. فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربعٍ وستين(١).

قال القاضي أبو المحاسن: ذِكْر عَوْدِ أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية، وهي المعروفة بوقعة البابَيْن. لم يزل أسد الدين يتحدَّث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك، وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لا بُدَّ له من قَصْدِها. فكاتب الفرنج، وقرَّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً، ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها. وبلغ ذلك نورَ الدين وأسد الدين، فاشتدَّ خوفهما على مصر أن يملكها الكُفَّار فيستولوا على البلاد كلها. فتجهَّز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهيةٍ منه لذلك، وذلك في أثناء ربيع الأول. وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين، والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروبٌ كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين.

وكان سببُ عود الفرنج أن نور الدين، قَدَّس الله روحه، جَرَّد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المُنَيْطِرة، وعلم الفرنج ذلك، فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعفَ عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين، وما عانوه من الشَّدائد وعاينوه من الأهوال. وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلُّهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السَّنة، وقد انضمَّ إلى قوة الطمع في البلاد شِدَّةُ الخوف عليها من الفرنج، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها. فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجرُّه إلى شيء قد قُدِّرَ لغيره وهو لا يشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المُنَيْطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرَّب قلعة أكاف بالبرية.

---

(١) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤ ـ ٥.

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغَزَاة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخرَّبوا هُونِين في شوال منها.

وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر.

وفيه مات قرا أرسلان(١) بديار بكر.

فـصـل

[قدوم العماد الكاتب إلى دمشق وتجديد معرفته بنجم الدين وشيركوه، وبداية معرفته بصلاح الدين، ومدحه لهم]

وفي شعبان من هذه السنة قَدِمَ دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصْفَهاني، مصنِّف كتابي الفَتْح والبرق(٢)، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفَضْل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي بالمدرسة النُّورية الشَّافعية عند حمام القصير بباب الفرَج، المنسوبة الآن إلى العماد. وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين بعد الشَّيخ الفقيه ابن عبد(٣).

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شِيركُوه ابني شاذي من تَكْريت؛ بسبب أن عمَّه العزيز أحمد بن حامد(٤) اعتقله السُّلْطان محمود بن

---

(١) ولي حصن كيفا وديار بكر سنة ٥٣٩هـ.

(٢) هو محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي رجاء حامد بن محمد، عماد الدين، أبو عبد الله، الكاتب الأصفهاني الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٩هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ. له الكثير من التصانيف، انظر ترجمته الوافية في الجزء الأول.

(٣) ابن عبد: هو الخضر بن شبل بن الحسين، عز الدين، أبو البركات، المعروف بابن عبد، ولد سنة ٤٨٦هـ، ودرس الفقه وأفتى سنة ٥١٨هـ، ودرّس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرّس في المدرسة المجاهدية الجوانية، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج، توفي سنة ٥٦٢ (سير أعلام النبلاء ٢٥/ ٥٩٢).

(٤) العزيز أحمد بن حامد، ولد في أصفهان سنة ٤٧٢هـ، وولي مناصب رفيعة في الدولة السلجوقية، وكان في آخر أمره متولي الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وسبب القبض عليه أن السلطان سنجر طالب السلطان محموداً بأنواع التحف والغرائب التي أخرجها مع جهاز ابنته، وذلك بعد وفاتها، فخاف السلطان محمود من أحمد بن حامد أن يشهد بما وصل في صحبتها ـ وكان مطلعاً عليه ـ فقبض عليه ببغداد، وسيره إلى تكريت، فحبس في قلعتها، ثم قتل سنة ٥٢٧هـ. وكان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه قد دافعا عنه وتشفعا فيه، فلم يستجب لهما (وفيات الأعيان ١/ ١٨٩).

محمد بن مَلِكْشاه بقلعة تَكْرِيت، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها، فانتسجت المودَّة بينهم من هناك. فلما سمع نجم الدين بوصوله، بكَّر إلى منزله لتبجيله، وكان شِيركُوه وصلاح الدين حينئذٍ بمصر، فمدح العمادُ نجمَ الدين أيوب بقصيدةٍ منها، أولها[1]: [البسيط]

يومُ النَّوى ليس من عُمْري بمحسوبِ ... ولا الفِراقُ إلى عَيْشِي بمنسوبِ

ما اخترتُ بُعْدَك لكنَّ الزَّمان أتى ... كَرْهاً بما ليسَ يا محبوبُ محبوبي

أرجو إيابي إليكم ظافراً عَجِلاً ... فقد ظَفِرْتُ بنجم الدِّين أيوبِ

موفَّقُ الرأي ماضي العَزْم مُرْتَفِعٌ ... على الأعاجم مَجْداً والأعاريبِ

أحبَّك الله إذ لازَمْتَ نَجْدَتَه ... على جبينٍ بتاجِ الملك مَعْصُوبِ

أخوك وابنكَ صِدْقاً منهما اعتصما ... بالله والنَّصْرُ وَعْدٌ غيرُ مَكْذوبِ

هما هُمامانِ في يَوْمَيْ وغًى وقِرًى ... تعوَّدا ضَرْبَ هامٍ أو عَرَاقِيبِ

غداً يَشُبَّان في الكُفَّارِ نار وَغًى ... بِلَفْحِها يُصْبِحُ الشُّبَّان كالشِّيبِ

بمُلك مِصْرَ ونَصْرِ المؤمنين غداً ... تحظَى النُّفوسُ بتأنيسٍ وتَطْييبِ

ويستقرُّ بمصرٍ يوسفٌ وبه ... تَقَرُّ بعد التَّنائي عَيْنُ يَعْقُوبِ

ويلتقي يوسفٌ فيها بإخوتِهِ ... والله يجمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَثْرِيبِ

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوَّال سنة اثنتين وستين، وتمَّ ملكهم مصر بعد سنتين قال: فنظمتُ ما في الغيبِ تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرَّمْل في النِّصف من ربيع الأول، ووصل في سادس ربيع الآخر إلى إطْفِيح وعبر منها إلى الجانب الغَرْبي، وأناخ بالجِيزة محاذاة مصر، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً. واستعان شاور بالفرنج ورتَّبوا لهم سوقاً بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشَّرْقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم، فالتقوا بموضع يُعرف بالبابَيْن، فكسرهم أسد الدين وأصحابه، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفاً، وحصل منهم في الإسار سبعون فارساً من بارونيَّتهم. فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها. ثم قال أسد الدين: أنا لا يمكنني أن أحصرَ نفسي. فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصَّعيد فاستولى عليها، وجبى خَراجَها. وأقام صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليه شاوَر والفرنج،

---

(١) ذكر ياقوت في معجم الأدباء ١٩/ ١٣، بعض الأبيات من القصيدة.

فحاصروه أربعة أشهر، وصَدَقَ أهلُ الإسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بِقُوص، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص. فسمع الفرنجُ أنه جاء يقصدهم، فرحلوا عن الحصار. وكان شاور قد استمال جماعةً من التركمان الذين مع أسد الدين بالذّهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عِوَضَ ما غَرِمَهُ، فبذلوا له خمسين ألف دينار، فخرجوا من الإسكندرية في النِّصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القَعْدة، وعادوا إلى الخدمة النُّورية.

فاجتمع العمادُ بأسد الدين، وأنشده هذه القصيدة: [البسيط]

بَلَغْتَ بالجدِّ ما لا يبلُغُ البَشَرُ ... ونِلْتَ ما عَجَزَتْ عن نَيْلِهِ القُدَرُ

مَنْ يَهْتَدِي للذي أنتَ اهتديتَ له ... ومَنْ له مِثْلَ ما أَثَرْتَهُ أَثَرُ

أسِرتَ أم بِسُراك الأرضُ قد طُوِيَتْ ... فأنتَ إسكندرٌ في السَّيْرِ أم خَضِرُ

أوْرَدْتَ خيلاً بأقصى النِّيلِ صادِرَةً ... عن الفُراتِ يقاضي وِرْدَها الصَّدَرُ

تناقَلَتْ ذِكْرَكَ الدُّنيا فليسَ لها ... إلا حديثُكَ ما بين الوَرَى سَمَرُ

فأنتَ مَنْ زانَتِ الأيام سِيرَتُهُ ... وزادَ فوقَ الذي جاءت به السِّيَرُ

لو في زمانِ رسولِ الله كنتَ أتَتْ ... في هذه السِّيرَةِ المحمودةِ السُّوَرُ

أصْبَحْتَ بالعَدْلِ والإقدامِ مُنْفَرِداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنتَ أم عُمَرُ

إسكندرٌ ذكروا أخبارَ حِكْمَتِهِ ... ونحنُ فيكَ رأينا كُلَّ ما ذَكَرُوا

ورُسْتُمٌ خَبَّرُونا عن شجاعَتِهِ ... وصارَ فيكَ عِياناً ذلك الخَبَرُ

إفْخَرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ أذهلَهم ... ما قد فَعَلْتَ فكلٌّ فيك مُفْتكِرُ

سَهِرْتَ إذْ رَقَدُوا بل هِجْتَ إذ سَكَنُوا ... وصُلْتَ إذ جَبُنُوا بل طُلت إذ قَصُروا

يَسْتَعْظِمونَ الذي أدْرَكْتَهُ عَجَباً ... وذاك في جَنْبِ ما نرجوه مُحْتَقَرُ

قضى القضاءُ بما نرجوه عن كَثَبٍ ... حَتْماً ووافقك التَّوفيقُ والقَدَرُ

شَكَتْ خيولُكَ إدمانَ السُّرى وشكت ... من فَلِّها البيضُ بل من حَطْمها السُّمُرُ(١)

يَسَّرْتَ فَتْحَ بلادٍ كان أيْسَرُها ... لغير رأيك قُفْلاً فَتْحُهُ عَسِرُ

قَرَنْتَ بالحَزْمِ منك العَزْمَ فاتَّسَقَتْ ... مآربٌ لك عنها أسْفَرَ السَّفَرُ

ومَنْ يكونُ بنورِ الدين مُهْتَدِياً ... في أمْرِهِ كيفَ لا يقوى له المِرَرُ

يرى برأيك ما في المُلك يُبْرِمُه ... فأنتَ منه بحيث السَّمْعُ والبَصَرُ

لقد بَغَتْ فئةُ الإفرنجِ فانْتَصَفَتْ ... منها بإقدامك الهِنْدِيَّةُ البُتُرُ

---

(١) البيض: السيوف، والسمر: الرماح.

غَرَسْتَ في أرض مِصْرٍ من جُسُومِهِمُ أشجارَ خَطٍّ لها من هامهم ثَمَرُ[١]
وسالَ بحرُ نجيعٍ في مقام وغًى به الحديدُ غَمَامٌ والدَّمُ المَطَرُ[٢]
أنهرتَ منهم دماءً بالصَّعيد جَرَى منها إلى النِّيلِ في واديهمُ نَهَرُ[٣]
رأوا إليكَ عبورَ النِّيل إذ عَدِمُوا نَصْراً فما عَبَرُوا حتى قد اعْتَبرُوا
تحتَ الصَّوارِمِ هامُ المشركين كما تحتَ الصَّوالج يوماً خفَّتِ الأُكَرُ[٤]
أَفْنَتْ سيوفُك من لاقَتْ فإنْ تركت قوماً فَهُمْ نَفَرٌ من قبلها نَفَرُوا
لم يَنْجُ إلا الذي عافَتْهُ من خَبَثٍ وَحْشُ الفلا وهو للمَحْذُورِ مُنْتَظِرُ
والسَّاكنونَ القصورَ القاهريةَ قد نادَى القُصُورُ عليهم أنهم قُهِرُوا
وشاورٌ شاوروه في مكايدِهِمْ فكادَه الكيدُ لما خانَهُ الحَذَرُ
كانوا من الرُّعبِ موتى في جُلُودِهم وحينَ أَمَّنْتَهُم من خَوْفِهِم نُشِرُوا
وإنَّ من شِيرَكُوه الشِّرْكَ مُنْخَزِلٌ والكُفْرَ مُنْخَذِلٌ والدِّينَ مُنْتَصِرُ
عَوِّل على فئةٍ عند اللِّقاء وَفَتْ وَعَدِّ عن تركمانٍ قَبْلَه غَدَرُوا
وكيفَ يُخْذَلُ جيشٌ أنتَ مالِكُهُ والقائدانِ له التأييدُ والظَّفَرُ
أجابَ فيك إله الخلق دَعْوَةَ مَنْ يطيبُ باللَّيْلِ من أنفاسِهِ السَّحَرُ

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين ابن أخيه مودَّة، تمت لي بها على الزمان عُدَّة؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميلُ إلى شِعْري. فأول ما خدمتُه به هذه الكلمة[٥]: [الخفيف]

كيفَ قُلْتُمْ بِمُقْلَتَيْهِ فُتُورُ وأراها بلا فُتُورٍ تَجُورُ
مستجيزٌ جَوْري وإنِّيَ منه يا ابنَ أيوبَ يوسفٍ مستجيرُ
فَضْلُهُ في يدِ الزَّمانِ سِوَارٌ مِثْلَما رَايُهُ على المُلْكِ سُورُ
كرمٌ سابغٌ وجُودٌ عميمٌ ونَدًى سائِغٌ وفَضْلٌ غزيرُ
أنتَ مَنْ لم يَزَلْ يَحِنُّ إليه وهو في المَهْدِ سَرْجُه والسَّريرُ
من دَم الغادرينَ غادَرْتَ بالأمـ ـسِ صعيدَ الصَّعيدِ وهو غديرُ

---

(١) خط: بلد في نواحي البحرين وعمان، تنسب إليها الرماح الخطية.
(٢) بحر نجيع: أي بحر من دم.
(٣) أنهرت: أي أسلت.
(٤) الأُكَرُ: جمع أكرة، وهي الكرة.
(٥) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٤ ـ ٤٠.

ولِكلٍّ مما تطاولتَ فيهمْ ... أملٌ قاصِرٌ وعُمْرٌ قَصيرُ
لاذَ بالنِّيلِ شاوَرٌ مِثْلَ فِرْعَوْ ... نَ فذلَّ اللاجي وعَزَّ العَبُورُ
شاركَ المشركينَ بغياً وقِدْماً ... شارَكَتْها قُرَيظةٌ والنَّضِيرُ
والذي يدَّعي الإمامةَ بالقا ... هِرةِ ارتاعَ إنَّهُ مَقْهُورُ
وغدا المَلْكُ خائفاً من سُطاكم ... ذا ارتعادٍ كأنَّهُ مَقْرُورُ
وبنو الهفري[1] هانوا ففرُّوا ... ومِنَ الأُسْدِ كلُّ كلْبٍ فَرُورُ
إنّما كان للكلابِ عُواءٌ ... حيثُ ما كان للأسودِ زَئِيرُ
وفِليبٌ[2] عند الفِرارِ سليبٌ ... فَهْو بالرُّعْبِ مُطْلَقٌ مأسُورُ
لم يبقُّوا سوى الأصاغرِ للسبـ ... ـي فودُّوا أن الكبيرَ صغيرُ
وَحَمَيْتَ الإسكندريةَ عَنْهُمْ ... ورَحى حَرْبِهِمْ عليهم تَدُورُ
حاصَرُوها وما الذي بانَ من ذَبـ (م) ... ـكَ عنها وحِفْظُها مَحْصُورُ
كَحِصَارِ الأحزاب طَيْبَةَ قِدْماً ... ونبيُّ الهُدَى بها مَنْصُورُ
فاشكرِ اللّهَ حينَ أولاكَ نَصْراً ... فهْو نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيرُ
ولكَمْ أَرْجَفَ الأعادي فَقُلْنَا ... ما لِما تَذْكُرونَهُ تأثِيرُ
ورَقَبْنا كالعيدِ عَوْدَكَ فاليو ... مَ به للأنامِ عِيدٌ كبيرُ
عادَ من مِصْرَ يوسفٌ وإلى يعـ ... ـقوبَ بالتهنئاتِ جاءَ البَشِيرُ
فلأيوبَ من إيابِ صلاحِ الدِّ (م) ... ين يومٌ به توفَّى النُّذُورُ
ولكُمْ عَوْدَةٌ إلى مِصْرَ بالنَّصْـ ... ـرِ على ذكرها تمرُّ العصورُ
فاسْتَرِدُّوا حَقَّ الإمامةِ ممن ... خانَ فيها فإنَّه مُسْتَعِيرُ
وافْتَرِعها بِكْراً لها بمدى الدَّهـ ... ـرِ رَوَاحٌ في مَدْحِكُمْ وبُكُورُ
أنا سَيَّرْتُ طالعَ العَزْمِ مني ... وإلى قَصْدِكَ انتهى التَّسْيِيرُ
وأرى خاطري لِمَدْحِكَ إلْفاً ... إنما يألفُ الخطيرَ الخطيرُ

وهي والتي قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفةُ العماد بصلاح الدين، وكان له مساعداً عند نور الدين.

---

(١) الهفري: لعله ابن الهنفري صاحب بانياس والكرك. سيأتي ذكره في هذا الجزء.
(٢) فليب: هو فيليب ميللي، كان إقطاعه شرقي الأردن، ثم أصبح مقدم الداوية، ثم استعفى وأصبح سفيراً للملك أملريك في القسطنطينية (تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان الترجمة العربية ٢/ ٥٤٠، ٥٨٠، ٦٣١).

وقرأت في «ديوان العرقلة»: وقال يمدح أسد الدين شِيرِكُوه، وقد أخذ الشَّقيف، ورحل طالباً حِصْناً يقال له العُراق[1]: [الوافر]

رَحَلْتَ من الشَّقِيفِ إلى العُراق ... بعزم كالمهنَّدَةِ الرِّقاقِ
ونَكَّسْتَ الأعادي منه قَهْراً ... ومَجْدُكَ في ذُرَا الجَوْزَاءِ باقي
بجأشك لا بجَيْشِكَ نِلْتَ هذا ... وبالتَّوفيقِ لا بالاتِّفاقِ
فداؤكَ مَنْ مَضى بالحِصْنِ قبلي ... إلى دارِ الخُلُودِ من الرِّفاقِ
وما نخشى على الإسلام بُؤساً ... إذا هَلَكَ الجميعُ وأنتَ باقي
أشاوَرُ كَمْ تُشاوِرُ كلَّ خِبٍّ ... وتَنْفُقُ عِنْدَ مِثْلِكَ بالنِّفَاقِ
أتَصْبِرُ إن أتتك بحارُ خَيْلٍ ... وقِدْماً ما صَبَرْتَ على السَّواقي
متى رَفَعَتْ لك السُّودانُ رَأْساً ... وقد خلَّاهُمُ مِثْلَ الزِّقاقِ
وعَيْشِكَ ما له من مِصْرَ بُدٌّ ... ومِنْ عندي ثلاثاً بالطَّلاقِ
هو الأَسَدُ الذي ما زال حتى ... بنى مَجْداً على السَّبْعِ الطِّباقِ

فصل

[اجتماع قطب الدين ونور الدين على غزو الفرنج، وتخريب قلعة جبلة وفتح العريمة وصافيتا]

قال ابن الأثير[2]: وفي هذه السَّنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلبُ أن يعبُرَ الفُرَاتَ إليه بعساكره، فتجهَّز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة، فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلادَ الفرنج، واجتاز على حِصْن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عِرْقَة، ونزلوا عليها وحَصَرُوها، وحصروا جَبَلة، وأخربوها. وتوجَّهَتْ عساكرُ المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العُرَيمة وصافيثا. وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان. ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هُونِين، وهي للفرنج أيضاً، من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنجُ عنها وأحرقوها، فقصدَها نور الدين فوصلها من الغد، وخرَّب سورَها جميعَهُ، وأراد الدخول إلى بيروت

(١) الأبيات في ديوان عرقلة الكلبي ص٦٨ ـ ٦٩.
(٢) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥ ـ ٦.

فتجدَّد في العسكر خُلْفٌ أوجب التفرُّق، فعاد. وسار قطب الدين إلى المَوْصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة، فأخذها في طريقه.

[عصيان الأمير غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين]

قال[١]: وفي هذه السنة عصى الأميرُ غازي بن حَسَّان المَنْبِجي صاحب مَنْبِج على نور الدين، وهو كان أقطعَه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حَصَروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وكان عاقلاً خَيِّراً، حَسَن السِّيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي.

[وفاة الشاعر الرشيد أحمد بن علي بن الزبير]

وفي هذه السنة توفي القاضي الرَّشيد أحمد بن علي بن الزُّبير[٢] صاحب كتاب «الجنان»[٣].

قال العماد في «الخريدة»[٤]: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاوَر صبراً في سنة اثنتين وستين[٥]، ونُسب إليه أنه شارك أسد الدين شِيركُوه في قَصْده.

وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزُّبير[٦] أشعر منه وتوفي قبله

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٦ ـ ٧.

(٢) هو القاضي الرشيد أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، الشهير بالقاضي الرشيد المصري، توفي سنة ٥٦٣هـ (كذا في كشف الظنون) مصلوباً بمصر. له من المصنفات: «أمنية الألمعي ومنية المدعي»، «تاريخ أسوان»، «جنان الجنان ورياض الأذهان» في شعراء مصر، «ديوان شعره»، «شفاء العلة في سمت القبلة»، «تذكرة أهل الألباب في استيفاء العمل بالاسطرلاب»، (كشف الظنون ٥/ ٨٦، معجم الأدباء ٤/ ٥١ ـ ٦٦، وفيات الأعيان ١/ ١٦٠ ـ ١٦٤، الطالع السعيد ص٩٨ ـ ١٠٢).

(٣) هو كتاب «جنان الجنان ورياض الأذهان» في شعراء مصر، ذيل به على يتيمة الدهر للثعالبي، (كشف الظنون ١/ ٦٠٦).

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥) في كشف الظنون ٥/ ٨٦، ووفيات الأعيان ١/ ١٦١، أنه صلب سنة ٥٦٣هـ.

(٦) هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني (وليس كما ذكر المؤلف أنه أبو علي) المصري المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ. من تصانيفه: «تفسير القرآن» في خمسين جزءاً، «ديوان شعره»، «كتاب الأنساب»، (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٥، معجم الأدباء ٩/ ٤٧ ـ ٧٠، وفيات الأعيان ١/ ١٦١، فوات الوفيات ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، الطالع السعيد ص١٩٤ ـ ٢٠٣).

بسنة، ولم يكن في زمانه أشعر منه أحدٌ، وله شِعْرٌ كثير، منه قصيدةٌ غَرَّاء في مدح الصالح بن رُزِّيك، وذكر فيها نور الدين، أولها[١]: [الكامل]

أَعَلِمْتَ حينَ تَجاوُرِ الحَيَّان ... أَنَّ القُلوبَ مواقِدُ النِّيرانِ
يا كاسِرَ الأصنام قُمْ فانهضْ بنا ... حتى تصير مُكَسِّرَ الصُّلْبانِ
فالشَّامُ مُلْكُكَ قد وَرِثْتَ بلادَه[٢] ... عن قَوْمِكَ الماضينَ من غَسَّانِ
وإذا شَكَكْتَ بأنَّها أوطانُهُمْ ... قِدْماً فَسَلْ عن حارِثِ الجَوْلانِ
أو رُمْتَ أن تتلو محاسنَ ذِكْرِهِمْ ... فاسْنُدْ روايتَها إلى حَسَّانِ[٣]
ما زُلْزِلَتْ أرضُ العِدَى بل ذاك ما ... بقلوبِ أهليها من الخَفَقانِ
وأقولُ إنَّ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لما ... أُوتيتَ من مُلْكٍ ومن سُلْطانِ
ولقد بَعَثْتَ إلى الفرنج كتائباً ... كالأُسْدِ حين تصول في خَفَّان[٤]
لَبِسُوا الدُّروعَ ولم نَخَلْ مِنْ قبلهم ... أنَّ البحارَ تَحُلُّ في غُدْرانِ
عَجَّلْتَ في تلِّ العَجُولِ قِرَاهُمُ ... - وهُمُ لك الضِّيفان - بالذِّيفان[٥]
وثَلَلْتَ في يوم العريشِ عُروشَهُمْ ... بشَبَا ضِرابٍ صادقٍ وطِعَانِ
أَلْجَأْتَهُمْ للبَحْرِ لمَّا أنْ جَرَى ... مِنْهُ ومِنْ دَمِهِم معاً بَحْرَانِ
ولقد أتى الأُسطولُ حينَ غزا بما ... لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ
وأَعَدْتَ رُسْلَ ابنِ القسيم إليه في ... شعبانَ كي يتلاءمَ الشَّعْبانِ[٦]
والفالُ يشهدُ في اسمه أنْ سوفَ يَغْـ ... ـدُو الشَّامُ وهو عليكما قِسْمَانُ
وأراك من بعد الشَّهيدِ أباً له ... وجَعَلْتَهُ من أقربِ الإخوانِ
وهو الذي ما زالَ يفعلُ في العِدَى ... ما لم يَكُنْ لِيُعَدَّ في الإمكانِ
قَتَلَ البِرِنْسَ ومَنْ عساه أعانه ... لمَّا عَسَا في البَغْي والعُدْوانِ[٧]
وأرى البَرِيَّةَ حين عادَ برأسه ... مُرَّ الجَنَى يبدو على المُرَّانِ[٨]

(١) ذكر في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٩ - ٢١٢، مختارات من القصيدة.
(٢) في «خريدة القصر»: «ورثت تراثه» بدل: «ورثت بلاده».
(٣) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، الصحابي الجليل وشاعر رسول الله ﷺ.
(٤) خفان: مأسدة مشهورة.
(٥) الذيفان: السم الناقع.
(٦) ابن القسيم: هو نور الدين زنكي ابن قسيم الدولة آق سنقر التركي. وقسيم الدولة لقب أبيه وجده.
(٧) عسا: أي عتى.
(٨) المرّان: هي الرماح الصلبة اللدنة.

وتعجَّبوا من زُرقةٍ في طَرْفِهِ — وكأنَّ فوقَ الرُّمحِ نَصْلاً ثاني
عَجَباً لِجُودِ يَدَيْهِ إذْ يبني العُلا — والسَّيلُ يَهْدِمُ ثابتَ الأركانِ
قَلَّدْتَ أعناقَ البَرِيَّةِ كلَّها — مِنَناً تحمَّل ثِقْلَها الثَّقَلانِ
حتى تَساوى النَّاسُ فيكَ وأصبحَ الـ — قاصي بمنزلةِ القَريبِ الدَّاني

[تعريف القاضي الشهرزوري لنور الدين بالعماد الكاتب]

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري للسُّلْطان نور الدين رحمه الله تعالى حال العماد الكاتب وعَرَّفه به، وعرضَ عليه قصيدةً له في مدحه، مطلعها: [الرجز]

لو حُفِظَتْ يومَ النَّوى عهودُها — ما مُطِلت بوَصْلِكُمْ وعودُها
محمد يحمد عيش بلدة — مالكُها بِعَدْلِهِ محمودُها
مُؤَيَّدٌ أموره بِعَزْمَةٍ — من السَّموات العُلا تأييدُها
آثارُه حميدةٌ وإنما — للمَرْءِ من آثارِهِ حميدُها
إنَّ الورَى بحبِّه وبُغْضِهِ — يُعْرَفُ من شَقِيِّها سعيدُها
قد جاءكم نورٌ مِنَ الله فَمَنْ — به اهتدَى فإنّه رشيدُها
جلا ظلامَ الظُّلْمِ نورُ الدين عن — أرض الشَّآم فله تحميدُها
إنَّ الرَّعايا منه في رعايةٍ — ونعمةٍ مُسْتَوجَبٌ مزيدُها
لنومِها يَسْهَرُ بل لأمنِها — يخاف بَل يخصبها بجودها
بالدِّينِ والملك له قيامُه — وللملوك عنهما قُعُودُها
وَدَأْبُهُ ثَلْمُ ثُغورِ الكُفرِ لا — لَثْمُ ثُغُورٍ ناقعٌ برودُها
قد أَسْبَغَ اللَّهُ لنا بِعَدْلِهِ — ظلالَ أمنٍ وارفٌ مَدِيدُها
غدا ملوكُ الرُّومِ في دَوْلَتِهِ — وَهُمْ على رَغْمِهِمُ عَبيدُها
لما أَبَتْ هاماتُهم سجودَها — لله أضحى للظُّبَى سُجُودُها
إنْ فارَقَتْ سيوفُهُ غُمودَها — فإنَّ هاماتِهِمُ غُمُودُها
كم مُغْلَقاتٍ من حُصُونٍ عَزْمُه — مِفْتاحُها وسَيْفُهُ إقليدُها
قد وَدَّتِ الفرنجُ لو فرَّتْ نَجَتْ — منك ولكنْ رَوْعُها مبيدُها
قَهَرْتَها حتى لودَّ حيُّها — من ذِلَّةٍ لو أنَّه فقيدُها
أماتَها رُعْبُكَ في حُصُونِها — كأنَّما حُصُونُها لُحُودُها
وإنَّ مِصْراً لك تَعْنُو بعدَما — لسيفِكَ العَضْبِ عَنَا صَعِيدُها

والمِلَّةُ الغَرَّاءُ خالٍ بالُها عالٍ سَناها بكَ حالٍ جِيدُها
مُفْتَرَّةٌ ثغورُها ممنوعةٌ ثُغورُها محفوظةٌ حدودُها
وإنْ بغى جالوتُها ضلالةً فأنتَ في إهلاكِهِ داودُها
يا ابنَ قسيمِ الدولة المَلْك الذي خرَّتْ له مِنَ المُلُوكِ صِيدُها
دَعِ العِدَى بغيظِها فإنَّما تذيبُ أكبادَ العِدَى حُقُودُها
يا دولةً نوريةً أَمْنُ الورى وخِصْبُها وَجودُها وُجودُها
ما مَثَلُ الدُّنيا لمن يَجمعُها بالحِرْصِ إلا قَزَّةٌ ودُودُها
أنتَ الذي تَرْفُضُها عن قُدْرَةٍ فلا يشوبُ زُهْدَه زهيدُها
فابقَ لنا يا ملكاً بقاؤه في كلِّ عامٍ للرَّعايا عِيدُها
في نعمةٍ جديدةٍ سُعُودُها ودولةٍ سعيدةٍ جُدُودُها

وهي طويلة. فرتَّبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين.

قال: ووجدتُ على الأيام منه الإعزاز والتمكين.

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[1] من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته. كذا ذكر العماد في «الخريدة».

وقال: تولى ديوان الإنشاء بالشَّام سنين كثيرة، وله مقاصد حَسَنة في الكتب، وهو حميد السيرة، جميل السَّريرة.

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السَّمْعاني المَرْوَزِي[2] رحمه الله تعالى.

---

(١) أبو اليسر شاكر بن عبد الله: هو من بيت أبي العلاء المعري، الشاعر الفيلسوف المشهور، ولد في شيزر سنة ٤٩٦هـ. وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، وتوفي بدمشق سنة ٥٨١هـ، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٥ ـ ٣٧)، معجم الأدباء ٣/ ١١٦، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٤٥، الوافي بالوفيات ١٦/ ٨٥ ـ ٨٧، فوات الوفيات ٢/ ٩٦).

(٢) هو عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تاج الإسلام، الحافظ أبو سعد، المروزي الشافعي، ولد سنة ٥٠٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ. من تصانيفه: «الأخطار في ركوب البحار»، «أدب الطلب»، «الأدب في استعمال الحسب»، «الإسفار عن الأسفار»، «الارتياب عن كتابة الكتاب»، «أفانين البساتين»، «أمالي الخمسمائة»، «الإملاء والاستملاء» «الأنساب»، «بغية المشتاق إلى ساكني العراق»، «تاريخ مرو»، «التحايا والهدايا»، «التحبير في المعجم الكبير»، «التحف والهدايا»، «تحفة العيدين»، «تحفة المسافر»، «تاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة»، «التذكرة والتبصرة»، «تقديم الخفان إلى الضيفان»، «حث الإمام على تخفيف الصلاة مع الإتمام»، «الحث على =

[قضاء نور الدين الشتاء في قلعة حلب]

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أنَّ نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حَماة، ثم شتَّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصَّلاح. ونزل العماد بمدرسة ابن العَجَمي، وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد عَثَرَ فرسه في المَيْدَان وهو يلعب بالكُرَة[1] مع نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

لا تُنْكِرَنَّ لِسابِحٍ عَثَرَتْ بِهِ ... قَدَمٌ وقد حَمَلَ الخِضَمَّ الزَّاخِرا
ألقى على السُّلْطانِ طِرْفُكَ طَرْفَهُ ... فهوى هنالك للسَّلام مُبَادِرا[2]
سَبَقَ الرِّياحَ بجريه وكَفَفْتَهُ ... عنها فليسَ على خِلافِك قادِرا
ضَعُفَتْ قواه إذ تذكَّرَ أنه ... في السَّرْج منك يُقِلُّ ليثاً خادِرا
ومتى تُطيق الرِّيحُ طوداً شامخاً ... أو يستطيعُ البَرْقُ جَوْناً ماطِرا
فاعذرْ سقوطَ البَرْقِ عند مَسِيره ... فالبَرْقُ يَسْقُطُ حينَ يَخْطَفُ سائرا
وأَقِلْ جوادَكَ عَثْرَةً نَدَرَتْ له ... إن الجوادَ لَمَن يُقيلُ العاثِرا
وتوقَّ من عينِ الحسودِ وشَرِّها ... لا كان ناظِرُها بسوءٍ ناظرا
واسلَمْ لنورِ الدين سُلْطانِ الورى ... في الحادثات مُعَاضِداً ومؤازِرا
وإذا صلاحُ الدين دامَ لأهله ... لم يحذروا للدَّهرِ صَرْفاً ضائرا

= غسل اليد»، «دخول الحمام»، «الدعوات الكبيرة»، «الدعوات المروية عن الحضرة النبوية»، «ذكرى حبيب يرحل وبشرى منيب ينزل»، «ذيل تاريخ بغداد للخطيب»، «الربح والخسارة في الكسب والتجارة»، «رسائل الوسائل»، «رفع الارتياب عن كتابة الكتاب»، «سلوة الأحباب ورحمة الأصحاب»، «السد والعد لمن اكتنى بأبي سعد»، «الصدق في الصداقة»، «طراز الذهب في أدب الطلب»، «عز العزلة»، «فرط الغرام إلى ساكني الشام»، «فضل الديك»، «فضل صلاة التسابيح»، «فوائد الموائد»، «فضائل سورة يس»، «فضائل الشام»، «كتاب الحلاوة»، «كتاب التحبير في المعجم الكبير»، «كتاب في صوم أيام البيض»، «كتاب المساواة والمصافحة»، «المجير الكبير»، «معجم البلدان»، «معجم الشيوخ»، «مقام العلماء بين يدي الأمراء»، «مناسك الحج»، «النزوع إلى الأوطان»، «الهريسة» (كشف الظنون ٥/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥٦ ـ ٤٦٥).

(١) الكرة: هي لعبة، وهي عبارة عن كرة تضرب بالجوكان، وهو المحجن، عصا معوجة كالصولجان. انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠.

(٢) الطِّرْف من الخيل: (بكسر الطاء المشددة وسكون الراء): العتيق الكريم.

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون[1] مكاتبات، كتب إليه العماد: [المتقارب]

أيا شَرَفَ الدِّين إن الشتا ... بكفاياتِهِ كفَّ آفاتِهِ
وكفُّك من كَرَمٍ كافُها ... لقد كُفِلَتْ لي بكفاياتِهِ
وإنك مِنْ عُرْفِهِ شكرُنا ... غدا عاجزاً عن مكافاتِه[2]

قال: فكتب إليَّ شرف الدين في جوابها: [المتقارب]

إذا ما الشتاءُ وأمطارُه ... عن الخيرِ حابسةٌ رادِعَهْ
فكافاتُهُ الستُّ أُعْطِيتَها ... وحوشيتَ من كافه الرَّابِعَهْ
وكفُّ المهابة والاحتشام ... لكفِّيَ عن بِرِّه مانِعَهْ
وَهِمَّةُ كُلِّ كريم النِّجار ... بميسورِ أحبابه قانِعَهْ
ونفسيَ في بسط عُذْري إليه ... جُعِلْتُ الفِدَاءَ له طامِعَهْ
وشوقي إلى قُرْبه زائدٌ ... ومَعْذرتي إن جفا واسِعَهْ[3]

قال: فكتبتُ إليه في جوابها: [المتقارب]

أيا من له هِمَّةٌ في العُلا ... لِذُرْوتها أبداً فارِعَهْ
ومَنْ كَفُّهُ دِيمةٌ ما تزا ... لُ بالعُرْفِ هاميةٌ هامِعَهْ
وللفَضْل في سوق أفضاله ... بضائعُ نافِقَةٌ نافِعَهْ
وهل كابنِ عَصْرونَ في عَصْرِنا ... إمامٌ أدِلَّتُهُ قاطِعَهْ
فَحَبْرٌ فوائِدُه جَمَّةٌ ... وبحرٌ مواردُه واسِعَهْ
أيا شَرَفَ الدِّينِ شَرَّفْتَني ... بإهداءِ رائقةٍ رائِعَهْ
أطَعْتُ أوامرَكَ السَّاميات ... وما بَرِحَتْ هِمَّتي طائِعَهْ

---

(١) هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، نزيل دمشق، ولد سنة ٤٩٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥هـ، من تصانيفه: «إرشاد المغرب في نصرة المذهب»، «الانتصار لمذهب الشافعي»، «التنبيه في معرفة الأحكام»، «تيسير في الخلاف»، «الذريعة إلى معرفة الشريعة»، «رسالة في نفي قضاء الأعمى وجوازه»، «صفوة المذهب من نهاية المطلب لإمام الحرمين»، «فتاوى»، «فوائد المهذب»، «مأخذ النظر» مختصر في الفرائض، «مرشد في الفروع»، «مسلسلات» في الحديث، «الموافق والمخالف»، (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٢) العرف: الكرم والجود.

(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٥٣.

أرى كلَّ جارحةٍ لي تودُّ (م) لو أنَّها أُذُنٌ سامِعَهْ
وأما الشُّتاءُ وكافاتُهُ وكفُّكَ عن كافه الرَّابِعَهْ
فنفسي مُنَزَّهَةٌ بالعفا فِ عنها وفي غيرِها طامِعَهْ
وماذا تُطيقُ إذا لم تكن بميسورِ سيدِنا قانِعَهْ

وهي أكثر من هذا.

[توجه نور الدين إلى منبج لتهذيب أحوالها]

قال: وكان ابن حَسَّان[1] صاحب مَنْبِج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين مَنْ حاصره وانتزعها منه، ثم توجَّه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها: [الكامل]

بُشْرَى الممالك فَتْحُ قَلْعَةِ مَنبج فلْيَهْنِ هذا النَّصْرُ كلَّ متوَّجِ
أُعطيتَ هذا الفَتْحَ مِفْتاحاً به في الملك يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُرْتَجِ
وافى يُبَشِّرُ بالفُتُوحِ وراءه فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشِرْ فبيتُ القُدْسِ يتلو مَنْبِجاً ولَمَنْبِجٌ لسواه كالأُنموذَجِ
ما أعجزَتْكَ الشُّهْبُ في أبراجِها طلباً فكيف خوارِجٌ في أَبْرُجِ
ولَقَدْرُ مَنْ يعصيك أحقر أن يَرَى أثَرَ العُبُوسِ بوجهِكَ المُتَبَلِّجِ
لكن تهذِّبُ مَنْ عَصَاكَ سياسةً في ضِمْنِها تقويمُ كلِّ مُعَوَّجِ
فانْهَدْ إلى البيتِ المُقَدَّس غازياً وعلى طَرَابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ
قد سِرْتَ في الإِسلام أَحْسَنَ سِيرَةٍ مأثورةٍ وسَلَكْتَ أَوْضَحَ مَنْهَجِ
وجميع ما استقريتَ من سُنَنِ الهُدَى جَدَّدتَ منه كلَّ رسمٍ مُنْهَجِ[2]

[سير نور الدين من منبج إلى قلعة نجم على الفرات]

قال العماد: وسار نور الدين من مَنْبِج إلى قلعة نجم[3]، وعَبَرَ الفُرَات إلى الرُّها، وكان بها يَنَال صاحب مَنْبِج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج، فنقله إليها مُقْطعاً ووالياً. وأقام نور الدين بقلعة الرُّها مُدَّة، فمدحه العماد

---

(١) ابن حسان: هو الأمير غازي بن حسان المنجبي صاحب منبج، ذكره المؤلف قبل قليل.
(٢) المُنْهَج: أي الخلق والبالي.
(٣) قلعة نَجم: قلعة حصينة. بين منبج وحران، عندها جسر يعبر عليه، وهي المعروفة بجسر منبج (معجم البلدان ٤/ ٣٩١).

بقصيدة، وتحجَّب له صلاح الدين في عَرْضها، وهي: [الكامل]

أدْرَكْتَ من أمر الزَّمان المُشْتَهى ... وبَلَغْتَ من نَيْلِ الأماني المُنْتَهى
وبقِيتَ في كَنَفِ السَّلامةِ آمِناً ... متكرِّماً بالطَّبْعِ لا متكرِّها
لا زِلْتَ نورَ الدين في فَلَكِ الهُدَى ... ذا غُرَّةٍ للعالمينَ بها البَهَا
يا محييَ العَدْلِ الذي في ظِلِّه ... مِن عَدْله رَعَتِ الأسودُ مع المَهَا
محمودٌ المحمودُ مَنْ أيامُه ... لبهائها ضَحِكَ الزَّمانُ وقَهْقَها
مَولى الورى مُولي النَّدَى مُغلي الهُدَى ... مُرْدي العِدَى مُسْدي الجَدَا مُعْطي اللُّها[1]
آراؤه بصوابِها مَقْرونةٌ ... وبمقتضاها دائرٌ فَلَكُ النُّهَى[2]
متلبِّسٌ بحصافةٍ وحَصَانةٍ ... متقدِّسٌ عن شَوْبِ مكرٍ أو دَهَا
يا مَنْ أطاعَ اللَّهَ في خَلَواته ... متأوِّباً مِنْ خَوْفِهِ مُتَأوِّهَا
أبداً تقدِّمُ في المعاشِ لوجهه ... عملاً يُبَيِّضُ في المَعَادِ الأوْجُها
كلُّ الأمور وَهَى وأمرُكَ مُبْرَمٌ ... مُسْتَحْكِمٌ لا نَقْضَ فيه ولا وها
ما صينَ عنك الصِّينُ لَوْ حاولتها ... والمشرقانِ فكيفَ مَنْبِجُ والرُّها
ما للملوكِ لدى ظهورِكِ رَوْنَقٌ ... وإذا بَدَتْ شَمْسُ الضُّحى خفِيَ السُّها[3]
إنَّ الملوكَ لَهَوْا وإنك مَنْ غدا ... وبماله والمُلْكِ منه ما لَهَا
شَرِهَتْ نفوسُهُمُ إلى دنياهمُ ... وأبى لِنَفْسِك زُهْدُها أن تَشْرَها
ما نمتَ عن خَيْرٍ ولم يكُ نائماً ... مَنْ لا يزالُ على الجميل مُنَبِّها
أَخْمَلْتَ ذِكْرَ الجاهلينَ ولم تَزَلْ ... مَلِكاً بذِكْرِ العالمين مُنَوِّها
ورأيتَ إرعاءَ الرَّعايا واجباً ... تُغني فقيراً أو تجيرُ مُدَلَّها
لرضاهمُ متحفِّظاً ولحالهمْ ... مُتَفَقِّداً ولِدينِهِمْ مُتَفَقِّها
وبما به أَمَرَ الإلٰهُ أَمَرْتَهُمْ ... من طاعةٍ ونَهَيْتَهُم عَمَّا نَهَى
عن رحمةٍ لصغيرهم لم تَشْتَغِلْ ... عن رَأْفَةٍ لكبيرهم لن تُشْدَها[4]
باليأس عندك آمِلٌ لم يُمتحن ... بالرَّدِّ دونَكَ سائِلٌ لن يُجْبَهَا[5]

---

(١) الجدا واللُّها: كلاهما بمعنى العطية.

(٢) النُّهى: العقل.

(٣) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم.

(٤) لن تشده: يقال: شَدَه فلاناً شدْهاً: أي أدهشه، وانشده: تحيّر، ويقصد بلن تشده: أي لن تشغل وتتحيّر.

(٥) لن يُجْبَها: أي لن ترد حاجته، وتستقبله بما يكره.

أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ كي تنالَ رفاهةً ... مَنْ ليسَ يتعبُ لا يعيش مرفَّها
فُقْتَ الملوكَ سماحةً وحماسةً ... حتى عَدِمْنا فيهمُ لكَ مُشْبِها
ولك الفَخَارُ على الجميع فدونَهُمْ ... أصبحتَ عن كلِّ العيوبِ مُنَزَّها
وأراكَ تحلُمُ حينَ تُضبِحُ ساخِطاً ... ويكادُ غيرُك ساخِطاً أن يَسْفَها

قلت: رحم الله العماد، فقد نظم أوصافَ نور الدين الجليلة بأحسن لفظٍ وأرقِّه، وهذا البيت الأخير مُؤكِّدٌ لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى، إنه لم يُستمع[1] منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضجره، وقلَّ من الملوك من له حظٌّ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة.

[عودة نور الدين إلى حلب]

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضُرِبَتْ خيمتُه في رأس المَيْدَان الأخضر.

قال: وكان مولعاً بضرب الكُرة، وربما دَخَلَ الظَّلامُ فلعب بها بالشُّموع في الليلة المُسْفرة، ويركب صلاح الدين مذكراً[2] كل بُكْرة، وهو عارفٌ بآدابها في الخدمة، وشروطها المعتَبرة. وأقطعه في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب، والأُخرى من ضياع كفر طاب.

قال: وكتبتُ إليه في طلب كَنْبُوش[3]: [الخفيف]

أَصْبَحَتْ بغلتي تشكَّى من العُرْ ... ي وأَسْرَاجُها بلا كَنْبُوشِ
قلتُ: كُفِّي فَخَيْرُ يومَيْكِ عندي ... أنْ تفوزي بالتِّبْنِ أو بالحشيش
وافرحي ليلة الشَّعيرِ كما يَفْـ ... ـرَحُ قَوْمٌ بليلةِ الماشوشِ[4]

---

(١) لم يستمع: كذا في الأصل، ولعلها: لم تُسْمع منه كلمة فحش.

(٢) المُذَكَّر من الخيل: الشديد القوي.

(٣) الكنبوش: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٢/ ١٤٤: الكنبوش وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكَفَلُه، وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من المخايش، وهي الفضة الملبّسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم.
وقال محمد قنديل البقلي في «مصطلحات صبح الأعشى» ص٢٨٩: الكنبوش هي البردعة تجعل تحت سرج الفرس، والكنبوش، بفتح الكاف، اللثام الذي يستعمله أهل المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم اتقاءً لبرودة هواء الصبح ورطوبته.

(٤) ليلة الماشوش: هي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحداً عن شيء.

لـو تـبـصَّـرْتِ حـالـتـي لَـتَـصَـبَّـرْ تِ فـإيـاكِ عِـنْـدَهـا أن تَـطِـيـشـي
أوَ مـا مـات فـي الـشِّـتـاءِ مـن الـبَـرْ دِ مـن فَـرْطِ جُـوعـه إكـديـشـي [١]
فـثـقـي واسْـكُـنـي بـجـودِ صـلاح الـدِّ (م) يـنِ غَـرْسِ الـمـلـوكِ مَـلْـكِ الـجـيـوشِ
فَـهْـو يـجـلـوكِ لـلـعـيـونِ بِـكَـتْـبُـو شٍ جـديـدٍ مُـسْـتَـحْـسَـنٍ مَـنْـقُـوشِ
كـم عـدوٍّ مـن بـأسـه فـي عِـثـارٍ وولـيٍّ بـجـودِهِ مَـنْـعُـوشِ
والـمـوالـي عـلـى الأَسِـرَّةِ والأعـ ـداءُ تـحـتَ الـهـوانِ فَـوْقَ الـنُّـعـوشِ

[ولاية أسد الدين لحمص]

قال: وأقطع أسدَ الدين حمص وأعمالها، فسار إليها، فسدَّ ثغورها، وضبطَ أمورها، وحمى جُمهورَها. وكان نور الدين قد جَدَّد سُورها وحَصَّن دُورها، وبلي الفرنجُ منه بالمغاور المراوغ، ذي البأس الدامغ. وسأله نور الدين في السُّلُوِّ عن حُبِّ مصر، وقال: قد تعبتَ مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤالَ بالشفاعة، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة.

قلت: وأنشد العمادُ أسدَ الدين في رجب من هذه السنة: [الخفيف]

دُمْـتَ فـي الـمُـلْـكِ آمـراً ذا نـفـاذِ أسـدَ الـديـن شِـيـركُـوه بـنَ شـاذي
يـا كـريـمـاً عـن كـلِّ شَـرٍّ بـطـيـئـاً وإلـى الـخـيـرِ دائـمُ الإغـذاذِ
إن كـهـف الإسـلام أنـت فـلا زلـ ـتَ لأهـلِ الإسـلام خَـيْـرَ مـلاذِ
وبـقـلـب الـكـفـار رُعْـبُـكَ قـد حَـلَّ (م) بـصَـدْعِ الأكـبـادِ والأفـلاذِ
لـم تَـدَعْ بـالـظُّـبـى رؤوسـاً وأصـنـا مـاً مـن الـمـشـركـيـن غَـيْـرَ جُـذَاذِ
أنـتَ مَـنْ نـازل الـدَّعـيَّـنَ فـي مِـصْـ رَ لـنـصـر الإمـامِ فـي بَـغْـداذِ
وبـلادُ الإسـلام أنـقـذْتَـهـا أنـ ـتَ مـن الـشِّـرْكِ أيـمـا إنـقـاذِ

---

(١) إكديش: أصلها أكدش، بفتح الهمزة وكسرها، فارسية الأصل، ثم دخلت التركية بصيغة: أيكيدش ومعناها في التركية الفرس الهجين (تأصيل الدخيل).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ١٧: من أصناف الخيل: العجميات، وهي البراذين ويقال لها: الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش وتجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالب ما توجد مشقوقه المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي.

فصل

في وفاة زين الدِّين

قال ابن الأثير[1] وغيره: في سنة ثلاثٍ وستين سار زين الدين علي بنُ بُكْتِكِين[2]، نائب أتابك قطب الدين، عن المَوْصل إلى إرْبِل، وسَلَّم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى قُطْب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زَنْكي رحمه الله تعالى. فمن ذلك سِنْجار وحرَّان وقلعة عَقْر الحُمَيدية، وقلاع الهكَّارية جميعها. وكان نائبه بِتَكْريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلِّمها، فقال: إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت، ولا بُدَّ له من نائبٍ فيها، وأنا أكون ذلك النائب، فليس له مثلي، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد. وأما شَهْرُزُوْر فكان بها الأمير بُوزان، فقال مثله أيضاً، فأُقِرَّت بيده، فكانا في طاعة قطب الدين.

وسببُ فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم، وأقام بإربِل إلى أن توفي بها في ذي الحِجَّة من هذه السنة[3]، وكان قد استولى عليه الهَرَمُ وضَعُفَت قوته.

وكان خيِّراً عادلاً حسن السيرة، جواداً، محافظاً على حُسْن العهد وأداءِ الأمانة، قليلَ الغدر بل عديمه. وكان إذا وعد بشيء لا بُدَّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً. وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدلُّ على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدُلُّ على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء. بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذَنَبِ فَرَسٍ ذكر أنه نَفَقَ له، فأمر له بفرس، فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيرُه من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة، فأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً. فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تَستحيُون مني كما أستحيي منكم؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم، أتظنون أنني لا أعرفه؟ بلى والله، وإنما أردتُ أن يصلكم عطائي بغير مَنٍّ ولا تكدير، فلم تتركوني[4]! [الكامل]

لَيْسَ الغَبيُّ بِسَيِّدٍ في قَوْمِهِ ... لكنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلِّف

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨.
(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١٢١.
(٣) في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤، أنه توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة.
(٤) البيت لأبي تمام في ديوانه ١/ ٨٧.

شيئاً بل أنفذه جميعه في العطايا والإنعام على النَّاس، وكان يلبس الغليظ، ويشدُّ على وسطه كلّ ما يحتاج إليه من سكّين ودِرَفش[١] ومطرقة ومسلَّة وخيوط ودسترك[٢] وغير ذلك. وكان أشجعَ النَّاس، ميمون النقيبة، لم تنهزم له راية. وكان يقوم المقام الخطير فَيَسْلَمُ منه بحسن نيته، وكان تركياً أسمر اللَّون، خفيف العارضين، قصيراً جداً. وبنى مدارس وربُطاً بالمَوْصِل وغيرها. وبلغني أنَّه مدحه الحَيْص بَيْص[٣]، فلمَّا أراد الإنشاد قال له: أنا لا أدري ما تقول، لكنْ أعلم أنّك تريد شيئاً. وأمر له بخمسمائة دينار، وأعطاه فرساً وخِلَعاً وثياباً، يكون مجموع ذلك ألف دينار. قال: ومكارمه كثيرة[٤].

ولما توفي بإرْبِل كان الحاكم بها خادِمَهُ مجاهد الدِّين قايماز[٥]، وهو المتولِّي لأمورها[٦]. وولي بعد زين الدين ولدُه مظفَّر كُوكُبُوري مُدَّة، ثم فارقها لخُلْفٍ كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجَرَتْ أمورٌ يطول ذكرها[٧].

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخرَ الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذمُّوه ولم تَطُلْ أيّامُه[٨]، وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ستٍّ وستين إن شاء الله تعالى.

---

(١) درفش: هو سيخ مدبب من الحديد، في أسفله يد خشبية، يستعمل لثقب الجلد لإدخال الإبرة حين حياكة الأحذية، وهي كلمة فارسية (انظر معجم الفارسية ص٢٤٢).

(٢) الدستر: كلمة فارسية بمعنى منشار، والكاف للتصغير. دسترك: أي منشار صغير (انظر معجم الفارسية ص٢٥٠).

(٣) حيص بيص: هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص، وإنما سمي بحيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومعنى حيص بيص: الشدة والاختلاط. وهو شاعر مشهور من أهل بغداد نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة ٥٧٤هـ، له ديوان شعره، ورسائل في مسائل الخلاف (انظر: كشف الظنون ٥/ ٣٨٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٩٧، خريدة القصر، قسم شعراء العراق ٢/ ٢٠٢ ـ ٣٦٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥).

(٤) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨.

(٥) توفي سنة ٥٩٤هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٢٥١.

(٦) ولي أمورها سنة ٥٥٩هـ، انظر وفيات الأعيان ٤/ ٨٢.

(٧) انظر الخبر في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٨) قال ابن الأثير في «الكامل» ١٠/ ٨: لما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح، وحكمه في البلاد، فعمر القلعة، وكانت خراباً، لأن زين الدين =

[تملك نور الدين قلعة جعبر
وتولية شمس الدين علي ابن الداية عليها]
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جَعْبر، وأخذَها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقَيلي من آل عُقَيْل من بني المسيَّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السُّلطان مَلِكْشاه، وقد تقدَّم ذكر ذلك. وهي من أمنع الحصون وأحسنها، مطلَّة على الفرات لا يُطْمَعُ فيها بحصار؛ وقد أعجز جماعةً من الملوك أخذُها منه، وقُتِلَ عليها عماد الدين زَنْكي والد نور الدين.

ثم اتَّفق أن خرج صاحبها منها يوماً يتصيَّدُ، فصاده بنو كلب، فأخذوه أسيراً وأوثقُوه، وحملوه إلى نور الدين، فتقَرَّبُوا به إليه، وذلك في رجب مِنْ سنة ثلاث وستِّين، فحبسه بحلب وأحسن إليه، ورغَّبه في الإقطاع والمال ليسلِّم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به نور الدين إلى الشِّدَّة والعنف وتهدَّده، فلم يفعل أيضاً، فسيَّر إليها عسكراً مقدَّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزَّعفراني[1]، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدَّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدَّاية ـ وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله ـ فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذِّراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللِّين، وأشار عليه بأخذ العِوَض من نور الدين، ولم يزل يتوسَّط معه حتى أذعن على أن يُعطى سَرُوج وأعمالها والملاحة[2] التي في عمل حلب، والباب وبزاعة[3] وعشرين ألف دينار معجَّلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرهاً في صورة مختار. قال ابن الأثير: وهذا إقطاعٌ عظيم جداً لكنه لا حظ فيه[4].

= كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرةً سديدةً، وسياسة عظيمة، وهو خصي أبيض، من مماليك زنكي أتابك عماد الدين.

(١) في «الكامل» ١٠/ ١١: الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني. وكان مسعود من كبار أمراء نور الدين، قدمه في آخر حياته على العساكر، وأقطعه الرها وحماة وكفرطاب وحمص وسلمية وبعرين.

(٢) الملاحة: كذا في الأصل، وفي معجم البلدان ٥/ ١٩٥: الملوحة، وهي قرية كبيرة من قرى حلب.

(٣) والباب وبزاعة: كذا في الأصل، وفي «الكامل»: وباب بزاعة، وهو الصحيح، وباب بزاعة: بلدتان، الأولى تقع في طرف وادي بطنان من أعمال حلب، وتعرف بباب بزاعة، والثانية تقع في وادي بطنان بين منبج وحلب (معجم البلدان ١/ ٣٠٣، ٤٠٩).

(٤) لفظ ابن الأثير في «الكامل»: وهذا إقطاع عظيم جداً، إلا أنه لا حصن فيه.

وتسلَّم مجد الدين قلعة جعبر، وصَعِدَ إليها منتصف المحرَّم، ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها، وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلَّمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الدَّاية، فولاها أخاه شمس الدين علياً. وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر جد، ولكل ولاية نهاية، يُؤْتي الله المُلْكَ من يشاء، وينزِعُهُ ممن يشاء.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيُّما أحبُّ إليك وأحسن مقاماً، أَسَرُوج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[1].

قال العماد: وأنشدتُ نور الدين بقلعة جَعْبر قصيدةً، أولها: [المنسرح]

اسلَمْ لبكْرِ الفُتُوحِ مُفْتَرِعاً ... ودُمْ لمُلْك البلادِ مُنْتَزِعا

فإنَّ أَوْلَى الورى بها مَلِكٌ ... غدا بعبء الخُطُوبِ مُضْطَلِعا

إنْ ضاقَ أمرٌ فغيرُ هِمَّتهِ ... لِكَشْفِ ضيقِ الأمورِ لن يَسَعا

يا محيي العَدْلِ بعد مِيتَتِهِ ... ورافعَ الحقِّ بعدما اتضعا

ونورَ دينِ الهُدَى الذي قَمَعَ الشِّـ (م) ـركَ، وعفَّى الضَّلال والبِدَعا

أنتَ سليمانُ في العَفَافِ وفي الْـ ... ـمُلكِ وتحكي بِزُهْدِكَ الْيَسَعا

حُزْتَ التُّقى والحياء والكرم الـ ... ـمَحْضَ وحُسْنَ اليقينِ والوَرَعا

أسْقَطْتَ أقساطَ ما وَجَدْتَ من الـ ... ـمَكْسِ بعدلٍ والقاسِطُ ارتدعا[2]

ولم تَدَعْ في ابتغاء مصلحة الدِّ (م) ـين لنا باقياً ولَنْ تَدعا

وكلُّ ما في الملوك مُفْتَرِقٌ ... من المعالي لمُلكك اجْتَمعا

هِمَّتُكَ الرُّبْط والمدارس تبْـ ... ـنيها ثواباً وتَهْدِمُ الْبِيَعا

ما زلت ذا فِطْنَةٍ مُؤَيَّدة ... على غُيُوبِ الأسرار مُطَّلِعا

ببأسك البِيض والطُّلى اصْطَحَبَتْ ... بِعَدْلك الذئبُ والطَّلا رتَعَا[3]

كم صائدٍ لم يقع له قَنَصٌ ... في شَرَكٍ وهْو فيه قد وقَعَا

ومالكٌ حين رُمْتَ قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا

---

(١) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١١، ولفظ الكامل: بلغني أنه قيل لصاحبها: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العز ففارقناه بالقلعة.

(٢) القاسط: الجائر والظالم، والمقسط هو العادل.

(٣) البيض: جمع أبيض، وهو السيف، والطُّلى، بضم الطاء: الأعناق، مفردها: الطلاة، والطَّلا، بفتح الطاء: ولد الظبية.

عـنـا خُشـوعـاً لـربِّ مـمـلـكـةٍ لـغـيـر رَبِّ الـسَّـمـاءِ مـا خَـشَـعَـا
كـان مـقـيـمـاً مـنـهـا عـلـى الـفَـلَـكِ الْـ أعـلـى شِـهـابـاً بـنـوره سَـطَـعَـا
لـكـنَّـمـا الـشُّـهُـبُ مـا تـنـيـرُ إذا لاحَ عـمـودُ الـصَّـبـاح فـانْـصَـدَعـا
يَـذْفَـعُـهـا طـائـعـاً إلـيـك وكـم عـنـهـا إبـاءً بـجَـهْـدِهِ دَفَـعَـا
هـي الـتـي فـي عُـلُـوِّهـا زُحَـلٌ كَـرَّ عـلـى وِرْدهـا ومـا كَـرَعَـا
وهـي الـتـي قـاربـت عُـطَـارِدَ فـي الْـ أُفْـقِ فَـلاحـاً والـفَـرْقَـدَيْـنِ مـعـا
كـأنَّ مـنـهـا الـسُّـهـا إذا اسـتـرق الـسَّـ (م) ـمـعَ أتـاهـا فـي خُـفْـيَـةٍ ودعـا[1]
هـضـبـةُ عـزٍّ لـولاك مـا ارتُـقـيـت وطَـوْدُ مُـلْـكٍ لـولاك مـا قُـرِعـا
مـا قَـبِـلَـتْ فـي ارتـقـاء ذُروتـهـا مـن مَـلِـكٍ لا رُقَّـى ولا خُـدَعَـا
عَـزَّتْ عـلـى الـمـالـك الـشَّـهـيـدِ وأعْـ ـطـتـك قِـيـاداً مـا زال مُـمْـتَـنـعـا
لـلأبِ لـو حَـلَّ خَـطْـبُـهـا لـغـدا مـحـرَّمـاً لابـنـه ومـا شُـرِعَـا
لا زلـت مـحـمـودُ فـي أمـورك مـحـ ـموداً بـثـوب الإقـبـال مُـدَّرِعـا

[وفاة بهاء الدين عمر]

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين ابن الدَّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة: [الكامل]

أنـتـمْ لـمـحـمـودٍ كـآلِ مـحـمـدٍ مـتـصـادفـي الأفـعـال والأسـمـاءِ[2]
يـتـلـو أبـا بـكـر عَـلَـى حـسـنـاتـه عـمـرُ الـمـمـدَّحُ فـي سـنـاً وسـنـاءِ
ويـلـيـه عـثـمـانُ الـمـرجَّـى لـلـعُـلا وعـلـيٌّ الـمـأمـولُ فـي الـلأواءِ
ويـقـبِّلُ الـحـسـنَ الـمـمـجَّـدَ مـجـدُهُـم فـهـمُ ذُوو الإحـسـانِ والـنَّـعْـمـاءِ
فَـرَعَـتْ لـمـجـد الـديـن إخـوتُـهُ الـذُّرى دونَ الـورى فـي الـمـجـدِ والـعـلـيـاءِ
مـن سـابـق كـرمـاً وشـمـس سـاده شـرفـاً وبـدر دُجُـنَّـةٍ وبـهـاءِ
سُرُجُ الهدى سُحُب النَّدى شُهُب النُّهى أسْـدُ الـحـروبِ ضـراغِـمُ الـهـيـجـاءِ

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين عليّاً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة، رحمهم الله تعالى.

---

(١) السها: كويكب صغير خفي الضوء في نبات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم.
(٢) متصادفي: صادفه: قابله، ووافقه.

فـصـل

[مسير أسد الدين لمصر للمرة الثالثة وفتحه لها]

وفي هذه السنة فُتحت الديار المصرية؛ سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدوَّ، وقتل شاوراً، وولِيَ الوزارة مكانه، ثم مات، فوليها صلاح الدين[١].

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأُولَيَيْن اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شِيركُوه قد خَبَروا الدِّيار المصرية، واطَّلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقرَّ بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد. فجمعوا وحشدوا، وقالوا: ما بمصر من يصدُّنا، وإذا أردناها فمن يردُّنا؟! ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفُراتية، وعسكر الشام متفرِّق كل منهم في بلده، حافظ لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر، ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها مَعْقِل، ولا لأهلها منَّا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشَّام، نكون قد حصلنا على المَرَام، وقوينا بتملك الدِّيار المِصْرية على سائر بلاد الإسلام. فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصر جماعةٌ من أهلها كابن الخياط وابن قَرْجَلَّة[٢]، وغيرهما من أعداء شاور.

وكان الفرنج قد جعلوا لهم شِحْنة بمصر والقاهرة، وسكن فرسانهم أبواب البلدين، والمفاتيح معهم، على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كثيراً، فطمعوا في البلاد، وأرسلوا إلى ملكهم مُرِّي ـ ولم يكن مَلَكَ الفرنج مُذْ خرجوا إلى الشَّام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً ـ يستدعونه ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهَّلوا أمرها عليه، فلم يجبهم إلى المسير. واجتمع فرسان الفرنج وذوُو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألَّا نقصدها فإنها طُعْمة لنا، وأموالها تُساقُ إلينا، نتقوَّى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنَّ صاحبها وعساكره، وعامة أهل بلاده وفلاحيه، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوفُ منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشَّام. فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا حافظ لها ولا مانع، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهِّزَ العساكر ويسيِّرَهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١١ ـ ١٨.

(٢) في «الكامل» ١٠/ ١٢: ابن فرجلة، وهو تصحيف.

وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السَّلامة فلا يقدر عليها. وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهَّزوا، وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عَسْقلان في النصف من المحرَّم، ووصلوا أول يوم من صَفَر إلى بِلْبيس ونازلوها، وحَصَروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبَوْا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحَصَرُوها عاشر صفر، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بِلْبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جُهدهم في حفظه. ولو أنَّ الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بِلْبيس لملكوا مصر والقاهرة سُرعةً، ولكن الله تعالى حَسَّن لهم ذلك: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً عليها من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البَوَار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحُّل الحيل، وأرسل إلى ملك الإفرنج يذكر له مودَّته ومحبَّته القديمة، وأنَّ هواه معه، وتخوُّفَه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير عليه بالصُّلْح وأَخْذِ مالٍ لئلا تسلَّم البلاد إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، واستقرَّت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سُلِّمت إلى نور الدين، فأجابوا كاهرين، وقالوا: نأخذ المال نتقوَّى به، ونكثر من الرجال، ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: ٥٤]. فعجَّل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرَّحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنْقِذَهُنَّ من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ولما صالح شاوَر الفرنجَ على ذلك المال عاود العاضدُ مراسلةَ نور الدين وإعلامَهُ بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شِيركُوه مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين. هذا قول ابنِ الأثير[1].

---

(١) قال ابن الأثير في «الكامل» ١٠/١٣: وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أن أهل مصر كانوا قد احترقت =

وقال العماد: عجَّل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخِداعاً، وإرغاماً[١] له وإطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكُفرِ مخبراً، ويقول: إن لم تبادر ذهبت البلاد. وسيَّر الكتب مسوَّدة بمِدادها، كاسية لباس حِدَادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، ظُنَّ أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عَرَاهم من بليَّة الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجَّابين سِرَاعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيِّراً، وعامل الفرنج بالمِطال، يَنْقُدُهم في كلِّ حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً، وما زال يعطيهم ويَسْتَمْهِلهُم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى.

فصل

فيما فعله نور الدين[٢]

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ـ وهي إقطاعه ـ فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كُتُبَ المِصْريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكُفْر. فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب، واجتمع بنور الدين ساعةَ وصوله، فتعجَّب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرَّه، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكَّمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس. وكان في مُدَّة حشده للتركمان، سار نور الدين لتسلُّم قلعة جَعْبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كلَّ فارسٍ من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعةً من الأمراء

= دورهم، وما فيها وما سلم نهب، وهم لا يقدرون على الأقوات، فضلاً عن الأقساط، وأما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم، فلهذا تعذرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم.

(١) وإرغاماً: كذا في الأصل، ولعلها: وإرغاباً ليستقيم المعنى: وإرغاباً له وإطماعاً.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/ ١٣ ـ ١٤.

والمماليك، منهم مملوكه عزّ الدين جُرْدِيك[١]، وغرس الدين قليج[٢]، وشرف الدين بُزْغُش[٣]، وناصح الدين خمارتكين[٤]، وعين الدولة بن الياروقي[٥]، وقطب الدين يَنَال بن حَسَّان المَنْبِجي[٦]، وغيرهم. ورحلوا على قَصْدِ مِصْر، مستنزلين من الله تعالى النَّصْر، وذلك منتصف ربيع الأول.

وخيَّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشِّرات، فوصل المُبَشِّر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسبَّ الملكُ كلَّ من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبثَّ رسلَه إلى الآفاق بذلك[٧].

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان، يعني صلاحَ الدين: كنت أكرهَ النَّاس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجتُ مع عمي باختياري. قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحبَّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه[٨]، حُكي لي عنه أنه قال: لما وَرَدَت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عَمِّك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه يأمره بالحضور، وتحثُّه أنتَ على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهَّزْ للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرتَ أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشَّام وغيره.

---

(١) توفي سنة ٥٩٤هـ. كان فارساً وشجاعاً وهماماً، ولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده.

(٢) في «الكامل» ١٠/ ١٤: غرس الدين قلج.

(٣) استشهد في معركة الكرك سنة ٥٧٩هـ، كما سيأتي في الجزء الثالث.

(٤) لم يذكره ابن الأثير في «الكامل» من بين الذين أرسلهم نور الدين.

(٥) في «الكامل»: عين الدولة الياروقي، وهو ممن رفض مبايعة صلاح الدين وزيراً بعد وفاة عمه أسد الدين، وقد توفي سنة ٥٦٤هـ، كما سيأتي في هذا الجزء.

(٦) كان صاحب منبج، أقطعه إياها نور الدين سنة ٥٦٢هـ. بعد أن حاصرها وأخذها من أخيه الأمير غازي بن حسان المنبجي.

(٧) انظر «الكامل» ١٠/ ١٤.

(٨) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٤.

قال: فالتفتَ إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهَّزْ يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لا بدّ من مسيره معي، فترسم له. فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بُدَّ من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلّة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزتُ به، وكأنما أُساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرتُ معه. فلما استقرَّ أمره وتوفي، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحَرَّضه أيضاً حسان العَرْقَلة[1] بأبياتٍ من شعره من جملة قصيدة مدحه بها، قال[2]: [الوافر]

وَهَلْ أَخشى من الأنواءِ بُخْلاً ... إذا ما يوسفٌ بالمالِ جادا

فتًى للدِّين لم يَبْرَحْ صلاحاً ... وللأعداءِ لم يَبْرَحْ فسادا

لئن أعطاه نورُ الدينِ حِصْناً ... فإنَّ الله يعطيه البلادا

إلى كم ذا التَّواني في دمشقٍ ... وقد جاءتكُمُ مِصْرٌ تَهادى

عروسٌ بَعْلُها أسدٌ هِزَبْرٌ ... يصيدُ المعتدينَ ولن يُصَادا

ألا يا مَعْشَرَ الأجنادِ سيروا ... وراء لوائه تلقَوْا رشادا

فما كلُّ امرئٍ صَلَّى مع النَّا ... سِ مأموماً كمن صَلَّى فُرَادى

فلما سافر صلاحُ الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره، فوجدها مغلقة، فقال[3]: [الطويل]

عَبَرْتُ على دار الصَّلاح وقد خَلَتْ ... من القمر الوضَّاح والمَنْهَلِ العَذْبِ

فوالله لولا سُرْعَةٌ مِثْلُ عَزْمِهِ ... لغرَّقها طرفي وأحرقَها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصُّوفية بحارة قطامش جوار قيساريَّة القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله. فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ما سيأتي.

---

(١) هو حسان بن نمير الكلبي، أبو الندى، تقدّمت ترجمته.

(٢) القصيدة في ديوان عرقلة ص٣٠ ـ ٣٢، وفي «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) البيتان في ديوان عرقلة ص١٤.

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ[١] في صلاح الدين من قصيدةٍ، أوّلها: [البسيط]

* سَلِّمْ على مِصْرَ لا ربعٍ بذي سَلَمِ*

يقول فيها: [البسيط]

النَّاصر الملكُ الموفي بذمَّتِهِ ... وَمَنْ ندى كفِّه يُغْني عن الدِّيَم

وَمَنْ إذا جرَّد البِيضَ الصَّوارِمَ في الـ ... ـهيجاءِ أغمدَها في البَيْضِ والقِمَم[٢]

وَمَنْ حَوى المُلك من بعد الطماعة في انـ ... ـتزاعه بِشَبا الهندية الحُذُم[٣]

وَرَدَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما ... رجاه مِن مُلك مصرَ كان في الحُلُم

ولّى وراحتُهُ صِفْرٌ وقد مُلِئَتْ ... بعد الطماعة من يأسٍ ومن نَدَمِ

يُصَعِّدون على ما فاتهم نَفَساً ... لو لَافَحَ البَحْرَ أضحى المَوْجُ كالحُمَمِ

وفي السَّلامة لولا جَهْلُهُمْ ظَفَرٌ ... لمن أراد نزالَ الأُسْدِ في الأُجُمِ

وهم أُسودُ الشَّرى لكنْ أذلَّهُمُ ... مَلْكٌ لديه الأُسودُ الغُلْبُ كالغَنَمِ

وله من قصيدة أخرى: [الطويل]

أقمتَ عَمُودَ الدينِ حين أمالَهُ ... لطاغي الفرنج الغُتْمِ طاغي بني سعْدِ[٤]

وَجاهَدْتَ حِزْبَ الكُفْرِ حتى رَدَدْتَهُمْ ... خزايا عليهم خيبةُ الذُّلِّ والرَّدِّ

أفدتَ بما قَدَّمْتَ مُلْكاً مُخَلَّداً ... وذِكْراً مدى الأيام يُقْرَنُ بالحَمْدِ

وذِكْرُك في الآفاقِ يَسْرِي كأنَّه الصَّـ (م) ـباحُ له نَشْرُ الأَلُوَّةِ والنَّدُّ[٥]

ولأبي الحسن بن الذَّرَوي[٦] فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّي: [الكامل]

ولكم أَشَمْتَ الرُّومَ أشأَمَ بارقٍ ... أَضْحَتْ مياه نُفُوسِها من قَطْرِهِ

---

(١) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، مجد الدين، أبو المظفر الشيزري، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ، من تصانيفه: «أزهار الأنهار»، «البديع في علم البلاغة»، «التجاير المربحة والمساعي المنجحة»، «ديوان شعره»، «كتاب الاعتبار» (كشف الظنون ٥/ ١٩٦).

(٢) البيض الأولى: جمع أبيض، وهو السيف، والبيض الثانية: جمع بيضة، وهي الخوذة. والقمم: جمع قمة، وهي أعلى الرأس.

(٣) الهندية: أي السيوف الهندية، والحُذُم: من الحذم: القطع.

(٤) الغتمة: عجمة في المنطق، مفردها: أغتم، وغتمي، وجمعها: غتم. وطاغي بني سعد: يشير إلى شاور السعدي، فإن نسبه يرجع إلى سعد بن بكر بن هوازن (انظر وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩).

(٥) الألوّة: العود الذي يتبخر به، والنَدُّ أيضاً: ضرب من النبات يتبخر بعوده.

(٦) هو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، المعروف بابن الذروي، شاعر كان مشهوراً زمن صلاح الدين، توفي سنة ٥٧٧هـ. وسترد ترجمته وافية له في الجزء الثالث.

وافــاكَ بَــحْــرُ دُرُوعِــهــا عــن مَــدِّه ... ومضى وقد حَكَمَتْ ظُباك بِجَزْرِهِ
وَلَـقِـيـتَ «مُـرِّيًـا» وطَـعْـمُ حـيـاتِـهِ ... حُـلْـوٌ فـبـدَّلَـه الـقـتـالُ بِـمُـرِّهِ
فـاعـقـدْ إلـيـه الـرأيَ في عَـذب الـقَـنا ... واحـلـلْ بـهـا عَـجِـلاً مـعـاقِـدَ مَـكْـرِهِ
واطْـرِدْه مـن وَكْـرِ الـشَّـآم فـإنَّـه ... قـد طـارَ مـنـك بـخـافـقٍ مـن ذُعْـرِهِ

فصل

في القبض على شاور وقتله(١)

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر، فخلع عليه وأكرمه، وأُجريت عليه وعلى عساكره الجراياتُ الكثيرة والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه، ويعده ويمنّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم إنه عَزَم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأُمراء، ويقبضُ عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عَزَمْتَ على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلَنَّ جميعاً. فقال: صدقتَ، ولأَنْ نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركُوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد. فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النُّوري المَطْلَ من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جُرْديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله. فأنكر ذلك. واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشَّافعي، رضي الله عنه، وقصد شاور عسكرَه على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرْديك، ومعهما جمعٌ من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسدَ الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوَروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيراً،

(١) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١٤ ـ ١٥.

ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمةٍ وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد لدين الله؛ صاحب مصر، في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثُّه على قتله، وتابع الرُّسُلَ بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس ينهبونها، فتفرَّقوا عنه، هذا قول ابنِ الأثير[1].

وقال ابن شَدَّاد: أقام أسد الدين بها يتردَّد إليه شاور في الأحيان، وكان وَعَدَهم بمالٍ في مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئاً، وعلقت مخاليبُ الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصةً أخذوا البلاد، وأن تردُّدهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاور يلعب بهم تارةً وبالإفرنج أخرى، وملَّاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قَبْضِه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردَّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به. وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعَلَم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلّا السُّلْطان نفسه ـ يعني صلاح الدين ـ وذلك أنه لما سار إليهم تلقَّاه راكباً وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه، ففرُّوا ونهبهم العسكر، وقُبض على شاور وأنزل إلى خيمة مفردة. وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بُدَّ من رأسه. جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مَن قويَ منهم على صاحبه، فحزَّتْ رقبته وأُنفذ رأسه إليهم.

وقال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخُلع عليه ولقي الإحسان، وتردَّد شاور إلى أسد الدين وتودَّد، وتجدَّد بينهما من الوداد ما تأكَّد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة، والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة. فقال صلاح الدين: هذا أمرٌ يطول، ومسألة فرضها يَعُول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يَقْصُرُ عنها الأمد الطَّويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لا سيما إذا راوغ وغادر[2]، فَنَفَّذ أسد الدين الفقيه عيسى[3] إلى شاور يشير

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ١٥.

(٢) وغادر: كذا بالأصل، ولعلها: غاور، من أغار على القوم: أي هجم عليهم بالخيل وأوقع بهم.

(٣) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ، وهو من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً، ذا عصبية ومروءة، =

عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك مَن عندي من النَّاس. فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته[١]، وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمةٍ ضربها له، وحاول إمهاله، فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول، وأَبَوْا أن يرجعوا إلا بنُجح السُّول، فَحُمَّ حِمامه، وحُمل إلى القصر هامُه.

قلت: وبلغني أن الذي باشر حَزَّ رقبة شاور هو عز الدين جُرْديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفَرسيْهما، فأجابه، ووافقهما في ذلك جُرْديك، وكان ذلك عن أمرٍ قد تقرَّر؛ فحرَّكوا خيلهم، فلما بَعُدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجُرْديك على شاور، وأُدخل الخيمة.

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عَرْقَلة[٢]: [الطويل]

لقد فازَ بالمُلكِ العقيم خليفةٌ ... له شِيركُوهُ العاضديُّ وزيرُ
كأنَّ ابنَ شاذي والصَّلاحَ وسيفَهُ ... عليٌّ لديه شَبَّرٌ وشَبِيرُ[٣]
هو الأسدُ الضاري الذي جَلَّ خَطْبُهُ ... وشاوَرُ كلبٌ للرِّجالِ عَقُورُ
بغى وطغا حتى لقد قال قائلٌ ... على مِثْلِها كانَ اللعينُ يَدُورُ
فلا رَحِمَ الرحمنُ تُرْبَةَ قَبْرِهِ ... ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونكيرُ[٤]

وقال أيضاً[٥]: [السريع]

إنّ أمِيرَ المؤمنين الذي ... مِصْرُ حَماه وعليٌّ أبوهُ

= وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له. فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعاً، وتقدم عند صلاح الدين («الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٩٠).

(١) شحته: لعلها تحريف من: شحط، وهي كلمة عامية بمعنى جرّه على الأرض، وشَحَطَ، كمنع، شحطاً وشَحَطَاً، محركة، وشحوطاً: بَعُدَ.

(٢) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٢.

(٣) شَبَّرُ، كبقَّم، وشبِّيرٌ، كقمِّير، ومُشَبِّرٌ، كمحدّث: أبناء هارون عليه السلام، وقيل: وبأسمائهم سمَّى رسول الله ﷺ، الحسن والحسين والمحسّن، أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) منكرٌ ونكيرُ: اسمان لملكين، وهما فتانا القبور.

(٥) البيتان في ديوان عرقلة ص١٠٨.

نَصَّ على شاوَرَ فِرْعَوْنُها وَنَصَّ موساها على شِيرِكُوه

وقد وصف الفقيه الشَّاعر أبو حمزة عمارة اليمني[١] في كتاب «الوزراء المصرية»[٢] الذي صنفه حالَ شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية، فيها تكشَّفَتْ صفحاته، وأحرقت لفحاتُه، وأغرقت نفحاته، وغَضَّه الدَّهْرُ وعَضَّه، وأوجعه الثُكْلُ وأَمَضَّه، وبان غَمْرُه وثِمادُه[٣]، وجمره ورماده، ولم يجفَّ من الأنكاد لبدُه[٤]، ولا صفا من الأقذاء وِرْدُه، وما هو إلّا أن تسلَّمها بالرَّاحة، وسُلِّمت له الهمومُ عوضاً عن الرَّاحة. وفي أول ليلةٍ دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بِلْبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر النَّاسَ يوم التاج وأُسر أخوه صُبْح[٥]، وأصيبَ على بابِ القَنْطَرة بحجرٍ كاد يموت منه، وتعقَّب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دُخِلَتْ من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج، وعمل البُرْج، وحصار بِلْبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط[٦] طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاقُ لواتَه ومن ضامَّها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر. وفي أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جَلَب راغب وقتله، وأسر معالي بنِ فُريج ثم قَتْله. واتَّصل إليه الخبرُ من قدوم أسد الدين إلى إطْفِيح بأم النَّوائب الكُبَر، ووافق مجيءَ الغُزِّ قدومُ الفرنج ناصرين للدولة، وتوجَّهوا من مصر في البر الشَّرْقي تابعين للغُزِّ. ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال، ما تنقطع دونه الآمال، وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعَهم إلى الشَّام، فتجهَّز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني[٧]،

---

(١) هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي الفقيه، نجم الدين أبو محمد الشاعر اليمني الشافعي المتوفى مصلوباً بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).

(٢) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية» انظر الحاشية السابقة.

(٣) الغمر: الماء الكثير، والثماد: الماء القليل، وهو كناية عن كرمه وبخله.

(٤) أي كثير التردد، يقال: فلان لا يجف لبده: إذا لم يزل يتردد.

(٥) صبح: هو أخو شاور، ذكر بعض أخباره عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية».

(٦) يحيى بن الخياط وابن قرجلة: من أعيان المصريين الذين كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوة منهم لشاور.

(٧) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن =

قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمةٍ وليس معنا أحد، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغريب إلى سليم وما وراءها، وقال شاور: لكن لا أبرَحُ أقاتل بمن صَفَا معي حتى أموت. فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الدَّاعي ابن عبد القوي وصنيعة المُلك جوهر وعزٌّ وقد التزموا المال، وتفرَّع على هذا الأصل مقام الغُزِّ بالجِيزة، ونوبة البابَين، وحصار الإِسكندرية، وانصراف الغُزِّ راجعين، والفرنج بعدهم. فما هو إلّا أن توهَّم شاور أنَّ الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لا تخطب إلا زواله وفَوْته، ولا تريد إلا انتقاله وموته. فكان من قدوم الفرنج إلى بِلْبيس وقَتْلِ من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القَسِيم، وإنجاده كلمةَ الإِسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قُلْتُ فيهم وقد ربط الإِفرنج الطريقَ عليهم: [الطويل]

أَخَذْتُمْ على الإِفرنجِ كلَّ ثَنِيَّةٍ ... وقُلْتُمْ لأيدي الخيل مُرِّي على مُرِّي

لئن نصبوا في البَرِّ جسراً فإنَّكم ... عبرتمْ ببحرٍ من حديدٍ على الجسرِ

قلت: وهذان البيتان من قصيدةٍ له ستأتي. ومُرِّي هو اسم ملك الإِفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغُزِّ برحيل الفرنج عن الدِّيار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً. وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يربِّ أحدٌ رجالَ الدولة مثل ما رباهم الصَّالح بن رُزِّيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضِرْغام ـ وكانت وزارته تسعة أشهر مُدَّة حمل الجنين ـ ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والإِفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها.

ولما عاد من حصار الإِسكندرية أكثر من سَفْكِ الدِّماء بغير حق؛ كان يأمر بضرب الرِّقاب بين يديه في قاعة البُسْتان من دار الوزارة، ثم تسحبُ القتلى إلى خارج الدار.

= الفرج بن أحمد اللخمي البيساني مجير الدين، أبو علي العسقلاني، من وزراء صلاح الدين الأيوبي، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٩٦هـ، من تصانيفه: «تاريخ مرتب على الأيام»، «سيرة الملك المنصور»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٥٦٠).

وقال الحافظ أبو القاسم[١]: لما خيفَ من شرِّ شاور ومكره، لما عُرِفَ من غَدْره وخَتْره[٢] واتَّضح الأمر في ذلك واستبان، تمارضَ الأسدُ ليقتنصَ الثُّعْلُبان، فجاءه قاصداً لعيادته، جارياً في خدمته على عادته؛ فوثب جُرْديك وبُزْغُش، موليا نور الدين، فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرِّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين، فإنه أول من تولَّى القبضَ عليه، ومدَّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين وَمُلِّك، وخلع عليه الخِلَع وحُنِّك[٣]، واستولى أصحابُه على البلاد، وجرت أموره على السَّداد، وظهر منه حميد السيرة، وظهرت كلمةُ السُّنَّة.

فـصـل

في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القَصْر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتَّب وزيراً، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمَن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرَّ في الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوئ، وولَّى الأعمالَ من يثق إليه، واستبدَّ بالولاية، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مُقَرِّر لها، وزمام الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحُسْن تأتيه وسياسته[٤].

قال العماد: وكُتِبَ لأسد الدين منشورٌ من القصر، بسيط الشُّرْح طويل الطَّي والنَّشر، كتب العاضدُ في طُرَّته[٥] بخطه، ولا شك أنه بإملاء كتّابه: هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحُجَّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سُبُله، فَخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيلَ

---

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة، كان محدث الديار الشامية، توفي في دمشق سنة ٥٧١هـ (الأعلام ٤/ ٢٧٣).

(٢) الختر: الغدر والخديعة، وخَتر فلاناً: غدر به أقبح الغدر، فهو خاتر، وختّار.

(٣) التحنيك: إدارة العمامة من تحت الحنك.

(٤) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١٥.

(٥) الطرَّة: هي الناصبة العليا في الكتاب، أو الهامش الذي يترك في أعلا الكتاب، ولها قواعد، فتطول إذا كان الكتاب من الأعلى إلى الأدنى، وفي المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلى وصلين، ومن النواب ومن في معناهم تكون وصلاً واحداً (صبح الأعشى ١/ ٥٥، ٦/ ٣١٣، والتعريف بمصطلحات الصبح ص٢٣٠).

الفَخَار بأن اعْتَزَتْ خدمتك إلى بُنوَّة النُّبوَّة، واتخذه للفوز سبيلاً[١] ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١][٢].

[نسخة منشور العاضد في وزارة أسد الدين]

ونسخة المنشور[٣]: «من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة[٤]، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شِيركُوه العاضدي، عَضَدَ الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله[٥] الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أن يُصلِّي على محمدٍ خاتم النبيين[٦]، وسيد المرسلين، وعلى آله الطّاهرين، والأئمة المهديين، وسلِّم تسليماً»[٧].

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتملٌ على كلام طويل، وحشوٍ غير قليل، على عادة الكُتّاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبِّرين، والبلاغة عكس ذلك. قال النبيُّ ﷺ: «بُعثت بجوامع الكَلِم واختُصر لي الكلام اختصاراً»[٨].

ولما استقلَّ أسدُ الدين بالوزارة طلب من القصر كاتبَ إنشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم بن البَيْسَاني[٩]، وكان أبوه من أهل بَيْسان الشَّام. ثم ولي قضاء عَسْقَلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالإسكندرية على باب السِّدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزاحم به كُتَّابَ

(١) في صبح الأعشى ٩/ ٤٢٧: واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً.
(٢) انظر صبح الأعشى ٩/ ٤٢٧.
(٣) انظر النص الكامل للمنشور في صبح الأعشى ١٠/ ٨١ ـ ٩٢، وهو من إنشاء القاضي الفاضل، كما في الصبح.
(٤) في صبح الأعشى: «فخر الدولة» بدل: «مجير الأمة».
(٥) في صبح الأعشى: «فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله».
(٦) في صبح الأعشى: «ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين».
(٧) في صبح الأعشى: «وسلّم تسليماً كثيراً».
(٨) أخرجه بهذا اللفظ السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٦١، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤٣٦. وروي الحديث بلفظ: «بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب»، أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٦، والأشربة حديث ٧١، والنسائي في الجهاد باب ١.
(٩) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، تقدّمت ترجمته.

القَصْرِ، فثقل عليهم أمرُه، فلما طَلَبَ أسدُ الدين كاتباً أُرسِلَ به إليه، وظنَّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيُقتل كما قُتِلَ من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا: لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا. فكان من أمره ما كان، واستمرَّ في الدولة، ولم يزدد في كل يوم إلا تقدُّماً، بصدقه ودينه وحُسْنِ رأيه، رحمه الله.

وأنفذ العماد قصيدةً طويلة تهنئة لأسدِ الدين، أوَّلُها: [البسيط]

بالجدِّ أَدْرَكْتَ ما أَدْرَكْتَ لا اللَّعِبِ ... كم راحةٍ جُنِيَتْ مِنْ دَوْحَةِ التَّعَبِ

يا شِيركُوهُ بن شاذي المَلْكُ دعوةَ مَن ... نادى فعرَّف خيرَ ابنٍ بخيرِ أبِ

جرى الملوكُ وما حازوا بركضِهِمُ ... من المدى في العُلا ما حُزْتَ بالخَبَبِ

تَمَلَّ من مُلْكِ مِصْرٍ رُتْبَةً قَصُرَتْ ... عنها الملوكُ فطالت سائرَ الرُّتَبِ

فَتَحْتَ مِصْرَ وأرجو أَنْ تصيرَ بها ... مُيَسَّراً فَتْحَ بيتِ القُدْسِ عن كَثَبِ

قد أمْكَنَتْ أسدَ الدينِ الفريسةُ من ... فَتْحِ البلاد فبادِرْ نحوها وَثِبِ

أنت الذي هو فَرْدٌ من بسالته ... والدِّينُ من عَزْمِهِ في جَحْفَلٍ لَجِبِ

في حَلْقِ ذي الشِّرْكِ من عدوى سُطَاكَ شَجاً ... والقَلْبُ في شَجَنٍ والنَّفْسُ في شَجَبِ[1]

زارت بني الأصفر البيضُ التي لقيتْ ... حُمْرَ المنايا بها مرفوعةَ الحُجُبِ

وإنها نَقَدٌ من خَلْفِها أسدٌ ... أرى سلامَتَها مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ[2]

لقد رَفَعْنا إلى الرَّحمن أيدينا ... في شُكْرِنا ما به الإسلامُ منك حُبي

شكا إليك بنو الإسلام يُتْمَهُمُ ... فَقُمْتَ فيهم مقامَ الوالدِ الحَدِبِ

في كلِّ دار من الإفرنج نادبةٌ ... بما دهاهُمْ فقد باتوا على نَدَبِ

من شَرِّ شاور أَنْقَذْتَ العِبَادَ فكم ... وكم قضيتَ لحزبِ الله من أَرَبِ

هو الذي أَطْمَعَ الإفرنجَ في بلد الـ ... ـإسلام حتى سعَوْا للقَصْدِ والطَّلَبِ

وإنَّ ذلك عند اللَّه مُحْتَسَبٌ ... في الحَشْرِ من أَفْضَلِ الطَّاعاتِ والقُرَبِ

أذلَّه الملك المنصورُ مُنْتَصِراً ... لما دعا الشِّرْكُ: هذا قد تعزَّز بي

وما غَضِبْتَ لدينِ الله مُنْتَقِماً ... إلا لِنَيْلِ رِضا الرَّحمنِ بالغَضَبِ

وأنتَ مَنْ وَقَعَتْ في الكُفْرِ هَيْبَتُهُ ... وفي ذويه وقوعَ النَّارِ في الحَطَبِ

---

(١) الشجب: الهم والحزن.

(٢) النقد: جمع نقدة، وهي الصغيرة من الغنم.

وحين سِرْتَ إلى الكُفَّارِ فانهزموا نُصِرْتَ نَصْرَ رَسُولِ اللَّهِ بالرُّعُبِ[١]
يا محيي الأمة الهادي بدعوته للرُّشْدِ كلَّ غَوِيٍّ منهمُ وغبي
لمَّا سَعَيْتَ لوجهِ الله مُرْتَقِباً ثوابَهُ نِلْتَ عفواً كلَّ مُرْتَقَبِ
أَعَدْتَ نِقْمَةَ مصرٍ نِعْمَةً فَغَدَتْ تقول: كم نُكَتٍ لله في النُّكَبِ
أركبتَ رأسَ سِنانٍ رأسَ ظالمها عَدْلاً وكنتَ لوِزْرٍ غيرَ مُرْتَكِبِ
رُدَّ الخلافةَ عباسيةً ودَعِ الدَّ (م) عيَّ فيها يصادفْ شَرَّ مُنْقَلَبِ
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسِلَه والحَزْمُ عنديَ قَطْعُ الرَّأْسِ كالذَّنَبِ

وقال العماد في «الخريدة»: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه، وقد أعفى الملك العادل نور الدين ـ قدَّس الله روحه ـ أهلَ دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه[٢]: [البسيط]

لما سَمَحْتَ لأهلِ الشَّامِ بالخَشَبِ عُوِّضْتَ مِصْرَ بما فيها من النَّشَبِ
وإنْ بَذَلْتَ لِفَتْحِ القُدْسِ مُحْتَسِباً للأَجْرِ جُوزيت أجراً غير مُحْتَسَبِ
والأَجْرُ في ذاك عندَ اللَّهِ مُرْتَقَبٌ فيما يُثيبُ عليه خيرُ مُرْتَقِبِ
والذِّكْرُ بالخيرِ بين النَّاسِ تَكْسِبُهُ خيرٌ من الفِضَّةِ البيضاءِ والذَّهَبِ
وَلَسْتَ تُعْذَرُ في تَرْكِ الجهادِ وقد أَصْبَحْتَ تملِكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحِبُ المَوْصِلِ الفيحاءِ مُمْتَثِلٌ لما تريدُ فبادِرْ فجأةَ النُّوَبِ
فأَحْزَمُ النَّاسِ من قَوَّى عَزِيمَتَهُ حتى ينالَ بها العالي من الرُّتَبِ
فالجِدُّ والجَدُّ مقرونانِ في قَرَنٍ والحَزْمُ في العَزْمِ والإِدْراكُ بالطَّلَبِ
فَطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحوْزَتَهُ من النَّجاساتِ والإِشراكِ والصُّلُبِ
عساكَ تَظْفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثنا وفي القيامةِ تَلْقَى خَيْرَ مُنْقَلَبِ

---

(١) يشير إلى حديث رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، يُرعب مني العدو مسير شهر»، أخرجه البخاري في التيمم باب ١، والصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ١١، ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، والترمذي في السير باب ٥، والنسائي في الغسل باب ٢٦، والجهاد باب ١، والدارمي في السير باب ٢٨، والصلاة باب ١١١، وأحمد في المسند ١/ ٣٠١، ٢/ ٢٢٢، ٢٦٤، ٢٦٨، ٣١٤، ٣٩٦، ٤١٢، ٤٥٥، ٥٠١، ٣/ ٣٠٤، ٤/ ٤١٦، ٥/ ١٦٢، ٢٤٨، ٢٥٦.

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٧٧.

فصل

في وفاة أسد الدين[1]
وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه[2]

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة[3]، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شِدَّة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله رحمه الله تعالى، وفُوِّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرَّت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام. وبَذَلَ الأموال، وملك الرِّجال، وهانَتْ عنده الدُّنيا فملكها، وشكر نِعْمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللَّهو، وتقمَّص بلباس الجِدِّ والاجتهاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جِدًّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته. ولقد سمعتُ منه ـ رحمه الله ـ يقول: لما يَسَّرَ الله لي الدِّيار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ السَّاحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الفرنج إلى الكَرَك والشَّوْبَك وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والنِّعَم ما لم يُؤَرَّخ عن غير تلك الأيام. هذا كلُّه وهو وزير متابع للقوم، لكنه مُقوٍّ لمذهب السُّنَّة، غارسٌ في البلاد أهل العلم والفِقْه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويَفِدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله، لا يخيِّبُ قاصداً، ولا يعدم وافداً. ولما عَرَفَ نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حِمْصَ من نوَّاب أسد الدين، وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير[4]: أما كيفية ولاية صلاح الدين؛ فإن جماعةً من الأُمراء النُّورِيَّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدُّمَ على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأمير

---

(١) انظر ترجمة وافية لأسد الدين شيركوه في «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» ص٢٥ ـ ٤٤ لأحمد بن إبراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٨٧٦هـ. منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية سنة ١٩٧٨م. وانظر أيضاً «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥ ـ ١٨.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/١٦ ـ ١٨.

(٣) وقيل أيضاً إنه توفي يوم الأحد ثالث عشرين رمضان سنة ٥٦٤هـ. انظر «شفاء القلوب» ص٤٤.

(٤) انظر «الكامل» ١٠/١٧ ـ ١٨.

عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خُسْرو بن تُلَيل[١] ـ وهو ابنُ أخي أبي الهيجاء الهَذَباني[٢] الذي كان صاحب إربل ـ ومنه سيف الدين علي بن أحمد الهَكَّاري[٣] ـ وجَدُّه كان صاحب قلاع الهَكَّارية ـ ومنهم شهاب الدين محمود الحارِمي ـ وهو خال صلاح الدين ـ وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خِلَع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه.

وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظنَّ أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشَّامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشَّامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. فامتنع صلاح الدين وضَعُفَتْ نفسه عن هذا المقام، فَأُلْزِمَ به وأخِذَ كارهاً «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسلِ»[٤] فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجُبَّة والعِمامة وغيرهما، ولقِّبَ الملكَ النَّاصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحدٌ من أولئك الأُمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه.

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكَّاري[٥] معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إنَّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تُلَيل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام

---

(١) خسرو بن تليل: لم يذكره ابن الأثير في «الكامل».

(٢) هو أبو الهيجاء السمين، كان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطن، ذكره المؤلف في الذيل على الروضتين حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤هـ، والهذباني نسبة إلى الهذبانية، قبيلة كبيرة من الأكراد، وهي القبيلة التي ينتسب إليها السلطان صلاح الدين (انظر وفيات الأعيان ٧/ ١٣٩).

(٣) هو سيف الدين المشطوب الهكاري.

(٤) هو من حديث رسول الله ﷺ، روي بلفظ: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»، أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٤٤، وأبو داود في الجهاد باب ١١٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٢، ٤٠٦، ٤٤٨، ٤٥٧، ٥/ ٢٤٩، وأخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٥٦، بلفظ: «عجب الله من قوم يساقون إلى الجنة مقرنين في السلاسل».

(٥) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ. تقدّمت ترجمته قبل قليل. ونسبه الهكاري ترجع إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية (وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٥).

الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك. ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلَّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه النَّاس ولم يبق غيرك وغير اليارُوقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلَه من الأكراد، فلا يخرجِ الأمر عنه إلى الأتراك. ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً. وعَدَلَ إلى عين الدولة الياروقي ـ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ـ فلم تنفعه رُقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فِرَاقَهُ وقد فات الأمر ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] وثبت[١] قدم صلاح الدين ورَسَخَ ملكه، وهو نائبٌ عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلِّها، ولا يتصرَّفُون إلا عن أمره.

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأَسْفَهْسِلار[٢] ويكتب علامته[٣] في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل يكتب الأمير الأَسْفَهْسِلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه، فلم يمكنه منعه. فمال النَّاس إليه وأحبُّوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثابت فيه، وضَعُفَ أمر العاضد، وكان كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد. ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسَيَّر نور الدين العساكر، وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ـ وهو أكبر من صلاح الدين ـ فلما أراد أن يسير قال له: إن كنتَ تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ، فإنك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذٍ وأعاقبك بما تستحقُّه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائمٌ فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشْدُدْ أزره، وساعده على ما هو بصدده، فقال: افعل

(١) ثبت: كذا في الأصل، وفي «الكامل»، والصواب: ثبتت.

(٢) الأسفهسلار: معناه في الأصل: مقدّم العسكر، وهو مركب من لفظين: أولهما فارسي وهو «أسفه» ومعناه: المقدم، والثاني تركي ومعناه: العسكر (صبح الأعشى ٣/ ٤٨٣، ٦/ ٧ ـ ٨).

(٣) العلامة: هي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٥٣).

معه من الخدمة والطَّاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى. فكان كما قال.

وقال العماد: لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشَّمْل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأُمراء النُّوريَّة على كلمةٍ واحدة، وأيدٍ متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والرَّاية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه. وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفضَّ ختوم الخزائن، وأنضَّ رسومَ المزائن، وسلَّط الجُودَ على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفَرَّق ما جمعه أسد الدين في حياته. وأنارت على منار العُلا أناة آياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبُّوه، وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنَّهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفُّعاً، وما أفاده إلا تأصلاً في السَّماح وتفرُّعاً، وضمَّ من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد صاحبُ القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السِّحْر الحلال، والعذب الزُّلال.

ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه، وجرى القلم فيه بما خَطَّ له القلم في الأزل من وَصْفِ جهاده وسِلْمه. ففي ذلك المنشور[(١)]: «والجهاد أنتَ رضيع دَرِّه[(٢)]، وناشئة حَجْره، وظهور الخيل مواطِنُك، وظلال الخيام مساكنك[(٣)]، وفي ظلمات قساطله[(٤)] تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتْلَى مناقبك[(٥)]. فشمِّرْ له عن ساق من القَنَا، وخُضْ فيه بحراً من الظُّبى[(٦)]، واحْلُلْ في عُقَدِ كلمة الله وثيقات الحُبى[(٧)]، وأَسِل الوهاد بدم العِدَى، وارفع برؤوسهم الرُّبا، حتى يأتيَ الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مَذْخُوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»[(٨)].

---

(١) انظر النص الكامل للمنشور في صبح الأعشى ١٠/ ٩٢ ـ ١٠٠، وهو من إنشاء القاضي الفاضل.

(٢) في صبح الأعشى: والجهاد فأنت راضع دره.

(٣) في صبح الأعشى: وظلال الجبل مساكنك.

(٤) في الصبح: في ظلمات مشاكله.

(٥) في الصبح: تتلى ميامنك.

(٦) الظبا: جمع ظبة، وهو حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

(٧) حبا حبوّاً كسمواً: دنا. وحبت الأضلاع إلى الصلب: اتصلت، وحبا المسيل: دنا بعضه من بعض، ولعل المراد: وثيقات الاتصال والارتباط.

(٨) في «الصبح»: ومشهوداً به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك.

وفي طُرَّته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه[1]: هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحُجَّته عند الله سبحانه عليك، فأوفِ بعهدك ويمينك، وَخُذْ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدِّنا رسول الله ﷺ أحسن أُسوة، ولِمن بقي بشقته بنا[2] أعظم سلْوة ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين.

ثم قال العماد: وهذا آخِرُ منشورٍ طُويت به تلك الدولة وخُتمت، وتبدَّدَت عقودها وما انتظمت.

ووصلَتْ كُتُبُ صلاح الدين إلينا إلى الشَّام، بما تسنَّى له من المَرَام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخَّر عنه بالخِلع والعطاء. وترددت الكتب الصَّلاحية بذكر الأشواق، وشكوى الفِراق، وشرح الاستيحاش، وبَرْحِ القلوب العِطاش، فإنَّ أصحابنا وإن ملكوا، ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أُمَّةٍ لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألفونها، ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة، وأعيناً للمكايد متيقظة، وعن الودِّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً، أوله: [الخفيف]

أيها الغائبون عنِّي وإنْ كنـ ـتمْ لقلبي بِذِكْرِكُمْ جيرانا
إنني مُذْ فَقَدْتُكُمْ لأَراكم بعيونِ الضَّمِيرِ عندي عِيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه، فقلتُ: [الخفيف]

أَيُّها الظَّاعنون عني وقلبي معهم لا يفارِقُ الأَظْعانا
مَلَكُوا مِصْرَ مِثْلَ قَلبي وفي هـ ـذا وهاتيك أصبحوا سُكَّانا
فاعْدِلُوا فيهما فإنَّكُمُ اليَوْ مَ مَلَكْتُمْ عليهما سُلْطانا
لا تَرُوعوا بالهَجْرِ قَلْبَ مُحبٍّ أَوْرَثَتْهُ رَوْعَاتُه الخَفَقَانَا
حَبَّذا مَعْهَدٌ قَضَيْنا به العَيْـ ـشَ فَكُنَّا بِرَبْعِهِ جِيرَانا
إذ وَجَدْنا من الحوادثِ أمناً وأَخَذْنا من الخُطُوبِ أَمانا
وَرَتَعْنا من المُنَى في رياضٍ وسَكَنَّا من المغاني جِنَانا

(١) انظر صبح الأعشى ٩/٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٢) في صبح الأعشى: ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة.

وبعد، فإنَّ وفود الهناء، وأمداد الدُّعاء، متواصلةٌ على الولاء، صادرة عن محض الولاء، إلى عالي جنابه المأنوس، ومنيع كَنَفِه المحروس، فليهنه الظَّفَران: بالملك وبالعَدُوِّ، وفَرْع هضبات المجد والعُلُوِّ، وكيف لا يكون النَّصْر مساوقاً لدينٍ هو صلاحُه، والتأييد مرافقاً لعَزْم به نجاحه وفلاحه: [البسيط]

فالشَّام يَغْبِطُ مِصْراً مُذْ حَلَلْتَ بها كما الفُرَاتُ عليكم تحسُدُ النِّيلا
نِلْتُمْ من المُلْكِ عَفْواً ما الملوكُ به عُنُوا قديماً ورامُوهُ فما نِيلا

قال العماد: ورثيتُ أسدَ الدين بقصيدةٍ خدمت بها نور الدين، وعَزَّيت بها أخاه نجم الدين، منها: [الطويل]

تَضَعْضَعَ في هذا المُصَابِ المُبَاغِتِ من الدِّين لولا نورُه كلُّ ثابتِ
فأيَّامُ نورِ الدينِ دامَتْ منيرةً لنا خَلَفٌ من كلِّ مُودٍ وفائت
فما بالُنا نُبْدِي التَّصامُمَ غَفْلَةً وداعي المنايا ناطِقٌ غيرُ صامتِ
نُؤَمِّلُ في دارِ الفَنَاءِ بقاءنا ونرجو من الدُّنيا صداقةَ ماقِتِ
وما النَّاسُ إلّا كالغُصُونِ يَدُ الرَّدى تقرِّبُ منها كلَّ عُودٍ لناحِتِ
لقد أبلَغَتْ رُسْلُ المنايا وأَسْمَعَتْ ولكنَّها لم تحظَ منا بناصِتِ
فلهفي على تلك الشَّمائلِ إنها لقد كَرُمَتْ في الحُسْنِ عن نَعْتِ ناعتِ

وله من أُخرى عزَّى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين محمداً: [الكامل]

ما بَعْدَ يَوْمِكَ للمعنَّى المُدْنَفِ غيرُ العَويلِ وَحَسْرَةِ المُتَأَسِّفِ
ما أجرأ الحَدَثان كيف سطا على الـ ـلأسدِ المَخوفِ سُطاً ولم يتخوَّفِ
من ذا رأى الأسدَ الهصورَ فريسةً أم أبصر الصُّبْحَ المنيرَ وقد خَفِي
من ثابتٌ دونَ الكُماةِ سواه إنْ زَلَّتْ بهم أقدامُهُمْ في المَوْقِفِ
ما كان أسنَى البَدْرَ لو لم يَسْتَتِرْ ما كان أبهى الشمسَ لو لم تَكْسِفِ
ما كنتُ أخشى أن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ يوماً وأنت لِكَرْبِها لم تَكْشِفِ
أيام عُمْرِك لم تَزَلْ مقسومةً لله بينَ تعبُّدٍ وتَعَرُّفِ
متهجداً لعبادةٍ أو تالياً من آيةٍ أو ناظراً في مُصْحَفِ
فُجِعَ النَّدى والبأسُ منك بحاتمٍ وبحيدَرٍ والحِلْمُ منك بأَحْنَفِ
بالمُلْكِ فُزْتَ وحُزْتَه عن قُدْرَةٍ ومضيتَ عنه بسِيرَةِ المُتَعَفِّفِ
ووُصِفْتَ يا أسداً لدينِ محمدٍ مدحاً بما مَلِكٌ به لم يُوصَفِ
وَقَفَوْتَ آثارَ الشريعةِ كُلِّها وقد اهتدى مَن للشَّريعة يقتفي

أأنِفْتَ من دُنْياك حينَ عَرَفْتَها ... فَلَوَيْتَ وَجْهَ العارِفِ المتنكفِ
يا ناصِرَ الدين اسْتَعِذْ بتصبُّرٍ ... مُذْنٍ إلى مَرْضَاةِ رَبٍّ مُزْلِفِ
وتعزَّ نجمَ الدينِ عنه مهنَّأً ... أبدَ الزَّمانِ بمُلك مِصْرَ ويُوسُفِ
لا نستطيعُ سوى الدُّعاءِ فكلُّنا ... إلا بما في الوُسْعِ غيرُ مُكَلَّفِ

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح، منها قوله: [الطويل]

لكَ الحَسَبُ الباقي على عَقِبِ الدَّهْرِ ... بل الشَّرَفُ الرَّاقي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ
كذا فليكن سعي الملوكِ إذا سَعَتْ ... بها الهِمَمُ العُلْيا إلى شَرَفِ الذِّكْرِ
نَهَضْتُمْ بأعباءِ الوزارةِ نَهْضَةً ... أَقَلْتُمْ بها الأقدام من زَلَّةِ العَثْرِ
كَشَفْتُمْ عن الإقليم غُمَّتَهُ كما ... كَشَفْتُمْ بأنوارِ الغِنى ظُلْمَةَ الفَقْرِ
حَمَيْتُمْ من الإفرنج سِرْبَ خلافةٍ ... جَرَيْتُمْ لها مُجْرى الأمانِ من الذُّعْرِ
ولما استغاثَ ابنُ النبيِّ بِنَصْرِكُمْ ... ودائرةُ الأنصارِ أضْيَقُ من شِبْرِ
جَلَبْتُمْ إليه النَّصْرَ أوْساً وخَزْرَجاً ... وما اشْتُقَّتِ الأنصارُ إلّا مِنَ النَّصْرِ
كتائبُ في جَيْرونَ منها أواخِرٌ ... وأوَّلُها بالنِّيلِ من شاطِئَيْ مِصْرِ
طَلَعْتُمْ فَأَطْلَعْتُمْ كواكبَ نُصْرَةٍ ... أضاءَتْ وكان الدِّينُ ليلاً بلا فَجْرِ
وآبَتْ إليكُمْ يا ابنَ أيوبَ دولةٌ ... تُرَاسِلُكُمْ في كلِّ يوم مع السَّفْرِ
حمى اللَّهُ فيكُمْ عَزْمَةً أسدِيَّةً ... فَكَكْتُمْ بها الإِسلامَ مِنْ رِبْقَةِ الأَسْرِ
أَخَذْتُمْ على الإفرنج كُلَّ ثنيَّةٍ ... وقُلْتُمْ لأيدي الخيلِ مُرِّي على مُرِّي
لئن نَصَبوا في البَرِّ جِسْراً فإنَّكم ... عَبَرْتُمْ بِبَحْرٍ من حديدٍ على الجِسْرِ
طريقٌ تقارَعْتُمْ عليها مع العِدَى ... فَفُزْتُمْ بها والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ
وأزْعَجَهُ مِنْ مِصْرَ خَوْفٌ يلُزُّهُ ... كما لُزَّ مهزومٌ من اللَّيلِ بالفَجْرِ
وكم وقعةٍ عذراء لما اقْتَضَضْتَها ... بسيفِك لم تَتْرُكْ لغيرك من عُذْرِ
وأيديكُمُ بالبأسِ كاسِرَةُ العِدَى ... ولكنَّها بالجودِ جابرةُ الكَسْرِ
أبوكَ الذي أضحى ذخيرةَ مَجْدِكُمْ ... وأنتَ له خيرُ النَّفائسِ والذُّخْرِ
ومن كنتَ معروفاً له فاستفزَّه ... بمثلكَ تِيهٌ فهو في أوْسَعِ العُذْرِ
فكيفَ أبٌ أصبحتَ نارَ زِنادِه ... وإلّا كَنُورِ البَذْرِ من سَنَةِ البَذْرِ
توقره وسط النَّدِيِّ كرامةً ... وتحمِلُ عنه ما يَؤُودُ من الوِقْرِ[1]

---

(١) النديّ: مجلس القوم نهاراً.

وتَخْلُفُه حَرْباً وسِلْماً خلافةٌ ... تُؤَلِّفُ أَضْداداً من الماءِ والجمْرِ
وكم قُمْتَ في بأسٍ وجودٍ ورُتْبَةٍ ... بما سرَّه في الخَطْبِ والدَّسْتِ والثَّغْرِ
ولو أَنْطَقَ اللَّهُ الجماداتِ لم تَقُمْ ... لِنِعْمَتِكُمْ بالمُسْتَحِقِّ من الشُّكْرِ
يَدٌ لا يقوم المسلمونَ بِشُكْرِها ... لكم آلَ أيوبٍ إلى آخرِ الدَّهْرِ
بِكُمْ أَمَّنَ الرَّحمنُ أعظَمَ يَثْرِب ... وأَمَّنَ أركانَ البَنِيَّةِ والحِجْرِ[1]
ولو رَجَعَتْ مِصْرٌ إلى الكُفرِ لانطوى ... بساطُ الهُدَى من ساحةِ البَرِّ والبَحْرِ
ولكنْ شَدَدْتُمْ أَزْرَه بوزارةٍ ... غدا لَفْظُها يُشْتَقُّ من شِدَّة الأَزْرِ
فهُنِّيتُمُ فَتْحاً تقدَّمَ جُلُّه ... وبَشَّرَ أَنَّ الكلَّ يتلُو على الإِثْرِ
وما بَقِيَتْ في الشِّرْكِ إلّا بقيةٌ ... تَتِمَّتُها في ذِمَّة البيضِ والسُّمْرِ
وعندَ تَمامِ المُلك آتي مهنئاً ... ومُلْتَمِساً أَجْرَ الكَهانةِ والزَّجْرِ[2]
ولولا اعتقادي أَنَّ مَدْحَك قُرْبَةٌ ... أرجِّي بها نَيْلَ المثوبةِ والأَجْرِ
لما قُلْتُ شِعْراً بعد إعفاء خاطري ... ولي سَنَواتٌ منذُ تُبْتُ عن الشِّعْرِ
فأَوْصِ بيَ الأيامَ خيراً فإنّها ... مُصَرَّفَةٌ بالنَّهْي منك وبالأَمْرِ
وجائزتي تسهيلُ إذني عليكُم ... وملقاكُمُ لي بالطَّلاقةِ والبِشْرِ

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [الخفيف]

يا شبيه الصِّدِّيقِ عَدْلاً وَحُسْنا ... وسَمِيًّا حَكَاه معنًى ومغنى
هذه مِصْرُ يوسفٍ حَلَّ فيها ... يوسُفٌ مالكاً وما حَلَّ سِجْنا
أنتَ حرَّمتَ أنْ يُثَلَّثَ فيها ... بسوى اللَّهِ وحدَه أو يُثَنَّى
إنَّما المُلْكُ والوزارَةُ جِسْمٌ ... أنتَ رُوحٌ فيه وفي اللَّفْظِ معنى

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [السريع]

مُلْكُ صلاح الدين لا قُوِّضَتْ ... أطنابُهُ مُلْكُ التُّقى والصَّلاحْ
سِيرةُ عَدْلٍ حَسَّنَتْ عندنا ... ما كانَ من وَجْهِ اللَّيالي القِباحْ
سافَرَ في الدُّنيا وأقطارِها ... ذِكْرٌ غدا عنهُ جميلاً وراحْ
قُلْ لابنِ أيوبٍ وكمْ ناصحٍ ... أنفعُ ممن هو شاكي السِّلاحْ
حاربْ على مِثْلِ نجوم السَّما ... فمُلْكُ مِصْرٍ ما عليه اصْطِلاحْ

---

(١) البنية: هي الكعبة المشرفة، إذ هي أشرف مبنى.
(٢) الزجر: العيافة والتكهّن. وزجر الطير: أثارها ليتيمن بسنوحها، أو يتشاءم ببروحها.

قـولا لـمـن فـي عَـزْمـهِ فـتـرةٌ ارجـعْ إلـى الـجِـدِّ وخَـلِّ الـمُـزَاحْ
فـالـقُـدْسُ قـد أَذَّن إغـلاقُـهُ عـلـى يَـدَي يـوسـفَ بـالانـفـتـاحْ

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [الطويل]

ونُبْتَ بِمِصْرَ عن سَمِيِّكَ يُوسُفٍ كما نابَ عن سَكْبِ الحَيا واكِفٌ سَكْبُ
حذوتَ على سَجْلَيْ نَدَاه وَهَدْيِهِ وإن كنتَ لا سِجْنٌ حواكَ ولا جُبُّ
ووافَقْتَهُ في الصَّفْحِ عن كلِّ مُذْنِبٍ فما منك تَثْرِيبٌ وإنْ عَظُمَ الخَطْبُ

وللحكيم عبد المنعم الجِلْياني[1] من قصيدةٍ طويلة: [البسيط]

أبـو الـمُـظَـفَّـر مـأوى كـلِّ مُـضْـطَـهَـدٍ بـحـلـمِـهِ ونَـدَاه يُـضْـرَبُ الـمَـثَـلُ
مـهـمـا يَـمِـلْ جـائِـرٌ أو عـائِـثٌ عَـمِـهٌ فـعـنـد عَـدْلِ صـلاحِ الـدِّيـن يَـعْـتَـدِلُ
أحـيـا بـه الـلَّـهُ مِـصْـراً فـهـي نـاشِـرة وافـتـكَّـهـا مـن عـدوٍّ مـا بـه قِـبَـلُ
كـم لـلـفـرنـج بـهـا وِرْداً ومـنـتَـجـعـاً ونـارُهُـمْ حـولَـهـا تـذكُـو وَتَـشْـتَـعِـلُ
فـأطـفـأ الـنَّـاصِـرُ الـمـنـصـورُ جَـذْوَتَـهُـمْ وأَدْبَـرُوا بـقـلـوبٍ شَـهْـمُـهـا وَجِـلُ
مَـلْـك تـقـلَّـد سِـلْـكَ الـمـلـكِ مُـنْـتَـظِـمـاً وقـال لـلـمـال: هـذا مـنـك لـي بَـدَلُ
فَـفَـرَّقَ الـمـالَ جَـمْـعـاً لـلـقـلـوبِ بـه وحَـسْـبُـهُ فـيـهـمُ إدراك مـا سـألُـوا
إنَّ الـمـلـوكَ الـذيـن امـتـدَّ أمـرهُـمُ لم يَخْزُنُوا المالَ بل مهما حوَوْا بذَلُوا
كـذا الـسِّـيـاسـةُ فـالأجـنـادُ لـو عَـلِـمـوا بُـخْـلَ الـمـلِـيـك وجـاءَتْ شِـدَّةٌ خَـذَلـوا

---

(١) هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني، حكيم الزمان، أبو الفضل الجلياني الأندلسي، من أهل جليانة، وهي حصن من أعمال وادي آش بالأندلس، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكان السلطان يجله ويحترمه، وله فيه مدائح كثيرة أشهرها «المدبجات» والتي تسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر». ولد سنة ٥٣١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٣هـ، وقيل: سنة ٦٠٢هـ، من تصانيفه: «أدب السلوك»، «تحرير النظر»، «تحفة الجوهرية» قصيدة في فتوحات صلاح الدين الأيوبي، «جامع أنماط السائل في العروض والخطب والرسائل»، «ديوان الحكم وميدان الكلم»، «ديوان الغزل والتشبيب»، «ديوان المبشرات والقدسيات»، «ديوان المديح»، «سر البلاغة وصنايع البديع في فصل الخطاب»، «مذبحة رهان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على ممر الزمان»، «مشارع الأشواق» في التصوف، «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠، نفح الطيب ٣/ ٣٥٧، ٣٧٨ ـ ٣٧٩، ٦/ ١٠٠، معجم البلدان ٢/ ١٥٧، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٠ ـ ٦٣٥، الغصون اليانعة، لابن سعيد ص١٠٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٤٠٧).

فصل

[رواية ابن أبي طي لقصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين]

هذا الذي ذكرناه من قِصَّة شاور وما جرى بسببه في الدِّيار المصرية إلى أن تمَّت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زياداتٍ وفوائد في كتابِ ليحيى بن أبي طي الحلبي[(١)] في «السِّيرة الصَّلاحية»[(٢)]، فأحببتُ ذكره مختصراً.

ذكر أنَّ الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك[(٣)]؛ وزير الدِّيار المصرية، لما قُتل في رمضان سنة سِتٍّ وخمسين، بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنَه رُزِّيك بشاور، وقال له: لا تزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال: إنه أنشد أبياتاً، منها: [الكامل]

فإذا تبدَّد شَمْلُ عِقْدكما ... لا تأمَنَا من شاور السَّعْدِي

وكان شاور متولي قُوص والصَّعيد الأعلى؛ فلما دُفن الصَّالح استوزر ابنه رُزِّيك ولقب بالعادل. ولما استقرَّت أحواله أرسل إلى عمَّة العاضد فخنقها، واجتمع إلى رُزِّيك أولادُ عمته، ومن جُملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه بعزل

---

(١) ابن أبي طي: هو يحيى بن حميدة بن ظافر بن علي الغساني الحلبي، الأديب المعروف بابن أبي طي، مؤرخ شيعي، ولد سنة ٥٧٥هـ، واشتغل بصنعة النجارة مع أبيه، ثم تركها، وحفظ القرآن، ومال إلى طلب العلم، ثم انتقل إلى تعليم الصبيان وإقراء القرآن إلى سنة ٥٩٧هـ، ثم اختص بتعليم ابن لأحد الوزراء إلى سنة ٦٠٠هـ، ثم ترفع عن التعليم ولزم منزله وطلب مشايخ الأدب، فقرأ عليهم ودرس، ثم أقبل على نظم الشعر، ومدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وارتفعت منزلته عنه، وولاه نقابة الفتيان سنة ٦٠٩هـ، ثم صنف كتباً في التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والأصول، توفي سنة ٦٣٠هـ، له من الكتب: «حوادث الزمان» في التاريخ، «سلك النظام في تاريخ الشام»، «طبقات العلماء»، «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر»، «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين» «مختار تاريخ العرب»، «معادن الذهب في الطب»، «مناقب الأئمة الاثني عشر»، «المنتخب في شرح لامية العرب». (كشف الظنون ٦/ ٥٢٣، لسان الميزان ٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، أعيان الشيعة ١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) هو كتاب «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين» انظر الحاشية السابقة.

(٣) هو الصالح بن رزيك، تقدّمت ترجمته.

شاور، فامتنع، ثم ألحُّوا عليه، فأجاب. وبلغ شاور فجاهر بالعصيان، وجمع العربان وأهل الصَّعيد وسار إلى القاهرة، وخرج إليه جماعةٌ من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رُزِّيك تحت الليل، فَضَلَّ الطريق وتاه، فوقع عند إطْفِيح، وثَمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه، وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلَّمها، وأُخرجت إليه خلع الوزارة، وتَمَّ أمرُهُ.

ولما حصل رُزِّيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يراعي الجميل. وكان للصَّالح إليه إحسان، وتفرَّق آل رُزِّيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رُزِّيك بأموال، وصار إلى حماة، فأقام بها واشترى القُرى، ولم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعينَ ألف دينار، فوفَوْا له وردُّوها عليه، ثم أراد تقي الدين[1] أخذها منه، فقال: من العجب أنَّ الفرنج تفي لي بردِّها وتأخذها أنت مني. فكفَّ عنه.

قال: وتمكَّن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسَّطوا على الناس، وتعاظموا، فمَجَّتهم الأنفس.

[مقتل رزيك بن طلائع وطي وسليمان ابني شاور]

وكان مُلْهَم وأخوه ضِرْغام من صَنائع الصَّالح بن رُزِّيك، فلما شاهدا ميل النَّاس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رُزِّيك بن الصَّالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطيّ بن شاور، فدخل

---

(١) هو الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، تقي الدين بن نور الدين. كان شجاعاً، شديد البأس، له شعر حسن، كسر عسكر الروم وكانوا عشرين ألفاً، سار إلى البلاد التي زادها إياه عمه، وهي حرّان وغيرها، فامتدت عينه إلى البلاد المجاورة، واستولى على السويداء، وحاني، وأيقع مع بكتمر صاحب خلاط، فكسره وحصره في خلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل ونزل ملازكرد وضايقها، وكان في صحبته ولده المنصور محمد، فعرض للمظفر مرض وتزايد به حتى توفي في يوم الجمعة لأحدى عشرة بقيت من رمضان سنة سبع، وقيل: سنة ست وثمانين وخمسمائة، فأخفى ولده موته، ورحل من ملازكرد، ووصل به إلى حماه، وقيل: إنه دفن بميافارقين، ثم نقل ودفن بظاهر حماه، وبني إلى جانبه مدرسة. واتفق أن حسام الدين محمد ابن ست الشام ـ أخت صلاح الدين ـ مات في الليلة التي توفي فيها المظفر، فأصيب السلطان بيوم واحد بابن أخيه وابن أخته (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، وانظر أيضاً ترجمته في الفتح القسي ص٥٦٦، وفيات الأعيان ٣/١٢٨، السلوك ١/١٠٧، تاريخ ابن الوردي ٢/١٤٨، طبقات الشافعية للسبكي ٤/٢٨٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/٢١٦، العبر ٤/٢٦٢، كنز الدرر ص١١٠، البداية والنهاية ١٢/٣٤٦، النجوم الزاهرة ٦/١١٣، شذرات الذهب ٤/٢٨٩).

على أبيه وقال له: أنت غافل، ومُلْهَم وضِرْغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رُزِّيك، واستحلفا له جماعة من الأُمراء، ولا يمكن تلافي حالك إلا بقتل رُزِّيك. فقال له شاور: إنَّ الصَّالح أولاني جميلاً، وبسببه حللتُ هذا المحل. فتركه ولده طيّ، ودخل على رُزِّيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته؛ ونُمي الخبر إلى ضِرْغام وأخيه مُلْهَم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأُمراء، وزحفا بالعساكر إلى شاور، فانهزمَ وخرجَ من باب القاهرة، وهرب إلى الشَّام، وأدرك ضرغام ولديه طيئاً وسليمان فقتلهما، وأَسَرَ الكامل، فأخذه مُلْهَم واعتقله عنده، وأراد ضِرْغام قتله فمنعه منه مُلْهَم، وحَفِظَ له جميلاً كان قد فعله معه.

[ولاية ضرغام الوزارة في مصر]

واستقرَّ أمر ضِرْغام في الوِزَارة، وخُلِعَ عليه، ولقِّب بالملك المنصور. ولما استقرَّ به الأمر بلغه أن جماعةً من الأُمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاور ـ وكان صار إلى الشَّام ـ فأخذ في إعمال الحيلة عليهم، وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً، فقتلهم جميعاً، ولم يتعرَّض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل: إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال: إنه جعلهم في توابيت وكتب على كلِّ تابوتٍ اسمَ صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعفَ عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقُّقِهِ قتل ولديه. ولما وصل إلى بُصْرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة إلى تلقِّيه، وأنزله في جَوْسَق[1] الميدان الأخضر، وأحسن ضيافته وإكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابنِ الصُّوفي وجماعة من وجوه الدِّمَشْقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل، وسلِّموا عليه، وعرِّفوه أعذارنا في التقصير في حَقِّه، وسَلُوه فيما قَدِمَ، وما حاجتُهُ، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأَرَبه وأَوَده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرِّسالة، فشكر إحسان نور الدين، وسكتَ عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيَّت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين، وَعرَّفوه ما دار بينهم وبينه، فأمر بالعَوْد إليه من غدِ ذلك اليوم، فعادوا، وطلبوا الجواب، فسكت أيضاً وأطال، ثم قال: إن رأى نورُ الدين ـ أطال الله بقاءه ـ الاجتماع بي، فله علوُّ الرأي. فعرَّفوا

(١) الجوسق: معرّب وأصله كوشك بالفارسية، والجوسق: القصر.

نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين إلى أن يكون الاجتماع على ظَهْرِ بالميدان الأخضر. وركب نور الدين من الغد في وجوه دَوْلَته وخواصِّ مملكته في أحسن زِيٍّ وأكمل شارة. فلما دخل الميدان ركب شاور من الجَوْسَق، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضِرْغام فإنه حين استقرَّ به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين، على يد علم الملك ابن النَّحَّاس[1]، يُظْهر فيه الطَّاعة ويعرِّض بخِذْلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القَبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر الكَرَك أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزَم علم الملك بنفسه، وتوجَّه إلى السَّاحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين، واستحضر أسد الدين شِيركُوه من إقطاعه من الرَّحبة، وكان نور الدين قد تيمَّن بأسد الدين، وَتَبرك بميمون نقيبته، لأنه لم يرسله في أمرٍ إلا نجح، ولم يولجه في مضيقٍ إلا انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق أخلاه نور الدين، وتحدَّث معه بأشياء في أمر مصر، وأمرَه بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح عِلَّة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه.

وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر، ورغَّبه في ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قِبَلِه فيها.

ولما بلغ شاور استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدَّم عليه، فقيل له أسد الدين شِيركُوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظَنَّ أن التقدمة تكون له، فلما زُوحم بهذا العود سُقِطَ في يده، وَفُتَّ في عَضُده، ولم يجد بُدًّا من المسير، فخرج واجتمع

---

(١) علم الملك ابن النحاس: هو أبو فراس يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، خدم السلطان صلاح الدين، وقدم معه الشام في خدمة الملك المظفر، تقي الدين، عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أورد له العماد الكاتب نتفاً من أشعاره. وقال ابن الفوطي: كان جده يعرف بالقائد مصطنع الدولة، ويعرف بابن النحاس، ولم يكن في أجداده من كان نحاساً، إنما ابتاع داراً بالإسكندرية من رجل يعرف بابن النحاس، فلما سكن الدار قيل له: ابن النحاس، وهو من ولد تميم بن المعز الصنهاجي، توفي سنة ٥٨٩هـ. (انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ٢/ ١٢١ ـ ١٢٣، تلخيص مجمع الآداب، لابن الفوطي ٤/ ٦٣٠ ـ ٦٣١.

بأسدِ الدين، وسارا جميعاً حتى وصلوا أطرافَ البلاد المصرية، ونزلوا على تلٍّ في الحوْف قريبٍ من بِلْبِيس يُعْرف بتل بسطة، وضربوا خيامهم هناك.

ولما اتصل بضِرْغام خبرُ ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشَّامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتَخرج جريدة، وتَلقى العساكر الشامية بصَدْر - وهو على يومين من القاهرة - فإنهم لا يثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قِلَّة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أَيْلَة مسيرة ثلاثة أيام. فلم يَرَوْا ذلك، واختاروا أن يلقوهم على بِلْبيس. فأمر ضِرْغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زِيٍّ وأكمل عُدَّة، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهَم؛ أخو ضِرْغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه.

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدُّوا منافذ الطُّرقات، قال لشاور: يا هذا، لقد أرهقتنا وغرَّرتنا، وقلتَ إنه ليس بمصر عساكر، فجئتنا في هذه الشرذمة! فقال له شاور: لا يهولَنَّك ما تشاهد من كثرة الجموع، فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطَّبْلُ وتفرقهم العصا، فما ظنُّك بهم إذا حمي الوطيس وكَلِبَت الحرب! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم. ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب، ففعل، ونهاهم شاور عن القتال.

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار، والتهبَ الحديدُ على أجساد الرِّجال، فضرب أكثرُ أهلِ مصر الخيم الصِّغار، وخلعوا السِّلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظلِّ. فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه، وأطلق عِنانه وولَّى منهزماً. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس لها حافظ، فاحتوى عليها أصحابُ أسد الدين، وأُسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا. وساق أسد الدين وشاور في إثر النَّاس، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً، وراسل شاور العاضد في إصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له.

وكان ضِرْغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يُكلِّمني لأسأله عما أفعل. فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زُوَيْلَة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجلٌ من أهل الشَّام ليقتله، فقال له ضِرْغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مُناك. فلم يقبل منه، وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه، واحتزَّ رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصَعُبَ على

أسد الدين وأوجعه ضرباً، وأراد قتله، فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة وقتل مُلْهماً أخا ضِرْغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار مُلْهَم، وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه.

واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المَقْس ينتظر أمر شاور فيما ضَمِنَ لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضَجِرَ العسكر من الحَرِّ والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله تعالى ودَعَتِه. فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه: إنَّ نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مُغَلِّ البلاد، والثلث الآخر لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه. فقال شاور: أنا ما قرَّرْتُ شيئاً مما تقول، أنا طلبتُ نجدةً من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشَّام، وقد سيرتُ إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نورِ الدين. فقال أسد الدين: أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره. فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعدَّ أسد الدين أيضاً، وسيَّر صلاحَ الدين في قطعةٍ من الجيش إلى بِلْبِيس لجمع الغِلال والأتبان[1] والأحطاب وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بِلْبيس ذَخيرة، وأخذ في قتال القاهرة.

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّي يستنجده ويقول له: إن شِيركُوه طلع معي نجدةً على ضِرْغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيشٌ ولا قرار. وضَمِنَ له في كل مرحلةٍ يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لأسبتاريته[2]. فخرج مُرِّي من عَسْقلان في جموعه إلى فاقُوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار.

ولما تحقَّق أسدُ الدين قُرْبَ الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بِلْبِيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة. وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج،

---

(١) الأتبان: جمع تبن، وهو ما تهشّم من سيقان القمح والشعير بعد درسه، تعلفه الماشية.

(٢) الأسبتارية: هم فرقة عسكرية مسيحية جاءت مع الحملات الصليبية، بدافع الشحن العقائدي الديني، وقد عرفوا بكونهم جماعة مقاتلة، وكان لرئيس طائفتهم في أسبانيا دور أساسي في التأثير على ملك أرغون خايمة الأول المعروف بالغازي، ودفعه للاستيلاء على بلنسية وما بقي للمسلمين في شرقي الأندلس، إذ دخلت جيوشه بلنسية في سبتمبر ١٢٣٨م. كما وصف ابن الأبار في «الحلة السيراء» (انظر الحلة السيراء ٢/ ١٢٧، ٣٠٥).

وجاء حتى خيَّم على بِلْبيس، وأحاط بها محاصراً لأسد الدين، يباكر الحرب ويُرَاوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر.

وانقطعت أخبارُ مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين ـ وهو بدمشق ـ خبرُ مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور؛ فكاتَبَ الأطراف بقدوم العساكر، فَقَدِمَ عليه عساكر الشَّرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب، فنزل بهم مجد الدين ابن الدَّاية ـ وكان نائب نور الدين بحلب ـ وسار إلى جهة حارِم، ونزل على أَرْتاح، وخرج نور الدين من دمشق، وشنَّ الغارة على السَّاحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شنَّ الغارة فيها، وغنم غنيمةً عظيمة، ونزل في مَرْجه، فخرج إليه الفرنج الإِخوة من حِصْن الأكراد، وهجموا عسكره، وقتلوا جماعةً من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسكِ النَّاس، وساروا على وجوههم.

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أَرْتاح، وكان أخوه نُصْرة الدين مع الفرنج، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قَرُب منه نزل، وقَبَّل الأرض بين يديه، فلم يلتفت إليه، فتمَّ على وجهه. واصطفَّ الناس للحرب، فحملت الفرنجُ فكسرت الميسرة، ثم عادت، فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيل قد أطبقت عليهم، فنزلوا عن الخيول وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأُخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي.

وسار إلى حارِم ففتحها، وأراد النُّزول على أنطاكية، فلم يتمكَّن لِشُغلِ قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس، فافْتَتَحها، وأغار على بلد طبريَّة، وجمع أعلام الفرنج وشِعافهم[١] وجعلها في عَيْبَة[٢] وسلَّمها إلى نَجَّاب، وقال له: أريد أن تُعمل الحيلة في الدُّخول إلى بِلْبِيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشِّعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بِلْبيس، فإنَّ ذلك مما يفتُّ في أعضاد الكُفَّار، ويدخل الوَهْن عليهم. ففعل ذلك، فلما رأى الفرنج الأعلام والشُّعاف قلقُوا لذلك وخافوا على بلادهم؛ وسألوا شاور الإِذن في الانفصال. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التَّمهُّل أياماً، وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفَّل إتمام الصلح له الأمير شمسُ الخلافة، فأنفذه إليه، فَتَمَّ الصُّلْح على يديه، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

(١) الشعاف: جمع شعفة، وهي الخصلة من الشعر.
(٢) العيبة: ما يجعل فيه الثياب كالحقيبة.

وحُكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببِلْبِيس، يقول له: اعلم أنني قد أبقيت عليك ولم أمكِّن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأُقوِّيَ الفرنج عليهم، والثاني أني خِفت أن الفرنج إذا فتحوا بِلْبِيس طمعوا فيها، وقالوا: هذه لنا؛ لأنا فتحناها بسيوفنا. وما من يوم كان يمضي إلا وأنا أُنفذ إلى أكابر الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا هِمَّةَ الملك عن الزَّحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بِلْبيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة السَّاحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام، وجعل مسيره على البرِّية.

واتَّفق أن البرنس أرناط صاحب الكَرَك والشَّوْبَك تأوَّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفتُ أني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر، وأنا أريد ألحقه في البحر. وركب في البحر، وصار في يوم واحد إلى عَسْقلان، وخرج منها إلى الكَرَك والشَّوْبَك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحَدْس والتَّخْمين، فسلك طريقاً مِنْ خلف المكان الذي كان فيه أرْنَاط: شَقَّ إلى الغَوْر وخرج من البَلْقاء، وسلَّمه الله تعالى منه. ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغَّبه فيها، وشوَّقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له هِمَّة إلا تَتَبُّع مَنْ علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صُحْبة. وكان اسْتَفْسَد جماعةً من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكُرْدِي[1]، وأقطعه شَطَّنَوْف[2]، وقتل شاور جماعةً من أهل مصر، وشرَّد آخرين.

ثم توجَّه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاور إلا وُرُود كتاب مُرِّي ملك الفرنج، يعرِّفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النَّجْدة، والمقرَّر من المال يصلُ إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي. فسار مُرِّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً

(١) هو عز الدين خشترين الكردي، ولاه السلطان صلاح الدين بزاعا سنة ٥٧١هـ، انظر حوادث سنة ٥٧١هـ، في هذا الجزء.

(٢) شطنوف: بلد من نواحي كورة الغربية، عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقاً إلى تنيس، وفرقة تمضي غرباً إلى رشيد، وهو على فرسخين من القاهرة (معجم البلدان ٣/ ٣٤٤).

في البر، فسبقه الفرنجُ ونزلوا على ظاهر بِلْبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين.

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بِلْبِيس، فنكَّب عن طريقهم وأمَّ الجبل، وخرج على إطْفِيح، وهي في الجنوب من مصر، وشنَّ الغارة هناك، واتصل بشاور خبرُه، فسار في عساكره، والفرنج في صحبته، يقفُو أثره. واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شَرُونَة[1] من صعيد مِصْر، وتحيَّل في مراكب ركبها، وعدَّى إلى البرِّ الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعضَ ساقته ومنقطعي عسكريته، فأوْقَع بهم. وأحضر شاور أيضاً مراكب، وقطع النِّيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجِيزة، وخيَّم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقُرَشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلفُ لك بالله الذي لا إله إلّا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكِّن أحداً من التعرُّض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلْباً عليه، وما أُؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حَصَل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصُه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهزَ فيه الفُرْصة التي قد أمكنت، والغنيمة التي قد أُكْثِبَتْ، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً.

فلما صار الرسول إلى شاور، وأدَّى إليه الرسالة أمر به فَقُتِلَ، وقال: ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفَرَج! ثم أعلم الفرنج بما أَرْسَلَ به إليه أسد الدين، وأعلمهم بما أجابه، وجدَّد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين، فأكل يديه أسَفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنهُ الله، لو أطاعني لم يبق بالشَّام أحدٌ من هؤلاء الفرنج! ونزل شاور في اللُّوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجِيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فَشُحِنَتْ بالرجال، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين.

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم، فقاموا معه، وأمَّروا عليهم نجم الدين بن مَصَال[2] ـ وهو ابنُ أحد

---

(١) شرونة: بلدة شرقي النيل (معجم البلدان ٣/ ٣٤٠).

(٢) لم أجد له ترجمة في المراجع والمصادر التي بين يدي، ولعله كان والي الإسكندرية، وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ.

وزراء المِصْريين ـ وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً، فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الإدريسي الشريف[١]، نزيل حلب، قال: كنتُ بالإسكندرية يومئذٍ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتُها بيومين، وحضرتُ بين يدي أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة ابن مَصال في معنى السلاح والآلات، ثم وَصَلَتْ الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عَوْف[٢]. قال: وبقينا على الجِيزة يومين، فوصل إلينا رسول ابن مُدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنَّجاة، فترك أسدُ الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلْجَة، فأمر أسد الدين بنهبها فَنُهِبَتْ. ونزل النَّاس لتعشية الدواب فلم يُستتمَّ عليقها حتى أمر أسد الدين الناس بالرَّحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا، فإذا الجاووش[٣] ينادي في النَّاس بالرُّجوع، وعاد أسد الدين إلى دَلْجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأُشمونيين. وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فَقُتِلَ من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا. وكان أسد الدين قد فَرَّق أصحابه فريقين: فريقاً معه وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لا منجى لهم إلّا الصَّبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحربُ قائمةً إلى الليل، فولَّت عساكر الإفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مُرِّي ملك الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سَلِمَ معه إلى مُنْيَة ابن خَصِيب، وسار أسد الدين على الفيُّوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزُّبير[٤] متولياً ديوانها،

---

(١) الأدريسي الشريف: هو إدريس بن الحسن بن علي بن عيسى، الإدريسي، الحسني الإسكندراني، أبو الحسن، ولد في مصر سنة ٥٤٥هـ، وتوفي في حلب سنة ٦١٠هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٢) ابن عوف: هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، شيخ المالكية في عصره، ولد سنة ٤٨٥هـ، سمع منه السلطان صلاح الدين الأيوبي الموطأ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٨١هـ. (سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٣) الجاووش: من الجاويش، وهي كلمة تركية مشتقة من المقطع التركي: جاو، الذي يدل على معنى الصياح والنداء، ويقول البعض: إن أصلها مغولي، أما المعاجم التركية فتذكر أن أصلها فارسي، والجاويش في كل هذه اللغات منصب عسكري (تأصيل الدخيل ص٥٩ ـ ٦٠).

(٤) ابن الزبير: هو القاضي الرشيد أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي إسحاق إبراهيم بن =

فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقوَّاه بالسِّلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذَّى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعةً من العسكر، ومَنْ به مرضٌ أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصَّعيد. ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مُدَّة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نُصْرة الملك النَّاصر أموالهم وأنفسهم، وقُتِلَ منهم جماعة عظيمة.

ولما صار أسد الدين بالصَّعيد حَصَّل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتدادُ الأمر على الإسكندرية، فرحل من قُوص إلى جهتها، واتَّبعه جماعةٌ كثيرة من العُرْبان وأهل تلك البلاد. وبلغ ذلك شاور فرحل هو والفرنج، واضطرَّ إلى الصُّلْح، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسَّط ملك الفرنج في ذلك، فتقرَّر أمر الصلح على أن شاور يحمل إلى أسد الدين جميع ما غَرِمَهُ في هذه السَّفْرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكبَ يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عِدَّة مراكب.

قال الإدريسي: كنتُ في جُمْلة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكًّا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرِّي فأطْلَقَنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوَرَ لأهلها وألا يعرض لهم بسوءٍ، واجتمع بعمِّه أسد الدين.

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مَصَال وجماعة ممن أعان صلاح الدين، وضيَّق عليهم، وتتبَّعَ أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين، فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاور نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الأيمان جرت على ألا تعرض لأحدٍ من أهل مصر ولا أهل الإسكندرية. وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحدٍ ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصَّلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرَّحيل إلى الشَّام. واتصل ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجَمَعَ

= محمد بن الحسين بن الزبير، الغساني الأسواني، الشهير بالقاضي الرشيد، المصري، توفي سنة ٥٦٣هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

جميع من عَزَمَ على الرِّحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

[خروج أسد الدين من مصر وإقطاعه حمص]

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مُرِّي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخُلَ إليهم ولا يتعرَّض لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بُدًّا من اليمين فحلف وحلف أصحابه، وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدَّوي منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلَّاتها، فوجدها أمراً عظيماً. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حِمْص وأعمالها.

[كتاب شاور لنور الدين]

وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني غير واحد أن شاور كاتب نور الدين في ذلك، وضَمِنَ له أن يحمل في كلِّ سنة عن ديار مصر مالاً مصانعةً.

ولما بلغ شاور أن نور الدين صَرَفَ هِمَّةَ أسد الدين عن ذكر مصر والتعرُّض لها أنفذ رسولاً بهدية سنية، وأصحبه كتاباً حسناً، أوله: «ورد كتابٌ استدعى شكري وحَمْدي، واستخلص من الصَّفاء ما عندي، واستفرغ في الثناء على مُرْسله جَهْدي، فكأنما اسْتُمْلَتْ معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي؛ وسررتُ للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كلِّه، بأن يكون مثلُه ملكاً من ملوكه، يُرجع إليه في عَقْده وحَلِّه، وتشير الأصابع وتُعقد الخناصر على عُلُوِّ محَلِّه. والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوَّة، ويحقِّق على يديه مخايل النصر المَرْجُوَّة، فما أسعد رأساً دلَّ على نُصْرَةِ الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المُسْلِمة، ووفر على مصالح الأمة قلوبَ رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدرَ مني، وباقٍ منه على ما نُقِلَ عني، لا أتغير عَن المصلحة فيه، ولا يخالفُ ما أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كثيراً أصلُ إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوقٍ استوجب شُكرَها قولاً وفِعْلاً، ونُصْرةٍ كانت في هجير الخُطُوب بَرْداً وظِلاً، وَأَنْعُم لا تزال آياتها بألْسُن الحمد تُتْلَى وتملى، ولَعَمْري لقد بنى بها فخراً، وارتفع علىَ الأملاك قَدْراً وذِكْراً، ووجب أن يستتمَّها فلا يصل إلى مواردِها الكَدَر، ويحوطَها فلا تتطرَّق إلى جوانبها الغِيَر. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله

كيمينه، وكتابَهُ كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرُّقِ أسباب الاختلال.

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مُرِّي ملك الفرنج في مصر، وعوَّلَ على الدُّخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما انكشف له من عُوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها. فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدَّاويَّة[١] والاسبتاريَّة[٢]، وتشاوروا، فَجَرَتْ بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الدِّيار المصرية. فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيَّالته، وفرَّقَ قُراها على أجناده. وكان ـ لعنه الله ـ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كَتَبَ له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرَّف له خبر ارتفاعها. ثم سار حتى نزل الدَّاروم، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسَيَّره إلى لقاء مُرِّي يسأله عن السَّبب في قصده. فاجتمع به وسأله، فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه، وضَمِنَ له رَضِيخة[٣] على أن يورِّيَ عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمِّمَ على المصريين الحيلة، ويُعلم شاور أنه إنما قصد مِصرَ للخدمة، ففعل ذلك بدران.

ولما سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأميرَ شمسَ الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غَشَّني ولم ينصحني، وأنا فواثقٌ بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُرِّي ـ وكان بينهما مؤانسة ـ فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغَدَّار، وإلا ما الذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أنَّ الفقيه عيسى[٤] يزوِّج أُخت

---

(١) الداوية: طائفة مشهورة من الرهبان المرابطين، كان مركزهم الأساسي في قلعة رباح بأسبانيا التي كانت حداً فاصلاً بين أرض النصارى وأرض المسلمين، وقد جاء قسم منهم إلى المشرق مع الحملات الصليبية، ويقال لهم في فرنسا: فرسان المعبد، وهم طائفة عسكرية متدينة تأسست سنة ١١١٩م، وكان لها دور بارز في الحملات على فلسطين، وقد جمعوا ثروات طائلة من غزواتهم، أصبحوا بفضلها ممولي البابا وعددٍ من الأمراء. ومنذ العام ١٣١٢م، ألغى الباب كليمان الخامس شرعية هذه الطائفة بطلب وتحريض من ملك فرنسا (انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٣٧٩، سيرة الملك المنصور ص٢٠، الحلة السيراء ٢/ ١٧٨).

(٢) الاسبتارية: فرق عسكرية مسيحية جاءت مع الحملات الصليبية بدافع الشحن العقائدي الديني، وهم بذلك مثل «فرسان المعبد»، أو «الداوية».

(٣) الرضيخة: يقال: رضخ له: أعطاه عطاءً غير كثير، وراضخ زيد شيئاً: أعطاه كارهاً.

(٤) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ. وهو من أعيان أمراء عسكر السلطان صلاح الدين، تقدّمت ترجمته.

الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويزوّج الكامل أُخت صلاح الدين، فقلنا هذا عملٌ علينا. فقال له شمسُ الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فُعل ذلك لم يكن فيه نَقْضٌ للعهد. فقال له الملك: الصَّحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغَلَبُونا على آرائنا، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجنا لنتوسَّط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأي شيء قد طلبوا؟ قال ألفي ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصلَ إلى شاور، وأبلغه مقالكم وأعودُ بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بِلْبِيس إلى أن تعود.

قال: وحُكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الدَّاروم كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدتُ الخدمة على ما قرَّرْتَه لي من العطاء في كل عام. فأجابه شاور: إن الذي قَرَّرته لك إنما جعلتُه متى احتجتُ إليك، أو إذا قَدِمَ عليَّ عدو، فأما مع خُلُوِّ بالي من الأعداء فلا حاجة بي إليك ولا لك عندي مُقرَّر. فأجابه مُرِّي أنه لا بدَّ من حضوري وأخذي المقرَّر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونَقَضَ الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بِلْبيس قطعةً من الجيش وميرة وعُدَّة.

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوي على قولٍ حتى خَيَّم على بِلْبِيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النَّحَّاس[1]، وابن الخياط يحيى، وابن قَرْجَلَّة. وأرسل إلى طي بن شاور[2] ـ وكان بِبِلْبيس ـ وقال له: أين ننزل؟ قال: على أَسِنَّة الرِّماح. وقال له: أتحسب أن بِلْبِيس جُبْنَةً تأكلها؟ فأرسل إليه مُرِّي: نعم هي جبنة والقاهرة زُبْدة. ثم قاتل بِلْبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسَّيف، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخرَّب أكثرها، وحرَّق جُلَّ آدُرها[3]، ثم أُخرج الأسارى إلى ظاهر البلد، وحُشروا في مكانٍ واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرَّقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدَّى أكثرهم النيل إلى جهة مُنْية حمل، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم،

(١) هو أبو فراس، يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، وخدم السلطان صلاح الدين، توفي سنة ٥٨٩هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) وأرسل إلى طي بن شاور: كذا بالأصل، وقد تقدم أن طيئاً قتل سنة ٥٥٩هـ، ولعله ابن طي بن شاور.

(٣) آدر: جمع دار، على القلب.

وبقي أهل بِلْبِيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير؛ لأن الملك النَّاصر رحمه الله تعالى لما ملك ديار مصر وقف مُغَلَّ بِلْبِيس على كثرته على فَكَاك الأسرى منهم، وسامحَ أهل بلبِيس بخَرَاجهم إلى آخر أيامه.

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بِلْبِيس من القَتْلِ والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرِّجال والعُدد، وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أنَّ البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نُصْرَتَه ومعونتَهُ. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طَيَّ تلك الكتب كتباً، وسخَّم أعاليها بالمِدَاد.

قال: وحدَّثني شمسُ الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مُرِّي، لعنه الله، بعد أخذِ بِلْبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أُفضي به إليك إلّا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه. فلما حلف له قال: إن أباك قد وطَّنَ نفسه على المُصَابرة، وآخر أمره يُسلِّم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد، وألزمه أن يكتبَ إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فَصَعِدَ الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسدَ الدين، وكان ذلك من مُناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكّاري إلى مصر برسالةٍ ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالةٍ سِرِّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم، وهجُّوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك النَّاس أكثر أموالهم فنهبت. وأُحرقت مِصْر في تاسع صفر، وأقامت النَّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يوماً.

ثم إن الفرنج ـ لعنهم الله ـ نزلوا في بركة الحَبَش[1]، وانبثَّتْ خيولهم في الأطراف، وتخطَّفوا من ظفروا به. فأنفذ شاور شمسَ الخلافة إلى مُرِّي ـ لعنه الله ـ فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السَّماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر،

(١) بركة الحبش: من منتزهات مصر، مشرفة على النيل خلف القرافة، كانت تعرف ببركة المعافر، وبركة حمير، قال ياقوت: وليست ببركة ماء، وإنما شبهت بها، وربما امتلأت بالماء وقت زيادة النيل (معجم البلدان ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

وما أتيتك إلا وقد أُحْرِقَتْ بعشرين ألف قارورة نفط، وفُرِّقت فيها عشرة آلاف مَشْعَل، وما بقي فيها ما يؤمَّل بقاؤه ونفعه؛ فخلِّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي، وكوني كلما قلت لك انزل في مكان تعدَّيت إلى غيره، وما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة. فقال: هو كما تقول، ولا بُدَّ من نزول القاهرة، ومعي فرنجٌ من وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع في خِيَمه، فقاتلوا البلد أياماً.

[رسالة شمس الخلافة محمد بن مختار إلى مري]

فلما تيقَّن شاور الضَّعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمُدافَعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مُرِّي ـ لعنه الله تعالى ـ برسالةٍ طويلة فَتَلَ بها في غاربه[1] ودار من حواليه، وفي ضمنها: «إن هذا بلد عظيم، وفيه خَلْقٌ كثير، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالمٌ عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصِّل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً». فاستقرَّت المصانعة على أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُعَجّل له منها مائة ألف دينار. فأجاب مُرِّي إلى ذلك، وانعقدت الهُدْنة، وحلف مُرِّي، ورحل إلى بركة الحَبَش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار في عِدَّة دفعات سوَّف فيها الأوقات، ثم أخذ يمطله بالباقي انتظاراً لقدومِ العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال. فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشَّام عليهم، فلما رأوهم رحلوا إلى بِلْبيس، ونزل أسد الدين بالمقس. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس، واتبعه أسد الدين ونزل على بِلْبيس.

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعضَ المال، فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قلَّ علينا المال. فقال ملك الإفرنج: اطلب منه ما شئتَ. قال: أشتهي أن تَهَب لي النصف. قال: قد فعلتُ. فقال شمس الخلافة: ما بلغني أنَّ ملكاً في مثل حالك وقُدْرَتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا! فقال ملك الإفرنج: أنا أعلم أنك رجلٌ عاقل، وأن شاور ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم إلَّا لأمرٍ قد حدث. فقال له: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صَدْر

---

(١) هو من المثل القائل: فتل في ذروته وغاربه: وهو مثل يضرب في الخداع والمماكرة، أصله أن يكون البعير صعباً وشرساً، لا يعطي رأسه للرجل، فيحك الرجل سنامه وغاربه (والغارب هو الكاهل ما بين السنام والعنق) ويفتل الوبر فيهما بأصابعه، يؤنسه بذلك ويخدعه حتى يستمكن منه، فيخطمه (المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

نُصرةً لنا، وما بقي لك مُقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل، ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عُذْنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملكُ الفرنج: أنا راضٍ بذلك، وإن بقي عليَّ شيء حملته إليكم. وعوَّل على الرَّحيل. فقال له: بعد أن تطلق طيّ بن شاور[1] وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بِلْبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلتِ الفرنجُ عن القاهرة نزل أسد الدين بأرضٍ يقال لها اللُّوق، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وندرك الفرنج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البَرِّ الغربي وليس لهم وَزَر، وأما الآن فلا؛ لأنهم على البَرِّ المتَّصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البَرِّ في أسوأ حال من الضعف والتعب، وقد كفانا الله شرَّهم، ونحن إلى الرَّاحة والاستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الدين باللُّوق أرسل إليه العاضد هديةً عظيمة، وخِلَعاً كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه. ثم إنه خرج إليه في الليل سِرًّا متنكراً، واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمورٍ كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره. وكان شاور قد رأى ليلةَ نزل أسد الدين على القاهرة كأنَّه دخل دار الوِزَارة، فوجد على سرير مُلْكِه رجلاً، وبين يديه دواة الوزارة، وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه، فقيل: هذا محمد رسولُ الله ﷺ.

ولما حَصَل أسد الدين بالدِّيار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنتِ البلاد، وتراجع النَّاس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعَّثَهُ الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين، فتلقَّاهم بالرُّحب والسَّعَة، وأحسن إليهم.

وأما شاور فإنه أخذ في التودُّد إلى أسد الدين، والتقرُّب إلى قلبه بجميع ما وجد السَّبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه، ونوى تَبْقِيَتَهُ في مُلْكه، وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سِرًّا: احْرُسْ نفسك من عساكر الشَّام.

وأما عسكر الشَّام فإنهم لما رأوا طِيبَ بلاد مصر وكثرة خيرها وسَعَة أموالها

---

(١) طي بن شاور: كذا بالأصل، وقد تقدم أن طيّ بن شاور قتل سنة ٥٥٩هـ، انظر الجزء الأول. ولعله: ابن طي بن شاور.

تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سُكْناها، ورغبوا فيها رغبةً عظيمة؛ فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها. ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باقٍ فيها، فأخذ في إعمال الحيلة عليه. وكان العاضد قد تقدَّم إليه بقتله، فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور، وقال لهم: قد عَلِمْتُم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحقَّقْتُ أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمتُ أنهم قد كشفوا عَوْرَتَها، وعلموا مسالك رُقْعتها، وتيقَّنت أني متى خرجتُ منها عادوا إليها واحتوَوْا عليها؛ وهي معظم دار الإسلام وحَلُوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثبت عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم، ويغرّنا ويغرّهم، ويضرِّب بيننا وبينهم(١)، وقد ضيَّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوَّى بها الفرنج علينا، وما كلّ وقتٍ ندرك الفرنج، ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قد قَلَّ رجالها وهلكت أبطالها. فتنخَّلت الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرَّقوا على إيقاع القبض به.

وكان شاور يركب في الأُبَّهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعُدَّة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى. وكان من جُملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حُمل في موكبه الطَّبْلُ والبوقُ، وكان شاور قليلَ الركوب، فجعل الأمراء يترصَّدونه. ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأنَّ شاور داخل إليه إلى داره، وناوله سيفَهُ وعِمامَتَهُ، فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأَخْذِ منصبه.

ثم إن شاور ركب يوماً في أبهته وجلالته، فلما عاينه الأُمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضَّباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة للسَّلام على أسد الدين. فتقدَّم صلاح الدين، فسلَّم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدَّ يده إلى تلابيبه وصاح عليه فَرَجَّله(٢). ولما رأى ذلك عسكر الشَّام قويت عزماتهم، ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين. وفي الحال ورد على أسد الدين توقيعٌ من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه، فهرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين، وقلَّده الوزارة، وأنفذ إليه طبقَ فِضَّةٍ فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته.

---

(١) يضرّب بيننا وبينهم: أي يحرّض ويغري ويثير الفتن.

(٢) رجّله: يقال: ترجّل: أي ركب رجليه، ورجّله، أركبه رجليه، أي أنزله عن فرسه إلى الأرض.

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عِدَّة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فَتْحُ الدِّيار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عِدَّة أشعار. غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وَزَر للعاضد، واستبدَّ بالأمر في ذلك الصُّقع أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره، وسهر له ليالي، وأفضى بسرِّه إلى مجد الدين ابن الدَّاية. حدّثني جماعة عن شمس الدين علي ابن الدَّاية، أخي مجد الدين، وحدَّثني الموفق محمود بن النَّحَّاس الفقيه الحلبي(١) وقد جرى ذكر فتح مصر وأنَّ نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، ولقد كان ودُّه ألا يفتح وألا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحدٌ أن يراه، واهتمَّ لذلك حتى أفضى عليه الهمُّ. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فَضْلُه محسوباً، لما صبر على ما جرى، ولا أغضى للملك النَّاصر على القَذَى. ولقد كاتب العاضد عِدَّة دفعات في أمر الأسد والصَّلاح، فلم يحصل له فيهما نجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته: «ولقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكرَه يُمْن نقيبته، واشتد حزب الضَّلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين الضَّلال بشهابه الثَّاقب، ويُضمي مقل(٢) الشِّرْك بسهمه النافذ الصَّائب».

قلتُ: لعل نور الدين رحمه الله تعالى إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السَّبب. هذا إن صحَّ ما نقلهُ ابن أبي طيّ، والله أعلم.

---

(١) هو محمود بن هبة الله بن طارق بن النحاس، فقيه حنفي، درّس في حلب بالمدرستين الشاذبختية الجوانية والبرانية توفي سنة ٦٠٢هـ.

(٢) مقل: جمع مقلة، وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، أو هي السواد والبياض، أو الحدقة، جمعها مُقل، كغُرَد.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغيِّر على أحدٍ شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم، إلى أن انقضت أيامه، وفنيت أعوامه.

وكان قَرِماً[١]؛ يحبُّ أكل اللَّحْم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التُّخَم، واتصلت به مَرضاته، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه. ويقال: إنه أكل في ذلك اليوم مَضِيرة[٢] ودخل الحَمَّام، فلما خرج منها أصابه الخُنَّاق.

قال: وكان شجاعاً، بارعاً، قوياً، جَلْداً في ذات الله، شديداً على الكُفَّار وطأته، عظيمةً في ذات الله صولتُه، عفيفاً دَيِّناً، كثير الخير. وكان يحبُّ أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حَدِباً على أهله وأقاربه، وكان فيه إمساك، وخلَّف مالاً كثيراً، وخلَّف من الخيل والدَّواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف جماعة من الغِلْمان، خمسمائة مملوك؛ وهم الأسدية.

وهو كان مشيِّد قواعد الدولة الشَّاذية والمملكة النَّاصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تَكْريت على إقطاعٍ مبلغه تسعمائة دينار، وتنقَّل إلى أن ملك الديار المصريَّة. وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تُنْسَبُ المدرسة الأسدية بالشَّرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المُطِلَّةُ على المَيْدَان الأخضر؛ وهي على الطَّائفتين الشَّافعية والحنفية، والخانقاه[٣] الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابنُ أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يُولَّى الوزارة بين العسكر الشَّامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأُرشد من جماعةٍ من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك النَّاصر. وكان الحارِميُّ أولاً قد رغب في الوزارة وتحدَّث فيها، وحصَّل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة اليارُوقي وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته.

---

(١) القَرَم، محركة: شدّة شهوة اللحم، وكثُر حتى قيل في الشوق إلى الحبيب.

(٢) المضيرة: لحم يطبخ باللبن حتى ينضج، وهي ما تسمى في دمشق بالشاكرية (انظر لسان العرب (مضر) ومعجم متن اللغة ٥/ ٣١٠).

(٣) الخانقاه: كلمة فارسية معناها: بيت، وأصلها: خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (انظر خطط المقريزي ٢/ ٤١٤).

[تولي صلاح الدين وزارة مصر]

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسَدَادُ رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره، ولم يتريَّث ولا توقَّف. فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخِلَع الوزارة قد سبقت إلى الملك النّاصر.

وكانت خِلْعة الوزارة عِمامة بيضاء تِنِّيسي[١] بطرز ذهب، وثوب دَبيقي[٢] بطرازي ذهب، وجُبَّة تحتها سقلاطون[٣] بطرازي ذهب، وطَيْلَسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمتُهُ عشرة آلاف دينار، وسيف مُحَلًّى بجوهرٍ قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حِجْر[٤] صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالدِّيار المصرية أسبق منها، وطوق، وتخت وسرفسار[٥] ذهب مجوهر، وفي رقبة الحِجْر مشدَّة بيضاء، وفي رأسها مائتا حَبَّة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدَّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخِلْعة عدة بقج[٦]، وعِدّة من الخيل، وأشياء أُخَر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض.

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وقرئ المنشور بين يدي الملك النَّاصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميعُ أرباب الدَّولتين المِصْرية والشَّامية، وكان يوماً عظيماً.

وخَلَعَ السُّلْطان على جماعة الأُمراء والكبراء، ووجوه البلد، وأرباب دولة العاضد، وعمَّ الناسَ جميعهم بالهبات والصِّلات.

---

(١) تنّيسي: نسبة إلى تنيس، وهي جزيرة بين الفرما ودمياط (معجم البلدان ٢/ ٥١).

(٢) دبيقي: نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التي كانت تصنع في دبيق، وهي بلدة بمصر قديمة زالت، وكانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس (التعريف بمصطلحات الصبح ص١٣٣).

(٣) السِّقلاطون: نوع من الملابس الحريرية الفاخرة ملونة بالألوان القرمزية وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه، وكانت تصنع أيضاً ببغداد وتبريز (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٨١).

(٤) فرس حجر: هي الفرس الأنثى تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر.

(٥) سرفسار: كلمة فارسية مركبة من كلمتين: سر: أي رأس، وفسار: أي اللجام، (المعجم الفارسي ص٣٥٨).

(٦) بقج: جمع بقجة، كلمة فارسية أصلها «بغجة»، بضم الباء: وهي قطعة قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صرّة (انظر صبح الأعشى ٤/ ٦٣).

ولما استقرَّتْ قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظَم بحُسْن تدبيره من الدولة بَدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جَدَدها، وحَيْعَلَ إلى جُوده وفَضْله، ونادى إلى رِفْده وبذله، وكاتب الأطرافَ بما صار إليه من السُّلْطان، وسَرَّ قلوبَ الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريفِ الرُّتبة والمكان، واستدعى إلى حَوْزته الأصحاب والأهل، وروَّى بسَيْح كرمه مَنْ بَعُدَ منه وقَرُبَ من أهل الفَضْل، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمَّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشَّرْع المبين، وشمر عن ساقِ الجدِّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده شآبيب فضله النَّائب عن العِهاد، وورد عليه القُصَّاد والزُّوَّار، وأَمَّ بنفائس الخُطَب وجواهر الأشعار.

حدَّثني بعضُ الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبَّه محبَّةً عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقرُّه.

قال: ولما استولى الملك النَّاصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشَّامية، كابن ياروق وجُرْديك وجماعة من غِلْمان نور الدين. ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشَّام.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثني جماعةٌ من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبَّة في قلوب الرَّعايا أعظمَ ذلك وأكبره، وتأفَّفَ منه وأنكره، وقال: كيف أقدَمَ صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عِدَّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلّا أنَّه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين مَنْ بالشَّام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه. وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب!

قلت: هذا كلُّه مما تقتضيه الطِّباع البشرية والجِبِلَّة الآدمية. وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلّا من عَصَم الله، ومن أنصف عذَر، ومن عَرَفَ صَبَر. والذي أنكره نور الدين إفراطُ صلاح الدين في تفرقة الأموال، واستبدادُه بذلك من غير مشاورته. هذا مع أن ابن أبي طيّ مُتَّهمٌ فيما ينسبُهُ إلى نور الدين مما لا يليق به، فإنَّ نور الدين رحمه الله تعالى كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهلَ السُّنَّة، وكان والدُ ابن أبي طيّ من رؤوس الشِّيعة، فنفاه من حلب. وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيّ في كتابه[1] مفرَّقاً في مواضع، فلهذا هو في

(١) هو كتاب «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين»، وهو الذي اختصر منه أبو شامة هذا الفصل.

هذا الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله تعالى، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك النَّاصِرِ مِصْرَ انتزع نور الدين حمص والرَّحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفَرَّق عُمَّاله وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه. ولقد كان يتألَّم لملك الملك النَّاصر. ويقال إنه لما مَرِضَ قال: ما أخطأتُ إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا متُّ فصِيروا بابني إسماعيل إلى حلب لأنه لا يبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك النَّاصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضُّه، غير أنّه يلقاها بصدر رحب، وخُلُق عَذْب. حدَّثني أبي عن ابن قاضي الدِّهليز ـ وكان من خواصِّ الملك النَّاصر ـ قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحُّمَ عليه، ثم قال: والله لقد صبرتُ منه على مثل حَزِّ المُدَى ووخز الإبر، وما قدر أحدٌ من أصحابه أن يجد عليَّ ما يعتدُّه ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدُّها عليَّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلِّي أتضرَّر أو أتَغَيَّر، فيكون ذلك وسيلةً له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: وقد وقفت على كتابٍ بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضِدّ ما قاله ابنُ أبي طيّ. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون[1] رحمه الله وهو بحلب ليولِّيه قضاء مصر. صورته: «حسبي الله وكفى. وفَّق الله الشيخ الإمام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقرِّبني إلى الله، والله وليُّ التوفيق، والمطَّلع على نيَّتي. وأنت تعلم نيتي كما قال عَزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمَنا النَّظر فيها، ففي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق، فلله المِنَّة والحمد. إلّا أنَّ المقدَّم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النَّجاة، وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع؛ وما تُدخر الدُّموع إلّا للشَّدائد، وأنا ما

(١) هو عبد الله بن السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي، الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٥٨٥هـ، تقدّمت ترجمته.

كنت أسْخَى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحدٌ اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أُولِّي أمورَها وأقلِّدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك ـ وفقك الله ـ أن تشمِّر عن ساقِ الاجتهاد وتتولَّى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقرِّبك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي ـ وفقه الله ـ فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبتُ هذا بخطي حتى لا تبقى عليَّ حُجَّة. تصلُ أنت وولدك إلى عندي حتى أسيِّرَكُمْ إلى مصر والسَّلام، بموافقة صاحبي واتفاقٍ منه صلاح الدين ـ وفقه الله ـ فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصَّالحين والأخيار صلاحٌ عظيم، ومنفعة لأهلِ الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان خير، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً».

قال ابنُ أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكُوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجلٍ به من ديوان الإنشاء، وأُنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعُرِضَ عليه سياقة جرائد الدَّواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدِّمة، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف إرْدَب غلة، فسامح بجميع ذلك، وأبطله من الدَّواوين، وأسقطه عن المعاملين. وأُنهي إليه ما يُستأدى من الحُجَّاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعَوَّض عنه بعِدَّة ضياع؛ فأغاثَ أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شَرْحُها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه. ونسخةُ منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

فصل

[قصائد في التهنئة بملك مصر]

ذكر العماد في ديوانه قصيدةً مدح بها نور الدين يهنئه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق، منها: [البسيط]

بِمُلْكِ مِصْرَ أُهَنِّي مالِكَ الأُمَمِ ... فاسْعَدْ وأَبْشِرْ بِنَصْرِ الله عن أَمَمِ

أَضْحَى بِعَدْلِكَ شَمْلُ المُلْكِ مُلْتئماً ... وهل بِعَدْلِكَ شيءٌ غيرُ مُلْتَئِمِ

يا فاعِلَ الخيرِ عَنْ طَبْعٍ بلا كَلَفٍ ... ومُوليَ العُرْف عن خُلْقٍ بلا سَأَمِ[١]

ووامقاً ثَلْمَ ثَغْرِ الكُفْرِ يُعْجِبُهُ ... لا لَثْمَ ثَغْرٍ شتيتٍ واضحٍ شَبِمِ[٢]

لله دَرُّكَ نورَ الدينِ مِنْ مَلِكٍ ... بالعَزْمِ مُفْتَتِحٍ بالنَّصْرِ مُخْتَتِمِ

آثارُ عَزْمِكَ في الإسلامِ واضحةٌ ... وسِرُّه لَكَ بادٍ غَيْرُ مُكْتَتَمِ

بما مِنَ العَدْلِ والإحسانِ تَنْشُرُه ... تخافُ رَبَّكَ خَوْفَ المُذْنِبِ الأَثِمِ

أَوْرَدْتَ مِصْرَ خُيُولَ النَّصْرِ عادمةً ... ثَنيَ الأعِنَّةِ إقداماً على اللُّجُمِ

فَأَقْبَلَتْ في سَحَابٍ من ذوابلها ... وقُضْبُها بدِماءِ الهَامِ مُنْسَجِمِ[٣]

تمكَّنَ الرُّعْبُ في قَلْبِ العدوِّ بها ... تمكُّنَ النَّارِ بالإحراقِ في الفَحَمِ

سَرَتْ لتقطَعَ ما للكُفْرِ من سَبَبٍ ... واهٍ وتوصِلَ ما للدِّينِ من رَحِمِ

مُسْتَسْهلاتٍ وعورَ الطُّرْق في طَلَبِ الـ ... ـعَلْياء مقتحماتٍ أصعبَ القُحَمِ[٤]

وجاعِلاتٍ من الإفرنجِ غِلَّهمُ ... والقيدَ في موضعِ الأطواق والحُزُمِ

لقد شَفَتْ غُلَّةَ الإسلامِ وانتقَمَتْ ... مِنَ العدوِّ بحدِّ الصَّارمِ الخَذِمِ[٥]

أعانها الله في إطفاءِ جَمْرِ أذًى ... من شَرِّ شَاوَرَ في الإسلامِ مُضْطَرِمِ

وَأَصْبَحَتْ بك مِصْرٌ بعد خِيفَتِها ... للأمنِ والعِزِّ والإقبالِ كالحَرَمِ

والسُّنَّةُ اتَّسَقَتْ والبِدْعَةُ انمحقَتْ ... وعاودت دولةُ الإحسانِ والكَرَمِ

ملوكُها لك صاروا أَعْبُداً وغدا ... بها عبيدُك أملاكاً ذوي حُرَمِ

أَنَبْتَ عنك بها قَرْماً ينوبُ بها ... في البَأْس عن عنترٍ في الجُودِ عن هَرِمِ[٦]

لله دَرُّكَ نورَ الدين من مَلِكٍ ... عَدْلٍ لحفظِ أمورِ الدينِ مُلْتَزِمِ

كانت ولايةُ مِصْرٍ قبل عِزَّتها ... بكشف دَوْلَتِها لحماً على وَضَمِ[٧]

---

(١) العرف: الجود والكرم.

(٢) الثغر الشتيت: المفرق المفلج والواضح: الأبيض ليس الشديد البياض. والشَّبَمُ، محركة: البرد، وقد شبم، كفرح. والشُّبُمُ، ككتِف: البردان، أو مع جوع، والموت، والسمّ لبردهما.

(٣) الذوابل: الرماح. والقضْب، بضم القاف، وسكون الضاد: جمع قضيب، وهو السيف اللطيف الدقيق.

(٤) القحَمُ: جمع قحمة، وهي الأمر العظيم الشاق.

(٥) الصارم: السيف. والخذم: القاطع.

(٦) القرم من الرجال: السيد المعظم. وهرم: هو هرم بن قطبة بن سنان الفزاري، من قضاة العرب في الجاهلية، وممدوح زهير بن أبي سلمى، وكان من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب بجوده المثل، أسلم في عهد النبي ﷺ وثبت في الردة (الأعلام ٨/ ٧٣).

(٧) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية (حصيرة) يوقى به من الأرض. =

فالنِّيلُ مُلْتَطِمٌ جارٍ على خَجَلٍ جاراً لبحرِ نَوَالٍ منكَ مُلْتَطِمِ
أُغْزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوهِمُ واحْطِمْ جموعَهُمُ بالذَّابلِ الحَطِمِ
وطَهِّرِ القُدْسَ من رِجْسِ الصَّليبِ وَثِبْ على البُغَاثِ وُثوبَ الأَجْدَلِ القَطِمِ[1]
فمُلكُ مِصْرَ وملكُ الشَّامِ قد نُظِما في عِقْدِ عِزٍّ مِنَ الإسلامِ مُنْتَظِمِ
محمودٌ المَلكُ الغازي يَسُوسُهُما بالفَضْلِ والعَدْلِ والإفضالِ والنِّعَمِ
بالشُّكْرِ كلُّ لسانٍ ناطقٌ أبداً محمودٌ المَلْكُ محمودٌ بكلِّ فَمِ
فَأَشْكِ مِصْرَ وأَظْهِرْ عزَّ سُنَّتِها كم تعتفي وإلى كم تشتكي وَكَمِ[2]

ولعلم الدين الشَّاتاني[3] في نور الدين: [الكامل]

ما نال شأوَكَ في المعالي سِنْجَرُ كلا ولا كِسْرى ولا الإسكندرُ[4]
يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الجيادَ وخاضَ في لُجَجِ المنايا والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ
هل حازَ غَيْرُكَ مُلْكَ مِصْرَ وصار من أتباعِهِ مَنْ جَدُّه المُسْتَنْصِرُ[5]
والمستضي بالله مُعْتَدٌّ به وبجَدِّه وبحدِّه مُسْتَظْهِرُ[6]

= وقولهم: هو لحم على وضم، من المجاز للدلالة على الذليل، الذي في ضعفه مثل ذلك اللحم لا يمتنع من أحد.

(١) الأجدل: الصقر. والقطم: الصقر المشتهي اللحم.

(٢) فأشك: أي أزل عنها ما تشكو منه.

(٣) علم الدين الشاتاني: نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٧٩هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦١ ـ ٣٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤. وفي الوفيات: توفي سنة ٥٩٩هـ).
والأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٢.

(٤) سنجر: هو السلطان غياث الدين أبو الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، ومن كبار سلاطين السلاجقة اتسع ملكه، وحكم قريباً من ستين سنة توفي سنة ٥٥٢هـ (انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥ ـ ٤١٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

(٥) المستنصر: هو أبو تميم، معدّ، المستنصر بالله، ابن الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز، بويع بالأمر بعد موت والده سنة ٤٢٧هـ، وقد أقام بالخلافة ستين سنة وتوفي سنة ٤٨٧هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩). وقد أشار القاضي الفاضل إلى نفس المعنى في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد، بقوله: واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد، وأحيا في سلطان جيوشه سُنَّة جده الإمام المستنصر بالله. . . (انظر صبح الأعشى ١٠/ ٩٧).

(٦) المستضيء بالله: هو الخليفة العباسي الإمام أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتضي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظر =

أو سَدَّ بالشَّام الثغورَ محامياً ... للدِّين حتى عادَ عنها قَيْصَرُ
يبكي فيروي الأرضَ فيضُ دموعِه ... والجوُّ من أنفاسه يَتَسَعَّرُ
أوَ ما أبوكَ بسيفه فَتَحَ الرُّها ... والأُسْدُ تَقْتَنِصُ الكُماةَ وتَزْأَرُ
هابَتْ ملوكُ الأرضِ بأسَ كُماتِها ... فتقاعدوا عن قَصْدِها وتأخَّروا
ما ضَرَّه طيُّ المنيةِ ذاتَه ... وصفاتُه بينَ البريَّةِ تُنْشَرُ
فَلَكُمْ على كلِّ الملوكِ مزيةٌ ... لوقائعٍ مَشْهُورةٍ لا تُنْكَرُ
وإذا عَدَدْنَا للأنام مناقباً ... فعليك قَبْلَ الكُلِّ تُثْنى الخِنْصِرُ
في الرأي قَيْسٌ في السَّماحة حاتِمٌ ... في النُّطْقِ قُسٌّ في البَسَالة حَيْدَرُ
دانَتْ لك الدُّنيا وأنت تعافُها ... وسِوَاكَ في آماله يتعثَّرُ
من ذا يَصُون الصِّينَ عنك وأنتَ مَنْ ... أُسْدُ الشَّرى منه تخافُ وتَحْذَرُ[1]

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خِلَعاً لجماعةٍ من الأعيان، وأنفذ للعماد عِمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى، منها: [الخفيف]

يا صلاحَ الدِّين الذي أصلح الفا ... سِدَ بالعَدْلِ من خُطُوبِ الزَّمانِ
أنتَ أَجْرَيْتَ نِيلَ مِصْرَ إلى الشَّا ... مَ نَوَالاً أم سالَ نيلٌ ثاني!
وعلى نِيْلِها لِكَفَّيْكَ فَضْلٌ ... فهما بالنُّضَارِ جاريتانِ
وصَلَتْ أُعطياتُك الغُرُّ غُزْراً ... فتلقَّت آمالنا بالتَّهاني
خِلَعٌ راقتِ العيونَ وراعت ... وعلا وَصْفُها عنِ الإمكانِ
مُذْهباتٌ كأنَّها خِلَعُ الرَّوْضِ ... وانِ قد أُهْدِيَتْ لأهلِ الجِنَانِ
مُشْرقاتٌ بِطُرْزِها الذَّهبيا ... تِ الحِسانِ الرَّفيعةِ الأثمانِ
فالعِماماتُ كالغماماتِ والطُّر ... زِ بروقٌ كثيرةُ اللَّمَعَانِ
والموالي بها من التِّيه والفَخْـ ... ـرِ على الدَّهرِ ساحِبُو الأَرْدَانِ
كيف خُصَّ العماد بالأَدْوَن المُخْـ ... ـلَقِ من دونِ عُصْبَةِ الدِّيوانِ
أخليقٌ مَنْ نَسْجُهُ لكَ في المَدْ ... حِ جديدٌ بأَمْهَنِ الخُلْقَانِ

= بالله. تولى الحكم سنة ٥٦٦هـ، عند موت أبيه الإمام المستنجد بالله، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، كان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليماً، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، كانت وفاته في سنة ٥٧٥هـ. (انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣، ٣٨، ٧٨، ٧٩، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٧٠).

(١) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

وكـذا عـادةُ الـلَّيـالـي تـخـصُّ الـ ـفـاضِـلَ الـمُـسْـتَـحِـقَّ بـالـحِـرْمـانِ
لـم تَـزَلْ سـائـرات جُـودِكَ بـالـشَّـا م لـديـه غـزيـرةَ الـتَّـهْـتَـانِ
فـإذا لـم تَـزِدْه مِـصْـرُ كـمـالاً في الـمُـنَـى فَـاخـمِـهِ مِـنَ الـنُّـقْـصَـانِ

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين[1] قصيدةً، منها: [السريع]

عَـبْـدُكَ شـمـسَ الـدَّولـةِ الـمُـرْتَـجـى مُـنْـتَـظِـرٌ تَـشْـرِيْـفَـكَ الـمُـذْهَـبـا
واعْـتِـبْ صـلاحَ الـدِّيـن فـي حـالـتـي عـسـاه بـالإصـلاحِ أَنْ يُـعـتِـبَـا
عَـرِّفْـه مـا تَـمَّ فـإنـي أرى مـن فَـضْـلِـهِ لـلـفَـضْـلِ أن يَـغْـضَـبـا
وكـيـفَ يـرضـى ذاك بـعـضَ الـرِّضـا ومَـجْـدُه يـأبـاه كـلَّ الإبـا
وقُـلْ لـه: جـاءتـه مَـلْـبُـوسَـةً تـخـلَّـفَـتْ مـن تُـبَّـعٍ فـي سَـبـا
عِـمـامـةٌ رَقَّـتْ ورَثَّـتْ فـمـا نَـشَـرْتُـهـا إلَّا وطـارت هَـبَـا

قال: فوصل من صلاح الدين عِمامةٌ مُذْهبة، وكَتَبَ يعتذر عن العمامة التي قبلها. وكتب إلى سعد الدين كُمُشْتكِين ليستعير لسانه في الاعتذار إلى العماد: فإني أستقلُّ لمرامه إرم ذات العماد. فكتب العماد: [الكامل]

أمـا الـعِـمـادُ فـقـد تـضـاعَـفَ شُـكْـرُهُ نُعْماك شُكْرَ الرَّوْض نُعمى الصَّيِّبِ
لِـعِـمـامـةٍ ذَهَـبِـيَّـةٍ كَـغَـمـامَـةٍ يـبـدو بـهـا بَـرْقُ الـطِّـراز الـمَـغْـرِبـي
مـا كـان أحـسـنَ حـالَـهُ لـو أنَّـهُ شُـفِـعَـتْ عِـمـامَـتُـه بِـثَـوْبٍ مُـذْهَـبِ

قال: وكتب إليه: [الهزج]

أُهَـنِّـي الـمَـلِـكَ الـنَّـاصِـ ـرَ بـالـمُـلْـكِ وبـالـنَّـصْـرِ
ومـا مَـهَّـدَ مـن بُـنْـيَـا نِ ديـنِ الـحـقِّ فـي مِـصْـرِ
ومـا أَسْـدَاه مـن بِـرٍّ بـلا عَـدٍّ ولا حَـصْـرِ
ومـا أحْـيـاه مـن عَـدْلٍ ومـا خَـفَّـفَ مـن إصْـرِ
وإعـلاء سـنـا الـسُّـنَّـ ـةِ فـي بُـحْـبُـوحَـةِ الـقَـصْـرِ[2]

(١) هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي، أبو المفاخر، فخر الدين، ولد بمصر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو آخر من بقي من إخوته، سمع الحديث بدمشق من محيي الدين الثقفي، وأجازه ابن بري، وكان ذا شجاعة وعقل، وكان مقدم الجيش الحلبي، وهو كان المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة ٥٣٧هـ، بقرب الفرات، فأُسر يومئذٍ وهو مثخن الجراح، وانهزم عسكره هزيمة قبيحة. وسترد ترجمته في وفيات سنة ٥٧٦هـ. (انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) بحبوحة القصر: وسطه وساحته.

قد استولى على مِصْرِ بحقٍّ يوسفُ الغَضْرِ
وأحيا سُنَّةَ الإحسانِ في البَدْوِ وفي الحَضْرِ

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدةٍ: [الطويل]

ديارَ الهوى حيًّا معالِمَكِ القَطْرُ وجادَكِ جُودُ النَّاصِرِ الغَدِقُ الهَمْرُ
به رَجَعَتْ في عُنْفُوان شبابها ونُضْرَتِها من بعدِ ما هَرِمَتْ مِصْرُ
وكم خاطبٍ رَدَّتْهُ لم يكُ كفأها إلى أنْ أتاها خاطِبٌ سَيْفُهُ المَهْرُ
حماها حِمى اللَّيْث العرينَ وصَانَها كما صان عَيْناً من مُلِمِّ القَذَى شُفْرُ[١]
وكان بها بَحْرٌ أُجاجٌ فأصْبَحَتْ ومن جُوده العَذْبِ النميرِ بها بَحْرُ

وله فيه من أخرى: [الطويل]

فما أنتَ إلّا الشَّمْسُ لولاك لم تَزَلْ على مِصْرَ ظلماءُ الضَّلالةِ سَرْمَدَا
وكان بها طُغْيان فِرْعونَ لم يَزَل كما كان لمَّا أنْ طغى وتَمَرَّدا
فبصَّرْتَهُم بَعْدَ الغَواية والعَمى وأَرْشَدْتَهُمْ بعد الضَّلال إلى الهُدَى

وله فيه من أخرى: [الكامل]

قُلْ للملوك: تَزَحْزَحُوا عن ذُرْوَة الـ ـعلياءِ للملكِ الهُمَامِ النَّاصِرِ
يعطي الأُلوف ويلتقيها باسماً طَلْقَ المحيا في القنا المُتَشاجِرِ

وقرأت في ديوان العَرْقَلة[٢]: وقال في المولى الملك النَّاصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاماً[٣]: [الوافر]

صلاحَ الدِّين قد أَصْلَحْتَ دُنيا شقيٌّ لم يَبِتْ إلّا حريصا
وأرسلتَ السلامَ لنا عموماً وجُودُك جاءني وَحْدي خُصوصا
فكنتَ كيوسُفَ الصِّدِّيقِ لمَّا تلقَّى منه يَعْقُوبُ القَميصَا

وكان العرقلة من جُملة المتردِّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما

---

(١) الشفر، بالضم: شفر العين، وهو ما ينبت عليه الشعر، وأصل نبت الشعر في الجفن، وليس الشفر من الشعر بشيء.

(٢) هو حسان بن نمير بن عبد الرحمن الدمشقي، الأديب النحوي، المعروف بعرقلة الشاعر، المتوفى سنة ٥٦٧هـ. تقدّمت ترجمته.

(٣) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢١١.

سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار. فلما تَمَّ أمرُه بمصر كتب إليه العَرْقَلة قصيدةً منها[١]: [الطويل]

إليكَ صلاحَ الدِّينِ مولايَ أشتكي ... زماناً على الحُرِّ الكريمِ يجورُ

تُرى أُبْصِرُ الألفَ التي كنتَ وَاعِدي ... بها في يدي قبل المماتِ تصيرُ

وَهَيْهاتِ والإفرنجُ بيني وبينكم ... سياجٌ قتيلٌ دونه وأسيرُ

ومن عَجَبِ الأيامِ أنكَ ذو غِنًى ... بمِصْرَ ومثلي بالشَّآمِ فقيرُ

وقال أيضاً: [البسيط]

قُلْ للصَّلاحِ مُعيني عند إعساري ... يا ألفَ مولايَ أينَ الألفُ دينارِ

أخشى من الأَسْرِ إن حاولتُ أرْضَكُمُ ... وما تفي جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ بالنَّارِ

فَجُدْ بها عاضِدِيَّاتٍ مُسَطَّرَةً ... من بعضِ ما خلَّفَ الطَّاغي أبو الطَّارِي[٢]

حُمْراً كأسيافِكُم غبراً كخيلِكُمُ ... عُتْقاً ثِقالاً كأعدائي وأطماري[٣]

يعني بالطاغي شاور، وله ابن اسمه الطاري.

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار فقال[٤]: [السريع]

يا مالكاً ما بَرِحت كفه ... تجود بالمال على كفي

أفلح بالعشرين من لم يزل ... في رأسي عشرين من الكهف

يا ألف مولاي ولكنها ... محسوبة من جملة الألف

وذكر العماد في «الخريدة»[٥] أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مِصْر، فأعطاه ذلك، وأخذ له من إخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا وفاته، ومات بدمشق في سنة ست، أو سبع وستين وخمس مائة.

قلت: وفي ديوانه ما يدلُّ على قدومه مصر، فإن فيه: وقال، وكتبها

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٠، و«خريدة القصرة» قسم شعراء الشام ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) العاضديات: هي دنانير منسوبة إلى الخليفة الفاطمي العاضد، آخر ملوك الدولة الفاطمية بمصر والمغرب، وفي أيامه قوي السلطان صلاح الدين وتولى وزارته وتصرف في شؤون الملك، مات العاضد مريضاً سنة ٥٦٧هـ (الأعلام ٤/١٤٧). والطاري هو ابن شاور العضدي، سيأتي خبر قتله بعد قليل.

(٣) الأبيات في ديوان عرقلة ص٤٩ ـ ٥٠، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٤) الأبيات في ديوان عرقلة ص٦٤.

(٥) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/١٧٨ ـ ١٨٠.

على حَمَّام عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر[١]: [السريع]

يا داخِلَ الحَمَّام هُنِّيتَها دائرةً كالفَلَكِ الدَّائِرِ
تأمَّلِ الجنَّةَ قد زُخْرِفَتْ وعُمِّرَتْ للملكِ النَّاصِرِ
كأنَّما فَيْضُ أنابيبها نَداه للوارِدِ والصَّادِرِ

فصل

في قتل المُؤْتَمن[٢] بالخرقانية[٣] ووقعة السُّودان بين القصرين[٤]، وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص إقطاع المصريين، فقطع منهم الدَّابرِ من أجل مَن معه من العساكر. وكان بالقصر خَصِيٌّ يدعي مؤتمن الخلافة، متحكِّم في القَصْر، فأجمع هو ومن معه على أن يُكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصَّلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي مِن أصحابه بالقاهرة ويُتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة. فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء[٥] فرأى مع إنسان ذي خُلْقان[٦] نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما، فأخذهما، وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة الفرنج فيهما من أهل القَصْر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وقال: دلُّوني على كاتب هذا الخطِّ. فدلُّوه على يهودي من الرَّهْط، فلما أحضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خَطِّه ويقابلوه، نطق بالشَّهادة قبل كلامه، ودخل في عِصْمة إسلامه، ثم اعترف بما جناه، وشيَّدَه من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة. فحسَّن السُّلْطان إسلامه، وثَبَّت اعتصامه، وعرف استسلامه، ورأى إخفاء هذا السر واكتتامه.

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٢ ـ ٥٣.

(٢) المؤتمن: هو مؤتمن الخلافة، وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه «الكامل» ١٠/١٨.

(٣) الخرقانية: قرية صغيرة من مديرية القليوبية على الشط الشرقي للنيل، في الشمال الغربي لقرية أبي القبيط، وكانت تسمى في العصر الفاطمي الخاقانية (معجم البلدان: الخرقانية).

(٤) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٨ ـ ١٩.

(٥) بئر البيضاء: هي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون، وهو على الطريق بين القاهرة وغزة (صبح الأعشى ١٤/٤٢٢، النجوم الزاهرة ٨/٤٤).

(٦) خلق الثوب، كنَصَر، وكرُمَ، وسمِعَ، خلوقاً وخلقاً، محركةً: بلي. للمذكر والمؤنث.

واستشعر الخَصِيّ العَصِيُّ، وخَشِيَ أن تَشُقَّه على شَقِّ العصا العِصِيُّ، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مُغْضَب وعنه مُغْضٍ، لا يأمر فيه ببسط ولا قَبْض، إلى أن استرسل واستبسل، وظن أنه ما نسله من الشَّرِّ العقيم نَصَل. وكان له قصرٌ في قرية يقال لها الخرقانية لخُرقه، ورقع ما يتَّسع عليه من خَرْقه، وهو بقرب قَلْيوب، فخلا فيه يوماً للذَّته، ولم يدر أنه يوم ذِلَّته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهضَ إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع مَنْ جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع؛ فورد موارده مِن رَداه على أدون مَشْرع.

قال: ولما قُتِل غار السُّودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزيرٍ قتلوه، واجتاحوه وأذلُّوه، واستباحوه واستحلُّوه، فحسبوا أنَّ كلَّ بيضاء شَحْمة، وأنَّ كُلَّ سوداء فَحْمة[1]. فثار أصحابُ صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدَّمهم الأمير أبو الهيجاء[2]. واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشَّرُّ يومين، حتى أَحَسَّ الأساحم بالحَيْن، وكلما لجؤوا إلى محلَّة أحرقوها عليهم، وحوَوْا ما حواليهم، وأُخرجوا إلى الجِيزة، وأُذِلُّوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السُّودان بعدها من الشِّدَّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً و﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

وكانت لهم على باب زُوَيلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمَّرة المعمورة، فأُتي بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية، ثم حرثَها بعضُ الأمراء واتخذها بُسْتاناً، فهي الآن جَنَّة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[3]، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشدُّ أزره بمصر، لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السُّودان هذه، وكان له فيها أثرٌ عظيم. ومن عجيب ما اتفق أنَّ العاضد كان يتطلع من المنظرة، ويعاين الحرب بين القصرين، فقيل:

---

(١) هو من المثل: ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء ثمرة، يضرب في اختلاف أخلاق الناس وطباعهم، (انظر: المستقصى في أمثال العرب ٢/٣٢٨ ـ ٣٢٩، ومجمع الأمثال ٢/١٥٦).

(٢) هو أبو الهيجاء السمين، كان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطنه، ذكره أبو شامة في الذيل على الروضتين حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤هـ.

(٣) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشَّامية بالنُّشَّاب والحجارة، ففعلوا. وقيل: إن ذلك كان عن غير اختياره. فأمر شمس الدَّولة الزرَّاقين بإحراق منظرة العاضد، فهمَّ أحدُ الزراقين بذلك، وإذا باب المنظرة قد فُتِحَ وخرج منه زعيمُ الخلافة وقال: أمير المؤمنين يُسَلِّم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. وكانت العبيد مشتدَّة الأنفس بأنَّ العاضد راضٍ بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فَتَّ في أعضادهم، فجبُنُوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدةً، منها: [مخلع البسيط]

بالملكِ النَّاصرِ استنارَتْ ... في عَصْرِنا أَوْجُهُ الفَضَائِلْ
علِيَّ مِنْ حَقِّهِ فُروضٌ ... شُكْراً لما جادَ من نَوَافِلْ
يوسفُ مِصْرَ الذي إليه ... تَشُدُّ آمالُنا الرَّواحِلْ
أَجْرَيْتَ نِيلَيْنِ في ثَرَاها ... نيلَ نجيعٍ ونيلَ نَائِلْ[1]
وما نَفَيْتَ السُّودَانَ حتى ... حُكِّمَتِ البِيضُ في المقاتِلْ
صَيَّرْتَ رَحْبَ الفَضَاءِ ضيْقاً ... عليهمُ كِفَّةَ لحابِلْ[2]
وكلٌّ رأى منهمْ كَرَاءٍ ... وأرْضُ مِصْرٍ كلامُ وَاصِلْ[3]
وقد خَلَتْ منهمُ المغاني ... وأَقْفَرَتْ مِنْهُمُ المَنَازِلْ
وما أُصيبوا إلا بِطَلٍّ ... فكيفَ لو أُمْطِرُوا بِوَابِلْ
والسُّود بالبِيضِ قد أُبيحوا ... فَهْي نَوَازٍ بهم نَوَازِلْ
مُؤْتَمِنُ القَوْمِ خانَ حتى ... غالَتْهُ من شَرِّهِ غَوَائِلْ
عامَلَكُمْ بالخَنَا فأَضْحى ... ورأْسُهُ فَوْقَ رَأْسِ عَامِلْ[4]

(١) النجيع: الدم.
(٢) الكفة، بكسر الكاف، وفتح الفاء المشددة: حبالة الصائد تجعل كالطوق تصاد بها الظبية.
(٣) هو واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة، رأس المعتزلة، بليغ متكلم، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٣١هـ، له عدة تصانيف منها: «أصناف المرجئة»، «كتاب التوبة»، «كتاب الخطب في التوحيد والعدل»، «كتاب الخطبة التي أخرج منها الراء»، «كتاب الدعوة»، «كتاب السبيل إلى معرفة الحق»، «كتاب طبقات أهل العلم والجهل»، «كتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد»، «كتاب معاني القرآن»، «كتاب المنزلة بين المنزلتين»، (انظر: كشف الظنون ٦/ ٤٩٩، الأعلام: ٨/ ١٠٨ ـ، خطط المقريزي ٢/ ٣٤٥، وفيات الأعيان ٢/ ١٧٠، مروج الذهب ٢/ ٢٩٨، فوات الوفيات ٢/ ٣١٧، تاريخ الإسلام ٥/ ٣١١، مرآة الجنان ١/ ٢٧٤، النجوم الزاهرة ١/ ٣١٣، لسان الميزان ٦/ ٢١٤، شذرات الذهب ١/ ١٨٢).
(٤) العامل: صدر الرمح.

يا مُخْجِلَ البَحْرِ بالأيادي ... قد آن أن تَفْتَحَ السَّوَاحِلْ
فقدِّسِ القُدْسَ من خَبَاثِ ... أرجاسِ كُفْرِ غُتْمٍ أراذِلْ[1]

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئةً له بالملك وتعزية بعمه: [الطويل]

أيا يوسفَ الإحسان والحسن خيرَ مَنْ ... حَوَى الفَضْلَ والإفضالَ والنَّهْيَ والأمرا
وَمَنْ للهُدَى وَجْهُ النَّجاحِ برأيهِ ... تجلَّى وثَغْرُ الثَّغْرِ مِنْ عَزْمِهِ افْتَرَّا
حمى حَوْزَةَ الدِّينِ الحنيفِ بحَوْزِهِ ... من الخالقِ الحُسْنى ومن خَلْقِه الشُّكرا
أبوه أبى إلا العَلَاءَ وعَمُّهُ ... بمعروفِهِ عَمَّ الوَرَى البَدْوَ والحَضْرَا
وطالَ الملوكَ شِيركُوه بِطَوْلِهِ ... وما شاركُوه في العُلا فَحَوَى الفَخْرا
بنو الأَصْفَرِ الإفرنجِ لاقَوا بِبيضِهِ ... وسُمْرِ عَوَالِيهِ منايَاهُمُ حَمْرا
وما ابيضَّ يَوْمُ النَّصْرِ واخضرَّ رَوْضُهُ ... من الخِضْبِ حتى اسودَّ بالنَّقْعِ واغبرَّا
رأى النَّصْرَ في تَقْوى الإلٰه وكُلُّ من ... تقوَّى بتقوى الله لا يَعْدَمُ النَّصْرا
ولما رأى الدُّنيا بعينِ مَلالَةٍ ... أغذَّ من الأولى مسيراً إلى الأُخرى
وقامَ صلاحُ الدين بالملك كافلاً ... وكيف ترى شَمْسَ الضُّحى تَخْلُفُ البَدْرا
ولما صَبَتْ مِصْرٌ إلى عَصْرِ يوسفٍ ... أعاد إليها اللَّهُ يُوسُفَ والعَصْرا
فأَجْرَى بها من راحتَيْهِ بِجُودِهِ ... بحاراً فسمَّاها الوَرَى أنْمُلاً عَشْرا
هزمتم جنودَ المُشْرِكِينِ بِرُعْبكم ... فلم يَلْبَثُوا خَوْفاً ولم يمكُثُوا ذُعْرا
وفرَّقتُمُ من حَوْلِ مِصْرَ جموعَهُمْ ... بكسرٍ وعاد الكَسْرُ من أهلِها جَبْرا
وآمنتمُ فيها الرَّعايا بِعَدْلِكُمْ ... وأطفأتُمُ من شَرِّ شاورها الجمْرا
بسفك دمٍ حُطْتُمْ دماءً كثيرة ... وحُزْتُمْ بما أبدَيْتُمُ الحَمْدَ والشكرا
وما يرتوي الإسلامُ حتى تغادروا ... لكم من دماءِ الغادرينَ بها غُدْرا
فصُبُّوا على الإفرنج سَوْطَ عَذَابها ... بأن تقسموا ما بينها القَتْلَ والأَسْرَا
ولا تهملوا البيتَ المُقَدَّس واعزموا ... على فَتْحِهِ غازين وافترعوا البِكْرا
تديمون بالمعروف طيِّب ذِكْرِكُمْ ... وما المُلْكُ إلّا أَنْ تديموا لكُمْ ذِكْرا
وإنَّ الذي أثرى من المال مُقْتِرٌ ... وإنْ يُفْنِهِ في كَسْبِ محمدةٍ أثرى

---

(١) غتم: جمع غتمة، وهي عجمة في المنطق.

قال: وكَثُرَتْ كُتُب صلاحِ الدين إلى أصدقائه مبشِّرة بطيب أنبائه، فمنها كتاب ضمَّنَه هذا البيت: [الكامل]

ما كنتُ بالمَنْظُورِ أَقْنَعُ مِنْكُمُ ... ولقد رَضِيتُ اليومَ بالمَسْمُوعِ

فقلتُ في جوابه أبياتاً، منها: [الكامل]

يا هَلْ لسالِفِ عيْشتي بِفِنائكمْ ... مِنْ عَوْدَةٍ محمودةٍ ورُجُوعِ

قد غِبْتُمُ عن ناظري ما آذَنَتْ ... للقَلْبِ شمْسٌ مَرَّةً بِطُلُوعِ

كنتُ المشفَّعَ في المطالب عندكم ... فَغَدَوْتُ أطلبُ طَيْفَكُمْ بشَفِيعِ

أصبحتُ أقنع بالسَّلامِ على النَّوَى ... وبِقُرْبِكُمْ كَمْ بِتُّ غيرَ قَنُوعِ

قال: ووصل أيضاً منه كتاب ضمنُهُ هذا البيت: [الطويل]

وأنشر دُرَّ الدَّمْعِ من قَبْلُ أبيضا ... وقد حال مُذْ بِنْتُم فأصبحَ ياقوتا

فنظمتُ في جوابه أبياتاً، منها: [الطويل]

هنيئاً لمِصْرٍ حَوْزَ يوسف مُلْكَهَا ... بأمرٍ من الرَّحمن قد كانَ مَوْقوتا

وما كان فيها قتلُ يوسفَ شاوراً ... يماثِلُ إلا قَتْل داودَ جَالوتا

وقلتُ لقلبي أبْشِرِ اليَوْمَ بالمُنَى ... فقد نِلْتَ ما أمَّلْتَ بل حُزْتَ ما شِيتَا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضدُ بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه ـ يعني الطَّاري ـ يوم الاثنين الرَّابع من جُمادى الآخرة؛ وذلك أنه لما قُتل شاور عاذوا بالقصر، فكأنما نزلوا في القبر، فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سَلِموا، وامتنعوا وعُصموا، فإنه ساءه قتل شاور، وإن كان أَمِنَ بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طيّ تَقَدَّم ذِكْر قتل ضِرْغام له، والآخر الطَّاري. قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الرَّوحي في «تاريخه»[1]: أُخذ ابنا شاور، شجاع الملقَّب بالكامل، والطَّاري الملقَّب بالمعظَّم، وأخوه الملقَّب بفارس المسلمين، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: ولما وَلي صلاح الدين ساس الرَّعية، وأظهر لهم من العَدْل ما لم يعلموه، فاجتمع أهلُ البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم، وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتَّت شملهم. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

---

(١) في كشف الظنون ١/ ٢٥٢، كتاب «بلغة الظرفاء إلى معرفة الخلفاء» للشيخ أبي الحسن الدوحي.

قال: ولما كانت سنة ست وستِّين رَفَعَ جميعَ المكُوس صادِرَها ووارِدَها، جليلَها وحقيرَها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابنُ شداد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي ياروق الذي تُنْسَبُ إليه اليارُوقية، يعني المحلَّة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترقَ جامع حلب وأسواق البَزِّ، وأخذ نور الدين في عمارته آخر السَّنة.

[نزول الفرنج على دمياط]

ثم دخلت سنة خمسٍ وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على دِمْياط من الدِّيار المصرية.

قال ابن الأثير[1]: كان فرنج السَّاحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصِقِلِّية يستمدُّونهم ويُعَرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدَّس من المسلمين، وأرسلوا جماعةً من القُسوس والرُّهبان يحرِّضون النَّاس على الحركة، فأمدُّوهم بالمال والرِّجال والسِّلاح، واتَّعدوا على النزول على دِمْياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر. فلما نازلوها حصروها، وضيَّقوا على مَنْ بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النِّيل، وحشر فيها كُلَّ من عنده، وأمدَّهم بالمال والسِّلاح والذَّخائر، وتابع رُسُلَه إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلَّف عن دِمْياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلَّفيه ومخلَّفي عسكره بالسُّوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه. فجهَّز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهَّزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الإفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلُوِّ البلاد عن ممانع.

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها، ونهبها وإخرابها، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النَّعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[2]! فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عُروشها.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) هو مثل يضرب في سوء التدبير (انظر معجم الأمثال للميداني ٢/ ٥٧، والمستقصى ٢/ ٢٩٨ـ٢١٩).

وكان مُدَّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى، حُكِي لي عنه أنه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد؛ أرسل إليَّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مِصْرية سوى الثِّياب وغيرها[١].

قال القاضي ابن شَدَّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تَمَّ للسُّلْطان من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم، ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القُوَّة والملك. فاجتمع الفرنج والرُّوم جميعاً، وحدَّثوا نفوسهم بقصد الديار المِصْرية، والاستيلاء عليها ومُلْكِها، ورأَوْا قصد دِمْياط لتمكن القاصد لها من البرّ والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مَغْرِسُ قدم يأوون إليه. فاسْتَصْحَبُوا المنجنيقات[٢] والدبابات[٣] والجروخ[٤] وآلات الحصار، وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشَّام ذلك اشتدَّ أمرهم، فسرقوا حصن عَكَّار من المسلمين، وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يُسمى خُطْلُخ[٥] العلمدار[٦]، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بَعْلَبَكّ وتدمر.

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج، وبلغه نزولهم على دمياط قَصَدَ شغل قلوبهم، فنزل على الكَرَك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج السَّاحل، فرحل عنها، وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له.

ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الدَّاية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحبَ أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خَرَّبت كثيراً من

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٢٣.

(٢) أول من اتخذ المنجنيق الضحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، وضعه فيه ورمى به في النار، فكانت برداً وسلاماً، وأول من اتخذه من العرب جذيمة الأبرش (صبح الأعشى ١/ ٤٨٩).

(٣) المراد بالدبابة هنا الجماعة التي تدب حول الجيش لحراسته، وليس المراد الآلة المعروفة.

(٤) الجروخ: جمع جرخ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل، والقائم على تشغيلها يسمى جرخي.

(٥) هو خطلخ الزاهد، تقدم ذكره في حوادث سنة ٥٥٦هـ، أثناء معركة تل حبيش، مع عسكر الفرنج انظر الجزء الأول.

(٦) العلمدار: هو لقب على الذي يحمل العلم مع السلطان في المواكب. وهو مركَّب من لفظين: أحدهما عربي وهو العلم، أي الراية، والثاني فارسي وهو دار ومعنا ممسك. ويكون المعنى: ممسك العلم (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٥).

البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السَّنة المذكورة وهو بعَشْتَرا. فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالمَوْصِل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحِجَّة، وبلغه الخبر وهو بتل باشِر، فسار من ليلته طالباً بلاد المَوْصِل.

ولما علم صلاح الدين شِدَّة قصد العدوِّ دِمْياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرِّجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السِّلاح ما أَمِنَ معه عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات، وإزعاج العدوِّ عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات. وكان وزيراً متحكِّماً لا يُرَدُّ أمره في شيء. ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدَّ زحفهم عليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله تعالى يشنُّ الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونَصْرُ الله للمسلمين يؤيِّدهم، وحُسْنُ قَصْده في نُصْرة دين الله يسعدهم وينجدهم، حتى بان لهم الخُسْران، وظهر على الكُفْر الإيمانُ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويَسْلَمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فَحُرِقَتْ مجانيقهم، ونهبت آلاتُهم، وَقُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم، وسَلِمَ البلد بحمد الله ومَنِّه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، يُنهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العُدَد بعد العَدَد، ويسهر ليله، ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سِرَّه وجهاره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم. وسبق تقي الدين ابن أخي السُّلْطان إلى دِمْياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها. واتصلَ الحصار، وتواصل الأنصار، ودَبَّ في الفرنج الفَناء، وهَبَّ عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول، بالذل الأكمل، والصَّغَار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم، واجتماعهم على دِمْياط ونزولهم، اغتَّم واهتمَّ، واستَصْعَبَ المُلِمَّ، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً مقدمه الأمير قطب الدين خُسْرو الهَذَباني، وكان مقداماً مقدَّماً، وهُماماً مُعْلماً، وأمره أن يسير بالعسكر، ويخوض بهم بحر العَجَاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأوَّل قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع رَوْعُه من الكفر في كُلِّ رُوع.

قُلت: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمْياط أنه قرئ عليه جُزْء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتَبَسَّم لتتم السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

[رحيل الفرنج عن دمياط]

وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعْلِمْ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامةً يعرفها. فقال: قل له بعلامةِ ما سجدت على تَلِّ حارِمٍ وقلتَ: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنْصر! قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضْتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

[إرسال نور الدين كتاب تهنئة للعاضد برحيل الفرنج عن دمياط]

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دِمْياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح الدين وألزامه وخواصِّه، فكتب إليه نور الدين يمدَحُ الأتراك، ويُعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[1] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الدِّيار المصرية، ولحصلوا منها على الأُمْنِيَّة، فلعل الله تعالى أن ييسِّرَ فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نِعَمِهِ التي لا تُحصى.

قلت: ولعُمارة اليمني من قصيدة: [الكامل]

مَـنْ شـاكـرٌ والله أَعْـظَـمُ شـاكـر   مـا كـانَ مِـنْ نُـعـمـى بـنـي أيـوبِ
طَـلَـبَ الـهُـدَى نَـصْـراً فـقـال وقـد أَتَـوْا   حَـسْـبـي فـأنـتـم غـايـةُ الـمَـطْـلُـوبِ

---

(١) القنطاريات: جمع قنطارية، وهي نوع من الأسلحة في خزانة السلاح وتكون مدهونة ومذهبة (التعريف بمصطلحات الصبح ص٢٧٧) وفي حاشية صفحة ٣٨ من البرق الشامي: القنطارية: في الأصل تعني الجزء الخشبي من الرمح أو الحربة. وتطلق على الرمح.

جلبوا إلى دِمْيَاطَ عند حصارها عِزَّ القويِّ وذِلَّةَ المَغْلُوبِ
وجَلَوْا عن الإسلام فيها كُرْبَةً لو لم يجلُوها أَتَتْ بكُرُوبِ
فالنَّاسُ في أعمال مصرٍ كلها عتقاؤهم من نازحٍ وقريبِ
إنْ لم تظنَّ النَّاسَ قِشْراً فارغاً وهم اللُّبابُ فأنتَ غَيْرُ لبيبِ

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[1] من قصيدةٍ: [الطويل]

ولا غَرْوَ أنْ عاد الفرنجُ هزيمةً ولو لم تَعُدْ لم يَبْقَ للشِّرْكِ ساحِلُ
فقد أيقنتْ أعداؤه أنَّ حَظَّهُمْ لديه رِماحٌ أُشْرِعَتْ أو سَلاسِلُ
ولما أَتَوْا دِمْياطَ كالبحر طامياً وليس له من كَثْرَةِ القَوْمِ ساحِلُ
يزيد عن الإحصاء والعَدِّ جَمْعُهُمْ ألوفُ ألوفٍ خَيْلُهُمْ والرَّواجِلُ
رَأَوْا دونها أُسداً بأيديهمُ القنا وبِيضاً رِقاقاً أَحْكَمَتْها الصَّياقِلُ
وداروا بها في البحر من كلِّ جانب ومن دونها سَدٌّ من الموتِ حائِلُ
رجا الكلبُ مَلْكُ الرُّوم إذ ذاك فَتْحَها فخاف فأُمُّ المَلْكِ والرُّومِ هابِل[2]
فعادوا على الأعقابِ منها هزيمةً كأَنَّهُمُ ذُلّاً نَعَامٌ جَوَافِلُ
وما أمَّلوا أنْ يلحقوا ببلادِهم لِتَعْصِمَهُمْ مما رَأَوه المَعَاقِلُ

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعملَ له أبياتاً في صلاح الدين تهنئةً بالنَّصْرِ في دِمْياط، فعملتُ قصيدةً، منها: [البسيط]

يا يوسف الحُسْنِ والإحسانِ يا ملكاً بجدِّه صاعداً أعداؤه هَبَطُوا
حَلَلْتَ من وَسَطِ العَلْيَاءِ في شَرَفٍ ومَرْكَزُ الشَّمْسِ من أفلاكها الوَسَطُ

---

(١) فتيان الشاغوري: هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري، الأسدي، شهاب الدين الدمشقي الحنفي، ولد في بانياس الساحل سنة ٥٣٠هـ، وعاش طفولته وشبابه في حي الشاغور جنوبي دمشق، فنسب إليه، وقضى فترة طويلة من حياته معلماً للصبيان في الزبداني، تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق وهو أخو عز الدين فروخشاه ابن أبي السلطان صلاح الدين لأمه، وكان يعلم أولاده الخط، ثم كانت له في آخر حياته حلقة في الجامع الأموي بدمشق يقرئ فيها النحو، توفي سنة ٦١٥هـ، له ديوان شعره مشهور، وديوان آخر في الدوبيت (كشف الظنون ٥/ ٨١٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٩، معجم البلدان ٣/ ٣١٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤ ـ ٢٦، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤، التكملة للمنذري ٢/ ٤٢١. وفي النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٤ ذكر وفاته في سنة ٦٢٧هـ. والتاريخ الأول أصح).

(٢) هابل: أي ثاكل، ومنه يقال: هبلته أمه، أي ثكلته.

هنِّيتَ صونَك دِمْياطَ التي اجْتَمَعَتْ لها الفرنجُ فما حَلُّوا ولا رَبَطُوا
مِصْرٌ بيوسُفِها أَضْحَتْ مُشَرَّفةً وكلُّ أمرٍ لها بالعَدْلِ مُنْضَبِطُ
وحينَ وافى صلاحُ الدينِ أَصْلَحَهَا فللمَصَالِحِ مِنْ أيامه نَمَطُ

قال: ومما سَيَّرْتُهُ إلى صلاح الدين قصيدة، منها: [المنسرح]

كأنَّ قلبي وحُبَّ مالكه مِصْرٌ وفيها المليكُ يُوسُفُها
هذا بسَلْبِ الفُؤاد يظلمني وَهْوَ بقتلِ الأعداءِ يُنْصِفُها
المَلِكُ النَّاصر الذي أبداً بعِزِّ سُلْطانِهِ يشرِّفُها
قامَ بأحوالِها يُدَبِّرُها حُسْناً وأثقالَها يخفِّفُها
بعَدْلِه والصَّلاحِ يَغْمُرُها وبالنَّدى والجميلِ يَكْنُفُها
مِنْ دَنَس الغادِرينَ يَرْحَضُها ومن خِباثِ العِدَى ينظِّفُها[1]
وإنَّ مِصْراً بمُلْكِ يوسُفِها جَنَّةُ خُلْدٍ يَرُوقُ زُخْرُفُها
وإنَّهُ في السَّماح حاتِمُها وإنَّهُ في الوَقَارِ أحْنَفُها
يوسُفُ مِصْرَ الذي ملاحِمُها جاءَتْ بأَوْصافِهِ تُعَرِّفُها
كُتْبُ التَّواريخِ لا يزيِّنُها إلا بأيامه مُصَنِّفُها
وَحُطْتَ دِمْياطَ إذ أحاطَ بها مَنْ بِرجُومِ البَلاءِ يَقْذِفُها
لاقَتْ غواةُ الفرنج خَيْبَتَها فزادَ من حَسْرَةٍ تأسُّفُها
أوْرَدْتَ قُلْبَ القلوب أرشيةً من القَنَا للدِّماء تَنْزِفُها[2]
وَلَّيْتَهَا سَفْكَها فعامِلُها عامِلُها والسِّنانُ مُشْرِفُها[3]
يُمضي لك اللَّهُ في قتالهمُ عزيمةً للجهاد تُرْهِفُها[4]

وله فيه من أُخرى[5]: [المجتث]

قَدِ استَقَرَّتْ أُموري فيه بحسْبِ اقْتِرَاحي
كما اسْتَقَرَّ صلاح الدُّ (م) نيا بملك الصَّلاح

---

(١) يرحضها: أي يغسلها.
(٢) القلب: جمع قليب، وهو البئر، والأرشية: جمع رشاء، وهو الحبل.
(٣) عامل الرمح: صدره.
(٤) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٩ ـ ١٣.
(٥) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢ ـ ٢٥.

تُنيرُ شَمْسُ أياديـ ـه(١) في سماءِ السَّماحِ(٢)
وأَمْرُه مستفادٌ مِنَ القضاءِ المُتاحِ

[إرسال نور الدين العماد الكاتب إلى خلاط]

وأرسله نور الدين إلى خِلَاط، ومتولِّيها حينئذٍ ظهير الدين سُكْمان المعروف بشاه أرمن. قال: فلما كنتُ بماردين كتبتُ إلى بعض المعارف: [مجزوء الرمل]

قد نَزَلْنا في جِوَارِكْ وَطَلَبْنَا قُرْبَ دَارِكْ
وسَرَيْنا في الدَّياجي فهدانا ضَوْءُ نارِكْ
فَتَدَارَكْ أَمْرَنا اليَوْ مَ بطَوْلٍ مُتَدَارِكْ
وَتَفَرَّدْ باغتنام الشُّـ (م) ـكْرِ من غير مشارك

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى داريًا فأعاد عمارة جامعها، وعمَّر مشهد أبي سليمان الدَّاراني، وشتَّى بدمشق

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عُمارة في قصيدةٍ مدح بها السُّلْطان صلاح الدين، تقدَّم بعضُها، يقول فيها: [الكامل]

صَحَّتْ به مِصْرٌ وكانَتْ قَبْلَه تَشْكُو سَقَاماً لم يُعَنْ بطبيبِ
عَجَباً لمعجزةٍ أَتَتْ في عَصْرِه والدَّهْرُ وَلَّادٌ لكلِّ عجيبِ
رَدَّ الإلهُ به قَضِيَّةَ يُوسُفٍ نَسْقاً على ضَرْبٍ من التَّقْريبِ
جاءَتْه إخوتُه ووالده إلى مِصْرٍ على التَّدْريج والتَّرتيبِ
فَاسْعَدْ بأكرمِ قادمٍ وبدولةٍ قد ساعَدَتْكَ رياحُها بهبوبِ

قال العماد: لما دخل فصل النَّيروز استأذن الأمير نجم الدين أيوب نورَ الدين في قَصْد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسَبَده

(١) في خريدة القصر: «مساعيه» بدل: «أياديه».
(٢) في خريدة القصر: «الصباح» بدل: «السماح».

ولَبده[(١)]، وخيَّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جَدده[(٢)]. وسار في حفظ الله تعالى، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حقِّ قدومه ما وجب، وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله.

ولما عزم على التوجُّه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه، وتوفير ما لَهُ فيه شركة على أشراكه، وما استصحب معه شيئاً من موجوده، وجعله نُهْبة لجوده.

قلت: ووقف رباطاً داخل الدَّرْب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعُلا على رَوْض الرضا سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجِدِّ في الجهاد حَدَّ اعتزامه. ثم أقام بعد توديعه، والوفاء بحق تشييعه، إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جُنْده وحاضره، وعَبَّ بحرُه، وماجَ زاخره.

ثم توجهنا إلى بلاد الكَرَك مستهل شعبان، ونزلنا أياماً بالبَلْقاء على عَمّان، وأقمنا على الكَرَك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين. فورد الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا ووصلوا إلى ماعِين. فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنَّتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم، أدركنا المُرَاد، وملكنا البلاد. فرحلنا إليهم فولوا مُدْبِرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل، وهو مقصودنا. وعاد نور الدين إلى حوران، فخَيَّم بِعَشْترا، وصام رمضان.

وقال ابن الأثير[(٣)]: كان سبب حَصْر نور الدين الكَرَك أن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سار عن دمشق إلى مصر، فَسَيَّر معه نور الدين عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودَّة ما لا يُعد؛ فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكَرك فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونَصَبَ نور الدين على الكَرَك المجانيق، فأتاه الخبر أنَّ الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهَنْفَري[(٤)] وفليب بن الرفيق[(٥)] ـ وهما

---

(١) يقال: ما له سبد ولا لبد: أي ما له قليل ولا كثير. والسبد: الوبر، وقيل: الشعر. واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى بهما عن المعز والضأن، وقيل: يكنى بهما عن الإبل والماعز، فالوبر للإبل، والشعر للماعز.

(٢) الجدد، بالتحريك: الطريق إذا كان مستوياً لا حدب فيه ولا وعوثة.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٢٣.

(٤) في «الكامل»: ابن صنفري.

(٥) في «الكامل»: وقريب من الرقيق، وهو تحريف.

فارسا الفرنج في وقتهما ـ في المقدِّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، وكانا في مائتي فارس وألف تُرْكُبلي[١] ومعهم من الرَّاجل خَلْقٌ كثير. فلما قاربهما رجعا القهقَرى إلى من وراءهم من الإفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادِهم، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعَشْتَرا، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شداد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور، ويجمع القصة مشاكلةً ما جرى للنبي يوسف الصديق عليه السَّلام. فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كُلّه فأبى أن يَلْبَسَه، وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له، فلا ينبغي أن يُغَيِّر موقع السَّعادة. فحكَّمه في الخزائن بأسرها. وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد. ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه خُتم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة، منها: «وهذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت متطلِّعٌ إلى ذلك بكلِّيته، وهو عنده من أهم أمنيَّته».

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هديَّة سَنيَّة للملك النَّاصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهْلِيلج[٢]، ولم تجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتُّحَف والهدايا، وأظهر السلطان من برِّه

---

(١) تركبلي: من الجند الفرنج الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، وكانوا مسلحين ومدربين على غرار فرق الخيالة البيزنطية الخفيفة، من عناصر مسيحية محلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية (حاشية البرق الشامي ٣/ ١٦٧). وقيل: تركبلي جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا الصعر، وذكرهم ابن العديم باسم: كافر ترك (انظر زبدة الحلب ٢/ ٢٦٤، النوادر السلطانية ص٢٢٤).

(٢) الإهليلج: من الأشجار الحرجية والزراعية، من فصيلة الإهليجيات، منبتها الهند وجاوا والأنتيل وسرنديب والسنغال، يستخرج من لحائها صمغ يستعمل في الطلاء الصيني، وهو من أجود أنواعه، ولباب ثمار بعضها يدخل في عدة علاجات طبية، وهو على أنواع عدة (قاموس التداوي بالأعشاب ص٤٤).

وتعظيم أمره ما أحرز به الشُّكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإِسكندرية ودِمْياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قُوص وأُسوان وعَيْذَاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار.

وسار شمس الدولة إلى قُوص، وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر رسلان بن دُغمش لجباية خَرَاجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هُميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة.

[ولادة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين]

وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السُّلْطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً[1]، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى، وتصدَّق بما بَهَرَ به العقول.

ومن قصيدةٍ للحكيم عبد المنعم[2] تقدَّم بعضها: [البسيط]

في مَشْرِقِ المَجْدِ نجمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ ... وكلُّ أبنائِهِ شُهْبٌ فلا أَفَلُوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وَرَدُوا ... على العزيزِ من ارض الشَّام واشتملوا
لكنَّ يوسف هذا جاء إخوتُه ... ولم يكن بينهم نَزْغٌ ولا زَلَلُ
ومُلِّكوا مُلْكَ مِصْرَ في شماخَتِهِ ... ومِثْلُها لرجالِ مِثْلِهِمْ نُزُلُ

فصل

في ذكر الزَّلْزلة الكبرى[3]

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوَّال كانت زلزلة عظيمة لم يَرَ النَّاسُ مثلها، عمَّت أكثر البلاد من الشَّام ومصر والجزيرة والمَوْصِل والعراق وغيرها، إلا أن أشدَّها

---

(١) هو الملك الأفضل علي بن يوسف بن أيوب بن شادي، نور الدين، أكبر أولاد السلطان والمعهود إليه بالسلطنة، وكان فاضلاً شاعراً، توفي بسميساط يوم الجمعة في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ، وعمره سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته الوافية في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٥٦ ـ ٢٦٥، ومرآة الزمان ٨/ ٦٣٧، الذيل على الروضتين ص١٤٥، وفيات الأعيان ٣/ ٩٥، السلوك للمقريزي ١/ ٢١٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٨، كنز الدرر ص٢٧٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٢، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٢) هو الجلياني، عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الجلياني الغساني الأندلسي، المتوفى سنة ٦٠٢هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٤.

وأعظمها كان بالشَّام. فخَرِبَتْ بعلبك وَحِمْص، وحماة، وشَيْزَر، وبعرين، وغيرها، وتهدَّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العَدِّ والإِحصاء. فلما أتى نورَ الدين خبرُها سار إلى بَعْلَبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها، وخلوِّها من أهلها. فرتَّب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبقَ من سورها شيء البتَّة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أميرٍ كبير، ووكل بالعمارة من يحثُّ عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السَّالمة من الخراب خوفاً من الزَّلزلة، فإنها عاودتهم غيرَ مرَّة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفَعَلَة والبنَّائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها، وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدِّر قَدْرُه.

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نورَ الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين كحصن الأكراد وصافيثا والعُرَيمة وعِرقا، في بحر الزَّلازل غَرْقى، لا سيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليهم فيه دُحُور وثُبُور. فشغلهم سوؤهم عن سواه، وكلٌّ اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام، بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النُّفُوس من رُعبها، وسَلَتِ القلوب عن كَرْبها، إلا بما دَهَم الكُفَّار من أمرها، وعراهم من ضُرِّها، فلقد خصَّتهم بالأَمَضِّ الأشقِّ، وأخذتهم الرَّجفة بالحقِّ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأصبحوا للرَّدَى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

ثم ذكر العماد قصيدةً في مدح نور الدين، ووَصْفِ الزلزلة، مطلعها[1]: [الخفيف]

هل لعاني الهوى من الأَسر فادي ... ولساري لَيْلِ الصَّبابة هادي

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٤٦ ـ ٥٠.

جنّبوني خَطْبَ البعادِ فَسَهْلٌ ... كلُّ خَطْبٍ سوى النَّوَى والبِعَادِ
كنتُ في غَفْلَةٍ من البَيْنِ حتى ... صاحَ يومَ الأثيلِ بالبَيْنِ حادي
قد حَلَلْتُمْ من مُهْجَتي في السُّوَيْدا ... ءِ ومِنْ مُقْلَتِي مَحلَّ السَّوَادِ
وَبَخِلْتُمْ مِنَ الوصالِ بإسعا ... في أما كنتُمُ من الأجْوَادِ
وبعثتُمْ نسيمَكُمْ يتلافا ... ني فعادَ النَّسيم من عُوَّادي
سُمْتُموني تجلُّداً واشتياقاً ... ومُحَالٌ تجمُّعُ الأضْدَادِ
أبقاءٌ بعد الأحِبَّةِ يا قلـ ... ـبيَ ما هذه شُروطُ الودَادِ
ذابَ قلبي وسالَ في الدَّمْعِ لمَّا ... دامَ مِنْ نار وَجْدِه في اتِّقادِ
ما الدُّموعُ التي تحدِّرُها الأشـ ... ـواقُ إلا فتائتُ الأكْبادِ
حَبَّذا ساكنو فؤادي وَعَهْدي ... بِهِمُ يَسْكُنُونَ سَفْحَ الوادِي
أتمنَّى بالشَّام أهلي ببغدا ... دَ وأين الشَّام مِنْ بَغْدادِ
ما اعتياضي عن حُبِّهم يَعْلَمُ اللَّـ ... ـهُ تعالى إلّا بحبِّ الجهادِ
واشتغالي بخِدْمَةِ المَلِكِ العَا ... دِل محمودِ الكَريمِ الجَوَادِ
أنا منه على سَريرِ سُرُوري ... راتع العَيْشِ في مَرَادِ مُرَادي
قَيَّدَتْني بالشَّامِ منه الأيادي ... والأيادي للحُرِّ كالأقيادِ
قد وَرَدْتُ البَحْرَ والخِضَمَّ وخلَّفـ ... ـتُ ملوكَ الدُّنْيا به كالثِّمادِ[1]
هُوَ نِعْمَ الملاذُ من نائبِ الدَّهْـ ... ـرِ ونِعْمَ المَعَاذُ عند المَعَادِ
جَلَّ رُزْءُ الفِرَنْج فاسْتَبْدَلُوا منـ ... ـه بِلُبْسِ الحديدِ لُبْسَ الحِدَادِ
فَرَّقَ الرُّعْبُ منه في أَنْفُسِ الكُفَّـ ... (م) ـارِ بينَ الأرْوَاحِ والأجْسَادِ
سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِها الأرْ ... ضَ وهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأطْوَادِ
أَخَذَتْهُمْ بالحقِّ رَجْفَةُ بأسٍ ... تَرَكَتْهُمْ صَرْعَى صُرُوفِ العَوادي
خَفَضَتْ من قِلاعِها كُلَّ عالٍ ... وأعادَتْ تِلاعَها كالوِهَادِ
أنفَذَ اللَّهُ حُكْمَه فهو ماضٍ ... مُظْهِراً سِرَّ غَيْبه فهو بادي
آيةٌ آثَرَتْ ذوي الشِّرْكِ بالهُلْـ ... ـكِ وأهلَ التَّوحيد بالإرْشَادِ
والأعادي جَرَى عليهمْ من التَّدْ ... مِيرِ ما قَدْ جَرَى على قَوْم عادِ
أَشْرَكَتْ في الهَلاك بينَ الفَريقيـ ... ـنِ دعاةِ الإشراكِ والإلحادِ

(١) الثماد: الماء القليل.

ولـقـد حـاربـوا الـقَـضَـاء فـأمـضَـى حُـكْـمَـهُ فـيـهـم بـغـيـرِ جِـلادِ
والإلـه الـرَّؤوفُ فـي الـشَّـامِ عـنـا دافـعٌ لُـطْـفُـهُ بـلاءَ الـبـلادِ

قال العماد: ومنها معنى مبتكر ابتدعتهُ في الزَّلزلة، وهو:

وبـحـقٍّ أُصِـيـبَـتِ الأَرْضُ لَـمَّـا اشـتـكـت مـن مَـقَـام أهـل الـفَـسَـادِ

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النُّورية كنت مقرّظاً للفضائل الشَّهْرُزُورِيَّة، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قاضي قضاة الشَّام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي[١]. وكان كمال الدين قد عُذق به[٢] تنفيذ الأحكام، وإليه أمور الديوان، وهو ذو المكانة والإمكان، في بسط العدل والإحسان، ومحيي الدين ولده ينوبُ عنه في القضاء بحلب وبُلْدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماة وحمص من بني الشَّهْرُزُوري قاضيان، وهما حاكمان متحكّمان. وكان هذا محيي الدين من أهل الفَضْل، وله نَظْمٌ ونثر، وخُطَب وشِعْر. وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النِّظامية، منذ سنة خمسٍ وثلاثين، والمدرِّس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزَّاز[٣]؛ وكان مذهبُ الشَّافعي رضي الله عنه بعلمه مُعْلماً مُذْهَبَ الطراز. وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وجلبت أفكاره، فكتبتُ إليه قصيدةً، مطلعها: [الكامل]

لـو كـان مـن شكـوى الصَّبابة مُشْكيا لـعـدا عـلـى عَـذْوى الـصَّـبـابـة مُـعْـدِيـا
مــات الـرَّجـاءُ فـإنْ أرَدْتَ حـيـاتَـه وَنُـشُـورَه فـارجُ الإمـام الـمـحـيـيـا
أقـضـى الـقُـضَـاة مـحـمـدُ بـن مـحـمـدٍ مَـنْ لَـسْـتُ مـنـه لـلـفـضـائـل مُـحْـصِـيَـا
قـاضٍ بـه قَـضَـتِ الـمـظـالِـمُ نَـحْـبَـهـا وغَـدا عَـلـى آثـارِهِـنَّ مُـعـقِّـيـا[٤]
يـا كـاشـفـاً لـلـحـقِّ فـي أيـامـه غُـرَراً يـدوم لـهـا الـزمـان مُـغَـطِّـيـا

(١) سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.
(٢) عذق به: أي اختص به.
(٣) هو سعيد بن محمد بن عمر، شيخ الشافعية في عصره، تفقه بالغزالي وألكيا الهراسي، وروى عنه السمعاني، ولد سنة ٤٦٢هـ، وتوفي سنة ٥٣٩هـ، والرزاز: نسبة إلى من يبيع الأرز (انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ١١٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٩٣).
(٤) معقيا: كذا بالأصل. وفي القاموس المحيط (عقي): عقا عقواً: احتفر البئر، فأنبط من جانبها، وعَقَى العَلَم: علا، وارتفع، وعقى الأمرَ: كرهه، والمعقِّي، كمحدّث: الحائم على الشيء، المرتفع كالعقاب. وعقَّى بسهمه تعقيةً: رمى به في الهواء، وعقَّى الطائر: ارتفع في طيرانه.

لم تُنْعَشِ الشَّهباءُ عند عِثَارِها ... لو لم تَجِدْكَ لِطَوْدِ حِلْمِك مُرْسِيا
رَجَفَتْ لِسَطْوَتِك التي أَرْسَلْتَها ... نحو الطُّغاة لحدِّ عَزْمِك ممهيا[1]
وَتَظَلَّمَتْ من شَرِّهم فَتَمَلْمَلَتْ ... عَجِّلْ إجارتها عليها مُبْقِيا
أَنِفَتْ من الثُّقلاءِ فيها إذ رَمَتْ ... أثقالَها ورأتك منها مُلْجيا
حَلَبٌ لها حَلْبُ المدامع مُسْبَلٌ ... أَنْ لاقَتِ الخَطْبَ الفظيع المُبْكِيا
وَبِعَدْلِ نورِ الدين عاوَدَ أُفْقَها ... مِنْ بَعْدِ غَيْم الغَمِّ جَوّاً مُضْحِيا
أضحى لبهجتها مُعيداً بعدما ... ذَهَبَتْ وللمعروف فيها مُبْدِيا
لأمورِها مُتَدَبِّراً لِشَتاتِها ... متألِّفاً لصَلاحِها متولِّيا
فالشَّرْعُ عادَ بِعَدْله مُسْتَظْهِراً ... والحقُّ عادَ بِظِلِّه مُسْتَذْرِيا[2]
والدَّهْرُ لاذ بعفوه مستغفراً ... مما جَنَاهُ مُطْرِقاً مُسْتَحْيِيا

فصل

في غزوة صاحب البيرة ووفاة صاحب المَوْصِل[3]

قال ابنُ الأثير: كان شهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أُرْتُق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره، وهم مائتا فارس، إلى الخدمة النُّورية وهو بعَشْتَرا. فلما وصل إلى اللّبوة ـ وهي من أعمال بَعْلَبك ـ ركب متصيِّداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شَوَّال، فوقع بعضُهم على بعض واقتتلوا، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون، لأنَّ ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج. وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج، وعمَّهم القَتْلُ والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتدُّ به. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين، فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى، فرأى فيها رأس مقدَّم الإسبتاريَّة[4] صاحب حصن الأكراد، وكانت الفرنج تعظِّمه لشجاعته ودينه عندهم، ولأنه شجًى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازداد سروراً، ولله الحمد.

---

(١) المهي: ترقيق الشفرة، وأمهى الحديدة: سقاها الماء وأحدّها.
(٢) مستذرياً: أي مستظلاً به، والذَّرى، بفتح الذاء والراء، كل ما استترت به.
(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) الاسبتارية: تقدم التعريف بهم.

قال: وفي شوال[١] سنة خمس وستين توفي الملك قطب الدين مودود بن زَنْكي بالمَوْصِل. وكان لما اشتدَّ مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زَنْكي بن مودود، وهو أكبر أولاده، وأعزُّهم عليه، وأحبُّهم إليه. وكان النَّائب عن قطب الدين حينئذٍ والقَيِّم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زَنْكي لأنه كان قد أكثر المَقَام عند عمِّه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوَّج ابنته، وكان عزيزه وحبيبَهُ. وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لِظُلم كان فيه، ويذمُّه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور. فخاف عبد المسيحَ أن يتصرَّف عماد الدين في أموره عن أمر عمره فيعزله ويبعده، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش؛ زوجة قطب الدين، فردُّوه عن هذا الرأي. فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي. وتوفي وقد جاوز عمرُه أربعين سنة.

وكان تام القامة كبير الوجه، أسمر اللون، واسع الجبهة، جَهْوَرِيَّ الصوت. وكانت ولايتُه إحدى وعشرين سنةً وخمسةَ أشهر ونصفاً.

ولما توفي استقرَّ سيف الدين في المُلْك، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً، وكان عبد المسيح هو متولي أمور سيف الدين ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه، لأنه في عنفوان شبابه وغِرَّة حداثته.

قال: وهذه حادثة تحثُّ على العَدْل[٢]: من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العُقَيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشَّرْقي، يفصل بينهما دِجْلة، لها بساتين كثيرة، بعضها تمسح أرضه، ويؤخذ على كلِّ جريب[٣] من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم، وبعضُها عليه خَرَاج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلقٌ منهما. فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عِدَّة بساتين. فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ـ وأنا حينئذٍ أتولى ديوانها ـ يأمر بأن تُجعل بساتين العُقَيمة كلها ممسوحة. فشقَّ ذلك عليَّ لأجل أصحابها، ففيها ناسٌ صالحون، ولي بهم أُنسٌ، وهم فقراء. فراجعته، وقلتُ له: لا تظن أني أقول هذا لأجل ملكي، لا والله، إنما أريد أن يدوم النَّاس

(١) في «الكامل في التاريخ» في ذي الحجة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٥ ـ ٢٦. وفيه قال ابن الأثير: ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها.

(٣) الجريب: مقياس لمساحة الأرض، وهو يساوي ٤١٦، و١٣٦٦ متراً مربعاً (النظم الإسلامية ص٤١٦).

على الدُّعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ويقول: تمسح أولاً ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه. فشرع النُّواب يمسحون، وكان بالعقيمة رجلان صالحان، وبيني وبينهما مودَّة، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضوَّرا من هذه الحال، وسألاني المكاتبة في المعنى، فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي، فشكراني، وقالا: وأيضاً تعودُ تراجعُه. فعاودت القَوْلَ، فأصرَّ على المساحة، فعرَّفتهما الحال. فلما مضى عدة أيام عُدْتُ يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب، فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه! فقلت لهما: والله إني لأستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو. فقالا: صدقت، ولم نحضُر إلا لنعرِّفك أن حاجتنا قُضِيَتْ. قال: فظننت أنهما قد أرسلا إلى المَوْصِل من يشفع لهما، فدخلت داري وأدخلتهما معي، وسألتهما عن الحال كيف هو، ومن الذي سعى لهما. فقالا: إن رجلاً من الصَّالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العُقَيمة جميعهم. قال: فوقع عندي من هذا، ولكن تارةً أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارةً أعجب من سلامة صدرهما، كيف يعتمدان على هذا القول، ويعتقدانه واقعاً لا شكَّ فيه! فلما كان بعد أيام وصل قاصد من المَوْصِل بكتابٍ يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كُلِّ مسجون وبالصَّدقة، فسألت القاصد عن السبب، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض. قال: فأفكرت في قولهما، وتعجَّبْتُ منه، ثم توفي بعد يومين من هذا. قال: ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه، ويحترمه، ويقضي أشغاله، واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك، وأعفِّهم عن أموال رعيَّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عن المذنبين منهم، سريع الانفعال للخير. حدَّثني والدي قال: استدعاني يوماً وهو بالجزيرة، وكنت أتولى أعمالها، فلامني في بعض الأمر، فقلت: أخاف من الاستقصاء؛ لو دُعي على بعض هؤلاء الملوك ـ وأومأتُ إلى أولاده ـ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولنا مواضع تحتمل العمارة يتحصل منها أضعاف هذا. فقال: جزاك الله خيراً! لقد نصحت وأدَّيت الأمانة، فاشْرَعْ في عمارة هذه الأماكن. ففعلت، وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يثني علي.

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه. لقد صبر من نوابه زين

الدين[١] وجمال الدين[٢] وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه. وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله؛ حضر معه المصافَّ بحارِم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطُبُ له في بلاده باختياره من غير خَوْفٍ. وكان إحسانُه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض. وكان يبغض الظلم وأهله، ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكَّرت في الملوك أولاد زَنْكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وحُسْن السِّيرة، وعمارة البلاد، والرِّفْق بالرَّعية؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج المُلْكُ إليها، أذكر قول الشَّاعر: [البسيط]

من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهم مِثْلَ النُّجوم التي يَسْري بها السَّاري

قلت: وقرأت بخطِّ الشيخ عمر المَلاء[٣] ـ رحمه الله ـ في كتاب كتبه إلى بعض الصَّالحين وسأله فيه الدُّعاء لقطب الدين صاحب المَوْصِل وقال فيه: يا أخي، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلتُ وأضجرت. غير أني أذكر لك ما خصَّه الله به من الأخلاق الصَّالحة: هو من أكثر النَّاس رحمةً، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضاً. وهو من هذه الأخلاق على حدٍّ أحبُّه أنا محبةً لا أقدر أصفُها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة، يزورني وأزوره.

فصل

[عزم نور الدين على دخول الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين]

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قُطْب الدين وملك ولده سيف

(١) زين الدين: هو علي بن بكتكين، نائب أتابك قطب الدين (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١٢١).

(٢) جمال الدين: هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، وزير الموصل، توفي في شعبان سنة ٥٥٩هـ، وكان قد قبض عليه سنة ٥٥٨هـ، فبقي في الحبس نحو سنة ثم توفي (انظر الجزء الأول، و«الكامل في التاريخ» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٣) هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ، له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وحُكْمُه على سيف الدين أنِفَ من ذلك وكَبُرَ لديه، وشقَّ عليه. وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرَّعية والمبالغة في إقامة السِّياسة. وكان نور الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلاً، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم. ثم سار من وقته، فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول محرَّم.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصدَ الرَّقَّةَ فامتنع النَّائبُ بها شيئاً من الامتناع، ثم سلَّمها على شيء اقترحه. فاستولى نور الدين عليها وقرَّر أمورها، وسار إلى الخابور فملكه جميعه، ثم ملك نَصِيبين وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدةً، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان[١] صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر؛ وقد كان ترك أكثر عسكره بالشَّام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم. فلما اجتمعت العساكر سار إلى سِنْجار فحصرها، وأقام عليها، ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبيرٍ من المَوْصِل. فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثُّونه على السُّرعة إليهم ليسلِّموا البلد إليه، وأشاروا بترك سِنْجار، فلم يقبل منهم، وأقام على ملك سنجار، وسلَّمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زَنْكي. ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر دِجْلة في مخاضةٍ عندها إلى الجانب الشَّرْقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودِجْلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان عبد المسيح قد سيَّر عِزّ الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك إيلْدِكِز صاحب بلاد الجبل وأَذْرَبِيحان وأرَّان وغيرها يستنجده، فأرسل إيلِدِكِز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد المَوْصِل ويقول له: إن هذه البلاد للسُّلْطان ولا سبيل لك إليها. فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ـ وكان بِسِنْجار ـ فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرْفَقُ ببني أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا، وعِنْدَ الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب هَمَذان، فإنك قد ملكتَ نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثُّغور حتى غلب الكُرْجُ[٢] عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجعِ

---

(١) صاحب حصن كيفا، حكم بين سنتي ٥٦٢هـ و٥٨١هـ، وتسلم آمد من السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ. انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٢) الكُرْج: بضم الكاف وسكون الراء: جيل من الناس نصارى، من بني إيران بن أشوذ بن سام، وإلى إيران هذا تنسب مملكة إيران التي كان بها ملوك الفرس، كانوا يسكنون في القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملكٌ ولغة (انظر معجم البلدان ٤/٤٤٦، وقلائد الجمان ص٣١).

النَّاس؛ الفرنج، فأخذتُ بلادهم، وأسرتُ ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أَهْمَلْتَ من بلاد الإِسلام، وإزالة الظُّلْم عن المسلمين. فعاد الرسول بهذا الجواب.

[حصار نور الدين الموصل]

وحصر نور الدين الموصل، فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل، من جندي وعامِّي معه؛ لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه. فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمانَ وإقطاعاً يكون له. فأجابه إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل، بل يكون عندي بالشَّام، فإني لم آتِ لآخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص النَّاس منك، وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرَّت القاعدة على ذلك، وسُلِّمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جُمادى الأولى، وسكن القلعة. وأقرَّ سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كُمُشْتِكِين، وجعله دُزْداراً فيها، وقسم جميع ما خلَّفه أخوه قُطْب الدين بين أولاده بمقتَضَى الفريضة.

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خِلْعة من الخليفة[1] فلبسها، فلما دخل الموصل خَلَعَها على سيف الدين، وأطلق المكُوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النُّوري بالمَوْصِل، فبني، وأقيمت الصَّلاة فيه سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة.

[مسير نور الدين إلى الشام]

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشَّام، فقيل له: إنك تحبُّ الموصل والمقامَ بها ونراك أسرعتَ العود؟ فقال: قد تغيَّر قلبي فيها، فإن لم أفارِقْها ظلمتُ، ويمنعني أيضاً أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدوِّ وملازماً للجهاد. ثم أقطع نَصِيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغيَّر اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً[2].

---

(١) الخليفة: هو المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٩ ـ ٣١.

[سفارة العماد الكاتب إلى بغداد]

وقال العماد: واستدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقَّة وقال لي: قد أَنِسْتُ بك وأَمِنْتُ إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض، لا يبلغ فيه غيرك الغرض، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدةً، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة، وتُنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي، ومَغنى طريفي وتالدي، وأنا كبيره ووارثه، والذي له حديثه وحادثه. فامض وخذ لي إذناً فإني أعد كل جارحة لي لما أُخاطَبُ به أُذناً، وأَمْثَلُ ما يصلني من المثال لدفع كُلِّ مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شِيركُوه أن يسيِّرَني إلى الرَّحْبة، في رجال مأموني الصُحبة، وسرتُ منها على البرية غربي الفُرات، بخفيرٍ من بني خَفَاجة. فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سِنْجار، فأخذها، وسلَّمها إلى خَتَنه ابن أخيه عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زَنْكي.

قال: ثم رحل على عزم المَوْصِل، وقَصَدَ بَلَد، واستوضح فيها الجَدَد، ودُلَّ هناك في دِجْلَة على مخاضة، وكان ذا أخلاقٍ وهمم مُرْتاضة، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظُنَّ مستصعباً، وسَهَّل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تُرْكماني قُدَّامنا، وهو يقطع دجلة تارةً طولاً وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيطٍ واحد لا نميل يميناً ولا يساراً، ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عَبَرْنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشَّرْقي برجالنا وأثقالنا، وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم، حتى تمَّ عبور القَوْم.

ثم رحلنا ونزلنا على المَوْصِل من شرقيها، وخيَّمنا على تلٍّ توبة، فاستعظم أهلها تلك النَّوْبة، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب، وأنَّا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون، مقهورون، محسورون، وانقطعت عنهم السُّبُل من الشرق، وتعذَّر عليهم الرَّقْع لاتساع الخَرْق، وبَسَطَ العطاء، وكشف الغِطاء، وتكلَّم في المصلحة والمصالحة الوسطاء؛ ومُدَّ الجسر، وقُضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه، ومَثَلُوا بناديه، وأَقَرَّ سيفَ الدين غازياً على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء.

ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وجَدَّد مناشيرَ أهل المناصب، وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما. وأمر بإسقاط جميع المُكوس والضَّرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس، فمنه:

«قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فَسُحْقاً للسُّحت، ومَحْقاً للحرام

الحقيق بالمَقْت، وبُعْداً لما يُبْعِدُ من رضا الرَّب، ويقصي من محلِّ القُرْب، وقد استخرنا الله وتقرَّبنا إليه، وتوكَّلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدَّمنا بإسقاط كل مَكْس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة، ومحو كل سُنَّة سيئة شنيعة، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة، وإحياء كلِّ سنة حَسَنة، وانتهاز كلِّ فُرْصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرَّدِيَّة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْرُ جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل، على الحطام العاجل. وهذا حقٌّ لله قضيناه، وواجبٌ علينا أدَّيناه، بل هي سُنَّة حسنة استنَنَّاها، وَمَحَجَّة واضحة بَيَّناها، وقاعدة مُحْكَمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها».

فصل

[في ذكر الشيخ عمر الملا]

قال العماد: وكان بالمَوْصِل شيخ صالحٌ يعرف بعُمَر المَلَّاء[1]؛ سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأُجْرَةٍ يتقوَّت بها، وكل ما عليه من قميصٍ ورداء، وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره. وكانَ له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيفٌ قَرَاه ذلك المريد. وكان ذا معرفةٍ بأحكام القرآن والأحاديث النبوية.

وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبرَّكُون بهِمَّته، ويتيمَّنون ببركته. وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله ﷺ، يحضره فيها صاحب الموصل، ويحضر الشُّعراء، وينشِدُون مدح رسول الله ﷺ في ذلك المَحْفِل.

وكان نور الدين من أَخَصِّ محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره. وكانت بالموصل خَرِبة واسعة في وسط البلد، أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا مَن ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره. فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجُمَع والجماعات. ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعةً من ضياع الموصل، ورتَّب فيه خطيباً ومُدرِّساً. وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عمادُ الدين أبو بكر النُّوقاني الشَّافعي،

---

(١) تقدّمت ترجمته.

من أصحاب الإمام محمد بن يحيى[1]، فسأله أن يكون مدرِّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز[2] صاحب إِرْبِل في الخدمة النُّورية في المَوْصِل. وكان دخولهم إياها في بُحْبُوحة الشِّتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدةً، منها: [السريع]

مـا يـمـنَـعُ الـخـادِمَ مـن قَـصْـدِهِ الـ	ـخِـدْمَـةَ غَـيْـرُ الـطُّـرْقِ والـوَحْـلِ
كـأنـمـا مَـوْصِـلُـكُـمْ مَـقْـطَـعٌ	مـا يُـهْـتـدى فـيـه إلـى وَصْـلِ
وكـلُّ مـعـروفٍ بـهـا مُـنْـكَـرٌ	كـمـا تـراه ضَـيِّـقُ الـسُّـبـلِ
وكـلُّ مَـنْ حَـلَّ بـهـا لا يَـرَى	في زَمَنِ الخِصْبِ سوى المَحْلِ
ومُـذْ دَخَـلْـنَـاهـا حَـصَـلْـنـا بـهـا	كَـرْهـاً عـلـى خَـرْجٍ بـلا دَخْـلِ
أصـعَـبُ مـا نـلـقـاه مـن أَهْـلِـهـا	قَـوْلٌ بـلا أَهْـلٍ ولَا سَـهْـلِ
وكـنـتُ أهـواهـا ولـكـنَّـنـي	لـقـيـتُ مـنـهـا كُـلَّ مـا يُـسْـلـي
وأنـتَ مَـنْ أصـبـحَ إحـسـانُـه	حِـلْـيـةَ هـذا الـزَّمـنِ الـعُـطْـلِ

[عودة نور الدين إلى سنجار]

قال: وعاد نور الدين إلى سِنْجار، فأعاد عمارة أسوارها، ثم أتى حَرَّان وقد

---

(١) محمد بن يحيى: هو محيي الدين محمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، أبو سعيد الشافعي البغدادي، صاحب الغزالي وتلميذه، انتهت إليه رياسة المذهب بنيسابور، وقصده الفقهاء من النواحي، وبَعُد صيته، وهو أستاذ الفقهاء المتأخرين، ولد سنة ٤٧٦هـ، وقتل في رمضان سنة ٥٤٨هـ، قتله الغز لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر السلجوقي، وقتل معه أئمة وفقهاء كثر، فمنهم الحسين بن محمد الأرسابندي، والقاضي علي بن مسعود. وأكثر الشعراء في مراثي محمد بن يحيى فممن قال فيه علي بن إبراهيم الكاتب:

مضى الذي كان يُجنى الدر من فيه	يسيل بالفضل والإفضال واديهِ
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا	لا برشهر ومصباحاً لداجيهِ
خلا خراسان من علم ومن ورع	لما نعاه إلى الآفاق ناعيهِ
لما أماتوه، مات الدين وأسفاً	من ذا الذي بعد محيي الدين يحييه

ولمحمد بن يحيى مصنفات منها: «الانتصاف في مسائل الخلاف»، «المحيط في شرح الوسيط للغزالي» في الفروع، «تعليقة في الخلافيات» (كشف الظنون ٦/ ٩١، الكامل في التاريخ ٩/ ٣٨٥، وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٢ ـ ٣١٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٥ ـ ٢٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

(٢) توفي سنة ٥٩٤هـ، انظر «الكامل» ١٠/ ٢٥١، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٥٩٤هـ.

اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونَصِيبين، والخابور، والمِجْدَل. ووصل حلب في خامس رجب.

وقال ابن شدَّاد: دخل حلب في شعبان، وزوَّج صاحب الموصل ابنته.

قال العماد: وفَوَّض القضاء والحُكم بنَصِيبين وسِنْجار والخابور إلى الشَّيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولَّى بها نوَّابه، وحكَّم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شداد: لما صارت المَوْصِل إلى سيف الدين ابن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه، وتولَّى أمر البلد رجلٌ يقال له عبد المسيح، كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه كان باقياً على نصرانيته، وله بيعة في داره، وتتبَّع أرباب العلم والدين وشَتَّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين. فبلغَ نور الدين ذلك، وكُتِب له قصصٌ في ذلك. فسار ونزل على الموصل من جانب الشطِّ، والشط بينه وبينها، وقال: لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حُرْمتها وهي لولدي. وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد، وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كُتِب إليَّ في عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وأنا مقصودي أزيل هذا النَّصْراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدبِّر البلد ويدور فيه، والأمر إليه. وبذل الصُّلْح لنور الدين، فقال نور الدين: أنا قد جئت ولا بُدَّ لي من دخول البلد. فقال: نعم لا يدخل إلّا من باب السِّرِّ. فقال نور الدين: ما أدخل إلّا من باب السر. فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات، إلى أن عَلِمَ أن نيته صالحة، فصالحه في السر، وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين، فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم؟ دمُك قد راح وأنت غافل! فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدِّين! فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشَهُ[1] بين يديه، وقال له: أنت قد صالحت عَمَّك وقد علمتَ ما عملتُ في حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين، فاللَّهَ اللَّهَ في دمي. فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشَّيخ عمر المَلَّاء. فقال: والله لو مَضيتُ إليه لم يفتح لي ـ لعلمه بما جرى منه في حَقِّ المسلمين ـ ولكن تسيِّر أنت إليه. فأنفذ سيف الدين إليه واستحضره ـ وكان معتكفاً ـ فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه. فوقف بين يديه يبكي، فالتفت إليه عمر وقال: من يعادي

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة تشبه التاج كأنه على شكل مثلث، تلبس بدل العمامة، كانت شارة للأمراء دون غيرهم، (التعريف بمصطلحات الصبح ص١٩٧ ـ ١٩٨، خطط المقريزي ٢/ ٩٩).

الرجال يبكي مثل النساء! فقال له: قد تمسكتُ بك وأطلب منك حَقْنَ دمي. فقال: أنت آمن على دمك. فقال: وعلى مالي. فقال: وعلى مالك. قال: وعلى أهلي. فقال: وعلى أهلك.

وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذٍ، فقال سيف الدين لعمر المَلَّاء: تخرج تحلِّف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا له نسخة يمين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه. فقال له عمر: الناس يعلمون حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وقد خرجتُ في كذا وكذا. وناوله النسخة التي تتعلَّق بسيف الدين، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون، فقال: نسخة جيدة. فقال له الشيخ عمر المَلَّاء: أيش تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة. فقال: إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى. فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك. يشير إلى أن نور الدين كان تجري منه أيمانٌ في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيَّد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجتُ إليك ولا بُدَّ لي من ضيافة. قال: كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً! فقال: تحلف لي بهذه النسخة. فوقف عليها وتغيَّر وجهه، وقال: أنا ما جئتُ إلَّا في هذا لأخلص المسلمين منه! فقال له الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين. فقال: قد أمنته على نفسه. فقال: وعلى أهله. فقال: ومن أهله؟ قال: نصارى. فقال: أمنتهم. فقال: وعلى ماله. فقال: ومن أين لهذا الكلب مال؟ هذا مملوك لنا. فقال: قد أُعتق وماله له، وهو اليوم كان صاحب الموصل، فقال: قد أمنته على ماله. فحلف على ذلك جميعه، واستقرَّ الصُّلْح.

وخرج سيف الدِّين إلى خدمة نور الدين، فوقف بين يديه، فأكرمه نور الدين وكان وَصله خِلْعة أمير المؤمنين فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها، وانتقل إلى جانب الشط الآخر، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطرٌ شديد جدًّا، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مُدَّة، ورتَّب أمورها، وولَّى فيها كُمُشْتِكِين، فرأى النَّبي ﷺ ذات ليلة في المنام وهو يقول له: جئتَ إلى بلدك وطاب لك المقامُ به، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين؟! فاستيقظ من منامه، وسار سُحْرَةَ ذلك اليوم ولم يلبث، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله تعالى.

فصل

[وفاة الخليفة المستنجد بالله وتولي ابنه المستضيء بأمر الله]

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المُظَفَّر يوسف بن المقتفي، ونورُ الدين مخيِّم بشرقيِّ الموصل بتلٍّ توبة. وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر، وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن.

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام. وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العَبَّاس[١]. وهذا العدد له بحساب الجُمَّل، اللام والباء، وفيه يقول بعضُ الأدباء: [البسيط]

أَصْبَحْتَ لُبَّ بني العَبَّاس كلِّهمُ ... إن عُدِّدَتْ بحسابِ الجُمَّل الخُلَفَا

وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرةً مع الرعية؛ كان عادلاً فيهم، كثير الرِّفْق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً، ولم يترك بالعراق مَكْساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قَبَض على إنسانٍ كان يسعى بالنَّاس، ويكتب فيهم السِّعايات، فأطال حَبْسَه، فحضر بعضُ أصحابه وشفع فيه، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفَّ شَرَّهُ عن الناس.

وتوفي في أيامه شيخ الشيوخ إسماعيلُ بن أبي سعد[٢]، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ[٣]، وذلك سنة إحدى وأربعين.

---

(١) انظر صبح الأعشى ٣/ ٢٧٦.

(٢) هو أبو البركات إسماعيل بن أبي سعد أحمد، الصوفي، كان أبوه من أهل نيسابور، واستوطن بغداد، فولد بها سنة ٤٦٥هـ، وكان وقوراً مهيباً، قرأ عليه السمعاني، وابن عساكر (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ١٢١، وفيات الأعيان ١/ ٩٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) توفي صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، سنة ٥٨٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٢.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين توفي محمد بن نَصْر القَيْسَراني[١]، وأحمد بن منير[٢]، الشَّاعران. وقد تقدَّم ذلك.

وفي سنة تسعٍ وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشَّاعر الأنْدَلُسي[٣].

وفي سنة إحدَى وخمسين توفي الوَأْوَاء الشَّاعر الحلبي[٤].

وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النَّجيب الصُّوفي الفقيه الواعظ[٥].

قال العماد: وجاءنا رسلُ دار الخلافة مُبَشِّرين بخلافة المستضيء، واتَّفق ذلك يوم عبور دِجْلَة. وركب يوم النُّزول على تَلِّ توبة في الأُهبة السوداء، واليد

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، توفي سنة ٥٤٨هـ. له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٩٦ ـ ١٦٠، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح، مهذب الدين، أبو الحسين (وليس أبي الحسن، كما سماه هنا المؤلف) الطرابلسي الشاعر، نزيل حلب، ولد سنة ٤٧٣هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ، ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٣) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد الباهلي المري، أبو الحكم الأديب الأندلسي المعروف بالمغربي، ولد باليمن سنة ٤٨٦هـ، عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي بدمشق سنة ٥٤٩هـ. له: «ديوان شعره»، «مقصورة هزلية»، «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» أيضاً ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٦٤٨، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦١٤ ـ ٦٢٧، خريدة القصر، القسم الرابع، الجزء الأول ص٣٦٩ ـ ٣٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٥، نفح الطيب ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٤) هو غير الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد الغساني، المتوفى سنة ٣٩٠هـ. والمقصود هو أبو الفرج عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين، الحلبي النحوي الشاعر، المعروف بالوأواء (المتوفى في كشف الظنون سنة ٦١٣هـ، وفي البغية سنة ٥٥١هـ). وأصل الوأواء من بزاعة ـ بين منبج وحلب ـ ونشأ ومات بحلب، تردد إلى دمشق غير مرة، وكان يقرئ بها النحو، ويشرح شعر المتنبي ويعربه، (انظر كشف الظنون ٥/ ٦٠٧، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٧، إنباه الرواة ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

(٥) أبو النجيب الواعظ: هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه (بفتح العين وضم الميم وتشديدها) ابن سعد الصديقي البكري، ضياء الدين، أبو النجيب السهروردي، الفقيه الصوفي، كان يدرس ويملي الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد، ولد سنة ٤٩٠هـ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ ببغداد، صنف: «آداب المريدين» في التصوف والأخلاق (كشف الظنون ٥/ ٦٠٦، ٦٠٧، وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٤، ٢٠٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٧٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٧٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٥).

البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحَدْباء. ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام.

ومما نظمه العماد فيه[1]: [الخفيف]

قد أضاءَ الزَّمانُ بالمستضيء ... وارثِ البُرْدِ وابنِ عَمِّ النَّبيء

جاء بالحَقِّ والشَّريعةِ والعَدْ ... لِ فيا مَرْحباً بهذا المجيء

فهنيئاً لأهلِ بَغْدَادَ فازوا ... بعد بُؤْسٍ بكلِّ عَيْشٍ هَنِيء

ومُضيء إن كان في الزَّمَنِ المُظْـ ... ـلم فالعَوْدُ في الزَّمانِ المُضِيء

وله من قصيدةٍ أخرى[2]: [الكامل]

لهفي على زَمَنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ

نُقِضَتْ عهودُ الغانيات وإنَّها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تَنْقَضِ

يا حُسنَ أيام الصِّبا وكأنَّها ... أيامُ مَوْلانا الإمام المُسْتَضي

ذو البَهْجَةِ الزَّهْراء يُشْرِقُ نورُها ... والطَّلْعَةِ الغَرَّاء والوَجْه الوَضي

قَسَمَ السَّعادة والشَّقاوة ربُّنا ... في الخَلْقِ بين مُحِبِّه والمُبْغِضِ

فَضَلَ الخلائِفَ والخلائِقَ بالتُّقى ... والفَضْلِ والإفضالِ والخُلُق الرَّضي

فانْعَمْ أميرَ المؤمنينَ بِدَوْلَةٍ ... ما تنتهي وسَعَادَةٍ ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إلى دمشق، وأدَّى فَرْضَ الصِّيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سُرَادِقه إلى جسر الخشب، وسرنا إلى عَشْتَرا.

ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأَرْتُقي باللَّبْوَة، وقد مضت في أخبار سنة خمسة وستين فَثَمَّ ذكرها ابنُ الأثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السَّنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشِّحَن يُعرف بدار المَعُونة، فأعادها صلاح الدين مدرسةً للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرَّم

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٢ ـ ١٣.

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٧ ـ ١٨.

دار الغزل مدرسةً للمالكية، وولّى صدرَ الدين عبد الملك بن دِرْباس[١] القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة. ثم خرج إلى الغَزَاة، وأغار على الرَّمْلة وعَسْقَلان، وهَجَمَ رَبَضَ غَزَّة، ثم رجع إلى القاهرة.

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفَقَ عليها، وأحبَّ أن يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الأول. وكانت بأيْلة قلعة في البحر قد حَصَّنها أهل الكُفْر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركَّبها الصُّنَّاع هناك، وشحنها بالرِّجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلَّها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعُدَد والعَدَد، وحَصَّنها بأهل الجلاد والجَلَد. واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سَمْت القاهرة، ودخلوا في السَّادس والعشرين من جُمادى الأولى إليها.

وسار إلى الإِسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويُرَتِّب قواعدها، وهي أول دفعةٍ سار إليها في أيام سُلْطانه، وعَمَّ أهلَها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه[٢] ـ وهو ابن أخي صلاح الدين ـ منازل العِز بمصر وجعلها مدرسة للشَّافعية، واشترى الروضة وحَمَّام الذهب وغيرهما من الأملاك، ووقفها عليها.

وفي النصف من جُمادى الآخرة أغار شمس الدولة ـ أخو السُّلْطان ـ بالصَّعيد على العُربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

[وفاة القاضي الموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال]

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحَجَّاج

---

(١) هو عبد الملك بن عيسى بن درباس، الهذباني، كردي من قبيلة السلطان صلاح الدين، ولد بالموصل سنة ٥١٦هـ، سمع من ابن عساكر الدمشقي، وروى عنه المنذري صاحب التكملة، كان من جلّة العلماء وفضلائهم، توفي سنة ٦٠٥هـ. وهو أخو ضياء الدين عثمان بن عيسى، وكان من أعلم الفقهاء بمذهب الشافعي، وقد ناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة، توفي سنة ٦٠٢هـ. (انظر في ترجمة صدر الدين عبد الملك: التكملة للمنذري ٢/ ١٥٦، والذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦٠٥هـ، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، وانظر في ترجمة ضياء الدين عثمان، التكملة للمنذري ٢/ ٩٠، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٩١).

(٢) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

يوسف بن الخلال[1]، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كَبِرَ. وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله.

وقال في «الخريدة»: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء، وله قوَّة على الترسُّل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره، وأَضَرَّ ولزم بيته إلى أن تعوَّض منه القبر. ومن شعره[2]: [الرمل]

يا أخا الغِرَّة حَسْبُ الدَّهر من عِظَةِ المغرورِ ما أَصْبَحَ يُبْدي

تؤثر الدُّنيا فهل نِلْتَ بها لحظةً تخلُصُ من همٍّ وكَدّ

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجَزَري[3] في أول كتابه المسمى «بالوشي المرقوم في حَلِّ المنظوم»، قال: حدَّثني عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن يعني بني عبيد غضاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأسٍ يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً. وكان من العادة أن كلاً من أرباب الدَّواوين إذا نشأ له ولد، وشدا شيئاً من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فنَّ الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي ـ وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عَسْقلان ـ إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ـ وهو أحد خلفائها ـ وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأسُ به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخَلَّال. فلما حضرتُ الديوان ومَثَلْتُ بين يديه، وعَرَّفته من أنا وما طَلِبتي، رحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: ما الذي أعددتَ لفنِّ الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة». فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته.

---

(١) انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

(٢) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٧.

(٣) هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد، المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي، من جزيرة ابن عمر، نزيل بغداد، الأديب الكاتب، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ، صنف من الكتب: «الاستدراكات»، «البرهان في علم البيان»، «ديوان الترسل»، «رسالة في الضاد والظاء»، «رسالة في أوصاف مصر»، «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء»، «الوشي المرقوم في حل المنظوم» (كشف الظنون ٦/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣، وترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٦٣٧هـ).

فلما تردَّدْتُ إليه، وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني بأن أحلَّه مَرَّة ثانية، فحللته.

[شروع صلاح الدين في عمارة سور القاهرة وشروعه في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس]

وقال ابن أبي طيّ: في هذه السنة شرع السُلْطان - يعني صلاح الدين - في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدَّم أكثره، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقَرَاقُوش الخادم(١). وقَبَضَ على القصور وسلَّمها إليه، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع من الأذان «حيَّ على خير العمل»، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العَبَّاس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بُوش(٢)، وأعمال الجِيزة وسَمَنُّود(٣) وغيرها.

قلتُ: وقد وقفتُ على كتاب فاضلي وصف فيه غَزَاة غزاها صلاح الدين رحمه الله تعالى في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قُوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السَّابق. أوَّلُ الكتاب: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

(١) هو الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٥٩٧هـ.
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٣٩٩: لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية انتدب لعمارة سور القاهرة ومصر سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي على كثرة من أسرى الفرنج عندهم يومئذٍ، بنى سوراً دائراً عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط، ولم يزل البناء حتى توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن... وقياس هذا السور من أوّله إلى اخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بالهاشمي.
وجاء في الخطط التوفيقية: ... وفي سنة ٥٦٦هـ في زمن صلاح الدين شرع في عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناه من الحجارة وجعل خلفه خندقاً ومات قبل أن يكمل، وكان طول ما بناه نحو اثنين وعشرين ألف متر، وبقي الأمر على ذلك إلى سنة ١٢١٣هـ عند استيلاء الفرنساوية على الديار المصرية فقاسوا المدينة فوجدوه أربعة وعشرين ألف متر، وبه أحد وسبعون باباً، منها ما هو داخل البلد في السور القديم، ومنها ما هو في السور المحيط بها (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ١/ ٢٠٦).
(٢) بوش: مدينة من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل (معجم البلدان ١/ ٥٠٨).
(٣) سمنّود: مدينة من جهة دمياط على ضفة النيل (معجم البلدان ٣/ ٥٤).

وفيه: توجهنا من بركة الجُبّ[1] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السَّابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصَّعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُعْلَمة، قد أيَّدَتها جنود السماء المسوَّمة. وصابحنا الدَّير يوم الأربعاء بقتالٍ جعل كلَّ من في حِصْن الدَّير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القذفِ ضارباً. فلما تعالى النَّهار ملكنا رَبَضَه، وأطلقنا فيه النيران، ورمَّلْنا الرِّجال بالدَّم، وأرملنا النسوان، وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراجٌ قد استعدَت للبلاء جِلباباً، فجعلنا لكلِّ واحدٍ جورة مفردةً وباباً، وسرَّحنا إليهم رُسُلَ المنايا من النُّشَّاب، وقصدنا أَخْذَ الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدَّمت إليهم نقَّابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصُّبْح وقد أمكن تعليقه، وتيسَّر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خَرَّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القَبْضَة، وعَجَزَ من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذابُ بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار.

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر﴾، وطَهَّرَ الأرض منهم بالدم المائر.

فلما كان بُكْرة الجمعة وَرَدتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غَزَّة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشودِ دياره، وجنود أنصاره. فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطِّراد، وأحدثت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه، حتى تحصَّل في الدَّير هو وخيلُه ورَجْله، ولم يبق له من مُلك الشام إلّا ما وطئته رِجْله. فناصبناه الحصار في ليلة السَّبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غماغمه، واستذأبت ضراغمه، فتركناه وراء

---

(١) بركة الجب: وسميت أيضاً ببركة الحجاج، وهي منتزه بظاهر القاهرة في الجهة البحرية (خطط المقريزي ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧).

ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لا مغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقرِّبين.

وواجهنا غَزَّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بِكْراً لم تفترعها الحوادث، وحَصَاناً لم يَطْمِثْها أمل طامث، وهي معقل الديويَّة الذين هم جمرة الشِّرْك، وداهية الإفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النَّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمسِ الذَّاهب، فألْقَتْ إلينا أفلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مَوَاش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوَّمة كأنها لركوبنا أُسْرِجَتْ وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل[1] خَفَّفَتْ عن عساكرنا وفَرَّجَتْ، وميرة كثيرة تمكنت فيها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقِدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المَلَكَة وشدة الجهد. وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإنَّ الفضاءَ الفِضِّي تَعَصْفَرَ من دمائهم وتذهَّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨]، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية، وعِراصاً من سُكّانها خالية، قد بقيت عبرةً للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظةً سارَّةً للمسلم مُرْغِمَةً للكافر.

ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ـ خذله الله تعالى ـ راجعين أن يحمله الثُّكلُ على الإقدام، ويخرجه حَرُّ النَّار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقَتْلُ أصحابه قد جَرَحه، فبِتْنا عليه والألسنةُ بقراره تعيّره، واستتاره يقَرِّعه ويقَرِّره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة، ونَصْرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسَّلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدُوُّ قد غُزي في عُقره وعُقر، وأُذِلَّ في دار مُلْكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقرِّ سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقلال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابِّه، ما عَظُمَتْ به النِّعَم وجلَّت، وزالت به وعثاءُ الطريق وتجلَّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلَّت.

قلت: ومن قصيدة لعُمارة في مدح صلاح الدين، أولها: [الطويل]

فـؤادٌ بـنـارِ الـشَّـوْقِ والـوَجْـدِ مُـحْـرَقُ

---

(١) زوامل: جمع زاملة، وهي الدابة يحمل عليها المتاع والطعام في السفر.

يقول فيها: [الطويل]

لـعـلَّ بـنـي أيـوب إنْ عَـلِـمُـوا بـمـا تـظلَّـمْـتُ مـنـه أن يَـرِقُّـوا ويُـشـفِـقُـوا
غـزوا عُـقـر دار الـمـشـركـيـن بـغَـزَّةٍ جِـهـاراً وطَـرْفُ الـشِّـرْكِ خَـزْيـانُ مُـطْـرِقُ
وزاروا مُـصَـلَّـى عَـسْـقَـلانَ بـأرعـنٍ يـفـيـضُ إنـاءُ الـبَـرِّ مـنـه ويَـفْـهَـقُ[1]
وكـانـت عـلى مـا شـاهـد الـنَّـاس قـبـلـكـم طـرائـقَ مـن شَـوْكِ الـقـنـا لـيـس تُـطـرقُ
ومـا عَـصَـمَـتْـهُـمْ مـنـك إلا مـعـاقِـلٌ تـأنَّـوْا عـلـى تـحـصـيـنـهـا وتـأنَّـقـوا
جَـلَبْـتَ لـهـم مـن سَـورة الـحـرب مـا الـتـقـى بـوادِرَهُ سُـورٌ عـلـيـهـم وخَـنْـدَقُ
وأَخْـرَبْـتَ مـن أعـمـالـهـم كـلَّ عـامـرٍ يـمـرُّ بـه طـيـفُ الـخـيـال فَـيَـفْـرَقُ
أضـفـتَ إلـى أجـر الـجـهـاد زيـارةَ الْـ ـخَـلـيـل فَـأَبْـشِـرْ أنـت غـازٍ مُـوفَّـقُ
وهَـيَّـجْـتَ لـلـبـيـت الـمـقـدَّس لـوعـةً يـطـولُ بـهـا مـنـه إلـيـك الـتـشـوُّقُ
تَـنَـشَّـقَ مـن مـلـقـاك أَعْـطَـرَ نَـفْـحَـةٍ تـطـيـبُ عـلى قَـلْـبِ الـهُـدَى حـيـن تُـنْـشَـقُ
وغـزْوك هـذا سُـلَّـمٌ نـحـو فـتـحـه قـريـبـاً وإلا رائـدٌ ومُـطَـرِّقُ
هـو الـبـيـتُ إنْ تَـفْـتَـحْـهُ والله فـاعِـلٌ فـمـا بـعـدَه بـابٌ مـن الـشَّـامِ مُـغْـلَـقُ

[إقامة صلاح الدين الخطبة لبني العباس]

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخُطْبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العَبَّاس، وفي الجمعة الثانية خُطِبَ لها بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء ما دام لها من العصر[2].

وذكر العماد أيضاً في أخبار سنة اثنتين وسبعين، كما سيأتي، أنَّ الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسِّن بن الحسين بن أبي المضاء البَعْلَبَكِّيّ. وذكر ذلك أيضاً ابن الدَّبيثي[3] في «تاريخه»، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتابٍ له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

---

(١) الأرعن: الجيش العظيم. والفهق: الامتلاء والاتساع.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣ ـ ٣٥.

(٣) ابن الدبيثي: هو محمد بن أبي المعالي سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج، أبو عبد الله الواسطي، المعروف بابن الدبيثي، المؤرخ الشافعي، ولد بواسط سنة ٥٥٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ، له من الكتب: «تاريخ واسط»، «ذيل تاريخ السمعاني على تاريخ بغداد للخطيب» في ثلاث مجلدات، «معجم الشيوخ» (كشف الظنون ٦/ ١١٤).

وقال ابن الأثير[١]: كان السَّبب في ذلك أنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر، وزال المخالفون له، وضَعُفَ أمرُ العاضد، وهو الخليفة بها، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملكُ العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخُطْبة العبَّاسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك؛ لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فُسْحة له فيه.

[وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر]

واتفق أنَّ العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عَزَمَ على قطع الخطبةِ له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العَبَّاسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلّا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميٌّ يُعرف بالأمير العالم[٢] ـ وقد رأيناه بالمَوْصِل كثيراً ـ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها. فلما كان أول جمعة من المُحَرَّم صَعِدَ المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحدٌ ذلك عليه. فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان[٣]. وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتدَّ مرضه، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سَلِمَ فهو يعلم، وإن تُوفي فلا ينبغي أن نُنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجلِهِ. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الأمير العالم: هو محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (بضم الخاء المعجمة والباء الموحدة، وفتح الشين المعجمة، وفي آخرها نون، بليدة بناحية نيسابور)، نجم الدين أبو البركات الشافعي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ. من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي» من فروع الشافعية (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، الفتح القسي ص٥٧٧، وابن جبير في رحلته ص٤٨، التكملة للمنذري ١/ ١٦١ ـ ١٦٢، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤، العبر للذهبي ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٤ ـ ٢١، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٣) هو من المثل: لا ينتطح فيها عنزان، إشارة إلى أن القضية لا يجري فيها خلف ونزاع.

فيه. وكان قد رتَّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قَرَاقُوش ـ وهو خَصِيٌّ ـ لحفظه، وجعله كأستاذ دار[١] العاضد، فحفظ ما فيه حتى تسلَّمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكَّل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعضَ ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسُكَّانه، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا يغيِّره ممرُّ الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما اشتدَّ مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظنَّ أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلُّفه عنه.

قلتُ: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ـ وقد اجتمعتُ به وهو محبوس مقيَّدٌ سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة بقلعة الجبل بمصر ـ أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا ـ يعني أولادَه وهم جماعة صغار ـ فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله. وأما ندمُ صلاح الدين، فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السُّلْطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلَّم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه. وكان مذ نافق مؤتمنُ الخلافة وقُتِل، صُرِف مَنْ هو زمام القصر[٢] وعُزل، ووكَّل بهاء الدين قَراقُوش بالقصر، وجعله زِمَامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه؛ فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، وَوَهَتِ المعاقد، وأمر

(١) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه الأخذ، والثاني: «دار» ومعناه الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠/ ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢٢، ٢١٨).

(٢) زمام القصر: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/ ٥٥٦: وظيفة زمام القصر، وهو بمثابة زمام الدور في زماننا. والزمام: من الزّم: وهو تقديم الشخص على أقارب الخليفة واحتسابه من أقاربه، وزمام القصر هو الذي يتولى إدارة خدم القصر والإشراف على أعمالهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٧١ ـ ١٧٣).

السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر جعلَهُ برسمهم على الانفراد، وقرَّر ما يكون لهم برسم الكُسوات والأقوات والأزواد.

قلتُ: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار بَرْجَوان[1] في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيباً؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصَّلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قَرَاقُوش واحتياطه واستظهاره، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره. وجَمَع الباقين من عمومتهم وعِتْرتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعدَ عنهم النِّساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نَقَصَ عددهم، وقَلَصَ مددهم. ثم عَرَضَ من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطَّريق والتَّليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنَّ، وجَمَعَ الباقيات فوهبهنَّ وفرَّقهُنَّ، وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلَّط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعَدّ عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله ولأمرائه، وخواصّ مماليكه وأوليائه، من أخاير الذَّخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدُّرَّة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التِّبْرِيَّة، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصَّواني الصينيَّة، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النُّضارِيَّة، والكرائم واليتائم، والعُوَذ والتمائم، والعقود والنقود، والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدُّرّ والياقوت، والحَلْي والوَشْي، والعبير والحبير، والوثير والنثير، والعيني واللُّجيني، والبُسط والفُرش، وما لا يُعَدُّ إحصاءً، ولا يحدُّ استقصاءً، فوقع فيها الفَنَاء، وكُشِفَ عنها الغطاء، وأُسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولَبِيسٍ وسحيق[2]، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصنوع ومعمول. واستمرَّ البيع فيها مُدَّة عشر سنين، وتنقَّلَتْ إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصَّادرين.

ونقلتُ من «ديوان العماد» بخطِّه قال: ولما وصل الخبر بموت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوماً بالأمر، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين، بعد

---

(١) برجوان: كان من خدام العزيز ومدبري دولته نافذاً مطاعاً، نقم عليه الحاكم فقتله سنة ٣٩٠هـ. (انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

(٢) اللبيس والسحيق: الثوب الذي أكثر لبسه فأخلق.

الخطبة بها للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات. فذكر قصيدةً، منها: [المنسرح]

تـوفـي الـعـاضـدُ الـدَّعِـيُّ فـمـا ... يَـفْـتَـحُ ذو بِـدْعَـةٍ بـمـصـرَ فـمـا

وعَـصْـرُ فِـرْعَـوْنِـهـا انـقـضـى وغَـدا ... يـوسُـفُـهـا فـي الأمـور مُـحْـتـكِـمـا

وانْـطَـفَـأَتْ جَـمْـرَةُ الـغُـواء وقـد ... بـاخ مـن الـشِّـرْكِ كـلُّ مـا اضْـطَـرَمـا

وصـارَ شَـمْـلُ الـصَّـلاح مـلـتـئـمـاً ... بـهـا وعِـقْـدُ الـسَّـداد مُـنْـتَـظِـمـا

لـمَّـا غـدا مُـعْـلَـنـاً شـعـارُ بـنـي الـ ... ـعَـبَّـاس حـقّـاً والـبـاطِـلُ اكْـتَـتَـمَـا

وبـاتَ داعـي الـتَّـوحـيـد مـنـتـصـراً ... ومِـنْ دُعـاة الإشـراكِ مُـنْـتَـقِـمـا

وظَـلَّ أهـلُ الـضَّـلالِ فـي ظُـلَـلٍ ... داجِـيَـةٍ مـن غَـيـابـةٍ وعـمـى

وَارْتَـبَـكَ الـجـاهِـلُـونَ فـي ظُـلَـمٍ ... لـمـا أضـاءَتْ مَـنَـابِـرُ الـعُـلـمـا

وعـاد بـالـمـسـتـضـيء مـمـتـهَـداً ... بـنـاءُ حـقٍّ قـد كـانَ مُـنْـهَـدِمـا

واعـتـلَّـتِ الـدَّولـة الـتـي اضْـطُّـهِـدَتْ ... وانـتـصـرَ الـديـنُ بـعـدمـا اهـتُـضـمـا

واهـتـزَّ عِـطْـفُ الإسـلام مـن جَـذَلٍ ... وافـتـرَّ ثَـغْـرُ الإيـمـانِ وابـتـسـمـا

واسْـتَـبْـشَـرَتْ أَوْجُـه الـهُـدَى فـرحـاً ... فَـلْـيَـقْـرَعِ الـكُـفْـرُ سِـنَّـهُ نَـدَمـا

عـاد حـريـمُ الأعـداءِ مُـنْـهـتَـكَ الـ ... ـحِـمَـى وفَـيءُ الـطُّـغـاةِ مُـقْـتَـسَـمـا

قُـصُـور أهـل الـقُـصـور أَخْـرَبَـهـا ... عـامـرُ بـيـتٍ مـن الـكـمـال سَـمَـا

أَزْعَـجَ بـعـد الـسُّـكـون سـاكِـنَـهـا ... ومـات ذُلّاً وأنـفُـهُ رَغِـمَـا

ومن كتابٍ فاضليٍّ عن السُّلْطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السنين: كتب الخادم هذه الخدمة من مستقرِّه ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد مرفوع، وسُؤْدُدُ السَّواد متبوع، وحكم السَّداد بين الأمَّة موضوع، وسَبَبُ الفساد مقطوع ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً، وصارت البلاد بل الدُّنيا، والشهر بل الدهر، حَرَماً حَرَاماً، وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذا ذُكّر بها أهلُ الخلاف لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً، والبِدْعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلَّة في شيع الضَّلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسمّوا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرَّقوا أمرَ الأمة وكان مجتمعاً، وكذَّبوا بالنَّار فعُجِّلَتْ لهم نار الحتوف، ونثرت أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسهم نَثْرَ الأقلامِ للحروف، ومُزِّقوا كل ممزَّق، وأُخذ منهم كل مُخَنَّق، وقُطعَ دابرهم، ووعظ آتيهم غابِرُهم، ورَغِمَتْ أنوفهم ومنابرهم، وحقَّتْ عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمَّتْ

كلماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، وليس السيف عمن سواهم من كُفَّارِ الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولا خَفَاء عن المجلس الصَّاحبي أن من شَدَّ عَقْد خلافةٍ وحَلَّ عُقَدَ خِلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عَجَزَ عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقرٌ إلى أن يُشْكَرَ ما نَصَحَ، ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدَّمَ حقه ولا يُطَّرَح، ويقرَّب مكانه وإن نَزَح، وتأتيه التَّشريفات الشَّريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلبَّى دعوته بما أقامَ من دعوة، وتُوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسَلَ إليه السحب المروَّضة، فكلُّ ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وَجْهَهُ لنصرها، وجرَّد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النُّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجُز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بَرّ، واستفتح بلباس السَّواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السَّواد الأعظم، آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاءُ فَضْلَ عَقِبه، ويخلِّد الشَّرفَ في عَقِبه.

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإِرْبلي(١) من قصيدةٍ في مَدْح بعض ذُرِّيَّة السُّلْطان رحمه الله تعالى: [الطويل]

مليكٌ من القومِ الذينَ رِماحُهُمْ	دعائمُ هذا الدِّين في كلِّ مَشْهَدِ
هُمُ نَصَرُوا التَّوحيدَ نَصْراً مؤزَّراً	به عَزَّ في الآفاقِ كلُّ مُوَحِّدِ
وهم قَهَرُوا غُلْبَ الفرنجِ ببأسِهِمْ	فَدَانُوا لهم بالرُّغْمِ لا عَنْ تَوَدُّدِ
وردُّوا إلى البيتِ المُقَدَّس نُورَه	وقد كانَ في ليلٍ من الشِّرْكِ أَسْوَدِ
وهم سَهَّلُوا سُبْلَ الحجيج وآمنوا	بها الركبَ خوفَ الكافِرِ المتَشَدِّدِ
وقد رَكِبَتْ فُرْسانُه بَحْرَ أَيْلَةٍ	يخوضونَ في بحرٍ من الكَيْدِ مُزْبِدِ
وهم رجَّعوا مِصْراً إلى دعوة الهُدَى	بِعَزْمٍ ورأيٍ في العظائم مُحْصِدِ

(١) هو محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن الظهير الإربلي، مجد الدين الحنفي الأديب الشاعر، ولد بإربل سنة ٦٠٢هـ، سمع بدمشق من علم الدين السخاوي شيخ أبي شامة، فانعقدت بينهما صحبة، وحدّث عنه أبو شامة أيضاً، كان من كبار الحنفية، درس بالمدرسة القيمازية، وكان من أعيان شيوخ الأدب، وفحول المتأخرين في الشعر توفي بدمشق سنة ٦٧٧هـ، له ديوان شعره في مجلدين (كشف الظنون ٦/ ١٣٣، فوات الوفيات ٣/ ٣٠١ ـ ٣١٠، العبر للذهبي ٥/٣١٦، الوافي بالوفيات ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٧، الجواهر المضية ٣/ ٥٢ ـ ٥٤، البداية والنهايه ١٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥).

وهم شَيَّدوا رُكْنَ الخِلافةِ بالَّذي أعادوه من حقٍّ طريفٍ ومُتْلَدِ
وهم شَرَّفوا قَدْرَ المنابرِ باسمها وذكرِ مَنُوطٍ بالرَّسول محمدِ
وهم وَهَبُوا غُرَّ الممالكِ واكتفوا بسُمْرِ العوالي والعلاء المُشَيَّدِ
فَسَلْ عن ظُباهم يوم حِطِّين كم قَضَتْ بمرِّ مراد الله في كلِّ أَصْيَدِ
وضَعَّفْ حديث العَدْلِ والبأس والنَّدى إذا كان عن أيامهم غيرَ مُسْنَدِ

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: قد قدَّمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخُطْبة بمصر للعَبَّاسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نور الدين فيه، وألحَّ نور الدين على صلاح الدين في طَلَبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتَّهم صلاح الدين، وشَنَّع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقرَّ بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السُّودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلَّا فسدت أحواله. فلما أوقع السُّلْطان الملك الناصر بالسُّودان والأَرْمن، ونكب أمراء المصريين وقطع أخبارهم، ونزَّل أجناده في دُورهم، ثم قطع إقطاع العاضد، وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكَّلَ بها وبمن فيها قَرَاقُوش الخادم، وخَلَت له بلاد مصر من معاندٍ ومنابذ. ثم شرع وأبطل من الأذان «حيّ على خير العمل»، وأنكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداؤه قليلون، شرع حينئذٍ في الخُطْبة لبني العبّاس، ولمَا عَوَّل على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعةٍ من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يُحضِرَ الخطيبَ إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك النَّاصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهاراً وخوفاً من فادحة ربما طرأت، أو عدوٌّ ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولمّا حَصَل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال له: إن ذَكَرْتَ هذا المقيم بالقصر ضَرَبْتُ عنقك. فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العبّاسي. فلما صَعِدَ المنبر وخطب، ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسُّلْطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة

الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خُطب؟ قيل له: لم يُخطب لأحدٍ مسمّى. قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مُسَمَّى. واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل: إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهَمُّ حتى مات. وقيل: إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتمَّ، وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعلِّلاً خمسة أيام ومات. وقيل: إنه امتصَّ فَصَّ خاتمه، وكان تحته سُمٌّ، فمات.

ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسُّلْطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت. أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني[1] في «سيرة ابن هُبيرة الوزير»[2] قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمسٍ وخمسين وخمسمائة، كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة، وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون

---

(١) ابن المارستاني: كذا بالأصل، ولعله تصحيف والصحيح: ابن المارستانية وهو عبيد الله بن أبي الفرج علي بن نصر بن حمزة، أبو بكر البغدادي المعروف بابن المارستانية، نسب إلى أمه، وكانت تخدم مع أبيه في المارستان، توفي سنة ٥٩٩هـ، من تصانيفه: «ديوان الإسلام الأعظم في تاريخ بغداد» لم يكمل (كشف الظنون ٥/ ٦٤٩، وترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) هو يحيى بن هبيرة: هو عون الدين أبو المظفر الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني الفقيه الحنبلي، من وزراء المقتفي لأمر الله العباسي، وبعده، للمستنجد، أصله من قرية بني أوقر من أعمال دجيل، ولد سنة ٤٩٧هـ، وتوفي سنة ٥٦٠هـ، ببغداد، له من التصانيف: «اختلاف العلماء»، «أرجوزة في الخط»، «الإشراف على مذاهب الأشراف»، «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح» وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، «الإيضاح على معاني الصحاح»، وهو شرح الجمع بين الصحيحين لأبي نصر الحميدي، «تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت»، «الطامس والغالس»، في علم السيمياء، «كتاب الإجماع والاختلاف» «كتاب العبادات»، «كتاب المقتصد»، «كتاب المقصور والممدود» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٥٢١، «الكامل» ٩/ ٤٨٠).

بألحانٍ وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النَّاس بإمامهم. قال: وكان الرجل قد استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرَّجل، وبلغ هذا المنام ابنَ هُبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتَبْدلُ به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللِّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتَبَ نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزمان أشعارٌ في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان[1]، وكان حاجب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام: [الطويل]

لِتَهنِك يا مَوْلى الأنام بشارةٌ ... بها سَيْفُ دينِ الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هَامَ الأعادي بِهِمَّةٍ ... تَقَاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَرْبِها ... بعوثاً من الآراء تحيي وتُتْلِفُ
فقامَتْ مَقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ ... ونابَتْ منابَ الرُّمْحِ والرُّمْحُ يَرْعُفُ
وقُدْتَ لها جيشاً من الرَّوْعِ هائلاً ... إلى كلِّ قَلْبٍ من عِدَاتِك يَزْحَفُ
مَلَكْتَ به أَقْصَى المغاربِ عَنْوَةً ... وكادَتْ بمن فيها المشارِقُ تَرْجُفُ
لِيَهْنِكَ يا مولاي فتحاً تَتَابعتْ ... إليك به خوصُ الركائب تُوجَفُ
أخَذْتَ به مِصْراً وقد حال دونها ... من الشِّرْكِ ناسٌ في لَهَى الحق يُقْذَفُ
وقد دَنَّسَتْ منها المنابِرَ عُصْبَةٌ ... يَعاف التُّقى والدينُ منهم ويَأْنَفُ
فَطَهَّرَها من كلِّ شِرْكٍ وبِدْعةٍ ... أغرُّ غريرٌ بالمكارمِ يَشْغَفُ
فعادَتْ بحمد الله باسم إمامنا ... تتيهُ على كلِّ البلادِ وتَشْرُفُ
ولا غَرْوَ أن دانَتْ ليوسُفَ مِصْرُه ... وكانت إلى عَلْيَائه تتشوَّفُ
تملَّكها من قَبْضَةِ الكُفْر يوسُفٌ ... وخلَّصها من عُصْبَةِ الرِّفض يوسُفُ

قال يحيى بنُ أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصِّدِّيق النبي ﷺ،

---

[1] لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وفي «خريدة القصر» قسم شعراء العراق الجزء الرابع المجلد الثاني ص٥٠٦ ـ ٥٠٨: محمد بن الحسين، من أكابر أهل واسط، وكان الوزير ابن هبيرة يصدر عن رأيه ويأخذ بقوله، ويعتمد عليه في جميع أنحائه، ولما توفي الوزير سنة ٥٦٠هـ، أخذ وحبس، وضرب ضرباً شديداً أشرف به على الموت، توفي شاباً بعد وفاة الوزير بعام سنة ٥٦١هـ.

وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذٍ، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت: [الطويل]

فشابهته خَلْقاً وخُلْقاً وعِفَّةً ... وكلٌّ عن الرَّحمٰن في الأرْضِ يَخْلُفُ

وجرى الفأل في البيت باسم الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني[1] في السيرة المذكورة، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة نورَ الدين بن زَنْكي يحثُّه على التعرُّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرَّك ذلك ما كان تخمَّر في نفسه مما كان كاتبه به ابنُ هُبيرة، فاستطلعَ من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسيَّر إليها أسد الدين، كما سبق ذِكْره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السُّنَّة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلُّوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دُورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعَظُمَتِ الأذية بذلك. وجلا أكثر أهل مِصْر عنها إلى البلاد، وفرح النَّاس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدَّث به السُّمَّار.

[إرسال نور الدين المطهر بن أبي عصرون إلى بغداد للبشارة بإقامة الخطبة العباسية في مصر]

ولما وصل خبرُ ذلك إلى نور الدين ندبَ للبشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المُطَهَّر بن أبي عَصْرون، وكتب معه نسخة بشارة تُقرأ بكلِّ مدينةٍ يمرُّ بها، يقول فيها: أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رِتاجَه، وأوضح لنا مِنْهَاجَهُ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العبَّاسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المِصْرية والإِسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قُوص وأُسْوان بأقصى الصَّعيد، وهذا شَرَفٌ لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما بَرِحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعَزَائمنا في إقامة الدَّعوة الهادية بها ماضِيَة، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا ونجاز مواعدنا قاضِيَة، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها،

(١) تقدم أن ابن المارستاني تصحيف، والصحيح ابن المارستانية.

وَقَدَرْنا عليها وقد عَجَزوا عنها. وطالما مَرَّت عليها الحِقَب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضَّلال، مقفرة المَحَلِّ إلا من المُحال، مفتقرة إلى نُصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعةً يدها في إشكائها، متظلِّمة إليه ليكفُلَ بإعدائها على أعدائها، حتى أَذِنَ الله لغُمَّتها بالانفراج، ولعِلَّتها بالعلاج؛ وسَبَّب قصدَ الفرنج لها وتوجُّههم إليها، طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبِدْعة، وكلاهما شديد الرَّوْعة، فملَّكنا الله تلك البلاد، ومكَّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمِّله في إزالة الإلحاد والرَّفض، من إقامة الفَرْض، وتقدَّمنا إلى من استَنَبْناه أن يستفتحَ باب السَّعادة، ويستنجح ما لنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العَبَّاسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك.

وهو كتابٌ طويل اخترت منه الغرض، وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينةً إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذِّكْر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكبُ إلى تلَقيه وجميعُ أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظِّمين لجليل مورده، ونُثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبي بكلِّ إحسانٍ وإكرام، وأُرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين، كما سيأتي ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لا يخرجُ عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. وقد كان كاتَبَه نور الدين في شوال سنة ستٍّ وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصَّعْبَة، وافتراع بِكْر هذه القضية وفرع الرتبة. وأيقن أن أمره متبوع، وقولَه مسموعٌ، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التَّمام، ألسُنُ الخواص والعوام، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالي المطهَّر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدَّم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصَّة للديوان العزيز بحضرة الإمام، في مدينة السَّلام ـ ثم ذكر نسخة الكتابين.

ثم قال: ونظمتُ قصيدةً مشتملة على الخُطْبة بمصر، أولها[1]: [الخفيف]

قد خطبنا للمستضيء بمصرِ ... نائب المصطفى إمامِ العَصْرِ

وخَذَلنا لنُصرةِ العَضُدِ العا ... ضدَ والقاصرَ الذي بالقَصْرِ

(١) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٤ ـ ١٧.

أراد بالعَضُد وزير بغداد عَضُد الدين ابن رئيس الرؤساء.

قال العماد في كتاب «الخريدة»: قصدت بالعَضُد والعاضد المجانسة. ونصرة وزير الخليفة كنصرته. ثم قال: [الخفيف]

وأشَعْنَا بِها شعارَ بني العَبّـ (م) ـاس فاسْتَبْشَرَتْ وُجُوه النَّصْرِ
وتَرَكْنَا الدَّعيَّ يدعو ثُبُوراً وهو بالذُّلِّ تَحْتَ حَجْرٍ وحَصْرِ
وتباهَتْ منابرُ الدِّينِ بالخُطْـ ـبة للهاشميِّ في أَرْضِ مِصْرِ
ولَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعَمُ اللَّـ ـهِ وَجَلَّتْ عن كلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ
فاغتدى الدينُ ثابتَ الرُّكْنِ في مِصْـ ـرَ مَحُوطَ الحِمى مصونَ الثَّغْرِ
واستنارَتْ عَزَائِمُ المَلْك العا دل نورِ الدِّين الكريم الأَغَرِّ
وبنو الأَصْفَرِ القَوامِصُ منه بوجوهٍ من المخافة صُفْرِ
عَرَفَ الحقَّ أهلُ مِصْرٍ وكانوا قبلَهُ بينَ مُنْكِرٍ ومُقِرِّ
قل لداعي الدَّعيِّ حَسْبُك فاللَّـ ـه أقرّ الحقوقَ خيرَ مقرِّ
هو فَتْحٌ بِكْرٌ ودون البرايا خَصَّنا اللَّهُ بافتراعِ البِكْرِ
وحَصَلْنَا بالحمد والأَجْرِ والنَّصْـ ـرِ وطيبِ الثنا وحُسْنِ الذِّكْرِ
ونَشَرْنَا أعلامَنَا السُّودَ قهراً للعِدى الزُّرْقِ بالمنايا الحُمْرِ
واسْتَعَذْنا من أدعياءَ حقوقاً تُدَّعى بينهم لزيدٍ وعَمْرِو
والذي يدَّعي الإمامة بالقا هرةِ انحطَّ في حضيضِ القَهْرِ
خانه الدَّهرُ في مُناه، ولا يطـ ـمَعُ ذو اللُّبِّ في وفاءِ الدَّهرِ
ما يُقَامُ الإمامُ إلا بحقٍّ ما تُحازُ الحسناءُ إلا بمهرِ
خلفاءُ الهدى سَرَاة بني العَبّـ (م) ـاسِ والطَّيِّبون أهل الطُّهْرِ
بِهِمُ الدين ظافِرٌ مستقيمٌ ظاهرٌ قُوَّةً قويُّ الظَّهْرِ
كشموس الضُّحى كمثل بدورِ التَّـ (م) ـمِّ كالسُّحْب كالنُّجوم الزُّهْرِ
قد بلغنا بالصَّبْرِ كلَّ مُرَادٍ وبلوغُ المُرادَ عُقْبى الصَّبْرِ
ليس مُثْري الرجال من مَلَك الما لَ ولكنما أخو اللُّبِّ مُثْري
ولهذا لم ينتفع صاحب القصْـ ـر وقد شارف الدُّثور بِدَثْرِ[1]
دامَ نَصْرُ الهُدى بمُلك بني العَبّـ (م) ـاس حتى يقومَ يَوْمُ الحَشْرِ

(١) الدثور: الدروس. والدثر: المال الكثير.

قال العماد في «ديوانه»، ونَقَلْتُهُ من خَطِّه، قال: ووصل الخبر بالخطبة في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإشاعة شعار بني العباس بها. فقلتُ، ونحن نزولٌ بجسر الخشب من دمشق في عاشر شَوَّال، وكتبتُ بها إلى بغداد فذكر هذه القصيدة.

[وصول عماد الدين صندل
من بغداد في جواب بشارة نور الدين]

وقال في «البرق»: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صَنْدَل[1] وهو من أكابر الخدم المقتفوية، من ذوي الروية والهِمَّة القوية. وتولى أستاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها، فأُكرم نور الدين بإرسال مثله إليه، وعُوِّل في هذا الأمر المهمِّ عليه. وهو أكرمُ رسولٍ وصل، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشَّريف لنور الدين مكملاً، معظَّماً مجملاً، بأُهبته السوداء العراقية، وحُلَله الموشِيَّة، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل.

وعُيِّن يوم يحضر فيه الرسول، ونصُّوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا ذِكْر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقَصَدَ أن يعرِّفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه. قال: فتناوله مني الموفق بن القَيْسَراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومَاريته، وتركته يقرأ وأنا أردُّ عليه، وأرشده في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه، حتى أنهاه، وأنا على افتئاته عليَّ لا أنهاه. فأعجبَ نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأني والتأتي، واجتاب الأُهبة، ولبس الفرَجية فوقها، وتقلَّد مع تقلُّد السيفين طوقها. وخرج وركب من داخل القلعة، وهو حالٍ بما عليه من الخِلْعة؛ واللواء منشور، والنُّضار منثور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبة، والآخر بحليته مجنوبة.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين، واشتماله بالنّجادين، فقيل: هما للشَّام ومصر، والجمع له بين البلادين.

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر، ثم عاد

---

(١) هو صندل بن عبد الله الخادم المقتفوي ويلقب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهم، أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين مراراً، وكان كثير الصدقات والخير، وولي ناظراً بواسط ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد، توفي سنة ٥٩٣هـ، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٣هـ).

شريف المفخر، جميل المنظر، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمَصْدَر، لبيقاً بالأعظمين: السَّرير والمنبر. وكان وزن الطَّوْق مع أُكْرَته ألف دينار من الذَّهب الأحمر. وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً، رائعاً رائقاً، لجماله وكماله لائقاً، لكنَّ تشريفَ نور الدين أميز وأفضل، وأجمل وأكمل. فسيَّر تشريفه برُمَّته إليه بمصر ليجتابه، وسَيَّر أيضاً بخِلَع من عنده يكرم بها أصحابه. ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وآنس من السَّعادة الدائمة قَبَسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أُهبة عَبَّاسِيَّة دخلت الديار المصرية؛ يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلامٌ وبنود، ورايات سود، وأُهَبٌ عباسية، للخطباء في الدّيار المصرية، فسُيِّرت إلى صلاح الدين، ففرَّقها على المساجد والجوامع والخطباء والقُضاة والعلماء؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى، ووهب وأعطى.

[أمر صلاح الدين بالقبض على قصور العاضد وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح]

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القُصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر؛ لأن شاور كان قد ضيَّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدَّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه: قضيب زمرّد طوله شبر وكَسْر، قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإِبهام، ووجد فيه طَبْلٌ للقولنج، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر. فأما قضيب الزُّمرد فإن السّلطان أخذه وأحضر صائغاً ليقطعه، فأبى الصَّائغ قطعه، فرماه السّلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرَّقه السُّلطان على نسائه. وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يَدْرِ ما هو، فكسره، لأنه ضَرَبَ به فحَبَق[1]، وأما الإِبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد.

واحتاط السُّلْطان على أهل العاضد وأولاده في موضع في خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقَرَّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قَراقُوش الخادم، وفرَّق بين النساء والرِّجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم. واستعرض مَنْ بالقصر من الجواري والعبيد، والعُدَّة والعديد، والطَّريف والتّليد فأطلق مَنْ كان منهم

---

(١) حبق: أي ضرط.

حُرًّا، وأعتق من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته. وفَرَّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البَلَخْش[1] والياقوت وقضيب الزُّمرُّد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدَّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدُّنيا ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة بتاريخ الطَّبري، ويقال: إنها كانت تحتوي على ألْفَي ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحَصَّل القاضي الفاضل نُخبَها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلُّ كتابٍ صَلُحَ له قطع جِلْده ورماه في بركةٍ كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حَصَّل ما حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعةٌ من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد.

واقتسم النَّاس بعد ذلك دور القَصْر، وأعطى السُّلْطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة؛ وهو قَصْرٌ عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري؛ ونقل الملك العادل[2] إلى مكانٍ آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً

---

(١) البَلَخْش: من الأحجار الكريمة، ويسمّى اللَّعْل، وهو جوهر أحمر شفاف مسفر صاف، وقال في صبح الأعشى: وانعقاده في الأصل ليكون ياقوتاً إلا أنه أبعده عن الياقوتية علل من اليبس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحمر. ومعدن البلخش الذي يتكون فيه بنواحي بلخشان، والعجم تقول: بذخشان بذال معجمة وهي من بلاد الترك تتاخم الصين... وليس لجميعه شيء من خواص الياقوت ومنافعه، وإنما فضيلته تشبهه به في الصبغ والمائية والشعاع لا غير، وقيمته في الجملة على النصف من قيمة الياقوت الجيد... وهو لا يؤخذ من معدنه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد، وقد لا يوجد بعد التعب والإنفاق، ولهذا عز وجوده، وغلت قيمته، وكثر طالبه، والتفتت الأعناق إلى التحلي به (صبح الأعشى ٢/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) هو الملك العادل محمد بن أيوب بن شاذي، سيف الدين، أبو بكر، وكنيته أشهر من اسمه، أخو السلطان صلاح الدين، قيل: إن مولده فتوح الرها، وكانت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقيل: إن مولده سنة أربعين، وكان نبيلاً حازماً سديد الآراء ذا مكر وخديعة، حسن التدبير، خليقاً للملك، حليماً صفوحاً، عادلاً، مجاهداً، ديناً، عفيفاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، توفي في سابع أو ثامن جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ. (انظر ترجمته الوافية في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٠٠ ـ ٢٢٩، وانظر أيضاً: مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٧، الذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦١٥هـ، =

أخرج منها صاحِبَها وسكنها. وانقضت تلك الدولة برمَّتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد، مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال: وحكي أن الشَّريف الجليس ـ وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدِّثه ـ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السُّلْطان بعد القبض على القُصور، وأَخْذِ ما فيها وانقراض دولتهم[1]، وغَرِمَ هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدَّولة لهذا الشريف: حدِّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم، طلبني العاضد يوماً ولجماعة من النُّدماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من التُّرْك عليهم أقبية مثل أقبيتكم، وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الزِّيّ الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأُخِذَت ذخائر القصر. ففصَّلها كما سبق. ثم قال: ومن جملتها الكتب، فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلَّدة، مؤبَّدَة من العهد القديم مخلَّدة، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه التعدِّي؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشَّام. وتقاسم الخواص بِدُورِ القصر وقُصورِه، وشرع كل من سكن في تخريب معموره؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرَّت سكناه فيه. وخطب لإمامنا المستضيء في قُوص وأُسْوان والصَّعيد، والقاضي والدَّاني والقريب والبعيد. وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر. وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم ملَّكها أمراءه، وخَصَّ بها أولياءه؛ وباع منها أماكن، ووهب مساكن، وعفَّى الآثار القديمة، واستأنف السُّنن الكريمة.

وقال ابن الأثير: لما استولى صلاح الدين على القَصْر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً. وكان فيه من الجواهر والأعلاق

= الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٥ ـ ٣٩٤، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٧٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠).

(١) تقدم في أول هذا الجزء أن الجليس توفي سنة ٥٦١هـ. ولعل هذا وهم من ابن أبي طي.

النَّفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جُمع على طول السنين وممرّ الدُّهور، فمنه القضيب الزمرُّد طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت، وغيرهما؛ ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فَصْل

[نبذة عن الدولة الفاطمية]

ولما خُطب بالديار المِصْرية لبني العبَّاس، ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإِسلام بمصر بانقراضها الذلة. واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلُّهم من قِبَل نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ هم أمراؤه وخدمه وأصحابه. وفيهم يقول العَرْقَلَة[1]: [الخفيف]

أصبح المُلكُ بعدَ آلِ عليٍّ ... مشرقاً بالملوك من آلِ شاذي
وغدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ للقو ... مِ ومِصْرٌ تزهو على بَغْدادِ
ما حوَوْها إلّا بحزمٍ وعَزْمٍ ... وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفِرْعون والعزيز ومن كا ... ن بها كالخَصِيبِ والأُستاذ

يعني بالأستاذ كافور الإِخشيدي. وقوله: بعد آل علي، يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، أظهروا للنَّاس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد.

وكان والد عُبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سَلَمْية من بلاد الشَّام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علويٌّ فاطميٌّ، وادَّعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنِّفي الأنساب العَلَويَّة، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه، وهو ما قدَّمنا ذكره. ثم ترقَّت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدِيَّة بالمغرب ونسبت إليه. وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإِسلام، متظاهراً بالتشيع متَستِّراً به، حريصاً على إزالة الملَّة الإِسلامية؛ قتل من الفقهاء والمحدِّثين والصَّالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، ليبقى العالم كالبهائم، فيتمَكَّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٣٧ ـ ٣٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ونشأت ذرِّيته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفُرصة وإلا أَسَرُّوه، والدُّعاة لهم منبثُّون في البلاد، يضلُّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحِجَّة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة.

وفي أيامهم كثرت الرَّافضة واستحكم أمرهم، ووضعتِ المكوسُ على النَّاس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثور الشَّام... والحشيشية نوعٌ منهم. وتمكَّن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم. وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشَّام والجزيرة، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدَّمه مثل صلاح الدين، فاستردُّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً، ثلاثة منهم بإفريقية، وهم الملقَّبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ، والعزيز، والحاكم، والظَّاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد.

يدَّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطميَّة والدولة العلوية، وإنَّما هي الدَّولة اليهودية أو المجوسية الباطنيَّة الملحدة. ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جُدْران المساجد وغيرها.

وخطب عبدهم جوهر ـ الذي أَخَذَ لهم الدِّيار المصرية، وبنى لهم القاهرة المعزِّية ـ بنفسه خطبة طويلة قال فيها: اللهم صَلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوَّة وسليل العِتْرَة الهادية المهدِيَّة، مَعَدّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائه الطاهرين، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين.

كذب عدوُّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذرِّيته الباقين، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصَّدْر الأول.

وقد بيَّن نسبهم هذا، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التَّمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعُلماء، وكل متورِّع منهم لا يُسميهم إلّا بني عبيد الأدعياء، أي يدَّعون من النسب ما ليس لهم. ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب[1]، فإنه كشف في أول كتابه، المسمى بـ«كشف أسرار الباطنية»،

---

(١) القاضي أبو بكر: هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري القاضي أبو بكر الباقلاني، المتكلم الأشعري انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ =

عن بطلان نسب هؤلاء إلى عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ القدَّاح[١] الذي انتسبوا إليه دَعيٌّ من الأدعياء، ممخرق كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة[٢]، لعنهم الله.

= وسكن بغداد فتوفي بها سنة ٤٠٣هـ، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، من تصانيفه: «إعجاز القرآن»، «الانتصار»، «كشف أسرار الباطنية»، «الملل والنحل»، «مناقب الأئمة»، «نهاية الإيجاز في رواية الإعجاز»، «هداية المسترشدين في الكلام» (كشف الظنون ٦/ ٥٩، وفيات الأعيان ١/ ٤٨١، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠ ـ ١٩٣).

(١) القداح: هو عبد الله بن ميمون بن داود المخزومي بالولاء، عرف بالقداح، وهي صناعته، وكان يبري القداح، وهي السهام، توفي سنة ١٨٠هـ (الأعلام ٤/ ١٤١). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤: ومما اشتهر من أمر الدعاة لأئمتهم المستورين أنه ممن كان ينسب إلى التشيع رجل اسمه رمضان، ويقال: إنه صاحب كتاب «الميزان» في نصرة الزندقة، فولد له ولد يقال له: ميمون، نشأ على أهبة في التشيع والعلم بأسرار الدعاء لأهل البيت، ثم نشأ لميمون ولد يقال له: عبد الله، وكان يعالج العيون ويقدحها، فسمّي القدّاح، واطلع على أسرار الدعوة من أبيه، وسار من نواحي كرخ وأصبهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت، ثم مات ونشأ له ولد يسمى أحمد فقام مقام أبيه عبد الله القداح في الدعوة وصحبة رجل يقال له رستم بن الحسين بن حوشب النجار من أهل الكوفة، فأرسله أحمد إلى اليمن، فدعا الشيعة باليمن إلى عبد الله المهدي فأجابوه، وكان أبو عبد الله الشيعي من أهل صنعاء من اليمن، وقيل من أهل الكوفة، يصحب ابن حوشب فحظي عنده وبعثه إلى المغرب ومن نسب أحداً من هذه الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب إثم فقد ضلّ وخرج عن جادة الصواب عندهم، ويرون تخطئة من مالأ على الإمام عبيد الله المهدي، أوّل أئمتهم القائمين ببلاد الغرب، وارتكابه المحظور وضلاله عن طريق الحق، وكذلك من خذل الناس عن اتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي، ثاني خلفائهم ببلاد المغرب، أو نقض الدولة على المعز لدين الله أوّل خلفائهم بمصر، ويرون ذلك من أعظم العظائم وأكبر الكبائر.

(٢) القرامطة: فرقة باطنية إسلامية، أسسها حمدان قرمط ونسبت إليه (تاريخ العرب السياسي والثقافي ٢/ ٥٣٤)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠: القرامطة من فرق الشيعة الإسماعيلية، خرجوا من البحرين، نسبة إلى رجل منهم اسمه قرمط، خرج فيهم وادّعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب، ثم ظهروا بالمشرق بأصبهان، في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية، وبالملاحدة، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة، فيما حول طرابلس كمصياف والخوابي وقدموس، ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية، أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية، عملاً بدعوة ابن الصباح وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر، واشتهروا باسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مرات وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه، ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس في سنة ٥٧٢هـ، ثم انتموا إلى ملوك مصر في أيام الظاهر بيبرس، واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه.

وأما القاضي عبد الجبار البَصْري[١]، فإنه استقصى الكلام في أصولهم، وبيَّنَها بياناً شافياً في أواخر كتاب «تثبيت النبوَّةِ» له. وقد نقلت كلامهما في ذلك، وكلام غيرهما في «مختصر تاريخ دمشق» في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس[٢]، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس النَّاس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام.

وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشَّعر عند سماعها، ولكن لا بدّ من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لِمَنْ لعلَّه يعتقد إمامتهم، وخفي عنه مُحالُهم، ولم يعلم قِحَتهم ومكابرتهم، وليعذر مَنْ أزال دولتهم، وأمات بِدْعتهم، وقلَّل عِدَّتهم، وأفنى أُمَّتهم، وأطفأ جمرتهم.

ذكر عبد الجبار القاضي أنَّ الملقَّب بالمهدي ـ لعنه الله ـ كان يتَّخذ الجهال، ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعُلماء فيذبحون في فُرشهم. وأرسل إلى الروم وسلَّطهم على المسلمين؛ وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال وقتل الرجال. وكان له دُعاة يُضِلُّون الناس على قدر طبقاتهم، فيقولون لبعضهم: هو المهدي ابن رسول الله ﷺ، وحُجَّة الله على خلقه. ويقولون لآخرين: هو رسول الله ﷺ، وحجة الله ويقولون لطائفةٍ أُخرى: هو الله الخالق الرَّزاق. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

ولما هلك قام ابنه المسمَّى بالقائم مقامه، وزاد شرُّه على شرِّ أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدِيَّة وغيرها: الْعنوا عائشة وبعْلَها، الْعنوا الغار ومن حوى.

---

(١) القاضي عبد الجبار: هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسدأبادي، أبو الحسين، توفي بالري عام ٤١٥هـ، قاض، أصولي، من شيوخ المعتزلة الكبار، لقب بقاضي القضاة، وله تصانيف كثيرة منها: «الأمالي» في الحديث، «تنزيه القرآن عن المطاعن»، «دلائل النبوة»، «طبقات المعتزلة» (انظر: كشف الظنون ٥/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، طبقات السبكي ٣/ ٢١٩، لسان الميزان ٣/ ٣٨٦، تاريخ بغداد ١١/ ١١٣، طبقات المعتزلة ١١٢).

(٢) عبد الرحيم بن إلياس: كان ولي عهد الحاكم، ثم ولّاه نيابة دمشق سنة ٤١٠هـ، فلما قتل الحاكم في السنة التالية قبض الأمراء عليه، وحمل مقيداً إلى مصر، وسجن إلى أن مات، وقيل: بل نحر نفسه في الحبس (سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٧٨، ١٨٤). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٩/ ٣٠٥: كان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله جعل ابنه عبد الرحيم إلياس ولي عهد المسلمين، وميّزه بذلك على كافة الناس أجمعين، ونقش اسمه في السكة وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة.

اللهم صَلِّ على نبيِّك وأصحابه وأزواجه الطَّاهرين، والْعَن هؤلاء الكفرة الفَجَرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قَلْعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم؛ وأَصْلِهِمْ سعيراً، ولَقِّهم ثُبوراً، وأسكنهم النَّار جميعاً، واجعلهم ممن قلت فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

رجعنا إلى الأصل:

وبعث إلى أبي طاهر القِرْمِطي المقيم بالبحرين، وبعثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف. وقام بعده ابنه المسمَّى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مَخْلَداً الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذِكْره، وسَلَخه وصَلَبه، واشتغل بأهل الجبال يَقْتلهم ويشرِّدهم، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد.

وقام بعده ابنه المسمى بالمعزِّ، فبثَّ دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك، وهو الشمس التي تطلُعُ من مغربها. وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الرُّوم بلادَهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأَوْهَم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه.

وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة. واستدعى بفقيه الشَّام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرَّملي، ويعرف بابن النابُلُسي[1]، فَحُمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسُلخ حياً، وَحُشِيَ جلده تبناً وصُلب، رحمه الله تعالى. قال أبو ذَرٍّ الهَرَوي[2]. سمعت أبا الحسن الدَّارَقُطْني[3] يذكره ويبكي،

---

(١) قتل سنة ٣٦٣هـ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) أبو ذر الهروي: هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري، الحافظ الهروي، ثم المكي، المعروف بابن السماك المالكي، جاور بمكة زماناً، سمع من الدارقطني وغيره، وأخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني، توفي بمكة سنة ٤٣١هـ (كذا في كشف الظنون، وفي سير أعلام النبلاء: توفي سنة ٤٣٤هـ)، من تصانيفه: «تفسير القرآن»، «المستدرك على صحيح البخاري ومسلم»، «مناسك الحج»، «دلائل النبوة»، «فضائل القرآن» «فضائل مالك»، «كتاب الجامع»، «كتاب الدعاء»، «كتاب السنة والصفات»، «كتاب شهادة الزور»، «كتاب العيدين». (كشف الظنون ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٥٤ ـ ٥٦٣).

(٣) أبو الحسن الدارقطني: هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي، الحافظ أبو الحسن المعروف بالدارقطني، ولد سنة ٣٠٦هـ، كان من أئمة المحدثين، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، توفي ببغداد سنة ٣٨٥هـ، من تصانيفه: «أربعون في الحديث»، «الإلزامات على الصحيحين البخاري ومسلم»، «سنن في الحديث»، «غريب اللغة»، «كتاب الأفراد»، «كتاب التتبع لما خرج في الصحيحين»، «كتاب التصحيف في الحديث»، «كتاب الجرح والتعديل»، «كتاب الرؤية»، «كتاب العلل في الحديث»، «كتاب القراآت»، «كتاب =

ويقول: كان يقول وهو يُسلخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

قلت: وفي أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكَتْب سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشَّوارع، والطُّرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبِّ، ثم أمر بقلع ذلك. وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأُسْكُفَّة العليا منقوراً في الحجر، ودلَّني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جُدِّد ذلك الباب، وأزيل ذلك الحجر.

وفي أيَّامه طُوِّف بدمشق رجلٌ مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحبُّ أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه. وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء: مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي، أحد الصَّالحين، وكان أذَّن ببيت المقدس وقال في أذانه «حيَّ على الفلاح» فأُخذ وقطع لسانه. ذَكَرَ ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابُلُسي الحافظُ أبو القاسم في «تاريخه». وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلّا محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدَّتهم، فإن عدَّتهم عِدَّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة؛ فالحمد لله على ما يَسَّرَ من هُلْكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمَّن سعى في ذلك وأزالهم؛ ورحم مَنْ بيَّن مَخْرقتهم وكذبهم ومُحَالهم.

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن علي بن أبي نصر الشَّاشي في كتاب «الرَّدِّ على الباطنية»، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده: ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدةٍ سماها: الإيضاح عن دعوة القدَّاح، أوَّلها: [الرجز]

حيَّ على مِصْر إلى خلع الرَّسَنْ فَثمَّ تعطيلُ فروضٍ وسُنَنْ

وقال: لو وُفِّق ملوك الإسلام لصرفوا أعِنَّة الخيل إلى مصر لِغَزْو الباطنيَّة الملاعين، فإنهم من شَرِّ أعداء دين الإسلام، وقد خرجَت من حدِّ المنافقين إلى حدِّ المجاهرين، لما ظهر في ممالك الإسلام من كُفْرها وفسادها، وتعَيَّن على الكافة فرضُ جهادها. وضرر هؤلاء أشدُّ على الإسلام وأهله من ضرر الكُفَّار؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض، والله الموفق.

قلت: ثم إنّي لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردتُ كتاباً لذلك سميته

= المساجد»، «المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال»، «المستجار في الحديث»، «معرفة مذاهب الفقهاء» وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٦٨٣ ـ ٦٨٤، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٦١).

«كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به، فإني بتوفيق الله تعالى جمعتُ فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنِّفون وغيرهم. ووقفتُ على كتاب كبير صنَّفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقَّب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فبيَّن فيه أصولهم أتمَّ بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغَلَبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بني أيوب بقصيدة، منها: [الطويل]

أَلَسْتُمْ مزيلي دَوْلَة الكُفْر من بني ... عُبيدٍ بمصر إن هذا هو الفَضْلُ

زنادقةٌ شيعيَّة باطنيَّة ... مجوسٌ وما في الصَّالحين لهم أَصْلُ

يُسِرُّون كُفراً يُظهرون تشيُّعاً ... ليستتروا شيئاً وعَمَّهُمُ الجَهْلُ

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى عليٍّ رضوان الله عليه، والتستر بالتشيُّع قد فعله جماعة القرامطة، وصاحب الزِّنج الخارج بالبَصْرَة، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلُّهم كَذَبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرُّب إلى العوام والجهال، واستتباعهم لهم، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ولا يُغتر بأبيات الشَّريف الرَّضي[1] في ذلك، فقد حصل الجوابُ عنها في كتاب «الكشف» بوجوه حسنة، وبالله التوفيق.

---

(١) الشريف الرضي: هو محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم الموسوي، الشريف الرضي الشيعي، نقيب العلوية ببغداد، ولد سنة ٣٥٩هـ، وتوفي سنة ٤٠٦هـ. له من التصانيف: «أخبار قضاة بغداد»، «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، «حقائق التنزيل في تفسير القرآن»، «خصائص الأئمة»، «ديوان شعره»، «الرسائل»، «الزيادات في شعر أبي إسحاق الصابي وشعر أبي تمام»، «طيف الخيال»، «كتاب الحسن من شعر الحسين» انتخبه من شعر ابن الحجاج، «كتاب المتشابه في القرآن»، «مجازات الآثار النبوية»، «نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٦٠).

والأبيات التي أشار إليها المصنف أولها:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حميُّ

ومنها:

ألبس الذل في ديار الأعادي ... وبمصر الخليفة العلويُّ

من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصيُّ

=

وقد صنَّف الشَّريف العابد الدِّمشقي[١] ـ رحمه الله ـ كتاباً في إبطال نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة، لعنهم الله تعالى.

فــصــل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة[٢]

قال ابن شداد: واستمرَّت القواعد على الاستقامة، وصلاح الدين كلَّما استولى على خزانة مال وهبها، وكلَّما فتح له خزائن ملك أنهبها، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وشرع في التأهُّب للغَزاة، وقصد بلاد العدو، وتعبئة الأمر لذلك، وتقرير قواعده.

[فتح نور الدين عرقة]

وأما نور الدين فإنه عزم على الغَزَاة، واستدعى صاحبَ المَوْصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته. وكانت غزوة عِرْقَة، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرَّم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طيّ: جمع نور الدين عساكره وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها، وغنم الناس غنيمةً عظيمة.

[نكث الفرنج الهدنة مع نور الدين]

قال ابن الأثير[٣]: خرجت مراكب من مصر إلى الشَّام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوءين من الأمتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا. فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه، وراسل الفرنج في ذلك، وأمرهم بإعادة ما أخذوه، فغالطوه، واحتجُّوا بأمورٍ، منها: أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسرٍ فيهما؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله

= لف عرقي بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعليُّ

انظر الأبيات في ديوانه ٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣، طبعة بيروت.

(١) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أبو الحسين، المعروف بأخي محسن. كان يسكن بباب توما، محلة بدمشق، توفي قبل سنة ٤٠٠هـ، (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٧.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردُّوا شيئاً، فجمع العساكر من الشَّام والمَوْصِل والجزيرة، وبث السَّرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب رَبَضَه، وأرسل طائفةً من العسكر إلى حصني صافيثا وعُرَيمة، فأخذهما عَنْوَةً وكذلك غيرهما، ونهب وخرَّب، وغَنِمَ المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرِّب ويحرق وينهب. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدِّد معهم الهُدْنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلْطَم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلَمَّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسانٍ إلا اليسير. وكان يُحمل المتاع فكل من اسمه على ثوبٍ أخذه. وكان في النَّاس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أَمانةٌ، وكان نصرانياً فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب. وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلَّم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خُذْ أنت الجميع، فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه. فلم يفعل، فقال: خذ النِّصف وأنا النِّصف. واجتهد به والدي فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عِدَّة من الأثواب السوسي وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فُقّاعياً[1] من أهل تِبْريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه يردها ـ يعني عليهم ـ وسأل عني وقد قصدني، وهي معي، وحضر عندي السَّاعة وسلَّمها إليَّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمَّتي. فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتَّجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده. قال: وهذان رجلان نادران في هذا الزمان.

---

(١) الفقّاعي: نسبة إلى عمل الفقاع وبيعه، وهو شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد.

فـصـل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نورُ الدين أن يجتمعوا على الكَرَك والشَّوْبك يتشاوران فيما يعود بالصَّلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المُحرَّم، بالعزم الأجزم، والرأي الأحزم. فاتفق للاجتماع عائق، ولم يُقدر للاتفاق قَدَرٌ موافق، فلقي في تلك السَّفْرة شِدَّة، وعَدِم خيلاً وظهراً وعُدَّة، وعاد إلى القاهرة في النِّصف من ربيع الأول.

وقال ابن الأثير[1]: وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نُفْرَةَ نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكَرَك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج، والاستيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرَّم، وكتب إلى نور الدين يُعَرِّفه أن رحيله لا يتأخر. وكان نور الدين قد جَمَعَ عساكره وتجهَّز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو. فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البُعْد عنها، فعاد إليها. فلم يقبل نور الدين عُذْرَه.

وكان سبب تقاعده أنَّ أصحابه وخواصَّه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه، وعَظُمَ عنده، وعزم على الدُّخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارِمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قَصْده وأخذ مصر منه، واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء. فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد. ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه ـ وكان ذا رأي ومكر، وكيد وعقل ـ وقال لتقي الدين: اقعد. وسَبَّه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٥ ـ ٣٦: ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً.

أَتظنُّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبُّك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نورَ الدين لم يمكِنَّا إلا أن نترجَّل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسَّيف لفعلنا. فإذا كنَّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحدَه لم يتجاسر على الثَّبات على سَرْجه، ولا وسِعَه إلا النُّزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجَّاب حتى تقصد خدمته، ويولِّي بلاده من يريد. وقال للجماعة كلِّهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد. فتفرَّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكثير، وتُطلِعُهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازمٌ على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه، وأولاها بالقَصْد، ولو قصدك لم تَرَ معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه. وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبُون إليه ويعرِّفونه قولي، وتكتب أنت إليه، وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي. فهو إذا سمع هذا عَدَل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده، والأيام تَنْدرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين؛ توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحَمَام

قال ابن الأثير[١]: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نورُ الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتَّسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النَّوْبة إلى

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٨.

باب هَمَذان، لا يتخلَّلها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج ـ لعنهم الله ـ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذٍ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربِّيها؛ فوجد بها راحةً كبيرة. كانت الأخبار تأتيه لوقتها، لأنه كان له في كل ثَغْر رجالٌ مرتَّبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأَوْا أو سمعوا أمراً كتبوه لِوَقْته، وعلَّقوه على الطائر، وسرَّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرُّقْعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثُّغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثَّغْر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكَبْس العدوِّ، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أمِنوا لبُعْد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصَّيف محافظةً على الثغر، وصَوْناً من الحَيْف، ليحمي البلاد من العدوِّ بالسَّيف، وهو متَشوِّف إلى أخبار مصر وأحوالها، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها. فرأى اتِّخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان. وتقدَّم إليَّ بكتب منشور لأربابها، وإعزاز أصحابها، وهو حينئذٍ بظاهر دمشق، مخيِّم بوادي اللَّوَّان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادُون على أهل العُدْوان، وذلك في سابع عشر ذي القَعْدة من السنة.

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام، فقال: هي برائد الأنباء، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلطَّفات الأسرار في أقرب مُدَّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمَّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القِفار والمَوَامي[1]، والنَّافذات بنُجْح المرام بعود السِّهام إلى المرامي. وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتمِّ استطاعة. وقد عَمَّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالَّةً على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى مَنْ

(١) الموامي: جمع موماة، وهي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس بها.

وراءهم من الطَّلائع والسَّرايا، مظهرةً لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا. وإنها لميمونة المطار، مأمونة العِثار، سالمة على الأخطار، مَهْدِيَّة في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرةً بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكُفَّار.

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة، وعبارات مستحسنة. وقد بلغني عن القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: الطُّيور ملائكة الملوك. يشير إلى أن نزولها على الملوك من جَوِّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الأمانة، لا يتوهَّم من جهتها خيانة. فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف. رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

[إسقاط صلاح الدين المكوس بمصر]

قرأتُ نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر، قُرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصَّلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة، عن السُّلْطان الملك النَّاصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذاك المباشر، يقول فيه:

أما بعد، فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكَّن لنا في الأرض، وحسَّنَه عندنا من أداء كلِّ نافلة وفَرْض، ونصَبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حقَّ جهاده، وزهَّدنا فيه من متاع الدُّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النَّقير والفتيل[1]، وأولانا من شجاعة السماحة، فَيَوْماً نَهَبُ ما اشتملت عليه الدَّواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النِّيل. فالبشائر في أيَّامنا تترى، شفعاً وَوِتْراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأُخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصّناعة

(١) النقير: النكتة في ظهر النواة، يضرب بها المثل للشيء الطفيف الصغير، والفتيل: السحاة (أي ما يقشر) التي في شق النواة، يضرب بها المثل للتافه الحقير.

وأرضتِ المنبر والجامع، ولما تقلَّدت أمور الرَّعية رأينا المكوس الدِّيوانيَّة بمصر والقاهرة، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدُّنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرَّد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهِّر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرَّعيَّة ضَرَّهم الذي يتوجَّه إليهم، ونَضَعُ عنهم إِصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذَّاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب، ولا قلم كاتب. فاستخرنا الله وعَجِلنا إليه ليرضى، ورأينا فُرْصَة أجر لا تغض عليها بصائرُ الأبصار ولا تُغضى؛ وخرج أمرنا بكَتْب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردِّدين إليهما، وإلى ساحل المقسم، والمنية، بأبواب المكوس صادرها وواردها، فَيَرِدُ التَّاجر ويُسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر برًّا وبحراً، مركباً وظهراً، سرّاً وجهراً، لا يحلُّ ما شَدَّه، ولا يُحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عمَّا أورده وأصدره، ولا يُستوقف في طريقه، ولا يَشْرَقُ بِريقه، ولا يُؤخذ منه طُعْمة، ولا يُستباح له حُرمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العَيْن مائة ألف دينار، مسامحة لا يتعقَّبها تأويل، ولا يتخوَّنها تحويل، ولا يعْتريها زوال، ولا يعْتورُها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دينِ القَيِّمة، مَنْ عارضها رُدَّت أحكامه، ومن ناقضها نُقِضَ إبرامه، ومن أزالها زلَّت قدمه، ومن أحالها حَلَّ دَمُه، ومن تعقبها خُلِّدت اللَّعنة فيه وفي عَقِبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الَّذي هو من حَطَبه. فمن قرأه، أو قُرِئ عليه من كافَّة ولاة الأمر مِنْ صاحب سيف وقلم، ومشارف أو ناظر، فليَمتثل ما مثل من الأمر، ولْيُمْضِه على ممرِّ الدَّهْر، مُرضياً لربِّه، ممضياً لما أُمر به.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سَعْدون القُرْطُبي المقرئ النَّحْوي[١]، وهو نزيل المَوْصِل، رحمه الله.

---

(١) هو صائن الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المالكي، ولد بقرطبة سنة ٤٨٧هـ (كذا في كشف الظنون، وفي سير أعلام النبلاء ووفيات الأعيان ولد سنة ٤٨٦هـ)، وقدم إلى المشرق في عنفوان شبابه، وأقام بدمشق مدة، واستوطن الموصل، كان بارعاً في العربية، بصيراً بعلل القراءات، وافر الحرمة، ديناً خيراً، تخرج به الأئمة، وهو شيخ بهاء الدين بن شداد صاحب «النوادر السلطانية»، وابن عساكر مؤرخ دمشق، توفي بالموصل سنة ٥٦٧هـ (كشف الظنون ٦/ ٥٢١، وفيات الأعيان ٦/ ١٧١ ـ ١٧٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٤٦ ـ ٥٤٨).

وفيها ولد العزيز[(١)] والظَّاهر[(٢)] ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين[(٣)].

وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نَصْر بن عبد الله الإسكندري، المعروف بابن قَلاقِس الشَّاعر[(٤)]، بعَيْذَاب، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحواً من خمسٍ وثلاثين سنة.

---

(١) هو عثمان بن يوسف بن شاذي، الملك العزيز، عماد الدين، ابن الملك الناصر، ولد سنة ٥٦٧هـ، بمصر، ملك بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩هـ، وتوفي ليلة الأحد عشرين محرم، سنة ٥٩٥هـ، وكان سنه سبعاً وعشرين سنة وشهوراً، ومدة ملكه ست سنين إلا شهراً (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٥ ـ ٢٥١، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، مفرج الكروب ٣/ ٨٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٥هـ، وفيات الأعيان ٢/ ٤١٤، البداية والنهاية ١٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٧٨، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، شذرات الذهب ٤/ ٣١٩).

(٢) هو غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي، الملك الظاهر، غياث الدين، ابن الملك الناصر الأيوبي، صاحب حلب، ولد النصف رمضان سنة ٥٦٨هـ، بمصر، كان مهيباً، ذا سياسة وفطنة، حضر معظم غزوات والده، وضم أكابر الأمراء بعهده، وهو الذي جمع شمل البيت الأيوبي، توفي في الخامس والعشرين جمادى الأولى، سنة ٦١٣هـ (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٥٢ ـ ٢٥٥، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٥٧٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ، مفرج الكروب ٣/ ٢٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ٧١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢١٧، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٤ ـ ٣٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٨٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٤٢، شذرات الذهب ٥/ ٥٥).

(٣) هو محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك المنصور ابن الملك المظفر، صاحب حماة، كان في خدمته قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء وغيرهم، صنف عدّة مصنفات، مثل «المضمارة» في التاريخ، و«طبقات الشعراء»، توفي في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ، وقيل: سنة ٦١٦هـ، وعمره خمسون سنة وشهور (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ، فوات الوفيات ٤/ ٤٩٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٤٥٩، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٩، مفرج الكروب ٤/ ٧٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٠، البداية والنهاية ١٣/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٥٠).

(٤) ابن قلاقس الشاعر: هو أبو الفتوح القاضي نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس الإسكندري، الأديب الأزهري، سافر إلى صقلية ثم إلى اليمن، توفي راجعاً بعيذاب (شاطئ جدة) سنة ٥٦٧هـ، وقد ذكره الجلال السيوطي في حسن المحاضرة وسماه نصير الدين بن عبد الله، والصحيح هو الأول، كما قاله ياقوت الحموي في معجم البلدان، والقاضي شمس الدين بن خلكان في وفيات الأعيان، وقد سماه في خريدة القصر، وفي الأعلام للزركلي: نصر بن عبد الله، بدل: نصر الله بن عبد الله، من تصانيفه: «ديوان شعره» مشهور، «روضة الأزهار» في الأدب، «الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم» من أمراء صقلية (كشف الظنون ٦/ ٤٩٢، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٤٥، ١٤٦، وفيات الأعيان ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٦، الأعلام ٨/ ٢٤ ـ ٢٦).

[وفاة ملك النحاة الحسن بن صافي]

ثم دخلت سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النُحاة الحسن بن صافي(١).

وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء.

قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعياً، فَطِناً لَوْذعياً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

[تسيير صلاح الدين تحفاً وهدايا من خزائن العاضد إلى نور الدين]

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سَيَّر منها عِدَّة من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البِلَّوْر واليَشَم(٢)، والأواني التي لا يُتصوَّر وجودُها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البَلَخْش(٣)، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقَرَنَ بها من اللآلئ مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات ما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطِّيب والعطر ما لم يخطر ببال عَطَّار، فشكر نور الدين هِمَّته، وذكر بالكرم شِيمَتَهُ، ووصف فضيلته، وفضَّل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدُّ به خَلَّة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذَّهب فقر، وما

---

(١) هو الحسن بن صافي بن عبد الله بن نزار البغدادي الشافعي، أبو نزار المعروف بملك النحاة الأديب ولد في بغداد سنة ٤٨٩هـ، دار البلاد أربعين سنة ورجع وسكن وتوفي بدمشق سنة ٥٦٨هـ، ودفن في مقبرة الباب الصغير، كان من كبار النحاة في عصره، لقب نفسه بملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق مجلد الأول، الجزء الثالث صفحة ٨٩ ـ ١٣٧، معجم الأدباء ٨/ ١٢٢ ـ ١٣٩، إنباه الرواة ١/ ٣٠٥، ٣١٠، وفيات الأعيان ٢/ ٩٢ ـ ٩٤، أعيان الشيعة ٥/ ١١٥ ـ ١١٨).

(٢) اليشم بسكون الشين، من الأحجار قريب من الزبرجد، لكنه أكثر شفافية وصفاءً منه، وألوانه: أبيض وأصفر وزيتي وهو أفضلها، وقال في الوسيط: اليشم، بسكون الشين، مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلدة التي تتدرج ألوانها من الأبيض إلى الأخضر الداكن (الوسيط: ص١٠٦٥).

(٣) البلخش: من المعادن، تقدم التعريف به في هذا الجزء.

لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر، وتمثَّل بقول أبي تَمَّام[١]: [البسيط]

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بِكَثْرَتِه على الحَصَى وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

لكنه يعلم أن ثغورَ الشَّام مفتقرة إلى السَّداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عَمَّ بالفرنج بلَاءُ البلاد؛ فيجب أن يقع التَّعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد.

فاستنزره وما استغزره، واستقلَّ المحمول في جَنْبِ ما حرَّره، وتروَّى فيما يُدَبِّره، وأفكر فيما يقدِّمه من هذا المهمِّ ويؤخِّره.

قال ابنُ أبي طيّ: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرَّد الموفق بن القَيْسَراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها[٢]، وأين صُرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قَرَّر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعَظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال. حدَّثني أبي قال: لم يَخْفَ حالُ نور الدين في كراهية الملك النَّاصر، ولقد علم ذلك جميعُ الأجناد والأمراء، وتحدَّث به العوام، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتدَّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذَ ابن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مُذْ مُلكت مصر، وتوجَّه له فيها النَّصْر، يؤثر أن يُقَرَّرَ له فيها مالٌ للحمل، يستعين به على كُلَف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أنَّ صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده. فلما حمل من أخاير الذَّخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصَّله، تقدَّم إلى الموفق خالد بن القَيْسَرانيّ أنْ يمضي، ويطالب ويقتضي، ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جُزَازة، ولا يبقي في نفوس ديوانه من أمرها حَزَازة، وأرسل معه الهدايا، والتُّحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوانه الاستيفاء[٣]، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الإنشاء. ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١/٦٦.

(٢) ارتفاعها: أي خراجها.

(٣) ديوان الاستيفاء: وعلى رأسه يكون المستوفي، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله وضبطها وتحديد مواعيدها (التعريف بمصطلحات الصبح ص٣١٠).

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شَوَّال ومعه الفيل، والحمارة العَتَّابية[١]، والذخائر النفيسة التي كان انْتَخَبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين، وقُوبلت بالإحسان والتحسين. ووصلت الحمارة وكَثُرَت لها النظارة. وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسعٍ وستين ونحن بحلب بالميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدينِ غازي صاحب الموصل مع شيء من تُحفة الثياب والعود والعنبر. ثم سيَّره سيف الدين غازي إلى بغداد هدية للخليفة، مع ما سيَّره معه من التُّحف اللطيفة، وسَيَّر نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتُحَف سنايا.

فصل

في جهاد السُّلْطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكَرَك والشَّوبَك وغيرهما من الحصون فَبرَّح بها، وفرَّق عنها عَرَبها، وخَرَّب عماراتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراتها.

ووصل منه كتابٌ بالمثال الفاضلي: سَبَبُ هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزَّ الله سلطانه، ومدَّ أبداً إحسانه، ومكن بالنَّصْر إمكانه، وشَيَّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثِرُه المولى بأن يقصد الكُفَّار بما يَقُصُّ أجنحتهم، ويفلِّلُ أسلحتهم، ويقطع موادَّهم ويخرِّب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العُرْبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفر إلى عِزِّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدَّه من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يَهْتَدي سبيلاً.

ثم: ذكر باقي الكتاب.

قال ابنُ شدَّاد: وهذه أوَّلُ غزوة غزاها صلاح الدين من الدّيار المصرية.

---

(١) الحمارة العتابية: نوع من حمر الوحش المخططة نسبة إلى العتابيين، إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، اشتهرت بالنسيج المخطط، ومن ثم كان هذا النوع من الحمير يوصف بالعتابي تشبيهاً له بهذا النسيج (وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٩)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى: الحمارة العتابية هي حيوان في صورة البرذون موشَّى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها (صبح الأعشى ٢/ ٤٧).

وإنما بدأ ببلاد الكَرَك والشَّوْبَك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطَّريق تمنع من يقصد الديارَ المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعَبِّرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتَّصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السَّابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمانٍ وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدَّفعة؛ وحصل ثوابُ القصد. وأمّا نور الدين فإنّه فتح مَرْعَش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بَهَسْنى في ذي الحِجَّة منها.

وقال العماد: حضرتُ عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهُه بنُور البِشْر قد سَفَر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورِقَّة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكلٌّ منا يمدَحُها، وبحبِّه يمنحُها، وكل منا يُطْريها، فقال نور الدين: أنا حُبُّ الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال، فقلت(١): [مجزوء الرمل]

لـيـس فـي الـدُّنـيـا جـمـيـعـاً ... بَــلْــدَةٌ مِــثْــلُ دمــشــقِ
ويُـسَـلِّـيـنـي عـنـهـا ... فـي سـبـيـلِ الـلّـهِ عِـشـقـي
والـتُّـقـى الأَصْـلُ ومـن يـتـ ... ـركـهـا يَـشْـقَـى ويُـشْـقـي
كـم رشـيـقٍ شـاغِـلٌ عـنـ ... ـه بِـسَـهْـم الـغَـزوِ رَشْـقـي
وامْـتِـشـاقُ الـبـيـضِ يُـغْـنـي ... عـنـه بـالأقـلامِ مَـشْـقـي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات في معنى الجهاد على لسانه، فقلت(٢): [الدوبيت]

لـلـغَـزْوِ نـشـاطـي وإلـيـه طَـرَبـي ... مـالـي فـي الـعـيـش غَـيْـرَه مـن أَرَبِ
بـالـجـدِّ وبـالـجـهـاد نُـجْـحُ الـطَّـلَـبِ ... والـرَّاحـة مُـسْـتَـوْدَعَـةٌ فـي الـتَّـعَـبِ

وقُلْتُ أيضاً(٣): [الدوبيت]

لا راحة في الـعـيـش سـوى أن أغـزو ... سَـيْـفِـي طَـرَباً إلـى الـطُّـلـى يـهـتـزُّ
فـي ذُلِّ ذوي الـكُـفْـرِ يـكـونُ الـعِـزُّ ... والـقُـدْرَةُ فـي غـيـرِ جـهـادٍ عَـجْـزُ

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص١٧ ـ ١٨.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٣.
(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٢ ـ ٤٣.

وقلتُ أيضاً[١]: [الدوبيت]

أقسمتُ سوى الجهاد مالي أَرَبُ والرَّاحةُ في سواه عندي تَعَبُ
إلا بالجِدِّ لا يُنالُ الطَّلَبُ والعَيْشُ بلا جِدِّ جهادٍ لَعِبُ

[محاولة الفرنج الإغارة على زرا وخروج نور الدين لدفعهم عنها]

قال: واتَّفق خروج كلب الرُّوم اللَّعين في جنود الشياطين، يقصد الغارة على زُرًا من ناحية حَوْران، وهم في جمع غلبت كثرته الخُبْر والعِيان، ونزلوا بقريةٍ تعرف بشمسكين. فركب نور الدين وهو نازل بالكُسْوة إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوَّار، ثم إلى السَّواد، ثم نزلوا بالشَّلالة، ونزل نور الدين عَشْتَرا، وقد سَرَّه ما جرى؛ فأنفذ سَرِيَّة إلى أعمال طبريَّة، واغتنم خلوَّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شنِّ الغارة غدوَّها، فلما عادت لَحِقَها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشُّجعان، وثبتَ من ثَبَّته الإيمان، حتى عبرت السَّرِيَّة، وانفصلت تلك القضيَّة. ورحل نور الدين من عَشْتَرا، فنزل بظاهر زُرًا.

قال العماد: وكنتُ راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة، منها[٢]: [الكامل]

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رايةُ الإيمانِ وبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيةُ الإحسانِ
يا غالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائِدَ الصِّـ (م) ـيدِ اللُّيوثِ وفارِسَ الفُرْسَانِ
يا سالبَ التِّيجانِ مِنْ أرْبَابِها حُزْتَ الفَخَارَ على ذوي التِّيجانِ
محمودٌ المحمودُ ما بَيْنَ الورى في كلِّ إقليمٍ بكلِّ لِسانِ
يا واحداً في الفَضْلِ غيرَ مُشَارَكٍ أقسمتُ مالَكَ في البَسِيطَةِ ثاني
أحلى أمانيك الجهادُ وإنَّه لكَ مُؤذِنٌ أبداً بِكُلِّ أمَانِ
كم بِكْر فَتْحٍ وَلَّدَتْهُ ظُباكَ من حَرْبٍ لقَمْعِ المُشْرِكين عَوَانِ
كم وقعةٍ لك بالفِرَنْجِ حَدِيثُها قد سارَ في الآفاقِ والبُلْدَانِ
قَمَّصْتَ قُومَصَهُم رداء من رَدًى وقَرَنْتَ رأسَ بِرِنْسِهِمْ بِسِنَانِ
وَمَلَكْتَ رِقَّ مُلوكِهِم وتَرَكْتَهُمْ بالذُّلِّ في الأقيادِ والأشْجَانِ

(١) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٢ ـ ٤٣.
(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٥٤ ـ ٦٢.

وجَعَلْتَ في أَعْنَاقِهِم أَغْلالَهُمْ ... وسَحَبْتَهُمْ هُوناً على الأَذْقَانِ
إِذْ في السوابغِ تُحْطَمُ السُّمْرُ القَنَا ... والبِيضُ تُخْضَبُ بالنَّجِيعِ القَانِي
وعلى غِنَاءِ المَشْرَفِيَّةِ في الطُّلَى ... والهام رَقْصُ عوالِيَ المُرَّانِ
وكأنَّ بينَ النَّقْعِ لَمْعَ حَدِيدِها ... نارٌ تألَّقُ من خِلالِ دُخَانِ
في مَأزِقٍ وِرْدُ الوَرِيدِ مُكَفَّلٌ ... فيه بريِّ الصَّارِمِ الظَّمْآنِ
غَطَّى العَجَاجُ به نجومَ سمائِهِ ... لتنوبَ عنها أَنْجُمُ الخُرْصَانِ
أَوَ ما كَفَاهُمْ ذاك حتى عاودوا ... طُرُقَ الضَّلال ومركبَ الطُّغْيانِ
يا خيبةَ الإفرنجِ حين تجمَّعُوا ... في حَيْرة وأَتَوْا إلى حَوْرَانِ
وجَلَوْتَ نورَ الدين ظُلْمَةَ كُفْرِهم ... لَمَّا أتيتَ بواضح البُرْهَانِ
وهَزَمْتَهُمْ بالرَّأي قَبْلَ لِقَائِهِمْ ... والرَّأيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ[1]
أَصْبَحْتَ للإسْلام رُكْناً ثابتاً ... والكُفْرُ مِنْكَ مُضَعْضَعُ الأَرْكَانِ
قَوَّضْتَ أساسَ الضَّلالِ بِعَزْمِك الـ ... ـمَاضي وشِدْتَ مبانيَ الإيمانِ
قُل أينَ مثلُك في الملوك مجاهدٌ ... لله في سِرٍّ وفي إعلانِ
لم تَلْقَهم ثِقَةً بقُوَّةِ شَوْكَةٍ ... لكِنْ وَثِقْتَ بنُصْرَةِ الرَّحمانِ
ما زال عَزْمُكَ مستقلاً بالذي ... لا يَسْتَقِلُّ بِثِقْلِهِ الثَّقلانِ
وبَلَغْتَ بالتَّأييد أقصَى مَبْلَغ ... ما كانَ في وُسْعٍ ولا إمكانِ
دانَتْ لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقْتَه لنفاذِ أمرك داني
فمن العراق إلى الشَّآم إلى ذُرا ... مِصْرٍ إلى قُوص إلى أُسْوانِ
لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فَرْضُ الغزو عن هَمَذَانِ
للرُّوم والإفرنج منك مصائبٌ ... بالتُّرك والأكراد والعُرْبانِ
أذْعَنَتَ لله المهيمن إذ عَنَتْ ... لك أوْجُهُ الأملاكِ بالإذْعانِ
أنتَ الذي دونَ الملوكِ وَجَدْتُه ... ملآن من عُرْفٍ ومن عِرْفانِ
في بَأس عمرٍو في بسالة حَيْدَرٍ ... في نُطْقِ قُسٍّ في تُقَى سَلْمانِ
سِيَرٌ لو آنَّ الوحي يَنْزل أُنزلت ... في شأنها سُوَرٌ مِنَ القُرآنِ
فاسلَمْ طويلَ العُمْر ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلْطَانِ

---

(١) عجز هذا البيت مأخوذ من مطلع قصيدة للمتنبي:
الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٧١ (طبعة دار الكتب العلمية).

وهي قصيدة طويلة، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه، ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النُّوبة[١]

قال العماد: وفي جُمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[٢]، أخو صلاح الدين، بلاد النُّوبة، وأراهم سُطاه المرهوبة، وفتح حِصْناً لهم يُعرف بإبريم، وآلى ألا يريم؛ وهي بلادٌ عديمة الجدوى، عظيمة البَلْوى، ثم جمع السَّبْي، وعاد به إلى أَسْوان، وفَرَّقَ على أصحابه في الغنائم السُّودان.

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: وفي هذه السنة اجتمعَ السُّودان والعبيد من بلاد النُّوبة، وخرجوا في أُمم عظيمة قاصدين مُلْكَ بلاد مِصْر، وصاروا إلى أعمال الصَّعيد، وصَمَّموا على قَصْدِ أُسْوان وحصارها، ونَهْبِ قراها. وكان بها الأمير كَنْز الدَّولة، فأنفذ يُعلم الملك النَّاصر، وطلب منه نجدةً، فأنفذ قِطْعَةً من جيشه مع الشجاع البَعْلَبَكي. فلما وصل إلى أُسْوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أَخْرَبوا أرضها، فاتَّبعهم الشجاع والكَنْز، فجرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم.

ورجع الشُّجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد، وتمكُّنِهِم، من بلاد الصَّعيد، فأنفذ الملك النَّاصر أخاه شمسَ الدولة في عسكرٍ كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النُّوبة، فسار قاصداً بلادهم، وشَحَن مراكب كثيرةً في البحر بالرِّجال والمِيرة، وأمَرها بلحاقه إلى بلاد النُّوبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغَنِمَ جميع ما كان فيها من المال والكُراع والميرة، وخلَّص جماعةً من الأسرى، وأَسَرَ مَنْ وجده فيها، وهرب صاحبها.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤٥ ـ ٤٦: ذكر مسير شمس الدولة إلى بلاد النوبة.

(٢) هو الملك المعظم توران شاه (ومعناه ملك الشرق)، ابن أيوب بن شاذي، شقيق صلاح الدين، وأكبر إخوته، وكان السلطان يحترمه ويرجحه على نفسه، وكان في نفسه من الملك، ويرى أنه أحق من أخيه، أغزاه أخوه النوبة في جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ، ليفتحها فوجدها لا تساوي التعب، فرجع منها بغنائم كثيرة. والسبب في ذلك أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرجه نور الدين من مصر، فأراد أن يحصل بلداً يلتجئ إليه عند الخوف، فلم تعجبهم النوبة، فسيّره إلى اليمن بعد أن استأذن نور الدين، توفي تورانشاه بالإسكندرية في صفر سنة ٥٧٦هـ. (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٥٠ ـ ٥٥، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٣٦٢، وفيات الأعيان ١/ ٢٧٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٧، تاريخ أبي الفداء ٥/ ٨٤، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٥).

وكتب إلى السُّلْطان بذلك، فأنشد السُّلْطانَ أبو الحسن بن الذَّرَوي[1] يهنيه بفتح إبريم قصيدةً، منها: [السريع]

فَقَدِّمِ العَزْمَ فذا مُبْتَداه يَقْصُر مُلْكُ الأرضِ عن منتهاهْ

واسْحَبْ ذيولَ الجيشِ حتى ترى أنْجُمَه طالعةً عَنْ دُجاهْ

سواكَ من ألقى عَصاه بها قناعةً لمَّا استقرَّت نَوَاهْ

عليكَ بالرُّومِ وَدَعْ صاحب التَّـ (م) ـاجِ إذا شئتَ وتُورانشاهْ

فقد غدَت إبريمُ في مُلكه تُبرم أمراً فيه كَبْتُ العُداهْ

لا بُدَّ للنُّوبة من نَوْبَةٍ تُرضي لسخط الكُفْرِ دينَ الإلهْ

تظلُّ من نوبة منسوبةً لعَزمةٍ كامنةٍ في أناهْ

تَكْسُو الغُزَاة القاطِني أرضها ما نَسَجَتْ للحَرْبِ أيدي الغُزاهْ

سودٌ وتحمرُّ الظُّبى حولَها كأعينِ الرُّمْدِ بَدَت للأُساهْ

أوْ لَا فَسُمْرٌ يحتميها القَنا مثل دِنَانٍ بزلتها السُّقاهْ

للَّهِ جَيْشٌ منك لا ينْثني إلا بنصل دَمِيَتْ شَفْرتاهْ

ما بين عِقْبان ولكنَّها خيلٌ وفُرْسان كَمِثْلِ البُزَاهْ

آسادُ حَرْبٍ فوقَ أيديهمُ أساود الطَّعْنِ فهم كالحُوَاهْ

تقلَّدوا الأنهار واستلأموا الـ ـغُدْران فالنِّيران تجري مياهْ

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أُسوان ثم إلى قُوص، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكُرْدي، فطلب من شمس الدَّوْلة قلعة إبريم، فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعةً من الأكراد البَطَّالين، فلما حصلوا فيها تفرَّقُوا فِرَقاً. وكانوا يشنُّون الغارة على بلاد النُّوبة حتى بَرَّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عَفَتْ أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتَّفق أنهم عَدُّوا إلى جزيرة من بلاد النُّوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كانوا فيها، وأخلَوْها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النُّوبة إليها وملكوها.

وأنفذ ملك النُّوْبة، رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقُوص ومعه كتاب فيه

---

(١) هو علي بن يحيى المصري، أبو الحسن، المعروف بابن الذروي، توفي سنة ٥٧٧هـ. (انظر ترجمته في: «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧، وفيات الأعيان ٤/ ١٤٥، فوات الوفيات ٣/ ١١٣ ـ ١١٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٢ ـ ٣٢٠ (وفيه وفاته سنة ٥٧٩هـ).

طلب الصُّلح، ومع الرسول هَدِيَّة؛ عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجَيْ نُشَّاب، وقال: ما لك عندي جواب إلا هذا. وجهَّزَ معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها. فسار الحلبي مع الرَّسول حتى وصل دُنْقُلة؛ وهي مدينة الملك. قال مسعود: فوجدتُ بلاداً ضيِّقة ليس لهم زَرْع إلا الذُّرة، وعندهم نخل صِغار منه إدامُهم. وَوَصَفَ مَلكهم بأوصاف منها أنْ قال: خرج علينا يوماً وهو عُريان قد ركب فرساً عُرْياً[١]، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر. قال: فأتيت فسلَّمت عليه، فضحك وتغاشى، وأمر بي أن تكوى يدي، فكوي عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلاً من الدَّقيق، ثم صرفني. قال: وأما دُنْقُلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدّين أيُّوب والد صلاح الدّين، وطرف من أخباره[٢]

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب، فشَبَّ به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصْر وسط المَحَجَّة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحِجَّة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السَّابع والعشرين من ذي الحجة.

وكان كريماً رحيماً، عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود. وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكَرَك والشَّوْبك على الغَزَاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السُّلْطانية، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشَّريفة النبوِيَّة، على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، والتحية والإكرام، والإجلال والإِعظام، وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تُرْبة الوزير جمال الدِّين الأَصْفهاني وزير المَوْصِل[٣] المقدَّم ذكره، رحمهم الله تعالى.

---

(١) فرس عريّ: أي لا سرج عليه.

(٢) انظر ترجمته الوافية في: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٤٤ ـ ٤٧، النواد السلطانية ص٤٦، سنا البرق الشامي ص١٢٩، مرآة الزمان ٨/ ٢٩٥، وفيات الأعيان ١/ ٢٣٢، العبر للذهبي ٤/ ٢٠٣، البداية والنهاية ٢/ ٢٧١، تاريخ ابن العديم ٢/ ٣٣٩، مفرج الكروب ١/ ٢٣٠، السلوك ١/ ٥١، النجوم الزاهرة ٦/ ٦٧، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٧٤، شذرات الذهب ٤/ ٢٧١.

(٣) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، وزير الموصل، توفي سنة ٥٥٩هـ، وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غَزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشقَّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته. وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد الرّكض، وَلعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعبُ بها يقول: ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُخْشاه[1] بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدَّارج[2] ـ غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تُرْبَه ـ ما عظمت به اللَّوْعة، واشتدَّت الرَّوْعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصَّبر فأبى وانحدرت العبرة، فيا له فقيداً فُقِدَ عليه العزاءُ، وهانت بعده الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء: [الكامل]

وتخطفته يدُ الرَّدى في غيبتي هَبْني حَضَرْتُ فكنت ماذا أَصْنَعُ

قال ابنُ أبي طيّ الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولا يُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي. وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابنُ أبي طيّ: وقد ادَّعى ابنُ سيف الإسلام لما ملك اليمن أنَّهم من بني مروان بن محمد الجَعْدِي المعروف بالحمار[3]، يعني آخر خلفاء بني أميَّة. قال: وقد نقَّبْتُ عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أنَّ هذا كذبٌ، وأن جميع آل أيوب لا يَعرفون جَدًّا فوق شاذي. وكذلك أخبرني السلطان الملك الظَّاهر[4] رحمه الله تعالى.

---

(١) هو فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، عز الدين، أبو سعد بن نور الدولة الأيوبي، صاحب بعلبك، أقطعه عمه صلاح الدين إياها سنة ٥٧٥هـ، وناب بدمشق عنه سنة ٥٧٦هـ، وفي سنة ٥٧٧هـ، سار إلى الكرك، فنهب وقتل، وفتح الشقيف، وكان شاعراً فصيحاً وشعره مدوّن، مات بدمشق في جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٢ ـ ٢٣٤، وانظر ترجمته في: مرآة الزمان ٨/ ٣٧٢، تاريخ أبي الفداء ٣/ ٦٥، السلوك ١/ ٧٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١١، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٦١، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٩).

(٢) الدارج: من درج: أي مات.

(٣) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، أبو عبد الملك، القائم بحق الله، يعرف بالجعدي، وبالحمار، آخر ملوك بني أمية في الشام، توفي سنة ١٣٢هـ (الأعلام ٧/ ٢٠٨).

(٤) هو غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي، الملك الظاهر، غياث الدين، تقدّمت ترجمته قبل قليل.

قلت: ودليل صحة ذلك أنني وقفتُ على كتاب وقف الرباط النَّجْمي بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طُغْتِكِين بن أيوب بن شاذي[1]، ابن أخي السُّلْطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه[2] وتعاظم إلى أن ولَّى نفسه الخلافة، وادَّعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة، وتلقَّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. ومدحه كثيرٌ من الشُّعراء بذلك، وزيَّنُوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره: [الطويل]

وإنـي أنـا الـهـادي الـخـلـيـفـةُ والـذي ... أدوسُ رقابَ الغُلْبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ

ولا بُـدَّ مِـنْ بـغـدادَ أطـوي رُبُـوعَـهـا ... وأنْـشُـرهـا نَـشْـرَ الـسَّـمـاسِـرِ لـلـبُـرْدِ

وأنـصـب أعـلامـي عـلـى شُـرُفـاتـهـا ... وأُحـيـي بـهـا مـا كـان أَسَّـسَـهُ جَـدِّي

ويُـخْـطَـبُ لـي فـيـهـا عـلـى كـلِّ مِـنْـبَـرٍ ... وأُظْـهِـرُ ديـنَ الله فـي الـغَـوْرِ والـنَّـجْـدِ

ثم قال ابنُ أبي طيّ: وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً، كثير الصَّلاة

---

(١) هو إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك المعز، شمس الملوك، ابن العزيز صاحب اليمن، كان منهمكاً في اللهو والشرب، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه، ولما توفي أبوه سنة ثلاث وتسعين. كان بالسرين، أرسل إليه جمال الدولة كافور من عرّفه بوفاة والده، فحضر وملك اليمن، ثم ادّعى أنه أموي ورام الخلافة، ولبس شارتها، وسمّى نفسه المهدي، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك وينكر فعله، وقيل: ادّعى النبوة، ثم اتفق جماعة من الأكراد وقتلوه سنة ٥٩٨هـ، وقيل: سنة ٥٩٩هـ، بالقور من أعمال زبيد، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام، وأقاموا أخاه الناصر أيوب (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٧١ ـ ٢٧٢، وانظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٤، مفرج الكرب ٣/ ١٣٦، السلوك ١/ ١٥٩، العبر ٤/ ٣٠١، بلوغ المرام ص٤١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٨١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ، شذرات الذهب ٤/ ٣٣٤).

(٢) هو طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك العزيز، سيف الإسلام، ظهير الدين، صاحب اليمن، أخو صلاح الدين، سيّره أخوه إلى اليمن سنة ٥٧٨هـ، ليملكها ويقطع الفتن، وكان شديد السيرة، مضيّقاً على الرعية، يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال الآلاف، وكان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره. ولما بلغه وفاة أخيه الناصر، خرج يريد مصر، فأشار عليه رجل شريف: إنك تخرج لبلاد لا يُعلم تحصل لك أم لا؟ وتترك بلاداً بفتن فرجع إلى رأيه، توفي في شوال سنة ٥٩٣هـ، بزبيد بالمنصورة التي أنشأها، وكانت ولايته اليمن ست عشرة سنة (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨ ـ ٢٠٠، وانظر ترجمته في: مرآة الزمان ٨/ ٤٥٣، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٦، مفرج القلوب ٣/ ٧٢، تاريخ أبي الفداء ٣/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١٤١، البداية والنهاية ١٣/ ١٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٤٨، السلوك ١/ ١٤٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦١، شذرات الذهب ٤/ ٣١١).

والصِّلات، غزير الفَضْل والخيرات، يحب العلماء، ويميل إلى الفُضَلاء، وكان مُمَدَّحاً، مدحه العماد الكاتب بعِدَّة قصائد.

قال: وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان، كذا مُؤَيِّد الدين بن منقذ(١). وحدَّثني جماعةٌ أنَّ مولد نجم الدين كان بجبل جُور، ورُبي في بلد المَوْصِل. ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السُّلْطان محمد بن مَلِكْشاه(٢) فرأى منه أمانة وعقلاً، وسَداداً وشهامة، فولاه قلعة تَكْريت، فقام في ولايتها أحسنَ قيام، وضبَطَها أكْرَمَ ضبط، وأجْلى مِن أرضها المفسدين وقُطَّاع الطريق وأهل العَيْث، حتى عُمِرَتْ أرْضُها، وحَسُنَ حال أهلها، وأمنت سُبُلها.

فلما ولي السُّلْطان مسعود(٣) المُلْكَ أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بِهْرُوز الخادم(٤) شِحنة بغداد ومُتولي العراق ـ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ـ فأقرَّ الأمير نجم الدين في ولاية تَكْريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرَّر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بِهْرُوز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومَعْذُوقاً(٥) بهِمَّته.

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس النَّاس بالدين والخير وحُسْن السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يَسمعُ بأحدٍ من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السَّلْجُوقية» الأمير نجم الدين وقرَّظه وأثنى عليه، وذكر من دينه وعِفَّته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة. وحكى قضية عمه العزيز حين حُبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدَّرْكَزيني(٦)،

(١) مؤيد الدين بن منقذ: هو أسامة بن منقذ، والمشهور أنه مؤيد الدولة، ويلقب أحياناً بمؤيد الدين، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء وفي الجزء الأول.

(٢) توفي في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١١هـ. انظر الجزء الأول، والكامل في التاريخ ٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) توفي أول رجب سنة ٥٤٧هـ، انظر الجزء الأول، والكامل في التاريخ ٩/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٣.

(٤) هو مجاهد الدين بهروز بن عبد الله، أبو الحسن، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، كان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين سنة، توفي ببغداد سنة ٥٤٠هـ (انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٣٣٦، ووفيات الأعيان ٧/ ١٤٢).

(٥) معذوقاً: أي منوطاً، ومختصاً.

(٦) الدركزيني: هو أبو القاسم ناصر بن علي الأنسابادي الدركزيني، ولي الوزارة سنة =

وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بِهْرُوز بنفسه بأمر الدَّرْكَزيني.

ثم إن السلطان مسعوداً حَشَدَ وخرج في أخذ السَّلْطنة، وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سُنْقُر في بغداد، وجرَّدا عسكراً ضخماً، وسارا إلى تَكْريت طامِعَيْن في بغداد، واتصل هذا الخبر بقراجه السَّاقي ـ وهو أتابك ابن السُّلْطان محمود[1] ـ فجرَّد ألف فارس للقاء زَنْكي، ثم أردفهم بعسكر ضخم، فانهزم زنكي، وقُتل جماعة من أصحابه، ونهب جميع ما كان في عسكره، ولجأ إلى سور تَكْريت وبه عِدَّة جراحات. وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شِيركُوه، فمتحاه إلى القلعة بحبالٍ، وداوَيا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظَّهْر، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظَّهْر حتى إنّهما أعطياه جُمْلَةً من البقر حمل عليها ما سلم معه مِنْ أمتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصَّنيعة، ويواصله بالهدايا والألطاف مُدَّة مُقامه في تكريت. فلما انفصل عنها ـ على ما سنذكره ـ تلقَّاه زَنْكي بالرَّحب والسَّعة، واحترمه احتراماً عظيماً، وأقطعه عدة قطائع.

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حَبَّات قلوبهم، وكان أخوه شِيركُوه معه في القلعة، وكان شُجاعاً باسلاً، ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها. فاتَّفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً، فاتَّفق في ذلك اليوم أن النَّصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة مُمِضَّة، فجرَّد أسد الدين سيفه، وقتل النصراني، وصَعِدَ إلى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأُخذ النَّصْراني بِرِجْله، فأُلقي من القلعة.

وبلغ بِهْرُوز صاحبُ قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده مَنْ خَوَّفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرَّعايا، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه. فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائبٍ سيَّره صُحبة الكتاب. فأجاب نجم الدين ذلك بالسَّمع والطَّاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهلٍ ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل.

= ٥١٨هـ، وقتل سنة ٥٢٧هـ (انظر أخباره في تاريخ دولة آل سلجوق ص١٣٥، ومعجم البلدان ٢/ ٤٥١).

(١) في «الكامل في التاريخ» ٩/ ١٤٨: قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

وقيل: إن أسد الدين كان خرج إلى المَوْصِل قبل نجم الدين.

وأعْظَمَ أَهلُ تكريت خروج نجم الدين مِنْ بين أظهرهم، ولم يبق أحدٌ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته.

ولما اتصل بأتابك زَنكي قُدومُهما أَفْرَحَه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما، وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً. وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمُوَزَّر.

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودَّة عظيمة حتى حلف كل واحدٍ منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته. وتجرَّد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمْرِ أخيه نجم الدين حتى قرَّبهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة. وخرجا معه إلى الشَّام، وشهدا معه حروب الكُفَّار وقتال الفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفَعْلَة الغَرَّاء.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي ـ وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب ـ قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين ابن داية الملك الصَّالح قال: حدّثني حسام الدين سُنْقُر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب ـ وكان سُنْقُر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي ـ قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما نفَّذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السُّلْطان الملك النَّاصر إلى مصر مِنْ أجل قطع خُطْبة المصريين، وإقامة دعوة بني العباس، في أول سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طُرَّاحة واحدة، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدَّوْلتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول. فبينا الناس كذلك إذ تقدَّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين، فقبَّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاي، هذا تأويل مقَالتي لك بالأمسِ حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقتَ والله. ثم أخذ في حمدِ الله وشُكْره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء، والقُضَاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النَّصْراني حكايةٌ عجيبة؛ وذلك أنّني ليلة رُزقت هذا الولد ـ يعني السلطانَ الملك الناصر ـ أمرني صاحب قلعة تكريت في تلك الليلة بالرِّحلة عنها بسبب الفَعْلة التي كانت من أخي أسد الدين شِيركُوه رحمه الله وقَتْله النَّصْراني، وكنت قد أَلِفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فَثَقُلَ عليَّ الخروج منها، والتَّحوُّل عنها إلى غيرها، واغتَمَمْت لذلك. وفي ذلك الوقت

جاءني البشير بولادته فتشاءمت به، وتطيَّرت لِمَا جرى عليَّ، ولم أفرح به ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة، وأنا على طِيرَتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنتُ له، فقال لي: يا مولاي، قد رأيتُ ما قد حدث عندك من الطِّيَرَة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبِمَ استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يُغني شيئاً! وهذا الذي جرى عليك قضاءٌ من الله تعالى سبحانه وقَدَر، ثم ما يُدريك أنَّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليلَ المقدار. فعطفني كلامه عليه، وها هو قد وقفني على ما كان قاله. فتعجَّب الجماعة من هذا الاتفاق، وحَمِدَ السُّلْطان ووالده الله تعالى سبحانه وشكَرَاه.

قلت: ولعُمارة في نجم الدين مدائح ومراثٍ، منها قوله: [البسيط]

ثَغْرُ الزَّمان بنجم الدِّين مُبْتَسِمُ ... وَوَجْهُهُ بِدَوَام العِزِّ مُتَّسِمُ
أَضْحَى بكَ النِّيلُ محجوجاً ومُعْتَمَراً ... كأَنَّما حَلَّ فيهِ الحِلُّ والحَرَمُ
جاءت بَنُوك وشَمْلُ الدِّين مُنْتَثِر ... فقَارعوا عنه فَهْوَ اليومَ مُنْتَظِمُ
وما دَرَى أحدٌ من قَبْلِ رُؤْيَتِهِمْ ... أنَّ الحُظُوظَ بِلَثْمِ الأَرْضِ تُقْتَسَمُ
نامَتْ عيونُ الوَرَى في عَدْلِ سيرتهمْ ... كأنَّ يقظتنا في عَصْرِهِمْ حُلُمُ
والنَّاصِرُ ابنُكَ كافٍ كلَّ مُعْضِلَةٍ ... إذا الحوادثُ لم يُكْشَفْ لها غَمَمُ
أَعَزَّ بالبأسِ والإحسانِ حَوْزَتَنا ... فلم يُلِمَّ بنا خَوْفٌ ولا عَدَمُ
تَبَسَّمَ الدَّسْتُ مِنْ أيوبَ عن مَلِكٍ ... تَنْحطُّ عن قَدْرِهِ الأقْدارُ والهِمَمُ

وقال في مرثيته: [الطويل]

هي الصَّدْمَةُ الأُولى فمن بانَ صَبْرُهُ ... على هَوْلِ مَلْقاها تَضاعَفَ أَجْرُهُ
أذُمُّ صباحَ الأربعاءِ فإنه ... تَبَسَّمَ عن ثَغْرِ المَنِيَّةِ فَجْرُهُ
أصابَ الهُدَى في نجمِهِ بمصيبةٍ ... تَداعَى سِماكُ الجوِّ منها ونَسْرُهُ
فلا تَعْذُلونا واعْذُرونا فَمَنْ بكى ... على فَقْدِ أيوبٍ فَقَدْ بانَ عُذْرُهُ
أقامَ بأعمالِ الفُرَاتِ وخَيْلُهُ ... يُراعُ بها نِيلُ العزيزِ ومِصْرُهُ
إلى أَنْ رماها من أخيه بِضَيْغَمٍ ... فرى نابُه أهلَ الصَّليب وظُفْرُهُ
فلما قَضَى نَحْبَي حياةٍ ودَوْلَةٍ ... بأمرك في إدراكها تَمَّ أَمْرُهُ
تعاقَبتما مِصْراً تَعاقُبَ وابِلٍ ... يبيتُ بقُطْرِ النِّيل ينهل قَطْرُهُ
نَزَلْتَ بدارٍ حَلَّها فَحَلَلْتَها ... فمَغْناكَ مَغْناهُ وقُطْرُكَ قُطْرُهُ
وواخيتَه في البَرِّ حيّاً وميّتاً ... فَقَبْرُكَ في دارِ القَرَارِ وقَبْرُهُ

وقد شَخَصَتْ أهلُ البقيع إليكما وإلا فَسُكان الحَجُون وحِجْرُهُ
هنيئاً لمَلْكِ ماتَ والعِزُّ عِزُّه وقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجالِ وقَدْرُهُ
وأَدْرَكَ مِنْ طُولِ الحياةِ مُرَادَه وما طالَ إلا في رِضا الله عُمْرُهُ
وأَسْعَدُ خَلْقِ الله مَنْ مَاتَ بعدما رأى في بني أبنائه ما يَسُرُّهُ
شهيدٌ تلقَّى رَبَّه وهو صائِمٌ فكانَ على أَجْرِ الشَّهادَةِ فِطْرُهُ
مضى وهو راضٍ عنكَ لم تَرِمْ صَدْرَه بضيقٍ ولا جاشَتْ من الغيظ قِدْرُهُ
حمى حَوْزَةَ الإسلام والدِّينِ بعده ثمانيةٌ من أَجْلِهِمْ عَزَّ نَصْرهُ
فكيف بخِيسٍ آلَ أيوبَ أُسْدُه لقد بانَ خَوْفُ الدَّهْرِ منه وذُعْرُهُ[1]
رَعَى الله نجماً تَعْرِفُ الشَّمْسَ أنَّه أبوها ونورُ البَدْرِ منها وزُهْرُهُ
وأبقى المَقَامَ النَّاصِرِيَّ فإنَّه لِدَوْلَتِكُمْ كَنْزُ الرَّجاءِ وَذُخْرُه

وقال أيضاً: [البسيط]

صَفْوُ الحياةِ وإنْ طالَ المَدَى كَدَرُ وحادثُ الموتِ لا يُبْقي ولا يَذَرُ
وما يَزَالُ لسانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنا لو أَثَّرَتْ عندنا الآياتُ والنُّذُرُ
فلا تَقُلْ غَرَّت الدُّنيا مطامِعَنا فما مَعَ الموتِ لا غِشٌّ ولا كَدَرُ
كأسٌ إذا ما الرَّدى حَيَّا الحياة بها لم يَنْجُ مِنْ سُكْرِها أنثى ولا ذَكَرُ
كَمْ شامخِ العزّ لاقَى الذُّلَّ من يَدِها ما أَضْعَفَ القَدْرَ إنْ أَلْوى به القَدَرُ
في كلِّ جيلٍ وعَصْرٍ مِنْ وقائعها شَعْوَاء يَقْطُرُ منها النَّابُ والظُّفُرُ
أودى عليٌّ وعثمانٌ بمخلبها ولم يَفُتْها أبو بكر ولا عُمَرُ
ومَن أراد التَّأسِّي في مُصيبَتِه فلِلْوَرَى برسولِ الله مُعْتَبَرُ
نجمٌ هَوَى من سماءِ الدِّين مُنْكَدِراً والنَّجْمُ من أُفْقِهِ يهوي وَيَنْكَدِرُ
منظومةٌ أَنْجُمُ الجوزاء من جَزَعٍ له وعِقْدُ الثُّريَّا منه مُنْتَثِرُ
وكيف يُنْسى مُحَيَّاه الكريمُ ومِنْ نُعماه في كلِّ عَيشٍ صالحٍ أَثَرُ
جَدَّدْتَ مِنْ أَسَدِ الدِّينِ الشَّهيدِ لنا حُزْناً به يتساوى الصَّبْرُ والصَّبِرُ
قد كانَ للدِّين والدُّنيا بعزمكما ذكرٌ يُعَبِّرُ عنه الصَّارِمُ الذَّكَرُ
إنْ فاحَ نَشْرُ كلام تُمدحانِ بهِ مِسْكاً فَعِتْرَةُ أيوبٍ هي العِتَرُ
تخفي ذُبالَ مصابيحٍ إذا طَلَعُوا صُبْحاً وتُنسي مُلُوكَ الأرضِ إنْ ذُكِرُوا

---

(١) الخيس: الشجر الكثيف الملتف، وهو موضع الأسد.

كـأنَّـمـا صَـوَّرَ الله الـكـمـالَ بـهـم شَخْصاً ويوسفُ منه السَّمْعُ والبَصَرُ
لا شَـوْبَـكٌ مـنـه مـعـصـومٌ ولا كَـرَكٌ ولا خـلـيـلٌ ولا قُـدْسٌ ولا زُغَـرُ
لـم يـرتَـحِـلْ قـافـلاً إلا وسـاكـنـهـا إمـا مُـبَـاحٌ جِـمـاه أو دمٌ هَـدَرُ
مـا مـاتَ أيـوبُ إلا بـعـد مُـعْـجِـزَةٍ في المجد لم يُؤْتَها من جِنْسِهِ بَشَرُ
مضى سعيداً من الدُّنيا وليسَ له فـي رُتْـبَـةٍ أَرَبٌ بـاقٍ ولا وَطَـرُ
وطَـوَّلَ الله مـنـه بـاع أربـعـة منها النَّدى والتُّقَى والمُلْكُ والعُمُرُ
وأشرفُ المُلكِ ما امتَدَّت مسافَتُهُ في صِحَّةٍ أخواها العَقْلُ والكِبَرُ
ومـن سَـعَـادتِـهِ أَنْ مـاتَ لا سَـأَمٌ يـشـكـوه مـنـه مُـعـانـيـه ولا ضَـجَـرُ

فصل

[قصد نور الدين بلاد قليج أرسلان عازماً على حربه وأخذ بلاده منه، وفتح مرعش، وبهسنى]

قال العماد: وسار نور الدين قاصداً جانب الشّمال لتسديد ما اختَلَّ هناك من الأحوال. فسار إلى بَعْلَبك ومنها إلى حمص ثم حلب، وفعل في كلِّ منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الرُّوم(١)، ففتح مَرْعَش في العشرين من ذي القَعْدَة، ثم فتح بَهَسْنَى واتَّبع في كلٍّ منهما الطريقة الحُسْنى.

وكتب العماد إلى صديقٍ له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المِشْمِش(٢): [المتقارب]

كـتـابـي فَـدَيْـتُـك مـن مَـرْعَـشٍ وخـوفُ نـوائـبـهـا مُـرْعِـشي
ومـا مَـرَّ فـي طُـرْقِـهـا مُـبْـصِـرٌ صـحـيـحُ الـنَّـواظـر إلا غَـشِـي
ومـا حَـلَّ فـي أرضـهـا آمِـنٌ مـن الـضَّـيْـم والـضُّـرِّ إلّا خَـشِـي
تُـرَنِّـحُـنـي نـشَـواتُ الـغَـرام كـأنّـيَ مِـنْ كـأسِـهِ مُـنْـتَـشـي
أُسِـرُّ وأُعْـلِـنُ بَـرْحَ الـجَـوَى فـقَـلـبـي يُـسِـرُّ ودمـعـي يَـشـي

---

(١) هو الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي، توفي في منتصف شعبان سنة ٥٨٨هـ بمدينة قونية، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، ولما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/٩٧ ـ ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٣ ـ ٦٤.

بَذَلْتُ لكم مُهجتي رِشوةً فحاكِمُ حُبِّكُمُ مُرْتَشي
وكيف يَلذُّ الكَرَى مُغرَمٌ بنارِ الغَرَامِ حَشَاه حُشِي
بِمَرْعَشَ أبغي وبلُّوطِها مُضَاهاة جِلِّقَ والمِشْمِشِ!

قال العماد في «الخريدة»: فسارت هذه القطعة، ونُمي حديثها إلى نُور الدين، فاستنشدنيها، فأنشدتُها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بَدَهْتُ بهما في الحال، وهما[1]: [المتقارب]

وبالمَلِكِ العادِلِ اسْتَأنَسَتْ نَجاحاً مُنى كلِّ مُسْتَوْحِشِ
وما في الأنامِ كريمٌ سواه فإنْ كُنتَ تُنكِرُ ذا فَتِّشِ

وقال ابنُ الأثير[2]: وفي سنة ثمانٍ وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عزّ الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السَّلْجُوقي، وهي مَلَطْية وسيواس وقُونية وأَقْصَرا، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

وكان سببُ ذلك أنَّ ذا النُّون بن دانْشَمَنْد صاحب مَلَطْيَة وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قَصده قليج أرسلان، وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستَجيراً به، وملتجئاً إلى ظِلِّه، فأكرم نُزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليقُ أن يُحملَ للملوك، ووعدَه النَّصر والسَّعي في ردِّ ملكه إليه. وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحدٍ من المسلمين إلا ضرورةً؛ إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما. فلما قصده ذو النُّون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسون[3] وبَهَسْنَى ومَرْعَش ومَرْزُبان، فملكها وما بينها من الحصون، وسيَّرَ طائفةً من عسكره إلى سيواس فملكوها.

[المعاهدة بين نور الدين وقليج أرسلان]

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلادَه قد سار من أطرافها التي تلي الشَّام إلى وسطها خوفاً وفَرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه، ويسأله الصُّلْح والصَّفح عنه، فتوقَّف نور الدين عن قَصْدِه رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصُّلْح.

---

(١) البيتان في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٤ ـ ٦٥.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) كيسون: كذا بالأصل، والمراد: كيسوم، لأن رستاقها هو رستاق بهنس (انظر معجم البلدان ١/ ٥١٦).

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركتُ منها فلا أترك ثلاثة أشياء: **أحدها**: أن تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحلَّ لي إقرارك على بلاد الإِسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً ـ وكان قليج أرسلان يُتَّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ـ **والثاني**: إذا طلبتُ عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنَّك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإِسلام، وتركت الرُّوم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تُنْجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد مَنْ يجاورك من الرُّوم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم. **والثالث**: أن تزوِّج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي. وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرِّسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشَّناعة عليَّ بالزَّندقة، وقد أجبتُه إلى ما طلب، أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله. واستقرَّ الصُّلْح، وعاد نور الدين، وترك عسكره في سيواس مع فخر الدِّين عبد المسيح في خدمة ذي النُّون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان وملكها.

[قدوم قطب الدين النيسابوري إلى حلب]

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الإِمام الكبير قطب الدين النَّيْسَابوري(١)؛ وهو فقيه عصره، ونسيج وحدِه، فَسُرَّ نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي(٢) رحمه الله تعالى، ونزل بمدرسة الجاروق. وشرع نور الدين في

(١) هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي نزيل دمشق، يعرف بالنيسابوري ولد سنة ٥٠٥، وتوفي سنة ٥٧٨، من تصانيفه عقيدة أهداها للملك صلاح الدين الأيوبي. «الهادي في الفروع» (كشف الظنون ٦/ ٤٢٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

(٢) نصر المقدسي: هو الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود بن أحمد المقدسي النابلسي، شيخ الشافعية بدمشق الشام، ولد قبل سنة ٤١٠هـ، وقدم دمشق سنة ٤٨٠هـ، ونزل بالزاوية الغربية من مسجد دمشق، ثم عرفت هذه الزاوية فيما بعد بالزاوية الغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها أيضاً سنة ٤٨٩هـ، وكان الشيخ نصر متقشفاً، متجنباً ولاة الأمور، قانعاً باليسير من غلة أرض كانت له بنابلس، يأتيه منها ما يقتاته، ولا يقبل من أحد شيئاً، توفي سنة ٤٩٠هـ، ودفن في مقبرة الباب الصغير، من تصانيفه: «أربعين في الحديث»، «الانتخاب الدمشقي في المذهب» عشر مجلدات، «التهذيب في الفروع» عشر مجلدات «شرح الإرشاد لسليم الرازي» في الفروع، «كافي في الفروع»، «كتاب الحجة على تارك الحجة»، «كتاب المقصود في الفروع»، «مناقب =

إنشاء مدرسة كبيرة للشَّافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلتُ: هي المدرسة العادليّة الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب[1]؛ أخو صلاح الدين، وفيها تربتُه، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومَنْ بعده منها وهو موضع المسجِد والمحراب الآن. ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المُحْكَم الذي لا نظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قَدَّر الله سبحانه وتعالى جَمْع هذا الكتاب، فلا أَقْفَرَ ذلك المنزلُ ولا أَقْوى. وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام النَّاصرية في سنة ثمانٍ وسبعين. ووقف كتبه على طلبة العلم، ونُقِلَتْ بعد بناء هذه المدرسة إليها، فما فاتها ثمرته إذ فاتها مُبَاشرته، رحمه الله تعالى.

قال العماد: وكان وَفَدَ في سنة أربع وستين شيخ الشُّيوخ عماد الدين أبو الفَتْح محمد بن علي بن محمد بن حَمُّويه[2]، فأقبل عليه نور الدين، وأمرني بإنشاء مَنْشورٍ له بمشيخة الصُّوفية، ورغَّبه في المقام بالإِحسان إليه بالشَّام. ومن جُملة ما أتحفه به عِمامة بأعمدة ذهبيَّة نفَّذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العِمامة في أخبار نور الدين أوَّل الكتاب من كلام ابنِ الأثير، وابن المُعْطَى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله، رحمهم الله تعالى.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور، وفيه: فلينظر في رباط السُّمَيْساطي وقُبَّة الطَّواويس ورباط الطَّاحونة وغيرها من رُبُط الصُّوفية بدمشق المعمورة وبَعْلَبك.

ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرَّحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[3] قطائف، وكتب إليه: [مجزوء الكامل]

مــا راقــداتٌ فــي صُـحُــونِ مــســتــوطــنــاتٌ فــي سُـكُــونِ

= الإمام الشافعي» (كشف الظنون ٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٣٦ ـ ١٤٣، طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٣٥١ ـ ٣٥٣، ٦/ ١٩١ ـ ٣٨٩).

(١) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) كذا سماه العماد، وهو في كشف الظنون ٦/ ١١٠: محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية الجويني صدر الدين الشافعي الصوفي المعروف بابن حموية، توفي بالموصل سنة ٦١٧هـ. له من الكتب «سلوة الطالبين في التصوف» (وانظر أيضاً الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ).

(٣) علم الدين الشاتاني: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

يَـجْـلـيـنَ أمـثـالَ الـعَـرَا ئِـسِ بـيـن أبـكـارٍ وَعُـونِ
أو كـالـعَـقـائـلِ فـي الـخُـدُو رِقـد اعْـتُـقِـلـنَ عـلـى دُيـونِ
هُـنَّ الـلـذيـذات الـلـوا ئـذ بـالـسُّـهـولِ مـن الـحُـزُونِ
أو كـالـتَّـمـائـم لـلـصِّـحـا فِ ومـا نُـسِـبْـنَ إلـى جُـنُـونِ
الـسُّـكَّـريـاتُ الـغـريـ ـقـاتُ الـغـلائـلِ والـشُّـؤونِ
صَـرْعَـى ومـا دارَتْ لـهـا يـومـاً رحـى الـحَـرْبِ الـزَّبُـونِ
لُـفِّـفْـنَ فـي أكْـفـانِـهِـنَّ (م) عـلـى الـمُـنَـى لا لـلـمَـنُـونِ
يـحـيـيـنَ بـالـتـغـريـق بـل يَـنْـمَـنَّ فـي ضِـيـقِ الـسُّـجـونِ
الـمُـسْـتَـطـابـاتُ الـظُّـهـو ر الـمُـسْـتَـلَـذَّاتُ الـبُـطُـونِ
نُـضِّـدْنَ بـالـتَّـرْصِـيـع فـي الـ ـجـامـات كـالـدُّرِّ الـمَـصُـونِ
الـمـسـتـقـيـماتُ الـصُّـفُـو فِ وَقَـفْـنَ كـالـخـيـلِ الـصُّـفُـونِ
وقـد اشْـتَـمَـلْـنَ مـن الـلَّـطَـا ئِـفِ والـصِّـفـات عـلـى فُـنُـونِ
اسْـمَـعْ حـديـثـي فـي انـبـسـا طـي فـالـحـديـث أخـو شُـجُـونِ

وهي أكثر من هذا.

فصل

[استيلاء مليح بن لاون للدروب، وكسره للروم وإرساله لنور الدين ثلاثين أميراً من مقدميهم]

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مُقدَّم بلاد الأرمن، والتجائه إلى نور الدين، وتطاوله بقوَّته على الرُّوم والأرمن. وكانت الدُّروب: أَذَنة، والمَصِّيصة، وسيواس، يحميها كلب الرُّوم، ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأَسَر، وساق لنور الدين من مقدَّمي الروم ثلاثين أسيراً. فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، وما فتح من البلاد، ويقول فيه: وقُسْطَنطينية والقُدْس يجريان إلى أَمَد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظَّلام المُدْلَهِمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام.

وفي آخره: ومن جُمْلة حسنات هذه الأيام الزَّاهرة ما تَسنَّى في هذه النَّوبة،

من افتتاح بعض بلاد النُّوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تَطْرُقْها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على بَرْقة وحصونها، وتحكّموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السُّؤل بعنقاء مُغرب.

[استيلاء قراقوش على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية]

قلت: كان اتَّفق في هذه السَّنة وصول قَراقُوش غلام تقي الدين من الدِّيار المصرية مع طائفةٍ من الترك، وانضمَّ إليهم جماعةٌ من العرب، فاستولى على طَرابُلُس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المَهْدِيَّة وسَفَاقُس وقَفْصة وتُونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المُنى، وإقصاء عَبَدَة الصَّليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مُفْتَتَح مراده، ومُقْتَدَح زِناده، ومُقترحه في جهاده، وأن يملكه السَّاحل بجميع بلاده.

وسَيَّر العماد معه قصيدةً، منها: [الكامل]

بالمستضيء أبي محمدٍ الحَسَنْ ... رَجَعَتْ أمورُ المسلمينَ إلى السُّنَنْ
في أَرْضِ مِصْرَ دعا له خُطَباؤها ... وأتت لتخطب بِكْرَ خطبته عَدَنْ
فالمغربُ الأقصى لذلك مُشْرِقٌ ... وَبِنَصْرِ مِصْرَ مُحَقَّقٌ يُمْنَ اليَمَنْ
ورأى الإله المستضيء لشرعه ... وعباده نِعْمَ الأمينُ المُؤتَمَنْ
سِرُّ النُّبوة كامِنٌ فيه وَمِنْ ... فطر الإمامةُ مُشْرق نورُ الفِطَنْ
تَقْوى أبي بكرٍ ومن عُمَرَ الهُدى ... وحياءُ عثمانٍ وعِلْمُ أبي الحَسَنْ
وبجِدِّه عُرِفتْ مقالةُ حَيدرٍ ... لا من دَدٍ أنا، لا، ولا مِنّي الدَّدَنْ[1]
كم من عدوٍّ ميِّتٍ في جلدِهِ ... رُعْباً وخوفاً فهو حيٌّ في كَفَنْ

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

هل مِثْلُ محمودِ بن زَنْكي مُخْلِصٌ ... متوحِّدٌ يبغي رضاك بكلِّ فَنْ
وَرِعٌ لدى المحراب أَرْوَعُ مِحْرَبٌ ... في حالتيه إنْ أَقامَ وإنْ ظَعَنْ

---

(١) الدَّدُ والددن: اللهو واللعب، وهو من قول رسول الله ﷺ: (وليس من قول الإمام علي بن أبي طالب كما نسبه العماد): «لست من ددٍ ولا الدد مني»: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢١٧، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٣٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٥، ٢٢٦، والدولابي في الكنى والأسماء ١/ ١٧٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٢٩، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث ٢٢٩٥.

يُمسي ويُصْبِحُ في الجهاد وغَيْرُه … يَضْحَى رَضِيع سُلافَةٍ وضجيع دَنْ
وبعِزَّةِ الإِسلام منتصراً حَرٍ … وبِذِلَّة الإِشراكِ منتقِماً قَمَنْ

[وصول ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين]

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عَصْرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصَرِيفين، وخمسين ديناراً من دنانير النِّثار التي نُثِرَتْ يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخُطْبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصَريفين من أعمال العراق لِزَنْكي ـ والد نور الدين ـ قديماً من إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرَّسْم في حقِّه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثالَهُ الشَّريف إليه. وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دِجْلة أرضاً يبنيها مدرسةً للشَّافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر، ولحسن الذكر الباقي على الدَّهْر، فقيل له: ما ثَمَّ موضعٌ لهذا إلا دار التمر، فعاقه أمر القَدَر عن قُدْرته على هذا الأمر.

[عودة نور الدين من بلاد الروم إلى حلب ثم دخوله دمشق]

ثمَّ دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الرُّوم مَرْعَش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته. ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب مَلَطْيَة. وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المِجْدَل فسرَّحهم بالعطاء الأجْزَل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الرُّوم على الفُرات، فتقبله مستخلَف الأرض[1] بالبراءة وحمل خمسين ألف دينار، على سبيل الجزية مصانعةً بِذُلٍّ وصَغار، وعاد إلى حلب وقد أنجح في كل ما طلب.

وأراد أن يسرعَ إلى دمشق فالتاث سِرُّه لالتياث سُرِّيَّته، وحظي بمرض القلب لمرض جسم حَظيَّته، وجرَّت شكايَته شكايةُ جاريته، فتصدَّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف؛ ثم سَيَّرها في مِحَفَّة، تحمل على أيدي الرجال في خِفَّة، وسارت على الطَّريق المهيع مع العسكر، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشي

(١) مستخلف الأرض: كذا في الأصل، ولعله تصحيف لكلمة الأرمن.

معها، وتقدَّم بحقٍّ لازم من بخدمته شَيَّعها. وتأخر نور الدين جريدة مع عِدَّة من مماليكه وأمرائه، المماحضين في ولائه، وتقدَّم إليَّ أنْ أسايره في طريقه وأحاوره، وأحاضره في منازله وأسامره.

وسرنا على طريق قُبَّة ملاعب والمشهد وسعلَمْية، فجاءه الخبر أَنَّ الفرنج قد أغارت على حَوْرَان، فثنى إلى الجهاد العِنان، وسمع الفرنج به فتفرَّقوا، وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

[إبطال نور الدين فريضة الأتبان]

قلت: وفي جمادى الأُولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه «الحمد لله»، يقول فيه:

وبعد، فإنَّ من سنتنا العادلة، وسِير أيامنا الزَّاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنَّه الظالمون من جائرات الرُّسوم. وما نزال نجدِّد للرعية رسماً من الإِحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفِّيها من الشُّبَه والشَّوائب، ونُلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضَّرائب، تقرُّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج، وجبل سَنِير، وقصر حَجَّاج، والشَّاغور، والعُقَيبة، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يُقَسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواصِّ والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفَّرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهَرَباً من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النُّواب إطلاق ذلك على الدَّوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنُّس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسعٍ وستين، وما بعدها على تعاقُب الأيام والسِّنين.

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجَّه تورانشاه[1] ـ أكبر إخوة صلاح الدين ـ إلى

(١) هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي، توفي في صفر سنة ٥٧٦هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

اليمن فملكها. وكان يحثُّه على المسير إليها عُمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه، فتجهَّز وسار إلى مكة، ثم إلى زَبِيد فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيفُ الدولة مبارك بن منقذ[١]. ومضى إلى عَدَن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزَّنْجيلي[٢]، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع، ففتح إقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بِكْراً وشيَّع ذِكْراً.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قُوَّة عسكره، وكثرة عدد إخوته وقوَّة بأسهم. وكان بلغَه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النَّبي بن مهدي، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتبَّ أمره؛ فرأى أن يسيِّر إليها أخاه الأكبر الملك المُعظَّم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق ـ سمعت منه، يعني من صلاح الدين رحمه الله تعالى، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه، وترجيحه إياه على نفسه ـ فمضى إليها وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عُمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعةٌ من أماثل الناس مثل بركات بن المقرئ وعلي بن محمد النيِّلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن وأزال دولة أهل زَبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلَّق به.

وقال العماد في «الخريدة»[٣]: علي بن مهدي، ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شُرْب الخمر، وادَّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدِّث نفسه بالمسير إلى مكة، فمات سنة ستين، وتولَّى بعده أخوه، وله شِعْرٌ حسن يدلُّ على عُلوِّ هِمَّته.

---

(١) هو ابن عم أسامة بن منقذ، الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٢٦هـ، بقلعة شيزر، وتوفي سنة ٥٨٩هـ، وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٩).

(٢) عز الدين عثمان الزنجيلي: في شفاء القلوب سماه الزنجبيلي، وهو تصحيف، والصحيح الزنجيلي، نسبة إلى زنجيلة، قرية من قرى دمشق، وهو أبو عمرو عثمان بن علي، كان أميراً كبيراً، استنابه تورانشاه بن أيوب على عدن سنة ٥٧١هـ، وتوفي في دمشق بعد سنة ٥٩٠هـ، وفي الدارس في تاريخ المدارس: هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ (انظر: العقد الثمين ٦/ ٣٤ ـ ٣٥، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٢٦).

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ٦٤ ـ ٧٠، وفي الخريدة: المهدي بن علي بن مهدي.

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفُتُوَّته، ولا ينهض بمروَّته، وكان قد انتظم في سِلْكه عُمارة الشَّاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدَح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه. وكان إذا خلا به يَصِفُ له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضَعْفَ من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت: فمن جملة شعره في ذلك قولُه في القصيدة التي أولها[1]: [البسيط]

العِلْمُ مُذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تستغني عن القَلَمِ
كم يترك[2] البيضَ في الأجفانِ ظامئةً ... إلى المواردِ في الأعناقِ والقِمَمِ
أمامَك الفَتْحُ من شامٍ ومن يَمَنٍ ... فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيلِ باللُّجُمِ
فعمُّك الملكُ المنصورُ سوَّمها ... من الفُرَاتِ إلى مِصْرٍ بلا سَأَمِ
فاخلُقْ لنفسك مُلْكاً لا تضافُ به ... إلى سِواك وأوْرِ النَّارَ في العَلَمِ
هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقولُ الورى لحماً على وَضَمِ
وقد ترامى إلى أن أمْسَكَتْ يَدُه ... من الكواكب بالأنفاسِ والكَظَمِ
حاسِبْ ضميرك عن رأي أتاكَ وقُلْ ... نصيحةٌ وَرَدَتْ من غَيْرِ مُتَّهَمِ

وله من أخرى: [الطويل]

أفاتحَ أرضِ النِّيلِ وهْي منيعةٌ ... على كلِّ راجٍ فَتْحَها ومُؤَمِّلِ
متى توقد النار التي أنتَ قادحٌ ... بِغُمْدَان مشبوباً سناها بِمَنْدَلِ[3]
وتَفْتَحُ ما بينَ الحصين وأبْيَنٍ ... وصنعاءَ من حصنٍ حصينٍ ومَعْقِلِ
وتملك من مخلاف طرفٍ وجعفرٍ ... نقيضين من حَزْنٍ خصيبٍ ومُسْهلِ
وتخلق مُلْكاً لا تُحِيل بفخره ... على أَحَدٍ إلّا على عَزْمِكَ العَلي

وله من قصيدةٍ أخرى: [البسيط]

قالوا إلى اليمن الميمونِ رِحْلَتُهُ ... فَقُلْتُ ما دونَه شيْءٌ سوى السَّفَرِ
سَيْرٌ يَسُرُّ بني الدنيا وطِيبُ ثناً ... وطول عُمْرٍ كذا يُحكى عن الخضِرِ
لا توقدَنَّ لها النار التي خمدت ... خفِّض عليك تَنَلْ ما شِئْتَ بالشَّرَرِ

---

(١) انظر الأبيات في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٥٠ ـ ٥١، وفي شفاء القلوب ١١ بيتاً.

(٢) في شفاء القلوب: «لم يترك» بدل: «كم يترك».

(٣) مندل: بلد بالهند منه يجلب العود الفائق الذي يقال له العود المندلي (معجم البلدان ٥/ ٢٠٩).

المالُ ملءُ يدٍ والقَوْمُ ملكُ يدٍ ولا أطيل وهذا جملة الخَبَرِ

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتَبَه رجلٌ من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم وأطمَعَه في المعاونة، لأنَّ صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدَّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، وتجهَّز، ثم دخل على أخيه السُّلطان، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مُغَلّ قُوص سنة، وزوَّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمَّن سَيَّره من حلقته. وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول، يحمل الأزواد والعُدَد والآلات. فوصل إلى مكة ـ شَرَّفها الله تعالى ـ فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن، فوصل زَبيد في أوائل شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جَمٍّ وعدد كثير، فهجم زَبيد وتسلَّمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبيّ أخي علي بن مهدي.

ثم رحل إلى عَدَن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عَنْوَةً، وولاها عز الدين بن الزَّنْجيلي. ثم سار إلى المخلاف، وتسلَّم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعز وغيرها، وسار إلى صَنْعاء بعد فتح مدينة الجَنَد وغيرها، فأُحرقت صَنْعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد بها إلا شيخاً وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلَّة المِيرة، فرجع إلى زَبيد، فوجد ابن منقذ قد قتل عبدَ النبي ابن مهدي. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك بن منقذ وأمره بحمله، فلما بَعُدَ شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره، فرأى المصلحة في قَتْله، فقتله ابن منقذ بزَبيد، فلما بلغ شمسَ الدولة قَتْلُه استصوبه.

ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طَمَار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال. ثم تتبَّعَ تلك الحصون والقلاع، فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك النَّاصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان، وخَوَّله من ملك البُلْدان، فأرسل نورُ الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النَّقَّاش[١] بالبشارة بذلك إلى بغداد[٢].

---

(١) ولد ببغداد، وتعلم بها، قدم الشام ودخل في خدمة نور الدين حتى توفي نور الدين، وخدم طبيباً لصلاح الدين الأيوبي بعد ملكه دمشق، توفي يوم السبت ١٢ محرم سنة ٥٧٤هـ (عيوان الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٣٥ ـ ٦٣٦).

(٢) انظر خبر فتح اليمن في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٢ ـ ٥٣: ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن.

فصل

[ذكر المبارك بن منقذ المستناب بزبيد]

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبيد ووصفه بأنه من الكُفَاة الكرماء، والدُّهاة ذوي الآراء. وهو فاضلٌ من أهل بيت فضل، كتب إلى العماد من شعره: [الكامل]

لـمـا نـزلـتُ الـدَّيْـر قُـلْـتُ لـصـاحـبـي قُـمْ فَـاخْـطُـبِ الـصَّـهْـبَـاءَ مـن شَـمَّـاسِـهِ
فـأتـى وفـي يُـمْـنـاه كـأسٌ خِـلْـتُـهـا مـقـبـوسـةً فـي الـلَّـيـل مـن نِـبْـراسِـهِ
وكـأنَّ مـا فـي كـأسـه مـن خَـدِّه وكـأنَّ مـا فـي خَـدِّه مـن كـاسِـهِ
وكـأنَّ لَـذَّةَ طَـعْـمِـهـا مـن رِيـقِـهِ وأريـجَـهـا الـفَـيَّـاحَ مِـنْ أنـفـاسِـهِ
لـم أنْـسَ لـيـلـةَ شُـرْبـهـا بـغـنـائـه[1] إذْ بـاتَ يـجـلـوهـا عـلـى جُـلَّاسِـهِ
إذ قـام يـسـقـيـنـا الـمُـدَامَ وكـلـمـا عـاتـبْـتُـه ردَّ الـجـواب بـراسِـهِ

قلت: ومدَحه أبو الحسن بن الذرَوي المِصْري[2] بقصيدةٍ غرَّاء ذاليّة، ما أظنُّ أنه نُظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأروق معنى، أوَّلها: [الطويل]

لك الخَيْرُ عَرِّجْ بي على رَبْعِهِمْ فذي ربوع يفوحُ المِسْكُ من عَرْفها الشَّذي

يقول فيها:

مَـبَـارِكُ عِـيـشِ الـوفـد بـابُ مبـارِكٍ وهـل منـقـذ الـقُـصَّـاد غيرُ ابن مُنْقِذِ

[تسيير نور الدين البشارة لبغداد بفتح اليمن وكسره الروم]

قال العماد: ثم سيَّر نور الدين إلى بغداد بشارةً بأمرين، أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الرُّوم مرة ثانية ومقدَّمهم الدوقس كلمان ـ وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلساً ـ وسيَّر معه أسرى من الرُّوم، وذلك في شعبان هذه السَّنة.

ومما تضمَّنه كتاب البشارة: ولم يَنْجُ من عشرة آلاف غير عشرة حُمْرٍ مستنفرة، فرَّت من قَسْورة.

---

(١) بغنائه: كذا بالأصل، ولم أجد لها معنى يوافق السياق، ولعلها تصحيف كلمة: بفنائه.
(٢) هو علي بن يحيى المصري، أبو الحسن، المتوفى سنة ٥٧٧هـ، تقدّمت ترجمته.

وقبلَ ذلك بشهرين سُيِّرَتْ قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد، أوَّلها: [البسيط]

أطاع دمعي، وصبري في الغَرَام عَصَى ... والقَلْبُ جُرِّع من كأسِ الهوى غُصَصا
وإنَّ صَفْوَ حياتي ما يُكَدِّرُه ... إلا اشتياقي إلى أحبابيَ الخُلَصا
ما أطيب العيشَ بالأحبابِ لو وصلوا ... وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خَلَصا
من ذا الذي سار سيري في ولائِكُمُ ... غداة قال العِدَى لا سير عند عصا
قد نال عبدُك محمودٌ بها ظَفَراً ... ما زال يرقُبه من قَبْلُ مُرْتَبِصا
مِنْ خوف سطوته أنَّ العدوَّ إذا ... أمَّ الثُّغورَ على أعقابه نَكَصَا

وكَلِفَ نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصَّدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النِّسْوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرَّعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعَوْن الضعفاء وتقوية المُقْوين[1] بعدله.

ثم ذكر ما قَدَّمنا ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

[نزول نور الدين إلى المدرسة العمادية]

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه، حافلين في إيوانه، لبسط عَدْله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سُلْطانه. فجاءني من أخبرني أنَّ نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسُنَّةِ الضُّحى وصلَّاها. فقمتُ في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدِّهليز خارجاً، في أجر العبادة ناجحاً ولنهج العادة ناهجاً. فلما رآني توقَّف، ولقولي تشوَّف، فقلت له: إنَّ الموضع قد تشرَّف؛ أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعَّث؟ فلما رأى حاله تلبَّث، وقال: نعيدُه إلى العمارة، ونكسوه حُلَل النَّضارة. ثم حملت له وجوه سكر، وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبتُ معها هذه الأبيات: [السريع]

عند سليمان على قَدْره ... هَدِيَّةُ النَّمْلَةِ مَقْبُولَهْ
ويصغر المملوكُ عن نَمْلَةٍ ... عندك والرَّحمةُ مأمُولَهْ
رِقِّي لمولانا وملكي له ... وذمَّتي بالشُّكْرِ مَشْغُولَهْ
وكيف يقضي الحقَّ ذو مُنَّةٍ ... ضعيفةٍ بالعَجْزِ مَغْلُولَهْ

---

(١) أقوى الرجل: نفد طعامه، وفني زاده.

وإنَّما شيمةُ مَوْلى الوَرَى طاهرةٌ بالخير مَجْبُولهْ

قال: وكان رأى قِبْلَة المدرسة غير مُفصَّصة، وبالترخيم والتذهيب غير مخصَّصة، فنفذ لي لعمارتها فصوصاً مُذهبة وذهباً. ثم حُمَّ مقدور حِمامه، وعاق القدر عن إتمامه. ودُفعتُ إلى المَوْصِل فرأيتُه في المنام، وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصَّلاةَ الصَّلاة. فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه الآن على هيئة الخراب، فكتبتُ إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصَّانع منه.

فصل

[وصول رسول نور الدين إلى مصر مطالباً صلاح الدين بحساب البلاد وإرسال صلاح الدين هدية إلى نور الدين]

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القَيْسَراني إلى الدِّيار المصرِيَّة، واجتمع بالسُّلْطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حَصَّله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فصَعُبَ ذلك على السُّلْطان وأراد شَقَّ العصا لولا ما ثاب إليه من السَّكينة والعقل، فأمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القَيْسَراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وكميات جامكياتهم[1] ورواتب نفقاتهم. فلما حَصَل عنده جميعُ ذلك أرسل معه هديَّة إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى[2].

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخطِّ الموفق بن القَيْسَراني وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جُزْءاً مغشَّاة بأطلس أزرق، مضببة[3] بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمة بخط راشد مغشَّاة بديباج

---

(١) الجامكيات: جمع جامكية، وهي من الفارسية: جامة بمعنى اللباس والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة (التعريف بمصطلحات الصبح ص٥٩).

(٢) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ، وهو من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً، ذا عصبية ومروءة، (الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٠).

(٣) مضببة: أي ملبسة.

فُسْتُقي عشرة أجزاء. وختمة بخطِّ ابن البَوَّاب، مجلَّد واحد بقفل ذهب. وختمة بخطِّ مهلهل، جزء واحد، وختمة بخطِّ الحاكم البَغْدادي، ثلاثة أحجار بَلَخْش[١]؛ حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف. ست قصبات زمرُّد، قَصَبة وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث. وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس، مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً، خمسون قارورة دهن بَلَسان، عشرون قطعة بلَّور، أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم[٢]، طشت يشتم سقرق مينا[٣] مُذْهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج[٤]. أربعون قطعة عود طيب، قطعتان كبار، كُرَتان وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري والأخرى أحد وعشرون رطلاً. مائة ثوب أطلس. أربعة وعشرون بَقْياراً[٥] مذْهبة، أربعة وعشرون ثوباً حريري. أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض. حُلَّة فلفلي مُذْهبة. حُلَّة مرايش صفراء مُذْهبة. وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مئتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعِدَّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السِّلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها. وقيل: إنها وصلت جميعها إلى السُّلْطان، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من رَدَّها.

قال: وحدَّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يُعْلَم مقداره.

وقال العماد: ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفَّق خالد، أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطَّريف والتالد، وقال: هؤلاء

(١) تقدم التعريف بحجر البلخش.
(٢) تقدم التعريف باليشم.
(٣) مينا: الزجاج المنقوش.
(٤) سكارج: جمع سكرُجة، وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وكل ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها على المائدة حول الأطعمة للتشهي والهضم (الوسيط: ٤٣٩).
(٥) البقيار: فارسية، وهي العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والكتّاب والقضاة.

الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبازهم، وما يُضْبط مثل هذا الإقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدَّوْلة وعظماءها، وأنهم اعتادوا على السَّعَة والدَّعة نُهاءها، وقد تصرَّفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن يَنْقُصَ ارتفاعها؛ فالموارد مشفوهة، والشَّدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشَرَعَ في جمع مال يُسيِّره ويحمله، بجهدٍ يبذلُهُ، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خَلَده، وجاء مُطَرَّفُ غناه أضعافَ مُتَّلده.

فـصـل

في صَلْبِ عُمارة اليمني الشَّاعر وأصحابه[١]

قال العماد: واجتمع جماعة من دُعاة الدولة المصرية المتصعبة، المتشدِّدة المتصلِّبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخُفْية، واعتقدوا أمنيَّة، عادت بالعُقْبى عليهم منيَّة، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرَّأي والتَّدْبير، وبيَّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر[٢] عقيدهم، ودعا للدَّعوة قريبهم وبعيدهم.

وكانوا قد أودعوا سرَّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عِدَّة من أنصار الدولة النَّاصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم.

وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا[٣] يُناجيهم فيما زُيِّنَ لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدُّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وما سوَّلوه من مُرَاد مرادهم، وطلب ما لابن كامل الدَّاعي[٤] من العَقَار والدُّور، وكل ماله من الموجود والمذخور. فبذل له السُّلْطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغَّبه.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٣ ـ ٥٥: ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين.

(٢) عمارة اليمني: تقدّمت ترجمته.

(٣) هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ بمصر، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٥٩٩هـ.

(٤) ابن كامل الداعي: هو أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة، وقاضي القضاة لمن أرادوا الوثوب بصلاح الدين ستأتي ترجمته بعد قليل.

ثم أمر السُّلْطان بإحضار مقدَّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين، منهم عُمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم.

وكان منهم داعي الدُّعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بإبدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دُفِنَ دافنها، وخُزن تحت الثَّرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها، والاطلاع عليها. وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام.

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة اجتمع جماعةٌ من دُعاة المصريين والعوام، وتآمروا فيما بينهم خُفْيَةً، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذُّلِّ والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، وتجمعوا هم وجماعة عَيَّنوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، ويَثِبوا بالملك النَّاصر. وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وواعدوا جماعةً من شيعة المصريين ليلة عَيَّنوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرَّروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرَّر، فخانهم ابنُ مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكَفَّر عنها، وصار إلى الملك النَّاصر، وعرَّفه بجليَّة ما جرى.

فأحضرهم واحداً واحداً وقرَّرهم على هذه الحالة، فأقرُّوا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم. فأحضر السُّلْطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم.

وقيل: إن الذي أذاعَ سِرَّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع ما لابن الدَّاعي من العَقَّار والمال، فأعطاه جميع ذلك.

وكان الذين صلبوا منهم المُفَضَّل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الدَّاعي، والعوريس وكان قَد تولَّى النَّظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصَّمد القشة أحد أمراء المصريين، ونجاح الحَمَّامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتمّ بطريق علم النُّجوم، وعُمارة اليمني الشَّاعر.

قلت: وبلغني أن عُمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتمَّ هذا الأمر، لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في «الخريدة»[1]: ووقعت اتِّفاقات عجيبة من جملتها أنه نُسِبَ

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٤.

إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حَرَّض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن، أوَّلها: [البسيط]

العِلْم مذ كان محتاجٌ إلى العَلَم

وقد تقدم ذكرها، وأما البيت فهو: [البسيط]

قد كان أولُ هذا الدين من رَجُلٍ سعى إلى أنْ دَعُوه سيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرَّضوا السلطان على المُثْلَة بمثله.

قال: ولعُمارة في مصلوب بمصر يقال له طَرْخان، وكان خرج على الصَّالح بن رُزِّيك، فظفر به الصَّالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه، وهي: [الوافر]

أرادَ عُلُوَّ مَرْتَبَةٍ وقَدْر فَأَصْبَحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عالي
ومُدَّ على صَليبِ الجِذْعِ منه يمينٌ لا تطولُ علَى الشِّمالِ
ونكَّسَ رأسهُ لعتابِ قَلْبٍ دعاه إلى الغَوايةِ والضَّلالِ

قال العماد[1]: فكأنه وصف حاله، وما آل إليه أمره.

وقال في «البرق»: ووصلَ من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قُرَيش، يعني المرتضى.

وقال ابنُ أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شَرَحَ فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كُلِّه، بعد أن كانت لها مقدِّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجْح، وأوائل كالليلة البهيمة[2] إلا أنها انفرجت عن الصُّبْح، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجِرَانه[3] بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوَّله، وأظهر على سِرِّها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر:

لم يزل يُتوسم من جُنْد مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله من بِدْعتهم،

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) الليلة البهيمة: هي الليلة التي لا يطلع فيها القمر، والمظلمة الحالكة.

(٣) ضرب في البلاد بجرانه: أي ثبت واستقر.

ونقض من عُرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمةُ الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكَّلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنةٌ تمر، ولا شهر يكرّ، من مكرٍ يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدةٍ يتمِّمونها. وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسِّعون لهم فيها سُبُلَ المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم الفظائع، ويزيِّنون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها رِبْقة الإسلام خلع المرتدِّ المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حَبْلَ طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سَوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم. والتحيُّلَ في مفاوضتهم، سَيَّرَ جُرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارِضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قَطُّ أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القَصْرِ والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردَّد، وكتب إلى الفرنج تتجدَّد.

ثم قال: والمولى عالمٌ أنَّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذِّبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخَلَّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرِّقَّة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جُرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بَلِيَّة، لا حامل هديَّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقُّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصَّل مرَّة بالخروج ليلاً، ومرَّة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخُدَّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكُتَّابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مَنْ داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهرُ علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسَّرائر المنافقة، فكلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أُخَر كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلاً، حاصِلُه أنهم عيَّنوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم

من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحدٍ من ولدين له. وأما بنو رُزِّيك وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدَّم، والمملوك على الكَرَك والشَّوْبك بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صَدْر أو إلى أيْلَة ثارت حاشية القَصْر وكافة الجُنْد وطائفة السُّودان وجموع الأرمن وعامة الإِسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جُرج كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلَّاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بَعْضُهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلان مَنْ عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سِناناً[1] صاحب الحشيشيَّة بأن الدَّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترقُ به كلمة، ولا يجب به قعودٌ عن نُصْرة. واستدعوا منه من يُتمّم على الملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠] وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قَرْجَلَّة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج.

---

(١) هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد ابن البصري، المتوفى سنة ٥٨٨هـ، وقد قال عنه ابن جبير في رحلته، وقد مرّ بالقرب من ديار الإسماعيلية: قيض لهم شيطان من الإنسان يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلّهاً يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه... الخ (انظر الأعلام ٣/ ١٤١، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤، رحلة ابن جبير ص٢٤٢ ـ ٢٤٣، معجم البلدان ٤/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٧).
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨: ومن الإسماعيلية: المستعلوية الذين يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة بأعمال طرابلس من البلاد الشامية في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، انتهت رياستهم إليه. قال في مسالك الأبصار: وكان رجلاً صاحب سيميا، فأراهم بها ما أضل به عقولهم، من تخييل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم في جنات النعيم، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم في النار والجحيم، فثبت ذلك عندهم واعتقدوه حقاً، ومن قدح في ذلك فقد دخل في أهل الضلال، ويقدحون في ابن السلار، ويسفهون رأي صلاح الدين فيما كان منه من إزالة الخطبة للفاطميين وحط رايتهم الصفراء والخطبة لبني العباس ورفع رايتهم السوداء، وما كان منه من الفعلة التي استولى بها على قصر الفاطميين ومن فيه، وأخذ أموالهم بعد موت العاضد.

ولما صحَّ الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدبُ الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشَّرْع المطهَّر جماعةً من الغُواة الغُلاة، الدُّعاة إلى النَّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفُجَّار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجُذُوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبُّعُ لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافَّة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصَّعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وَجْهُ رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادَّة لا تنحسم الأطماعُ عنها، فإنه قِبْلة للضَّلال منصوبة، وبِيعَة للبدع محجوجة.

قال المؤلف: لعلَّها محجوبة.

ومما يطرفُ به المولى أن ثَغْرَ الإسكندرية على عموم مذهب السُّنَّة فيه، أَطْلَعَ البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره، محتقراً شَخْصُه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الدِّيار المصرية، قد فَشَتْ في الشَّام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جُزْءاً من كسبهم، والنُّسْوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له، والهَجْم عليه، كُتب مجرَّدة فيها خلع العِذَار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرُّ منه الجلود، وكان يدَّعي النَّسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً، ونشأ على الضَّلالة كبيراً، وبالجملة فقد كُفي الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قضية عُمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكِنْدي[1] رحمه الله، ونقلته من خَطِّه: [الطويل]

عُمارة في الإسلام أبدَى جناية وبايع فيها بِيعةً وصَليبا

---

(١) تاج الدين الكندي: هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي البغدادي، تاج الدين، أبو اليمن المقري النحوي، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦١٣هـ، من تصانيفه: «إتحاف الزائر وأطواق المقيم المسافر»، «حاشية على شرح ديوان المتنبي للوأواء الدمشقي»، «شرح خطب ابن نباتة»، «مشيخة على حروف المعجم»، «نتف اللحية من أبي دحية»، (كشف الظنون ٥/ ٣٧٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

وأمسَى شريك الشِّرْك في بُغْضِ أحمدٍ ... فأصبح في حُبِّ الصَّليبِ صَلِيبا
وكان خبيثَ الملتقى إنْ عَجَمْتَهُ ... تَجِدْ منه عوداً في النِّفاقِ صَليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ... ويُسْقى صَديداً في لظًى وصَلِيبا

قلت: الصليب الأول صليب النَّصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصَّلابة، والرابع وَدَكُ العظام، وقيل: هو الصَّديد، أي يُسْقى ما يسيلُ من أهل النَّار، نعوذ بالله منها.

وكان عُمارة مستشعراً من الغُزِّ وهم أيضاً منه، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها واختلَّ أمره بعدها، فلم تَصْفُ القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه، في نَظمه ونثره، ما يقتضي التحرُّز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلَّف ذلك وصرَّح، وعرَّض فيه بما في ضميره.

وقد قال في كتاب «الوزراء المصرية»: ذكر الله أيامهم بحمدٍ لا يَكِلُّ نشاطه، ولا يُطْوى بساطُه، فقد وجدتُ فَقْدَهم، وهُنْتُ بعدَهم.

وقال من قصيدة مَدَح بها نجم الدين أيوب: [البسيط]

وكان لي في ملوك النِّيل قبلَكُمُ ... مكانةٌ عرفتها العُرْبُ والعَجَمُ
وكان بيني وبين القَوْمِ مَلْحَمَةٌ ... في حربها أَلْسُن الأديان تَخْتَصِمُ
وما تزال إلى داري عوارفهم ... يسعى إليَّ بها الإنعامُ والكَرَمُ
تَرَكْتُ قَصْدَكَ لمّا قيل إنك لا ... تجودُ إلا على من مَسَّه العَدَمُ
ولستُ بالرَّجُلِ المجهولِ مَوْضِعُهُ ... ولا لِنَزْرٍ من الإحسانِ أغْتَنِمُ
ولا إلى صدقات المال أطلُبها ... ولا عمًى نال أعضائي ولا صَمَمُ
وإنما أنا ضيفٌ للملوك ولي ... دونَ الضيوفِ لسانٌ ناطِقٌ وفَمُ

وقال من قصيدةٍ مَدَح بها صلاح الدين رحمه الله تعالى: [الخفيف]

قَرَّرَتْ لي أبناءُ رُزِّيك رِزْقاً ... كان في عَصْرِهم مسنًّى مُهَنَّا
وأتَتْ بَعْدَهُمْ ملوكٌ فَسَنُّوا ... فيَّ ما كانَ صالحُ القَوْمِ سَنَّا
ورَعَوْني إما اقتداءً بماضٍ ... أو لمعنًى فكلُّهمْ بي يُعَنَّى

وله من أُخرى: [الطويل]

فقد صارت الدُّنيا إليكُمْ بأَسْرِها ... فلا تَشْبَعُوا منها ونحنُ جِياعُ
إذا لم تزيدونا فكونوا كمن مَضَى ... ففي النَّاس أخبارٌ لهم وسَمَاعُ

وليس على مُرِّ الفِطَامِ إقامةٌ ... فهل في ضُروع المكرمات رِضاعُ

وقال في قصيدةٍ مَدَح بها تقيَّ الدين: [الكامل]

هل تأذنونَ لمن أراد عِتابكم ... أم ليس في إعتابكم من مَطْمَعِ
ضيَّعْتُمُ من حَقِّ ضَيْفِكُمُ الذي ... ما زالَ قَبْلَ اليوم غيرَ مُضَيَّعِ
وتغافَلَ السُّلْطانُ عني حين لم ... أَكْشِفْ قِناعَ مَذَلَّةٍ وتَضَرُّعِ
وَرَجَوْتُ نَفْعَك بالشَّفاعةِ عندَه ... فَسَمَحْتَ لي بشفاعةٍ لم تَنْفَعِ
وإذا نطاقُ الرِّزْقِ ضاقَ مجالُه ... أمسى مجالُ النُّطْقِ غيرَ مُوَسَّعِ

وقال أيضاً: [الكامل]

تيمَّمْتُ مِصْراً أطلبُ الجاه والغِنى ... فَنِلْتُهُما في ظِلِّ عَيْشٍ مُمَنَّعِ
وَزُرْتُ ملوكَ النِّيلِ أرتادُ نَيْلَهُمْ ... فأحمدَ مُرْتادي وأخْصَبَ مَرْبَعي
وَفُزْتُ بألفٍ من عطيَّةِ فائزٍ ... مواهِبُه للصُّنْعِ لا للتَّصَنُّعِ
وكم طرقتني مِنْ يَدٍ عاضِدِيَّةٍ ... سَرَتْ بين يَقْظَى من عُيونٍ وهُجَّعِ
وجاد ابنُ رُزِّيكٍ من الجاه والغِنى ... بما زاد عن مَرْمى رجائي ومَطْمعي
وأوحى إلى سمعي ودائعَ شِعْره ... فَحَبَّرْتُهُ مني بأكرم مُودَعِ
وليست أيادي شاورٍ بذميمةٍ ... ولا عَهْدُها عندي بعهدٍ مُضَيَّعِ
ملوكٌ رَعَوْا لي حُرْمةً صار نَبْتُها ... هشيماً رَعَتْهُ النَّائباتُ وما رُعي
مذاهِبُهُمْ في الجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةٍ ... وإنْ خالفوني باعتقادِ التَّشيُّعِ
فَقُلْ لصلاح الدين والعَدْلُ شأنُهُ ... مَنِ الحَاكِمُ المصغي إليَّ فأدَّعي
أقمتُ لكم ضيفاً ثلاثة أشهرٍ ... أقول لصَدْرِي كلما ضاق وَسِّعِ
وكم في ضيوفِ البابِ ممَّن لسانُهُ ... إذا قطَّعوه لا يقومُ بأُصْبعي
فيا راعيَ الإسلام كيف تَرَكْتنا ... فريقَيْ ضَياعٍ من عَرَايا وجُوَّعِ
دَعَوْناك من قُرْبٍ وبُعْدٍ فَهَبْ لنا ... جَوابَكَ فالباري يُجيب إذا دُعي

وقال أيضاً: [الكامل]

أسفي على زَمَنِ الإمام العاضِدِ ... أَسَفُ العقيم على فِراقِ الواحدِ
جالستُ مِنْ وزرائِه وصَحِبْتُ مِنْ ... أُمرائه أهلَ الثناء الخالِدِ
لهفي على حُجُراتِ قَصْرِكَ إذْ خَلَتْ ... يا ابنَ النَّبيِّ من ازْدِحامِ الوافِدِ
وعلى انفرادك من عساكرِكَ الذي ... كانوا كأمواجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قَلَّدْتَ مُؤْتَمِنَ الخِلافةِ أَمْرَهُمْ ... فكبا وقَصَّرَ عن صَلاحِ الفاسِدِ

فَعَسى اللَّيالي أن تَرُدَّ إليكمُ ... ما عوَّدَتْكُمْ من جميلِ عَوائِدِ

وقال أيضاً: [الطويل]

قَسَتْ رأفَةُ الدُّنيا فلا الدَّهرُ عاطِفٌ ... عليَّ ولا عَبْدُ الرَّحيمِ رَحِيمُ

عفا الله عن آرائِهِ كلَّ فَتْرَةٍ ... كلامُ العِدَى فيها عليَّ كُلُومُ

وسامَحَهُ في قَطْعِ رِزْقٍ بِفَضْلِهِ ... وَصَلْتُ إليه والزَّمانُ ذَمِيمُ

ألا هَلْ لَهُ عَطْفٌ عليَّ فإنني ... فقيرٌ إلى ما اعتدتُ منه عَدِيمُ

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل[1] رحمه الله تعالى.

وبلغني أن عُمارة لما مَرُّوا به ليُصلب عُبِرَ به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به، فقيل: ليس إليه طريق. فقال: [مجزوء الكامل]

عَبْدُ الرَّحيمِ قَدِ احْتَجَبْ ... إنَّ الخَلاصَ هو العَجَبْ

وقال: وهذه القصيدة تحقِّق ما رمي به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض في فساد الدولة بل المِلَّة، وتوضح عُذْر السُّلْطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك: [البسيط]

رَمَيْتَ يا دَهرُ كَفَّ المَجْدِ بالشَّلَلِ ... وجِيدَه بعد حَلْي الحُسْنِ بالعَطَلِ

سَعَيْتَ في منهج الرأي العثور فإنْ ... قَدَرْتَ من عَثَراتِ البغي فاسْتَقِلِ

جَدَعْتَ مارِنَك الأقنى فأنفُكَ لا ... ينفكُّ ما بين نَقْصِ الشَّين والخَجَلِ[2]

هَدَمْتَ قاعِدَةَ المعروفِ عن عَجَلٍ ... سُقِيْتَ مُهْلاً أما تمشي على مَهَلِ[3]

لهفي ولهفُ بني الآمالِ قاطبةً ... على فجيعتنا في أكرم الدُّوَلِ

قَدِمْتُ مِصْرَ فأوْلتني خلائِفُها ... من المكارِمِ ما أرْبَى على الأمَلِ

قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الأُلوفِ ومِنْ ... كمالِها أنَّها جاءَتْ ولم أسَلِ

وكنتُ من وزراء الدَّسْتِ حيث سما ... رأسُ الحِصانِ بهاديه على الكَفَلِ

ونِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تَكْرِمَةً ... وخُلَّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخَلَلِ

يا عاذلي في هَوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لكَ المَلامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلِي

بالله زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابْكِ معي ... عليهما لا على صِفِّينَ والجملِ

---

(١) القاضي الفاضل: عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني، مجير الدين أبو علي العسقلاني، توفي بمصر سنة ٥٩٦هـ. تقدّمت ترجمته.

(٢) المارن: من الأنف، ما لان منه، جمع موارن.

(٣) المهل: القيح والصديد.

وقُلْ لأهلهما واللَّهِ ما التَحَمَتْ فيكم قُروحي ولا جُرْحي بمُنْدَمِلِ
ماذا ترى كانتِ الإفرنجُ فاعِلَةً في نَسْلِ آلِ أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما مُلِّكتمُ بين حُكْمِ السَّبْي والنَّفَلِ
وقد حَصَلْتُمْ عليها واسمُ جَدِّكُمُ محمدٍ وأبيكم غيرُ مُنْتَقِلِ
مَرَرْتُ بالقَصْرِ والأركانُ خاليةٌ من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ
فَمِلْتُ عنها بوجهي خَوْفَ مُنْتَقِدٍ من الأعادي وَوَجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ
أَسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غَدَاةَ خَلَتْ رحابُكُمْ وغَدَتْ مهجورَةَ السُّبُلِ
أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكُمْ حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ
دارُ الضِّيافَةِ كانت أُنْسَ وافِدكُمْ واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وفطرة الصَّومِ إن أصغت مكارِمُكم تشكو من الدَّهْرِ حيفاً غَير مُحْتَمَلِ
وكسوة النَّاس في الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ ورَثَّ منها جديدٌ عنهمُ وبلي
وموسم كان في كَسْرِ الخليج لكم يأتي تجمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ
وأوَّلُ العامِ والعيدانِ كان لكم فيهنَّ من وَبْلِ جودٍ ليس بالوَشَلِ[1]
والأرضُ تهتَزُّ في عيدِ الغدير لما يَهتَزُّ ما بينَ قصريكُم مِنَ الأَسَلِ
والخيلُ تعرض من وشيٍ ومن شِيَةٍ مِثْلَ العرائِسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ
ولا حملتم قِرَى الأضيافِ من سَعَة الـ أطباقِ إلا على الأعناق والعَجَلِ
وما خَصَصْتُم ببِرٍّ أهلَ مِلَّتِكُمْ حتى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَى من المِلَلِ
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ (م) ـيْفِ المقيم وللطَّاري من الرُّسُلِ
وللجوامع من أَحْباسِكُمْ نِعَمٌ لمن تصدَّر في عِلْمٍ وفي عَمَلِ
وربما عادَتِ الدُّنيا لِمَعْقِلِها منكم وأضْحَتْ بكم محلولةَ العُقُلِ

وقال العماد في «الخريدة»[2]: أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدُّعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلَّة العلياء، والمرتبة الشَّمَّاء، والمنزلة في السماء، حتى انكَدَرَتْ نجومُهم، وتَغَيَّرَتْ رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعُضِدَ عاضدهم، وأخليت منهم مِصْرهم، وأجلي عنهم قصرهم. فحرَّك ابنُ كامل ناقصَ الذَّبِّ عنهم، والشد منهم، فمالأ قوماً على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا به ما

(١) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر. . والوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

تخيَّلُوه من المقاصد، وسوَّلُوه من المكايد، فأثمرت بجثثهم الجذُوع، وأقْفَرَتْ من جسومهم الرُّبوع، وأُحكمت في لحومهم النُّسوع[١]، وهذا أول من ضَمَّه حبل الصلب، وأمه فاقرة[٢] الصُّلْب. وهذا صنع الله فيمن ألحد، وكفر النعمة وجحد، وذلك غُرَّة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة. سمعتُ الملك النَّاصر صلاح الدين يذكره، وقد ذكروه عنده بالفَضْلِ والأدب، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء، وأنشدهما الملك الناصر، وذكر أنه كان ينكرهما[٣]: [مخلع البسيط]

يــا رافــيــاً خَــرْقَ كــلِّ ثَــوْبٍ ويَــا رَشــاً حُــبُّــه اعــتــقــادي
عــســى بِــكَــفِّ الــوِصــالِ تَــرْفُــو مــا مَــزَّق الــهَــجْــرُ مــن فــؤادي

فــصــل

في التعريف بحال عُمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردتُ شعر عمارة بن أبي الحسن اليمني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر»، ونقلتُ إلى هذا الكتاب ـ يعني كتاب «البَرْق الشَّامي» ـ لمعاً من ذلك. فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمدٍ بن مَصَال[٤]: [الكامل]

لــو أنَّ قــلــبــي يــوم كــاظــمــةٍ مــعــي لــمــلــكــتُــه وكَــظَــمْــتُ غــيــظَ الأَدْمُــع

ـ قال العماد: إنما أنشدني فيضَ الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم ـ:

قَــلْــبٌ كَــفَــاك مــن الــصَّــبــابَــةِ أَنّــه لــبَّــى نــداءَ الــظَّــاعــنــيــن ومــا دُعــي
ومِــنَ الــظُّــنــون الــفــاسِــدَاتِ تَــوَهُّــمــي بــعــدَ الــيــقــيــنِ بــقــاءَه فــي أَضْــلُــعــي
مــا الــقَــلْــبُ أَوَّلَ غــادِرٍ فــأَلــومَــه هــي شِــيــمَــةُ الأيــامِ مُــذْ خُــلِــقَــتْ مــعــي

قال: وأنشدني لعمارة أيضاً[٥]: [الكامل]

مَــلِــكٌ إذا قــابَــلْــتُ بِــشْــرَ جَــبِــيــنِــهِ فــارَقْــتــهُ والــبِــشْــرُ فــوقَ جــبــيــنــي

---

(١) النسوع: جمع نسع، والنسع هو سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال، ويجعل زماماً للبعير وغيره.
(٢) الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار.
(٣) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧.
(٤) هو نجم الدين بن مصال: ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ. والأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٦.
(٥) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٦.

وإذا لَثَمْتُ يمينَهُ وخَرَجْتُ من أبوابه لَثَمَ الملوكُ يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مُرْهَف بن أسامة بن منقذ[1]: [البسيط]

لي في هوى[2] الرَّشأ العُذْرِيِّ أَعْذَارُ لم يَبْقَ لي مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إنكارُ
لي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخدودِ وفي ضَمِّ النُّهودِ لُباناتٌ وأَوْطَارُ
هذا اختياري فَوافِقْ إنْ رَضِيتَ به أوْلا فَدَعْني وما أَهْوَى وأَخْتارُ
لُمْني جِزَافاً وسامحني مُصارفةً فالنَّاسُ في دَرَجات الحبِّ أَطْوارُ
وخلِّ عَذْلي ففي داري ودائرتي من المَهَا دُرَّةٌ قلبي لها دارُ[3]

قلت: ويُروى: [البسيط]

وغُرَّ غيري ففي أسري ودائرتي

والأبيات العينية من قصيدةٍ في مَدْح تقيِّ الدين، والنُّونيَّة في مدح نجم الدين أيوب، والرائيَّة في مدح شمس الدولة بن أيوب.

وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً، وله كتابٌ صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن. ثم بمصر[4]، فذكر أنه أقام بزَبيد ثلاث سنين يُقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه. قال: ولي في الفرائض مصنَّف يُقْرأ باليمن.

وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من إخوتي إلى زَبيد، فأنشدته شيئاً من شعري، فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب نعمة من نِعَم الله عليك فلا تكفُرها بذمِّ الناس. واستحلفني ألَّا أهجو مسلماً ببيت شعر، فحلفت له على ذلك، ولطف الله تعالى بي فلم أهجُ أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ـ يعني ابن رُزِّيك ـ ببيتي شعر، فأقسَم الصَّالح عليَّ أن أجيبه، ففعلت متأوِّلاً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. قال: ولم يكن شيء غير هذا.

وحججتُ مع الملكة أم فاتك ملك زَبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع

---

(١) توفي في ثاني صفر سنة ٦١٣هـ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

(٢) في «خريدة القصر»: «ما عن هوى» بدل: «لي في هوى».

(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٤) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية».

ما يتناوله من حاجّ اليمن براً وبحراً، وبجميع خفارات الطَّريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها، فانتفع بها حتى أثرى وكَثُر ماله وجاهه. ثم طرأت أمورٌ اقتضت أنْ هرب من اليمن، وحجَّ سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة.

قال: وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[1]، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم[2]، فألزمني السَّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المِصْرية، فَقَدِمْتُها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظَّافر، والوزير له الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك، فلما حضرتُ للسَّلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما[3]: [البسيط]

الحَمْدُ للعيسِ بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ ... حمداً يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ
لا أجْحَدُ الحقَّ عندي للركاب يَدٌ ... تمنَّتِ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمَ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزارِ العِزِّ من نَظري ... حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمَ
ورُحْنَ من كعبة البَطْحاء والحَرَمِ ... وفداً إلى كعبة المعروفِ والكَرَمِ
فهل دَرَى البَيْتُ أني بعد زَوْرَتِهِ ... ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرَادِقُها ... بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مُقَدَّسَةٌ ... تجلُو البغيضينِ من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ
وللنُّبوَّةِ آياتٌ تنصُّ لنا ... على الخفيَّين من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارم أعلامٌ تعلِّمنا ... مَدْحَ الجزيلين من بَأْسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلا أَلْسُنٌ تُثْني محامِدُها ... على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ
ورايةُ الشَّرَفِ البذَّاخِ تَرْفَعُها ... يَدُ الرفيعين من مَجْدٍ ومن هِمَمِ
أقسمْتُ بالفائزِ المعصوم معتقداً ... فَوْزَ النَّجاةِ وأَجْرَ البِرِّ في القَسَمِ
لقد حمى الدِّينَ والدنيا وأَهلَهما ... وزيرُه الصَّالحُ الفرَّاجُ للغُمَمِ
اللَّابِسُ الفَخْرَ لم تَنْسُجْ غلائِلَه ... إلا يَدُ الصنعتين السَّيْفِ والقَلَمِ

---

(١) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٤، في حوادث سنة ٥٣٩هـ. وقال: وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني أمير مكة، والأمير نظر الخادم، أمير الحاج، فنهب أصحاب هاشم الحجاج، وهم في المسجد يطوفون، ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلّاً ولا ذمة.

وقد ولي هاشم إمارة مكة بعد أبيه سنة ٥٢٧هـ.

(٢) قتل سنة ٥٥٦هـ. انظر العقد الثمين ٧/ ٣٢ ـ ٣٦.

(٣) انظر الأبيات في وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١١٢ ـ ١١٤.

وُجُودُهُ أوجد الأيام ما اقترحَتْ وَجُودُه أعدَم الشَّاكين للعَدَمِ
قد ملَّكته العَوَالي رقَّ مملكةٍ تعيرُ أنفَ الثُّريا عزَّةَ الشَّمَمِ
أرى مقاماً عظيمَ الشَّأنِ أوْهَمَني في يقظتي أنها من جُمْلةِ الحُلُمِ
يومٌ من العُمْرِ لم يَخْطُرْ على أَمَلٍ ولا تَرَقَّت إليه رَغْبَةُ الهِمَمِ
لَيتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فأَنظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فما أَرْضَى لكم كَلِمي
ترى الوزارة فيه وهي باذِلَةٌ عِنْدَ الخِلافةِ نُصْحاً غيرَ مُتَّهَمِ
عواطِفُ أعلمتنا أنَّ بينهما قرابةٌ من جميلِ الرَّأي لا الرَّحِمِ
خليفةٌ ووزيرٌ مَدَّ عَدْلُهما ظلّاً على مَفْرِقِ الإسلامِ والأُمَمِ
زيادةُ النِّيلِ نَقْصٌ عند فَيْضِهِما فما عسى نَتَعاطى مِنَّةَ الدِّيَمِ

قال: وعهدي بالصَّالح وهو يستعيدها في حال النشيد مراراً، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب. ثم أُفيضت عليَّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذْهَبة، ودفع إليَّ الصَّالح خمسمائة دينار، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينارٍ أخرى، وحُمل المال معي إلى منزلي، وأُطلقت لي من دار الضيافة رسومٌ لم تُطْلق لأحدٍ قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصَّالح للمجالسة، ونظمني في سِلْك أهل المؤانسة، وانثالت علي صِلاتُه، وغمرني بِرُّهُ.

وَوَجَدْتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب(١)، والموفق أبا الحجَّاج يوسف بن الخلَّال(٢) صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس(٣)، والمهذَّب أبا محمد الحسن بن الزّبير(٤)، وغيرهم، وما من هذه الحَلْبة أحدٌ إلا ويَضْرِبُ في الفضائل النفسانية والرِّياسة

(١) في وفيات الأعيان ٧/ ٢٢٣: الجليس بن الجبّاب، بالجيم المعجمة، والباء المشددة، وكذلك في فوات الوفيات ٢/ ٣٣٢، وهو الأصح.
(٢) توفي في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(٣) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، القاضي الكاتب المصري، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أصله من دمياط، توفي سنة ٥٥١هـ (فوات الوفيات ٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٤) هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني، المصري، المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سِلْكِ فرائدهم، وقلتُ: [الطويل]

لياليَ بالفُسْطاط من شاطئَيْ مِصْرِ سقى عَهْدَكَ الماضي عِهادٌ من القَطْرِ[1]
ليالٍ هي العُمْرُ السَّعيدُ وكلُّ ما مضى في سِواها لا يُعَدُّ من العُمْرِ
أفادتنيَ الأقْدار فيها مَواليـاً صَفَتْ بهمُ الأيامُ من كَدَرِ الغَدْرِ
تواصَوْا على ألا تُرَدَّ إرادتي ولو سُمْتُهُمْ نَثْرَ الكواكبِ في حِجْري

وله في الصَّالح بن رُزِّيك من قصيدة: [الطويل]

ولو لم يكن أدرى بما جَهِلَ الورى من الفَضْلِ لم تَنْفُقْ لديه الفَضَائِلُ
لئن كان منا قابَ قَوْسٍ فبيننا فراسخُ من إجلاله ومَرَاحِلُ

قال: وأنشدتُ الصَّالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدةٍ، منها[2]: [الطويل]

دعُوا كلَّ بَرْقٍ شِمْتُمُ غَيْرَ بارِقٍ يلوحُ على الفُسْطاط صادِقُ بِشْرِهِ
وزوروا المقامَ الصَّالحيَّ فكلُّ من على الأرض يُنْسى ذِكْرُه عند ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مَقْصُودَكُمْ طَلَبَ الغِنى فَتَجْنُوا على مَجْدِ المقام وفخْرِهِ
ولكن سَلُوا منه العُلا تَظْفروا بها فكلُّ امرئٍ يُرْجى على قَدْرِ قَدْرِهِ

قال: ولما جلس شاور في دار الذَّهب قام الشُّعراء والخُطبَاء ولفيفُ الناس إلا الأقل ينالون من بني رُزِّيك وضِرْغام نائب الباب، ويحيى بن الخيَّاط الأسفهسلار، فأنشدته: [البسيط]

صَحَّتْ بدَوْلتك الأيامُ من سَقَمِ وزال ما يشتكيه الدَّهرُ من أَلَمِ
زالت ليالي بني رُزِّيك وانْصَرَمَتْ والحمدُ والذمُّ فيها غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كأنَّ صالحهم يوماً وعادِلَهم في صَدْرِ ذا الدَّسْتِ لم يَقْعُدْ ولم يَقُمِ
كنَّا نَظُنُّ وبعضُ الظَّنِّ مأثمةٌ بأنَّ ذلك جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
فمذْ وَقَعْتَ وقوعَ النَّسْرِ خانَهُمُ مَنْ كان مجتمعاً من ذلك الرَّخَمِ
ولم يكونوا عدوّاً ذلَّ جانِبُهُ وإنما غَرِقُوا في سَيْلك العَرِمِ
وما قَصَدْتُ بتعظيمي عِدَاكَ سوى تعظيم شأنِك فاعْذُرْني ولا تَلُمِ
ولو شكرتُ لياليهم محافظةً لعهدها لم يكنْ بالعَهْدِ من قِدَمِ

(١) العهاد: جمع العهد، وهو أول المطر، وقيل: هو كل مطر بعد مطر.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١١٤ ـ ١١٥.

ولو فَتَحْتُ فمي يوماً بذمِّهمُ ... لم يَرْضَ فَضْلُك إلا أن يُسَدَّ فمي
والله يأمر بالإحسانِ عارِفَةً ... منه وينهى عن الفَحْشاء في الكَلِمِ

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رُزِّيك.

قلت: وشعر عُمارة كثيرٌ حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس ـ وإن كانت القصيدة فائقة ـ نُفْرَةٌ عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يُفْعَلَ ذلك مع غير الله تعالى عزَّ وجلَّ، فله الحمد وله الشُّكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الرُّبوبيَّة المقدَّسة، على ذلك اطَّرد استعمال السَّلَف والخلف، رضي الله عنهم.

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله [(١)]

قال العماد[(٢)]: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أياماً.

قال: ونظمتُ للهناء بالعيد والطُّهْر قصيدةً، منها: [المجتث]

عيدانِ: فِطْرٌ وطُهْرٌ ... فَتْحٌ قريبٌ ونَصْرُ
كلاهما لك فيه ... حقّاً هناءٌ وأجْرُ
وفيهما بالتَّهاني ... رَسْمٌ لنا مُسْتَمِرُّ
طَهَارةٌ طابَ منها ... أَصْلٌ وفَرْعٌ وذِكْرُ
نَجْلٌ على الطُّهْرِ نام ... زكا له منك نَجْرُ
محمودُ المَلِكُ العا ... دِلُ الكريمُ الأَغَرُّ
وبابنه الملك الصَّا ... لِحِ العيونُ تَقِرُّ
مولًى بهِ اشتدَّ للدِّيـ ... ـنِ والشَّريعةِ أَزْرُ
نورٌ تجلَّى عِياناً ... ما دونَهُ اليومَ سِتْرُ
أَضْحَتْ مساعيكَ غُرّاً ... كما أياديك غُزْرُ
وكلُّ قَصْدِكَ رُشْدٌ ... وكلُّ فِعْلِكَ بِرُّ
وإنَّ حُبَّكَ دِينٌ ... وإنَّ بُغْضَكَ كُفْرُ

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٥ ـ ٥٨.

(٢) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٥ ـ ٦٦.

لنا بيمناكَ يُمْنٌ ... كما بِيُسْراكَ يُسْرُ

وللموالينَ نَفْعٌ ... وللمُعادينَ ضَرُّ

وللسَّماء سَحابٌ ... وسُحْبُ كَفَّيْكَ عَشْرُ

ناديكَ بالرِّفْدِ رَحْبٌ ... نَدَاكَ للوَفْدِ بَحْرُ

للبحر مَدٌّ وجَزْر ... وما لجُودِكَ جَزْرُ

عَدْلٌ عميمٌ وَجُودٌ ... غَمْرٌ ويُسْرٌ وبِشْرُ

وفي العَطِيَّةِ حُلْوٌ ... وفي الحَمِيَّةِ مُرُّ

قد استوى منك تقوى الـ ... إلهِ سِرٌّ وجَهْرُ

تُقاك والمُلْكُ عند الـ ... قياسِ عِقْدٌ ونَحْرُ

يا أَعْظَمَ النَّاسِ قَدْراً ... وهل لغيرِكَ قَدْرُ!

وساهراً حين ناموا ... وقائماً حين قَرُّوا

ما اعْتَدْتَ إلّا وفاءً ... وعادَةُ القَوْمِ غَدْرُ

وفِعْلُكَ الدَّهْرَ غَزْوٌ ... للمشركينَ وقَهْرُ

وفِعْلُ غيرِك ظُلْمٌ ... للمسلمينَ وقَسْرُ

يفترُّ من كلِّ ثغرٍ ... إلى ابتسامِكَ ثَغْرُ

رومٌ به وفرنجٌ ... في شَفْعِهِمْ لك وِتْرُ

حَزْبٌ عَوَانٌ وفتحٌ ... على مُرَادِك بِكْرُ

بنو الأصافرِ مِنْ خشـ ... ـيَةِ انتقامك صُفْرُ

لم يَبْقَ للكُفْرِ ظُفْرٌ ... لا كان للكُفْرِ ظُفْرُ

وما دَجا ليلُ خَطْبٍ ... إلّا وعَزْمُك فَجْرُ

أَصْبَحْتَ بالغَزْوِ صَبّاً ... وعنه ما لَكَ صَبْرُ

لكسرِ كلِّ يتيمٍ ... إسعافُ بِرِّك جَبْرُ

في كلِّ قَلْبِ حسودٍ ... من حَرِّ بأسك جَمْرُ

تملَّ تطهيرَ مُلْكٍ ... له الملوكُ تَخِرُّ

يُزْهى سريرٌ وتاجٌ ... به وَدَسْتٌ وصَدْرُ

وكيف يُعْمَلُ للطّا ... هرِ المُطَهَّرِ طُهْرُ

هذا الطُّهورُ ظُهورٌ ... على الزَّمانِ وأَمْرُ

وذا الخِتانُ خِتامٌ ... بِمِسْكِهِ طابَ نَشْرُ

رُزِقْتَ عُمْراً طويلاً ... ما طالَ للدَّهرِ عُمْرُ

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرَّسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإِسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد. ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطَب له القاضي شمس الدين ابن الفَرَّاش[1] قاضي العسكر، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد إلى القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِمَاطه العام على رَسْمِ الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خِوَانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بِشْرَه، وأضْوَعَ نَشْرَه، وأضحك سِنَّه، وأبرك يُمْنَه.

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب، وكأن الفَلَك بنيِّره جار، والطود الثابت يمرّ مرَّ السَّحاب في وقار. وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائرٌ بين سَيَّارته، ودخل الميدان والعظماء يُسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوَّل دولته والي حلب، وقد جرَّب الدهر بحنكته ولأَشْطُرِه حَلَب، فقال لنور الدين في كلامه، عظةً لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة، مع خواصِّه البَرَرة، فاعترضه في حاله أمير آخُر اسمه يَرَنْقُش وقال له: باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخُلُقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل. فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والنَّاس من الختان، لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجودُ بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلَّا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصَّلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع

(١) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر، توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ. (سترد ترجمته في وفيات سنة ٥٨٨هـ، في الجزء الرابع).

البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصَّالحين، وصار إلى جنَّات عدنٍ أُعدَّت للمتقين.

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشَّمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُّفَّة بيتاً من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته ولا يبرح. فدُفن في ذلك البيت الذي اتخذه حِمًى من الحِمام، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام.

قال العماد: وقلتُ في ذلك: [المتقارب]

عَجِبْتُ من الموتِ كيف اهْتَدى   إلى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ

وكيف ثَوَى الفَلَكُ المستديـ   ـرُ في الأرضِ والأَرْضُ وَسْطَ الفَلَكْ

وله فيه رحمهما الله تعالى: [السريع]

يا مَلِكاً أَيَّامُه لم تَزَلْ   لِفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخِرَهْ

غاضَتْ بحارُ الجُودِ مُذْ غُيِّبَتْ   أَنْمُلُكَ الفائِضَةُ الزَّاخِرَهْ

مَلَكْتَ دُنياك وخلَّفتها   وسرتَ حتى تملكَ الآخِرَهْ

قال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عَجَزَ الأطباء عن علاجها. ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالدِّيار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشقَّ عصاه، ونلقى عسكره بمصافٍّ يرده، إذا تحقق قصده. قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النِّزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

قال ابن الأثير[1]: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً عن غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى المَوْصِل وديار الجزيرة وديار بكر، يطلب العساكر ليتركها بالشَّام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانعُ لصلاح الدين من الغزو الخوفَ من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدَّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه، فتجهز للمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يُرَدُّ.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٦.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدِّين من بعده لقرَّتْ عَيْنُه، فإنه بَنَى على ما أسَّسه نور الدِّين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى.

قال[1]: وحكى لي طبيب بدمشق، يُعرف بالرَّحْبي[2]، وهو من حُذَّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدِّين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صَغير بقلعَة دمشق، وقد تمكَّنت الخوانيق منه وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسْمَعُ صوتُه، وكان يخلو فيه للتعبُّد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلتُ له: كان ينبغي أن لا يؤخِّر إحضارنا إلى أن يشتدَّ بك المرض إلى هذا الحد، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدَّواء، وعَظُمَ الدَّاء، ومات عن قريبٍ، رضي الله عنه.

قال ابن الأثير[3]: وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلّا في حنكه، وكان واسعَ الجبهة، حسن الصُّورة، حلو العينين. وكان قد اتَّسع ملكه جداً، فملك المَوْصِل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشَّام والدِّيار المِصْرية واليمن، وخُطِبَ له بالحَرَمين الشَّريفين: مكة والمدينة، وطبَّق الأرضَ ذِكْرُه بحسن سيرته وعَدْله. ولم يكن مثله إلا الشَّاذ النادر. رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم، بعدما ذكر أوصاف نور الدِّين الجليلة المتقدِّمة مفرَّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرَّصين، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين، والتَّشَبُّه بالعلماء والصَّالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حُسْن سمتهم، والاتِّباع لهم في حفظ حالهم

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٦.

(٢) الرحبي: هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، كان كبير النفس عالي الهمة شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، أصل والده من بلد الرحبة على الفرات، وولد هو في جزيرة ابن عمر سنة ٥٣٤هـ، وقدم دمشق مع والده، وكان طبيباً أيضاً، سنة ٥٥٥هـ، وأقام فيها حتى وفاته سنة ٦٣١هـ، ودفن بجبل قاسيون.
والرحبي أيضاً ابنه علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، شرف الدين، أبو الحسن الطبيب، نزيل دمشق، ولد سنة ٥٨٣هـ، وتوفي سنة ٦٦٧هـ، له من الكتب: «حاشية على القانون لابن سينا»، «حواشي على مسائل حنين بن إسحاق»، «خلق الإنسان وهيئته وأعضاؤه ومنفعتها»، «الواضح»، «قانون في الطب» (انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٧٢ ـ ٦٧٥، ٦٨٢، معجم البلدان ٣/ ٣٤، كشف الظنون ٥/ ٧١١).

(٣) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٦.

ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سَمِعَه وجَمَعه، حرصاً منه على الخير في نشر السُّنَّة بالأداء والتحديث، ورجاءَ أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث[1]. فمن رآه شاهَدَ من جلال السَّلْطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصَّالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنّه فيهم. وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزَوَّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرَّرَتْ الشكاية إليه من أحدٍ من ولاته، أمره بالكفِّ عن أذى من تظلَّم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العَدْل، قابله بإسقاط المنزلة والعَزْل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيَسَّر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسَهَّل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكَّن له في البُلْدان والبقاع.

ثم قال بعد كلامٍ كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعةٌ من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصَّروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادةً في تواضعه لعلوِّ القدر.

ومولِدُهُ على ما ذكر لي كاتبه أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[2]، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوَّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسعٍ وستين وخمسمائة، ودُفن بقلعة دمشق،

---

(١) لفظ الحديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً» أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٣، وابن حجر في تلخيص الحبير ٣/ ٩٣، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٩٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٥٨، وابن حجر في المطالب العالية ٣٠٧٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٨١٧، ٢٩١٨٢، ٢٩١٨٣، ٢٩١٨٤، ٢٩١٨٥، ٢٩١٨٦، ٢٩١٨٧، ٢٩١٨٨، ٢٩١٨٩، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/ ٣٢٢، والشجري في الأمالي ١/ ٥٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٨٩، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٤١، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٩٠، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٣، ٢/ ٣٤٠، ٣٤١. وروي الحديث أيضاً بلفظ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي» أخرجه بهذا اللفظ ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١٤.

وروي الحديث أيضاً بلفظ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينفعهم الله بها قيل له ادخل من أي أبواب الجنة» أخرجه بهذا اللفظ السيوطي في الدر المنثور وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١٢.

(٢) ولد في شيزر سنة ٤٩٦هـ، وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، وتوفي بدمشق سنة ٥٨١هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخَوَّاصين في الشَّارع الغربي رحمه الله تعالى:

قلت: وفي هذه المدرسة يقول العَرْقَلَة[1]: [الوافر]

ومدرسة سَيَدْرُسُ كُلُّ شيء ... وتبقى في حِمَى عِلْمٍ ونُسْكِ

تَضَوَّع ذِكْرُها شَرْقاً وغَرْباً ... بنور الدِّين محمود بن زَنْكي

يقول وقولُهُ حقٌّ وصِدْقٌ ... بغير كنايةٍ وبغير شَكُّ

دمشقٌ في المدائن بيت مُلكي ... وهذي في المدارسِ بيت مِلكي

ولما اشتهر به من قِلَّة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء[2]، قال يحيى بن محمد الوَهْرَاني[3] في مقامةٍ له، وقد سُئِلَ في بغداد عن نور الدين: هو سَهْمٌ للدَّوْلة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تُساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك، غير أنه عُرف بالمرعى الوبيل، لابن السَّبيل، وبالمحل الجديب، للشَّاعر الأديب، فما يُرَزَّى ولا يعزَّى، ولا لشاعرٍ عنده من نعمةٍ تجزى.

وإيَّاه عنى أسامة بن منقذ بقوله[4]: [البسيط]

سُلْطانُنا زاهِدٌ والنَّاس قد زَهِدُوا ... له فَكُلٌّ على الخَيْراتِ مُنْكَمِشُ

أيَّامُه مثل شَهْرِ الصَّوْمِ طاهرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

قلت: رحمه الله، ما كان يبذل أموال المسلمين إلَّا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن مُحَيْرِيز[5]، وهو من سادات

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٧٠، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/٢١٨.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له: خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم، وهو من خلفاء الدولة المروانية، ولد ونشأ بالمدينة عام ٦١هـ، استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩هـ، توفي سنة ١٠١هـ، (انظر: فوات الوفيات ٢/١٠٥، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣).

(٣) يحيى بن محمد الوهراني: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، ولعله: محمد بن محرز بن محمد الوهراني، ركن الدين أبو عبد الله القيرواني، قدم دمشق أيام نور الدين، وأقام فيها حتى توفي سنة ٥٧٥ من تصانيفه: «رسائل»، «مقامات» (كشف الظنون ٦/٩٨، وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩).

(٤) البيتان في ديوان أسامة بن منقذ ص ١٥٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/٥١٦.

(٥) عبد الله بن محيريز القرشي، كان يتيماً في حجر أبي محذورة، يروي عن أبي سعيد =

التابعين بالشَّام، قال يعقوب بن سفيان الحافظ[١]: حدَّثنا ضَمْرَة[٢] عن الشَّيْبَاني[٣]، قال: كان ابن الدَّيْلمي[٤] من أنصر النَّاس لإخوانه، فذُكِرَ ابن مُحَيْرِيز في مجلسه، فقال رجلٌ: كان بخيلاً. فغضب ابن الدَّيْلَمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبُّون.

وأما شعر ابن مُنْقِذ فلا اعتبار به، فهو القائل في ليلة الميلاد يمدَحُ نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

فـي كـلِّ عـام لـلـبـريَّـةِ لَـيْـلَـةٌ ... فـيـهـا تَـشُـبُّ الـنـارُ بـالإيـقـادِ
لـكـنْ لـنـور الـدِّيـن مـن دونِ الـوَرَى ... نـاراِنِ نـارُ قِـرًى ونـارُ جِـهَـادِ
أبـداً يـصـرِّفُـهـا نَـدَاه وبَـأْسُـهُ ... فـالـعـامُ أَجْـمَـعُ لـيـلـة الـمـيـلاد
مَـلِـكٌ لـه فـي كـلِّ جِـيـدٍ مِـنَّـةٌ ... أبـهـى مِـنَ الأَطْـواقِ فـي الأَجْـيـادِ
أعلى الـمـلـوك يـداً وأمنعهُم حِمًى ... وأمـدُّهـم كَـفّـاً بِـبَـذْلِ تِـلادِ
يُعطي الجزيلَ من النَّوال تبرُّعاً ... مـن غـيـرِ مـسـألـةٍ ولا مـيـعـاد
لا زال فـي سَـعْـدٍ ومُـلْـكٍ دائـمٍ ... مـا دامَـتِ الـدُّنـيـا بـغـيـر نَـفَـادِ

وقد تقدَّم في شعر ابن منير وابن القَيسَراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكَرَم والجود ما قليلٌ منه يَرُدُّ قَوْلَ الوَهْراني وابن منقذ. على أنَّ ابن

= الخدري، وأبي محذورة. سكن فلسطين، وكان من العباد، وكان يشبه بعبد الله بن عمر، روى عنه الزهري ومكحول وابنه عبد الرحمن، مات في ولاية الوليد بن عبد الملك (كتاب الثقات ٥/ ٦، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

(١) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي، أبو يوسف، من أهل فسا، يروي عن عبيد الله بن موسى، روى عنه أهل بلده، مات سنة ثمانين أو إحدى وثمانين ومائتين، وكان مما جمع وصنف، وأكثر مع الورع والنسك والصلابة في السنة (كتاب الثقات ٩/ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٨٠ ـ ١٨٤).

(٢) هو ضمرة بن ربيعة، مولى آل عتبة بن ربيعة، كنيته أبو عبد الله، من أهل الرملة، يروي عن يحيى بن أبي عمرو السيباني وابن شوذب وسفيان الثوري، روى عنه الحسن بن رافع وهارون بن معروف، مات في شهر رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة (كتاب الثقات ٨/ ٣٢٥).

(٣) الشيباني: كذا في الأصل، وهو السيباني، بالسين المهملة، يحيى بن أبي عمرو السيباني، من أهل الرملة، يروي عن عبد الله بن الديلمي وابن محيريز، وروى عنه الأوزاعي، وابن المبارك، مات سنة ثمان وأربعين ومائة، وهو ابن خمس وثمانين سنة، وسيبان، بطن من حمير (كتاب الثقات ٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٠، الأنساب ٧/ ٢١٥).

(٤) ابن الديلمي: هو عبد الله بن فيروز، الديلمي، أبو بشر، يروي عن أبيه، روى عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني، كان يسكن بيت المقدس (كتاب الثقات ٥/ ٢٣، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

منقذ قد رَدَدْنا شعره بشعره كما تراه، وإنَّما الشعراء وأكثر النّاس كما قال الله تعالى في وصف قوم ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] وما كلّ وقتٍ ينفق العطاء، ويفعلُ الله ما يشاء.

فصل

[ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين]

قال ابن الأثير[١]: لما توفي نور الدين جلس ابنُه الملك الصَّالح إسماعيل في الملك، وحُلِف له ولم يبلغ الحُلم، وحلَفَ له الأمراء والمقدَّمُون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه النَّاس في سائر بلاد الشَّام، وصلاحُ الدين بمصر، وخَطَبَ له بها، وضرب السِّكَّة باسمه فيها. وتولَّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدَّم[٢].

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصَّالح إسماعيل، وقد أبدى الحُزْن والعويل، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجَيْب، حاسِرٌ حافٍ مما فجأه وفَجَعه من الرَّيْب، وأجلسوه في الإيوان الشَّمالي من الدَّسْت والتَّخْت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوحى كلُّ قَلْبٍ حزنه واستوحش، فوقف النَّاس يضطرمون ويضطربون، ويتلهفون ويتلهبون، ولما كُفِّنَ بحُلَّة الكرامة، ودُفن في روضةٍ بابها إلى باب رضوان من دار المقامة، وقضوا الجزع، وقوَّضوا الفَزَع، وغَيَّبوا الدمعة، وأحضروا الرَّبعة، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدَّم، وجمال الدولة ريحان ـ وهو أكبر الخَدَم ـ والعَدْل أبو صالح بن العَجَمي[٣] أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقدة، وأن ابن المقدَّم مقدَّم العسكر، وإليه المرجع في المورد والمصدر.

قال: وأنشأتُ في ذلك اليوم كتاباً عن الملك الصَّالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، ترجَمتُه إسماعيل بن محمود، وفيه:

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٨.

(٢) في «الكامل»: وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم.

(٣) هو شهاب الدين، أبو صالح، عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي. انظر ترجمته في: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٢، مرآة الزمان ٨/ ٢٢٢.

أطال الله بقاء سيدنا الملك النَّاصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، نَدَبَ الشَّامُ، بل الإِسلام، حافظَ ثغوره، وملاحظ أموره، وعَدِم الجهادُ مقتني فضيلته، ومؤدِّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزُّ أن يرى الزَّمان نظيره، وما ههنا ما يُشْغِل السِّرَّ، ويَقْسِمُ الفِكْر إلّا أمرُ الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلّا لمثل هذا الحادث الجَلَل، والصَّرْف الكارث المذهل، فقد ادَّخره لكفايات النَّوائب، وأعدَّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمَّله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكَّنه قوةً لعضُده. فما فُقِدَ رحمه الله تعالى إلّا صُورةً والمعنى باق، والله تعالى حافظٌ لبيته واق، وهل غيره ـ دام سُمُوُّه ـ من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل النَّاصر من ناصر. وقد عَرَّفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ما جَمَحَ، والأهم شغل الكُفَّار، عن هذه الدِّيار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البِدَار، ويجري على العادة الحُسنى في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا، راغباً في اغتنام ثنائنا وشُكْرنا.

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتاباً بالمثال الفاضلي، فيه: ورد خبرٌ من جانب العدوِّ اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوب والوجوه، واشتدَّ به الأمر، وضاق به الصَّدْر، وانقصم بحادثه الظَّهر، وعَزَّ فيه التثبت وأعوز الصَّبْر. فإن كان ـ والعياذ بالله ـ قد تَمَّ، وخَصَّه الحكم الذي عَمَّ، فللحوادث تذخر النِّصال، وللأيام تصطنع الرِّجال، وما رَتَّبَ الملوكُ ممالكها إلّا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حَقَّها يوم حَصَادها، فالله الله أن تختلف القلوبُ والأيدي، فتبلُغَ الأعداء مرادها، وتَعْدَمَ الآراء رشادَها، وتنتقل النِّعَم التي تعبت الأيام إلى أن أعْطَتْ قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها وُدّ، وسيوفاً يضمُّها غِمْد، ولا تختلفوا فتنكلوا ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوموا على أمشاط الأرْجُل، ولا تأخذوا الأَمْرَ بأطراف الأَنْمُل، فالعداوة محدقة بكم من كلِّ مكان، والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصر لا يخذله، وقائم لا يسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحَقَّقَتْ، بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كُمُشْتِكِين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبِلَتْ، والطَّاعة في الغيبة والحضور أُدِّيت وفُعلَتْ، وإلا فنحنُ لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسَيْفٌ على من عاداه. وإن أسفر الخبرُ عن معافاةٍ فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

قال العماد: وورد كتابُ صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزياً لابن نور الدين، وفي آخره، وأما العدوُّ ـ خذله الله تعالى ـ فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقلِّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصَدَر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرَّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم. وأشبه يوم الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزمه من حقوقِ النِّعمة، وجمع كلمة الإِسلام عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. والله تعالى يخلِّد ملك المولى الملك الصَّالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفّق الخادم لما ينويه من توثيق سُلْطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وتيسير منال كلّ أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى.

ومن كتابٍ آخر: الخادِمُ مستمرٌّ على بَدْأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرُّضِ لمراسمها، والرَّفْع لكلمتها، والإيالة[1] لعسكرها، والتحقق بخدمتها، في بواطِن الأحوال وظواهرها، والترقُّب لأن يُؤمر فيمتثل، ويُكلف فيحتمل، وأن يُرْمى به في نحر العدوِّ فيتسدَّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده.

قال العماد: ولما توفِّي نور الدين اختلَّ أمري، واعتلَّ سِرِّي، وعلت حُسَّادي، وبلغ مُرادَهم أضْدادي، وكان الملكُ الصَّالح صغيراً، فصار العَدْل بن العجمي له وزيراً. وتصرَّف المتحالفون في الخزانة والدَّوْلة كما أرادوا، وولَّوْا وصرفوا، ونقَّصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة، محروم الدَّعوة من الإِجابة.

ومما نظمتُه في مرثية نور الدين قصيدةً، منها[2]: [الهزج]

لِفَقْدِ المَلِكِ العادِ	لِ يبكي المُلْكُ والعَدْلُ
وقد أَظْلَمَتِ الآفا	قُ لا شَمْسٌ ولا ظِلُّ
ولمَّا غابَ نورُ الدِّيـ	ـنِ عَنَّا أَظْلَمَ الحَفْلُ
وزال الخِصْبُ والخَيْرُ	وزادَ الشَّرُّ والمَحْلُ
ومات البَأْسُ والجودُ	وعاش اليَأْسُ والبُخْلُ

(١) الإيالة: السياسة، من آل الملك رعيته يؤولها أولاً وإيالاً: ساسهم، وأحسن سياستهم.
(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٦٧ ـ ٧٢.

وعَزَّ النَّقْصُ لمَّا ها نَ أَهْلُ الفَضْلِ والفَضْلُ
وهل يَنْفُقُ ذو العلم إذا ما نَفَقَ الجَهْلُ
وما كان لنورِ الدِّيـ ـنِ لولا نَجْلُهُ مِثْلُ

فصل

[قصد الفرنج بانياس]

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثَّغْر، وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتمَّ لهم الأمر، ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس. وذلك أن شمس الدين بن المقدَّم خرج وراسل الفرنج، وخوَّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم. وتكلَّموا في الهُدْنة، وقَطْع موادّ الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعةٍ استعجلوها، وعِدَّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة.

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كُتُباً دالَّة على التوبيخ والملام. ومن جملتها كتابٌ بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون[1] يخبره فيه أنه لما أتاه كتابُ الملك الصالح بقصد الفرنج تجهَّزَ وخرج، وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهُدْنة المؤذنة بذُلِّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يَقُطُّ عادية من تَعدَّى وتمرَّد.

وفي آخره: وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هَمَّ أن يَشُقَّ ثوب الصَّباح، لولا أن الثُّريا تعرَّضت تعرُّض أثناء الوِشاح. وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحِجَّة، بلَّغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغاً أسنى المراد وأفضله.

وقال ابنُ الأثير[2]: لما توفي نور الدين قال الأمراء، منهم شمس الدين بن المقدَّم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي، وغيرهما من أكابر

---

(١) شرف الدين بن أبي عصرون: هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٥٨٥هـ، تقدّمت ترجمته.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٥٧.

الأمراء: قد علمتم أنَّ صلاحَ الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصَّالح، ويجعل ذلك حُجَّة علينا، وهو أقوى منا لأنَّ له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصَّالح. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا.

قال: فلم يمض غيرُ قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصَّالح، يهنئه بالملك ويعزِّيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه، ويعرِّفه أن الخُطْبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عَمِّه قُطْب الدين، وملك الدِّيار الجزرية، ولم يرسل مَنْ مع الملك الصَّالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصَّالح يعتبه حيث لم يُعْلِمْه قصدَ سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه. وكتب إلى الأمراء يقول: إنَّ الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته به، لَسَلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يَعْجَل عليه الموت لم يعهد إلى أحدٍ بتربية ولده والقيام بخدمته سواي، وأراكم قد تفرَّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصلُ إلى خدمته، وأجازي إنعامَ والده بخدمةٍ يظهر أثرها، وأقابل كلّاً منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصَّالح ومصالحه، حتى أُخذت بلاده.

فأقام الصَّالح بدمشق ومعه جماعةٌ من الأمراء لم يمكِّنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي ابن الدَّاية، فإنه كان أكبر الأمراء النُّورية، وإنما تأخَّر عن خدمة الملك الصَّالح بعد وفاة نور الدين لمرضٍ لحقه، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم، وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده. ولما عَجَزَ عن الحركة أرسل إلى الملك الصَّالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفُرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصَّالح إلى حلب حتى يجمع العساكر، ويَسْتردّ ما أُخذ منه، وإلا عَبَر سيف الدين الفُرَات إلى حلب، ولا نقوى على منعه. فلم يرسلوه ولا مكَّنوه من قصد حلب[١].

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض قد أرسل عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبرُ بموت عمّه نور الدين، فعاد إلى نَصِيبين فملكها، وأرسل الشِّحَن

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٥٩.

إلى الخابور فاستولَوْا عليها، وسار هو إلى حرّان فحصرها عِدَّة أيام ثم أخذها، وملك الرُّها والرَّقَّة وسَرُوج واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر. فقال له فخر الدين عبد المسيح ـ وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظنّاً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ما ذكرناه أولاً، فلم يجنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء ـ ليس بالشَّام من يمنعك، فاعبر الفرات واملك البلاد، فأشار أمير آخر معه ـ وهو أكبر أمرائه ـ: قد مَلَكْت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود. فرجع إلى الموصل.

فصل

[هروب سعد الدين كمشتكين من قلعة الموصل إلى حلب]

قال ابنُ الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جَعَلَ بقلعة المَوْصِل لما ملكها دُزْداراً له وهو سعد الدين كُمُشْتِكِين ـ بعض خدمه الخصيان ـ فلما سار سيف الدين إلى الشَّام كان في مقدِّمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يُدْرك، فنهب بَرَكه ودوابَّه. وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين ابن الداية وإخوته، واستقرَّ بينهم وبَيْنَه أنْ يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصَّالح. فسار إلى دمشق، فأخرج إليه ابن المقدَّم عسكراً لينهبه، فعاد مُنهزماً إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أُخذ منه، وجهَّزه وسيَّره إلى دمشق ـ وعلى نفسها تجني براقش ـ فلما وصلها سعد الدين دخلها، واجتمع بالملك الصَّالح والأُمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها، فلما وصلها، وصَعِدَ إلى قلعتها قبض الخادم سعدُ الدين على شمس الدين ابن الدَّاية وإخوته وعلى ابن الخَشَّاب رئيس حلب.

قال ابن الأثير[1]: ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه، ولا جرى من ذلك الخُلْف والوَهْن شيء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

واستبدَّ سعد الدين بتدبير أمر الملك الصَّالح، فخافه ابنُ المقدَّم وغيره من

(١) انظر «الكامل» ١٠/٥٩.

الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا سيف الدين ليسلِّموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدةً عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها، ويقصده ابنُ عمه من وراء ظهره، فلا يمكنه الثَّبات. فراسل الملك الصَّالح، وصالحه على إقرار ما أخذه بيده، وبقي الملك الصَّالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبِّر أمره، وتمكَّن منه تمكُّناً عظيماً يقارب الحَجْر عليه.

وقال العماد: كان كُمُشْتِكِين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه، واستأذن في الوصول إلى الشَّام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، فخرج وسار مرحلتين وسمع النَّعْي، فأغذَّ السير والسَّعْي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب المَوْصِل على الرِّضا بترحاله. وكانت عنده بوفاة عمه بشارة، وظهرت على صفحاته منها أمارة، فإنه لم يزل من كُمُشْتِكِين متشكِّياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مُذْكياً. وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، وإسقاط المكوس، وإعدام أقساط البوس، فنودي في المَوْصِل يوم ورود الخبر بالفُسْحة في الشُّرْب جهاراً، ليلاً ونهاراً، وزال العُرْف، وعاد النُّكْر، وأُنشد قول ابن هانئ[1]: [الطويل]

ولا تسقني سِرّاً فقد أَمْكَنَ الجَهْرُ

وقيل: أخذ المنادي على يده دنًّا وعليه قدح وزَمْر، وزعم أنه خرج بهذا أمْر، فلا حَرَج على من يغنِّي ويشرب، ويسكر ويطرب، وعادت الضَّرائب، وضربت العوائد.

وأما كُمُشْتِكِين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القُرى، وتمثل: عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى[2]، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علي وإخوته؛ إخوة مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين.

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيعَ نور الدين وقد تربَّى مَعَه، ولَزِمَه وتَبِعَه إلى أن ملك الشَّام بعد والده، ففوَّض إلى مجد الدين جميع مقاصده، من طريفه وتالده، وحكَّمه في الملك، ونظمه في السِّلْك، فلا يحل ولا يعقد إلا

---

(١) صدره:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ

والبيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، في ديوانه ص٢٨.

(٢) في صبح الأعشى ١/٣٤٨: هو مثل يضرب للترغيب في السير في الليل، وفي الجمهرة ٢/٤٢: يضرب لما ينال بالمشقة ويوصل إليه بالتعب، وفي المستقصى ٢/١٦٨: يضرب في الحث على مزاولة الأمر بالصبر.

برأيه، وكانت حصونه محصَّنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحاً ومساءً إذا طلب. وشَيْزَر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعَزَاز وغيرهما نوَّابه فيها، وهو يصونها ويحميها.

ولما توفي جَرَتْ إخوته في القُرْب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدَّوْلة وأعضادُها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكُّوا في أنهم يكفلون ولده ويربُّونه، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه. فأقام شمس الدين علي ـ وهو أكبرهم وأوجههم ـ ودخل قلعة حلب ـ وبها والياً شاذبخت[1] ـ وسكنها، وأسرَّ مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع، واتّفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصَّالح. ونفَّذ أخاه سابق الدين عثمان ـ وكان قليل الخبرة، بعيداً من الدَّهاء ـ فاستقرَّ الأمر على أن يحملوا الملك الصَّالح إليه، ويَقْدموا به عليه، وهو يتسلَّم ممالكه، ويكون أتابكه.

ووصل كُمُشْتِكِين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبَّروه من المرام، وسار الصَّالح ومعه كُمُشْتِكِين، والعَدْل بن العَجَمي، وإسماعيل الخازن، فبغتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابنُ الخشَّاب أبو الفضل، مقدَّم الشِّيعة، فسفكوا دمه. وأقام شمس الدين بن المقدَّم بدمشق على عساكرها مقدَّماً، وفي مصالحها محكَّماً؛ وجمال الدين ريحان والي القَلْعة والشِّحن من قبله، والأمر إليه بتفصيله وجُمَله، والقاضي كمال الدين الشَّهْرُزُوري الحاكم النافذ حكمه، الصَّائب سهمه، الثاقب نجمه.

وكان مسير الملك الصَّالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحِجَّة. وغاظ صلاح الدين ما فُعل بإخوة مجد الدين.

[الهدنة بين الفرنج وابن المقدم]

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: لما ماتَ نورُ الدين اجتمع أمراء دولته، وتعاقدوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصَّالح ابن نور الدين ـ وكان يومئذٍ صبياً ـ وحلفوا له على منابذة الملك النَّاصر، وقبض أصحابه الذين بالشَّام، ومُصالحة

---

(١) شاذبخت: الخادم الهندي، كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، واستمر بها مدة ولاية الملك الصالح، فلما توفي سنة ٥٧٧هـ حفظ شاذبخت حلب حتى قدمها عز الدين بن قطب الدين مودود.

الفرنج، وجعلوا ابن المقدَّم شمس الدين مقدَّم العساكر. وتمَّ ذلك واستقر، وركب الملك الصَّالح بدمشق، وخُطِبَ له.

وكانت الفرنج قد تحرَّكت إلى قصد دمشق، فخرج ابنُ المُقَدَّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، ورَاسل الفرنج في الهُدْنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجَّل حملها إليهم، وتمَّ أمر الصُّلْح، وعادت الفرنجُ إلى بلادها، وابن المقدَّم إلى دمشق.

واتَّصل خبر هذه الهُدْنة بالملك النَّاصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشَّام وعلم ضَعْفهم. فراسل ابنَ المقدَّم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عَصْرُون: ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سِلْك هذا القصد، والعدوُّ لهما واحد، وصُرِفَ مالُ الله الذي أُعِدَّ لمغنم الطَّاعة، ومصلحة الجماعة، في هذه المعصِيَة المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأُمة، وكان مذخوراً لكشف الغُمَّة، فصار عَوْناً. وأن أسارى من طبرية وفُرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السُّلْم السبب والذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الوِرْد والصَّدر، إن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهُدْنة غير بعيد، وإن فرَّقْنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سَيَّرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يُعَرِّفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمرٌ ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدوَّ طالبٌ لا يغفل، وجادٌّ لا يَنْكُل، وليثٌ لا يضيع الفُرْصة، مُجِدٌّ لا يميل إلى الرُّخصة. فإن كانت الجماعةُ ساخطين، فيظهر أمارات السخط والتغيير، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لا سيما ونحن نغارُ لله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما يُجمع به صلاح الرأي وصوابُ التَّدْبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارِم بالمال الذي قويت به قوَّته، وثَرَتْ به ثروته، وانبسطت به خطوتُه، فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النُّوري، وكان شمس الدين علي، أخو مجد الدين ابن الداية، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشِّحْنكية، وكان بيده ويد إخوته جميع المعَاقل التي حول حلب. فلما بلغ علياً موت نور الدين صَعِدَ إلى القلعة، وكان مُقْعَداً، واضطرب البلد، ثم سكَّنه ابنُ الخَشَّاب، وكوتب ابن الخَشَّاب من دمشق بحفظ البلد، وعوَّلَ أولاد الداية

على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين، وأنفذوا خلف أبي الفَضْل بن الخشاب، فامتنع من الصُعود إليهم، وتردَّدت بينهم الرسالة. وتحزَّب الناس بحلب: السُنَّة مع بني الدَّاية، والشيعة مع ابن الخَشَّاب، وجَرَت أسبابٌ اقتضت أن أنزلَ حسنُ ابن الداية جماعةً من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن الخَشَّاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابنُ الخشَّاب.

واتَّصلت هذه الأخبار بمن في دمشق، فأخذوا الملك الصَّالح وساروا إلى حلب في الثَّالث والعشرين من ذي الحِجَّة، وسار مع الملك الصَّالح سعد الدين كُمُشْتِكِين وجُرْديك، وإسماعيل الخازن، وسابق الدّين عثمان ابن الدَّاية، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. وساروا إلى حلب، وخرجَ النَّاس إلى لقائهم.

وكان حسن قد رتَّب في تلك الليلة جماعةً من الحلبيين ليصبح ويصلِّبهم، فلمَّا خرج للقاء الملك الصَّالح، ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جُرْديك وأخذ بيده، وشتمه وجَذَبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدِّين أخوه في الحال، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم، وساروا مجدِّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها، وقبضوا على شمس الدين علي ابن الدَّاية من فراشه، وحُمل إلى بين يدي الملك الصَّالح، فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجُفَيْنة، فركله برجله ركلةً دحاه بها على وجهه، فانشقَّتْ جبهته. ثم صُفِّدوا جميعاً وحبسوا في جُبّ القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الدَّاية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

[وفاة مري ملك بيت المقدس]

قلتُ: وفي آخر هذه السنة توفي مُرِّي الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الدِّيار المصرية.

وفي كتابٍ فاضلي: ورد كتابٌ من الدَّاروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُرِّي ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٥].

[قتل جرديك لابن الخشاب في حلب]

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابنُ أبي طيّ: ففي أوّلها ضَمِنَ القطب ابن العجمي أبو صالح[1]، وابن أمين

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

الدّولة لـجُرْديك إن قَتَلَ ابن الخَشَّاب ردُّوا عليه جميع ما نُهِبَ له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصَّالح، وتحدَّث معه، وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل، وعُلِّق رأسه على أحد أبراج القلعة.

[مسير العماد الكاتب إلى الموصل]

وبقي الملك الصَّالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى المَوْصل، قال: وعزمتُ على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حَدِّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح، فأصلح بين ابني العَمّ، وغُلق رَهْنُ إخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيَّقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرُّهون، إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا مَعْمورهم.

قال: وكان الموفَّق خالد بن القَيْسَراني قد وصل ـ ونحن بدمشق ـ من مِصْر، فلزم داره ولم يدخل مع القوم.

[مساءة صلاح الدين
مما جرى لإخوة مجد الدين ابن الداية]

فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أنَّ ولد نور الدين يتولاهُ بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه وقال: أنا أحقُّ برعي العهود، والسَّعي المحمود، فإنه إن استمرَّت ولاية هؤلاء تفرَّقت الكلمة المجتمعة، وضاقت المناهج المتَّسعة، وانفردت مصر عن الشَّام، وطمع أهل الكُفْر في بلاد الإِسلام. وكتب إلى ابن المقدَّم ينكر ما أقدموا عليه من تَفْريق الكلمة، وكيف اجترؤوا على أعضاد الدَّوْلة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها.

فكتب ابنُ المقدَّم إليه يَرْدَعُه عن هذه العزيمة، ويقبِّح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غرسك، وربَّاك وأسَّسك، وأصْفَى مَشْرَبك، وأصفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دَسْته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن أخلاقك وخِلالك غَيْرُ فضلك وإفضالك.

فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي: إنَّا لا نؤثر للإِسلام وأهله إلا ما جَمَع شملهم وألَّف كلمتهم، وللبيتِ الأتابكي ـ أعلاه الله تعالى ـ إلا ما حفظ أصلَه وفَرْعه، ودفع ضرَّه وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبَّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة إنا في واد، والظَّانون بنا ظَنَّ السَّوْء في واد، ولنا من الصَّلاح مُرَاد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طَلَب الصَّلاح إنك قادح، ولمن ألقى السِّلاح إنك جارح.

فـصـل

[عزم السلطان صلاح الدين على دخول الشام]

قال العماد: ثم عَزَمَ السُلْطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر، فاعترضه أمران: أحدهما وصول أسطول صِقِلِّية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه. أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحِجَّة سنة تسع وستين، وانهزم في أوَّل المحرَّم سنة سبعين.

[وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية وانهزامه]

ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشَّام بشرح الحال، وحاصله: أنَّ أول الأسطول وصل وقت الظُّهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غَفْلةٍ من المتوكلين بالنَّظر، لا على حين خفاءٍ من الخبر، فأمْرُ ذلك الأسطول كان قد اشتهر، ورُوِّع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيَّة، وهدَّد به في الجزائر الرُّومية صاحبُ قُسْطنطينية. فشوهد في الثغر من وفور عُدَّته، وكثرة عِدَّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدَّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البرّ. ثم أشير عليهم أن يقربوا من السُّور، فأمكن الأسطول النزول، فاستنزلوا خيولهم من الطَّرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارسٍ وراجل. وكانت عِدَّة الطرائد ستاً وثلاثين طريدةً تحمل الخيل، وكان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً. وكانت عِدَّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمَّالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرَّاجل المتفرِّق، وغِلْمان الخيَّالة، وصُنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمِّمُ خمسين ألف راجل.

ولما تكاملوا نازلين على البَرّ، خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملةً أوصلوهم إلى السُّور، وفُقِدَ من أهل الثَّغر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصارو بسهم جرخ، وجدَّفت مراكب الفرنج داخلةً إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها. واتَّصل القتال إلى المساء، فضربوا خيامهم بالبر، وكان عِدَّتهم ثلاثمائة خيمة.

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضربُ بحجارة سود استصحبوها من صِقِلِّية، وتعجَّب أصحابنا من شِدَّة أثرها وعظم حجرها. وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السُّور، ولجُّوا في القتال عامة النهار المذكور.

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقُوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودِمْياط، احترازاً عليها، واحتياطاً في أمرها، وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرَّ القتال، وقُدِّمت الدَّبَّابات، وضربت المنجنيقات، وزاحمت السُّور، إلى أن صارت منه بمقدار آماج البحر وإهاج الدور.

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قُبالتها من السُّور ويتركوها مُعَلَّقة بالقشور. ثم فتحوا الأبواب على غفلة، وخرجوا منها على غِرَّةٍ، وركب مَنْ هناك من الأمراء، وخرجوا من الأبواب، وتكاثر صائح أهل الثَّغْر من كلِّ الجهات، فأحرقوا الدَّبابات المنصوبة، وصدقوا عندها القتال، وأنزل الله على المسلمين النَّصْر، وعلى الكُفَّار الخِذْلان والقهر.

واتَّصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشلُ الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم، وأُحرقت آلات قتالهم، واستحرَّ القتل والجراح في رجالهم. ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قِوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهَرَبِ والمبادرة. ثم كَرَّ المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام، فهاجموهم في الخيام، فتسلَّموها بما فيها، وفتكوا في الرَّجَّالة أعظم فتك، وتسلَّموا الخَيَّالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحَّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها، فولَّت بقيَّة المراكب هاربة، وجاءتها أحكامُ الله الغالبة. وبقي العدو بين قَتْلٍ وغرق، وأَسْرٍ وفَرق، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تَلٍّ، فأُخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله. وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شَدَّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين

ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني[١] وطرادة[٢] وبطسة وغير ذلك.

فصل

[ثورة الكنز في الصعيد]

وأما نوبة الكنز، فقال ابنُ شَدَّاد: الكنز إنسان مقدَّم من المصريين، كان قد انتزح إلى أُسوان، فأقام بها، ولم يزل يُدَبِّر أمره، ويجمع السُّودان عليه، ويُخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويُعيدُ الدَّولة مصْرية. وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تُسْتَصْغَرُ هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خَلْقٌ كثير وجمعٌ وافر من السُّودان، وقصد قُوص وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرَّد له عسكراً عظيماً، شاكين في السلاح، من الذين ذاقوا حلاوة مُلْك الديار المصرية، وخافوا على فَوْت ذلك منهم، وقدَّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم، فلقيهم بمصافٍّ فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شأفتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السَّابع من صفر سنة سبعين، واستقرَّت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أوَّل سنة سبعين مستهلِّها، قام المعروف بالكنز في الصَّعيد، وجَمَعَ من كان في البلاد من السُّودان والعبيد، وعدا ودعا من القريب والبعيد، وكان عنده من الأُمراء أخٌ لحسام الدين بن أبي الهيجاء السَّمين، ففتك به وبمن هناك من المقطَعين، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر، وساعده أخوه السُّلْطان سيف الدين، وعز الدين موسك ابن خاله[٣]، وعدة من أُمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طَوْد فاحتمت عليهم، وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عِزِّها بذُلِّها.

ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوئه وسودانه، فسُفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وأريقت دماءُ سوده، وهجم غابه على أُسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطُلَّ دمه ولم ينتطح فيه عَنْز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سُلَّم نفاق، والله لناصري دينه ناصر واق.

---

(١) الشيني: وتسمى أيضاً الشينية، وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

(٢) الطرادة: من السفن الحربية والبطسة كذلك من السفن الحربية (صبح الأعشى ٢/ ٥١٩).

(٣) هو الأمير عز الدين موسك بن جكو الهذباني، وهو ابن خال السلطان، وكان من أكابر مقدمي كتائبه، توفي في تاسع عشر شعبان سنة ٥٨٥هـ. سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.

وقال ابن أبي طيّ: واتّفق أيضاً أن خرج بقريةٍ من قرى الصَّعيد يقال لها طَوْد رجلٌ يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قُوص ونَهَبَها وخَرَّبها، وأخذ أموال الناس. واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ وكان السّلطان قد استنابه بمصر ـ فجمع له العساكر وأوقع به، وبدَّد شمله، وفضَّ جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأُسوان، وكان قَصَدَ بلد طَوْد، فقتل أكثر عسكره، وهرب، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

[توجه صلاح الدين إلى دمشق]

في توجُّه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأوَّل.

قال العماد: لما خلا باله مما تقدَّم ذكره تجهَّز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بِلْبيس ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدِّين صاحب بُصْرى صديق ابن جَاوْلي وشمس الدين بن المقدم عنده، تَسْتوْري في الحثِّ والبعث زَنْدَه، وتستقدمه وجُنْدَه. وسار على صَدْر وأيْلة ووصل السير بالسُّرى، حتى أناخ على بُصْرى، بصيراً بالعُلا نصيراً للهدى، فاستقبله صاحب بُصْرى وشد أَزْرَه، وسدَّد أمره. واستضاف إلى بُصْرى صَرْخَد، وتفرَّد بالسَّبْق إلى الخدمة وتوحَّد، وسار في الخدمة معه إلى الكُسْوَة.

وبكَّر صلاح الدين يوم الاثنين انْسِلاخ الشهر، وسار في موكب قويّ بالعَدَد والعُدَد، وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخَرَقها، وكأنَّ الله تعالى له خَلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نَوَاله، وتملَّك المدينة والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإِسلام أخو السُّلْطان صلاح الدين، وملَّك ابنَ المقدَّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طَلِبته التي أشار إليها ونَصَّ عليها؛ وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصَّالح، وحِفْظ مَالَهُ من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحقُّ بصيانة حقِّه.

واجتمع به أعيانُها، وخَلَصَ لولائه إسرارها وإعلانُها، وأصبح وهو سُلْطانُها. وزاره القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، فوفَّاه حقَّه من الاحترام، ووفَّر له حَظَّ التبجيل والإعظام.

ونفّذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنَّصْر، وفي بعضها: يوم وصولنا إلى بُصْرى وقَبْله وفَدَتْ وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء والأجناد والأتراك، والأكراد، والعُرْبان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكلٌّ مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أنَّ البلاد ممكنة القياد، مُذْعنة إلى المراد. وأما الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنّا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وأدلجنا وعيونهم متناومة، وجُزْنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صُغُر، ومررنا وعيشهم مُرّ. والله يزيدهم ذُلاً، ويجعل عداوة الإِسلام في صدورهم غِلاً، وفي أعناقهم غُلاً.

وفي كتاب آخر: وكان رحيلُنا من بُصْرى يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجَّه صاحبها من بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين بن أُنَر في السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدِّمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة. ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدُّخول عَدَدٌ من الرِّجال، فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرَّفتهم كيف يكون اللِّقاء وعَلَّمتهم، ودخلنا البلد، واستقرَّت بنا دار والدنا رحمة الله عليه، قريرةً عيونُنا، مستقراً سكونُ الرعية وسكوننا، وأذَعْنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النُّفوس، وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدِّية قد امتدَّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشَّرْع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها.

[تسلم صلاح الدين دمشق]

قال ابنُ الأثير: لما خاف مَنْ بدمشق من الأُمراء أن يقصدَهم كُمُشْتِكِين والملك الصَّالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الدَّاية، راسلوا سيف الدين غازي ليسلِّموها إليه فلم يجبهم، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدَّم، ومن أشبه أباه فما ظلم[1]. فلما أتته الرُّسل لم يتوقَّف وسار إلى الشَّام، فلما وصل دمشق سلَّمها إليه من بها من

(١) هو من الأمثال المشهورة، وهو من قول كعب بن زهير: [الطويل]

أنا الذي لم يخزني في حياته ... قديماً ومن أشبى أباه فما ظلمْ

=

الأمراء، ودخلها واستقرَّ بها، ولم يقطع خُطْبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه، واسترد له بلاده التي أخذها ابنُ عمِّه. وجرت أمورٌ آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصَّالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدَّاد: لما تحقَّق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهَّز للخروج إلى الشَّام، إذ هو أصلُ بلاد الإسلام، فتجهَّز بجمعٍ كثير من العَسَاكر، وخلَّف بالديار المصرية مَن يستقلُّ بحِفْظِها وحراستها، ونَظْم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمعٍ من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهلَ البلاد وأمراءها. واختلفت كلمة أصحاب الملك الصَّالح، واختلَّت تدبيراتهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعضُ على جماعةٍ منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسبباً لتنفير قلوب النَّاس عن الصَّبي، فاقتضى الحال أن كاتَبَ ابنُ المقدَّم صلاحَ الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصَّالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويَرُبُّ حاله[1].

فدخل دمشق يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه. واجتمع النَّاس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في النَّاس مالاً طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به. وصَعِدَ القلعة، واستقرَّ قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جُمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سَلْخ جُمادى المذكور، وهي الدفعة الأولى.

وقال ابنُ أبي طي: بلغ السُّلْطان أن ابنَ المقدَّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب المَوْصِل، واستيلائه على البلاد الشَّرْقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه. وقيل: إن ابنَ المقدَّم كاتَبَ السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل: إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركةٍ تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، ولجواب مُمضٍّ ورد من ابن المقدَّم إليه. ولما تيقَّن ابنُ المقدم خروجَ السُّلْطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

= والبيت في ديوان كعب بن زهير ص٦٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٨. ويروى البيت أيضاً بلفظ:

أقول شبيهات بما قال عالماً بهن ومن يشبه أباه فما ظلم

أي لم يضع الشبه في غير موضعه (المستقصى من أمثال العرب ٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

(١) يَرُبُّ حاله: أي يصلحه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان، وعفَّى آثار الظُّلْم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرَّمات.

قلتُ: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدةً بعد مصافٌ عَسْقَلان، أولها: [المنسرح]

تهنَّ يا أطْوَلَ الملوكِ يَداً ... في بَسْطِ عَدْلٍ وسطوةٍ وندى
أجراً وذكراً مِنْ ذلك الشكر في الد (م) نيا ومن ذلك الجِنان غدا
لا تستقلَّ الذي صنعتَ فقد ... قُمْتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وَجُسْتَ أرض العِدَى وأفنيتَ من ... أبطالهمْ ما يجاوزُ العَدَدا
وما رأينا غزا الفِرَنْجَ من الـ ... ـملوك في عُقْر دارِهم أَحَدا
فَسِرْ إلى الشَّام فالملائكة الـ ... ـأبرارُ تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقيرٌ إليك يأملُ أنْ ... تُصْلِحَ بالعَدْلِ منه ما فَسَدا
والله يعطيك فيه عاقبة النَّـ (م) ـصْرِ كما في كتابهِ وَعَدا
فما حباك الورى وألهمك الـ ... ـعَدْل وأعطاك ما ملكتَ سُدَى

ومَدَحَ وُحَيش الأَسَدي[1] صلاحَ الدين عند أخذه دمشق بقصيدةٍ، أولها[2]: [البسيط]

قد جاءك النَّصْرُ[3] والتوفيق فاصطحبا ... فَكُنْ لأضعافِ هذا النصر مُرْتَقِبا
لله أنتَ صلاحَ الدين من أسدٍ ... أدنى فريستِهِ الأيامُ إن وَثَبا
رأيتَ جِلَّق ثَغْراً لا نظيرَ له ... فجئتها عامراً منها الذي خَرِبا
نادتك بالذُّلِّ لما قلَّ ناصِرُها ... وأزْمَعَ الخَلْقُ من أوطانها هَرَبا
أحْيَيْتَها مِثْلَ ما أحييت مِصْرَ فقد ... أعَدْتَ من عَدْلها ما كان قد ذَهَبا
هذا الذي نَصَرَ الإسلامَ فاتَّضَحَتْ ... سبيلُهُ وأهانَ الكُفْرَ والصُّلُبا
ويوم شاورَ والإيمانُ قد هُزِمَتْ ... جيوشُه كان فيه الجَحْفَلَ اللَّجِبا

---

(١) وحيش الأسدي: هو سبع بن خلف بن محمد، الأسدي الفقعسي، المعروف بوحيش، ولد سنة ٥٠٤هـ، ولقيه العماد في دمشق، وقصده بقصائد مدحه بها، فأحسن العماد جائزته («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٦).

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) في «خريدة القصر»: «السعد» بدل: «النصر».

أَبَتْ لـه الـضَّـيْـمَ نَـفْـسٌ مُـرَّةٌ ويـدٌ ... فـعَّـالَـة وفـؤادٌ قَـطُّ مـا وَجَـبـا
يستكثر المدح يُتْلى في مكارِمه ... زُهْـداً ويَسْتَصْغِرُ الدُّنيـا إذا وَهَـبا
ويـوم دِمْـيـاطَ والإسـكـنـدريـةَ قـد ... أصارَهـم مَثَلاً في الأرض قـد ضُرِبا
والشَّام لو لم تُدَارِكْ أهلَه اندَرَسَتْ ... آثـارُهُ وعَـفَـتْ آيـاتُـه حُـقُـبـا

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك النَّاصر وميل النَّاس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفُقوا وأجمعوا على مراسلته، فحمَّلوا قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[1] رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملَّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حَوَيْتَ بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت له تصدّك، وأنت فقد تعدَّيْتَ طورك، وتجاوزت حَدَّك، وأنت أحد غِلْمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السُّلْطان وُرود ابن حَسَّان عليه رسولاً تلقَّاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرِّسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يُعِره السُّلْطان رحمه الله تعالى طَرْفاً ولا سمعاً، ولا رَدَّ عليه خفضاً ولا رفعاً، بل ضرب عنه صَفْحاً وتغاضياً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وجرى في ميدان أريحيته، واستنَّ في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشَّام، لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، وكفِّ عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما

(١) أقطعه نور الدين منبج سنة ٥٦٢هـ، بعد أن عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ (انظر أحداث سنة ٥٦٢هـ، من هذا الجزء).

ترومه خَرْطُ القَتَادِ[١]، وفتُّ الأكباد، وإيتام الأولاد. فتبسَّم السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وأَوْمَى إلى رجاله بإقامته من بين يديه، بعد أن كاد يسطو عليه.

ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشَّام الأسفل، ورحل متوجِّهاً إلى حمص فتسلَّم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكَّل بها من يحصرها. ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى الرَّسْتَن خرج صاحبها عز الدين جُرْديك[٢]، وأمر مَنْ فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره. وسار جُرْديك حتى لقي السُّلْطان، واجتمع به بالرَّسْتَن، وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سَلَّم إليه حماة، وسأله أن يكون السَّفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السّلطان إلى مُرَاده. وسار إلى حلب، وبقي أخو جُرْديك بقلعة حماة.

قال: وسار جُرْديك إلى حلب وهو ظانٌّ أنه قد فعل شيئاً، وحصَّل عند من بحلب يداً، فاجتمع بالأمراء والملك الصَّالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتَّهمه الأمراء بالمخامرة، وردُّوا مشورته، وأشاروا بقبضه، فامتنع الملك الصالح. ولجَّ سعد الدين كُمُشْتِكِين في القبض عليه، فقبض وثُقِّل بالحديد، وأُخذ بالعذاب الشديد، وحُمل إلى الجُبِّ الذي فيه أولاد الدَّاية.

قال: ولما قُدِّم جُرْديك وشُدَّ في وسطه الحبل وأُدْلِيَ إلى الجُبّ، وأحسَّ به أولاد الدَّاية، قام إليه منهم حسن وشَتَمَه أقبحَ شتم، وسَبَه ألأم سَبٍّ، وحلف بالله إن أُنزل إليهم ليَقتُلَنَّه. فامتنعوا من تدليته، فأُعلم سعد الدين كُمُشْتِكِين، فحضر إلى الجُبِّ، وصاح على حسن وشتمه وتوعَّده، فسكن حسن وأمسك، وأنزل جُرْديك الجُب، فكان عند أولاد الدَّاية، وأسمعه حسنٌ كلَّ مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصلَ به قبض أولاد الدَّاية وجُرْديك، وكانوا تعصَّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب، قصيدةً منها: [البسيط]

بنُو فلانة أعوان الضَّلالة قد ... قضى بذُلِّهمُ الأفلاكُ والقَدَرُ
وأصبحوا بعد عِزِّ المُلْكِ في صَفَدٍ ... وقَعْرِ مَظْلَمَةٍ يغشى لها البَصَرُ
وجَرَّد الدَّهْرُ في جُرْديك عَزمته ... والدَّهْرُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

قال: ولم يزل السُّلْطان مقيماً على الرَّسْتَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غِلْمان جُرْديك، وأخبره بما جرى على جُرْديك من

---

(١) هو من المثل: دونه خرط القتاد، يضرب للأمر الشاق، والقتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر، وخرط الشجر: انتزاع الورق منه اجتذاباً (المستقصى ٢/ ٨٢ ـ ٨٣).
(٢) عز الدين جرديك: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جُرْديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل. وصَعِدَ السُّلْطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها. وولاها مُبارز الدين عليَّ بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جُمادى الآخرة.

وسار السّلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جَوْشَن فوق مشهد الدَّكَّة ثالث جُمادى، وامتدَّت عساكره إلى الخَنَّاقية وإلى السَّعْدي. وكان من بحلب يظنون أن السُّلْطان لا يقدَمُ عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت، فخافوا من الحلبيين أن يُسلِّموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه، ويخاطبهم بلسانه أنهم الوَزَرُ والملجأ. فأمر أن يُنادي باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالنَّاس، فنزل الصَّالح من باب الدرجة وصَعِدَ من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه، فافتتن النَّاس وصاحوا صيحةً واحدة، ورمَوْا بعمائمهم، وضجُّوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. وأقبلوا على الدُّعاء له، والترحُّم على أبيه.

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصَّالح أنه يُعيد إليهم شرقية الجامع يُصَلُّون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر بحيّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق، وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطَّاهر أبي المكارم حمزة ابن زُهْرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والنَّاموس وازع لمن أراد الفتنة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله تعالى. فأُجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل، وصلى أبي في الشَّرْقية مُسْبلاً، وصلَّى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأُذِنَ للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعتِ الأيمان عليه.

فـصـل

قال ابن أبي طيّ: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية. وكان السُلْطان قد جعل أولاد الدَّاية عُلالة له وسبباً يقطع به ألْسِنَة من يُنكر عليه الخروج إلى الشام وقَصْد الملك الصَّالح، ويقول: أنا إنما أتيتُ لاستخلاص أولاد الدَّاية وإصلاح شأنهم.

[مكاتبة كمشتكين لسنان صاحب الحشيشية]

وأرسل السُلْطان إلى حلب رسولاً يُعَرِّض بطلب الصُلْح، فامتنع كُمُشْتِكِين، فاشتدَّ حينئذٍ السُلْطان في قتال البلد.

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشيّة(١) في إرصاد المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعِدَّة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فُتَّاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبل جَوْشَن واختلطوا بالعسكر، فعرفهم صاحب بوقُبيس(٢) لأنه كان مثاغراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم، كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه، فقتلوه في موضعه، وجاء قومٌ للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض، وبدر من الحشيشيّة أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

وقال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشيَّة كاتبوا قومص طرابلس، وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحَّل السلطان عن حلب. وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم(٣)، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزّعْفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.

---

(١) سنان صاحب الحشيشية: هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد البصري، المتوفى سنة ٥٨٨هـ، تقدّمت ترجمته الوافية قبل قليل في هذا الجزء.

(٢) هو الأمير ناصح الدين خمارتكين، كما سيأتي بعد قليل.

(٣) كسرة حارم: كانت سنة ٥٥٩هـ، انظر الجزء الأول، أحداث سنة ٥٥٩هـ.

[مهاجمة الفرنج لحمص]

واتفق في أول هذه السَّنة موت ملك الفرنج صاحب القُدس وطبرية وغيرهما، فتكفَّل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعَظُم شأنه وزاد خطره. فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان: لستُ ممن يَرْهَبُ بتألُّب الفرنج وها أنا سائرٌ إليهم. ثم أنهد قطعةً من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمةً حَسَنةً وعادوا. فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السُّلْطان عن حلب، ووصل إلى حمص فتسلَّم القلعة، ورتَّب فيها والياً من قِبَله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة، وستأتي[1]:

[المتقارب]

إيابُ ابن أيوب نحو الشَّام ... على كلِّ ما يرتجيه ظُهورُ

بيوسُف مِصْرٍ وأيَّامِهِ ... تَقَرُّ العيونُ وتَشْفى الصُّدُورُ

رأت منك حمصُ لها كافياً ... فواتاك منها القويُّ العَسِيرُ

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ[2] يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهدُ به من كونها نجماً في سحاب، وعُقاباً في عِقاب، وهامةً لها الغمامة عِمامة، وأَنْمُلةً إذا خضبها الأصيل كان الهلالُ منها قُلامة، عاقدةً حبوةً صالحها الدَّهْرُ على ألا يَحُلّها بقرعه، عاهدةً عصمةً صافحها الزمن على ألا يروعها بخَلْعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طَبْعَ حمْصَ في العقارب، وضربت حجارةً بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثَّرت فيها جُدَرِياً بضربها، ولم تصل إلى السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها. واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وسقط سَعْدُها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطّالع، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً، سُيِّرت الجبال بها فكانت سراباً. فهنالك بدت نقوبٌ، يَرى قائم مِنْ دونها ما وراءها، وحُشيت فيها النَّار فلولا الشُّعاع من الشعاع أضاءها[3].

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٢٨.

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، زين الدين، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ بمصر، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، وفيات سنة ٥٩٩هـ.

(٣) الجملتان الأخيرتان مأخوذتان من عجزي بيتين لقيس بن الخطيم وهما: [الطويل]

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءها =

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى أخيه العادل: قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العَدّ، وبعد أن نُرَتِّب أحوال حمص ـ حرسها الله تعالى ـ نتوجَّه إلى حماة، والله المعين على ما ننويه من الرَّشاد، وننظِّفه من طُرُقِ الجهاد.

وقال العماد: لما سمع المدبِّرون للملك الصَّالح بإقبال صلاح الدين المُؤذن بإدبارهم، سُقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة وكاتبوهم، وأرسلوا إلى صلاح الدين بالإِغلاظ والإِحفاظ. وكان الواصل منهم قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وقد تجنَّب في قوله الإِحسان، وقال له: هذه السُّيوف التي مَلَّكتك مصر ـ وأشار إلى سيفه ـ إليها تردُّك، وعمَّا تصدَّيت له تصدُّك. فحلم عنه السلطان واحتمله، وتغافل كرَماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وَصَل لترتيب الأُمور، وتهذيب الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ إخوة مجد الدين. فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أُسِّك، فارجع حيث جئت، أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع. ونال من تقطيب القطب ينال، كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسُّم وأخفى الاحتمال.

ثم إنه استناب أخاه سيف الإِسلام طُغْتِكِين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأُولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها. ورحل إلى حماة، فأخذها مستهل جُمادى الآخرة.

ثم مضى ونزل على حلب، فحصرها ثالث الشهر، فلمَّا اشتدَّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالإِسماعيليَّة، وعيَّنوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات، من فُتَّاكهم كُلُّ عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خُمارتِكِين صاحب بوقُبيس ـ وكان مثاغراً للإِسماعيلية ـ فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم! فقتلوه، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السُّلْطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطُغْرُل أمير جاندار واقف ثابت، ساكن ساكت، حتى وصل إليه، فشمل بالسَّيف رأسه، وما قُتل الباقون حتى قَتَلُوا عِدَّة، ولاقى من لاقاهم شِدَّة.

= طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها
والبيتان في ديوان قيس بن الخطيم ص٤٦.

وعصم الله حُشاشته في تلك النَّوْبة من سكاكين الحشيشِيَّة، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس ـ وقد كان في أسر نور الدين مُذ كسرة حارِم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدى نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير ـ فتوجَّه في الإفرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسُّلْطان رجع ناكصاً على عقبيه، خوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضليٍّ عن السُّلْطان إلى العادل: قد أعلمنا المجلس أن العدوَّ ـ خذله الله ـ كان الحلبيون قد استنجدوا بصُلْبانهم، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه. فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتحٌ تفتح له أبواب القلوب، وظفرٌ وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإنَّ العدوَّ قد سقطت حِشمته، وانحطَّت فيه هِمَّته، وولَّى ظهراً كان صدره يصونه، ونكَّس صليباً كانت ترفعه شياطينه.

وقال العماد في «الخريدة»: ولما خَيَّم السُّلْطان بظاهر حمص قصده المهذَّب بن أسعد[1] بقصيدةٍ، أوَّلها: [الكامل]

ما نامَ بَعْدَ البَيْنِ يستحلي الكَرى ... إلا لِيَطْرُقَه الخيالُ إذا سَرى
كَلِفٌ بِقُرْبِكُم فلمَّا عاقه ... بُعْدُ المَدَى سَلَكَ الطَّريق الأخصرا
ومُوَدِّع أَمرَ التفرُّق دَمْعَه ... ونَهَتْهُ رِقْبَةُ كاشح فَتَحَيَّرا
تُرْدِي الكتائبَ كُتْبُهُ فإذا غَدَتْ ... لم يُدْرَ أنفذ أَسْطُراً أم عسكرا
لم يُحْسِنِ الإِترابَ فوقَ سُطُورِها ... إلا لأن الجيشَ يعقِدُ عِثْيَرا[2]

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: [البسيط]

والشِّعْرُ ما زَالَ عند التُّرْك متروكا

فعجَّلَ جائزَتُه لتكذيب قوله وتصديق ظنِّه، فشرَّفه وجمعَ له بين الخِلْعة والضَّيْعة.

وعَنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصَّالح بن رُزِّيك التي أوَّلها: [البسيط]

أما كَفَاك تلافي في تلافيكا

(١) هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).

(٢) العِثْيَر، بكسر العين المهملة، وسكون الثاء المعجمة: العجاج الساطع.

يقول فيها[١]: [البسيط]

يا كعبةَ الجُودِ إنَّ الفَقْرَ أَقْعَدَني ... ورِقَّةَ الحالِ عن مفروضِ حَجِّيكا
من أرتجي يا كريمَ الدَّهرِ تَنْعَشُني ... جَدْواه إن خاب سَعْيي في رجائيكا
أأمْدَحُ التُّركَ أبغي الفَضْلَ عِنْدَهُمُ ... والشِّعْرُ ما زالَ عند التُّرْك متروكا
أم أمدح السُّوقَةَ النَّوْكى لِرِفْدِهُمُ ... واضَيْعَتَا إن تخطَّتني أياديكا
لا تتركَنِّي وما أمَّلتُ في سَفري ... سواكَ أُقْفِلُ نحو الأهل صُعْلُوكا

قلتُ: وقد مضى ذِكْرُ ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمانٍ وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ستٍّ وسبعين، وثمانٍ وسبعين.

وما أحسنَ ما خرجَ ابنُ الدَّهَّان من الغَزَل إلى مدح ابن رُزِّيك في قوله من قصيدةٍ أوَّلها[٢]: [الطويل]

إذا لاحَ بَرْقٌ مِنْ جَنَابِكَ لامعُ ... أضاءَ لِوَاشٍ ما تُجِنُّ الأضالِعُ

يقول فيها: [الطويل]

تمادى بنا في جاهليَّة بُخْلها ... وقد قام بالمعرُوفِ في النَّاس شارِعُ
وتحسَبُ ليلَ الشُّحِّ يمتدُّ بعدَما ... بدا طالعاً شَمْسُ السَّخاءِ طلائعُ

فصل

[إرسال صلاح الدين ابن أبي المضاء رسولاً إلى بغداد]

ثم أرسل السُّلْطان الخطيب شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء[٣] إلى الديوان العزيز برسالةٍ ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلْطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطْبة العباسية بها، يقول في أوله للرسول:

فإذا قضى التسليم حَقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فلْيُعدْ وليعدَّ

(١) انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، كما ذكره في أول أحداث سنة ٥٦٧هـ.

حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلّه يشرع منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرَّة فإن الله لا يُعبد سِرّاً: [الكامل]

ومن الغرائب أن تَسير غرائِبٌ ... في الأرض لم يَعلَم بها المأمولُ
كالعيسِ أقتل ما يكون لها الصَّدى ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

فإنا كنا نَقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصِّفاح بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصْدير. ولا بدّ أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألْسنِ كما أخذنا بحظِّ القلوب. وما كان العائقُ إلا أنا كُنَّا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبْق. وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكُفَّار مُتقدِّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو مَعْقِل مُلك، أو عسكرٍ للعدوِّ كُسِرَ، أو مصافٍّ للإسلام معه ضُرب. فما يجهل أحدٌ صُنْعنا، ولا يجحد عدونا أنَّا نصطلي الجمرة، ونملك الكَرَّة، ونتقدم الجماعة، ونُرتِّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشَّام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبارُ مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوْلتها عليه من غلبة صغيرٍ على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد، والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد. والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموالٍ كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وإن كان مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم. وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعْبَدُ من دون الله وتعظَّم وتفخم، فتعالى الله عن شَبه العباد، وويلٌ لمن غَرَّه تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت هِمَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالَّته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة، وبأموالٍ انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا. فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسلٌ باستنجاد الفرنج قطعت، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ولكلِّ أملٍ باب. وكان في تقدير الله تعالى أنَّا نملكها على

الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغَدَرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان، بأنَّا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، والأمراء والأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حَبْلُه، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صُلْبانه، ونُصبت بها أوثانه، وأيس من أنْ يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السِّرِّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر. وبها راجل من السُّودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام[1] أعجام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤] لا يعرفون ربّاً إلا ساكن قصره، ولا قِبْلةً إلّا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكرٌ من الأرمن باقُون على النَّصْرانية، موضوعةٌ عنهم الجِزْية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة. ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تَلَطَّفُ في الضلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتلُه، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل، ودولة قد كبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خَطَرات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وَكُفْرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يُتَسَتَّرُ به ويُحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قُدْرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بِلْبيس ودفعة إلى دِمْياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر[2]، والحشد الأوفر، وخصوصاً

(١) الغتمة، بالضم: العجمة، والأغتم: من لا يفصح شيئاً.
(٢) العدد المجهر: أي العدد المستكثر.

في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرّاً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلِّبه الصليب، والقِراع الذي ينادي به الموت من مكانٍ قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظَّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم ومن ذُرِّية قد تفرَّقت شِيَعُه، وتمزَّقت بدعه، وخفَتت دعوته، وخفِيَت ضلالته، فهنالك تَمَّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخُطْبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حِنْثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته. ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار، فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركباً وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإِسلام فيها مُذْ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذْ مَلَكها أعاديهم. فمنها ما حُكِّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها ما استولت عليه يدُ الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم، فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غيرُ أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإِسلام. ففتح الله هذه القلعة وصارت مَعْقِلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد، وغيرهم من عُبَّاد العباد.

ثم قال: وكان باليمن ما عُلِمَ من ابن مهدي الضَّال الملحد، المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإِسلام، وثأر طالِبُهُ النبيُّ ﷺ، لأنه سبى الشرائف الصَّالحات، وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة، وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها[1]، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها. فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلَّفنا له نفقات واسعة، وأسلحة

(١) الجوح: الإهلاك، والاستئصال، وأجاح: أهلك واستأصل، ومنه الجائحة: للشدة المجتاحة للمال.

رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجح الله فيه القَصْد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يقتضُ الإسلام عُذْرته متمادية.

ولنا في الغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنَّ أمْرَهم قد أَمِر[1]، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرْنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. لأن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: بَرْقة، قَفْصة، قَسْطِيلِية، تَوْزَر كلُّ هذه تقام فيها الخُطْبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ـ أمير المؤمنين سلام الله عليه ـ ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفَّذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلُّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشَّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطينية، وهو الطَّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدَّهر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبَتْ، جَرَت لنا معه غَزَواتٌ بحرية، ومناقلات ظاهرة وسِرِّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعةٍ واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجَنَاح، وإلقاء السِّلاح، والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحةٍ إلى مناصحة، حتى إنه أنذرَ بصاحب صِقِلِّية وأساطيله التي تردَّد ذِكرُها، وعساكره التي لم يخفَ أمرُها.

ومن هؤلاء الكُفَّار هذا صاحبُ صِقِلِّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قُسْطَنْطينية قد اجتمعا في نوبة دِمْياط فغُلبا وقُسرا، وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوَّته المستقلَّة، فعمَّر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثرُ عِدَّته، وينتخب عُدَّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثْلُ حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نَقَلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

(١) أمرهم قد أمر: أي قد تمّ.

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية[١] كلّ هؤلاء تارةً يكونون غُزاةً لا تُطاق ضراوة ضَرِّهم، ولا تُطفأ شرارة شَرِّهم، وتارةً يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصرُ عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المُسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورِيَّة، وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغَزَاة، والعساكر قد تجهَّزت، والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج بانياس، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فُرْصةً مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوِّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقِيَّة التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها.

ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها، وأن كل قلعةٍ قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشَّامية، وأمراء الدولة النُّورية قد سُجن كبارُهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتُهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف، وكل واحدٍ يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً. وعلمنا أن البيت المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتت عروقه، واتَّسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحُجَّة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعْد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدَّواب التي بها على الجهاد القُوَّة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتَلَّة، وأمورٍ مختَلة، وآراء فاسدة، وأمراءٍ متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فإنَّا به أَوْلى من قوم يأكلون الدُّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه.

---

(١) البنادقة والبياشنة والجنوية: طوائف مشهورة من الفرنج، فالبنادقة قاعدة مملكتهم «البندقية» والبياشنة: ويقال لهم البيازنة، قاعدة مملكتهم «مدينة بيزة»، والجنوية، قاعدة مملكتهم «مدينة جنوة» (انظر صبح الأعشى ٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٨).

والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العِهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشَّام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العَبَّاسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعَم به من السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قِرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرْده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى الديوان في تعداد ما له من الأيادي، قال: والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دَوَّخها، وسُنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رَحَضَها، وحجج الزَّندقة التي دحضها. فلله عليه المِنَّة فيه إذْ أهَّله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويدُ الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحرَّكت للفُلْك في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة. فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكُفَّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوَّحت من الكُفْر خضراء دِمَنِهِ.

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العَباسية يقول فيه: حتى أتى الدُّنيا ابن بَجْدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط مَنْ لله في سُخطه رضا، وجعل وجه لابسي السَّواد[1] مُبيضاً، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهمم، ودوَّخت عليه الأمم، وشفى الصُّدور، وجاء بالحق إلى من غَرَّه بالله الغَرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور.

ومن كتابٍ آخر: قد بورك للخادم في الطَّاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في في الأعداء شِفارها، وجمع عليها الدين وكان أدياناً، واستقامت بها القلوب على صِبْغة التكلُّف وكانت ألواناً.

ومن كتابٍ آخر: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشَّام؛

(١) لابسو السواد: هم العباسيون، وكان شعارهم السواد.

المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام وَوَعْره. فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكَّمت الآراء الفاسدة، وفُورقت المحاجُّ القاصدة، وصارت الباطِنية بطانةً من دون المؤمنين، والكُفَّار محمولةً إليها جِزَى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفُهم للنَّصْر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتَطَرُّقَ الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسَيَّروا الصَّليب ومن كُسي مذابحهم بقمامة، وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفَّذوا البطارقَة والقِسِّيسين، برسائل صُوَرِ من يصورونه ممن يسمُّونهم القِدِّيسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارِطُه. وإن كلاً من صاحب قُسْطنطينية، وصاحب صِقِلِّية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبيشانية، والجَنوية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية، وللإسلام بأمير المؤمنين أعزُّ ناصر، لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خَلْقاً.

فصل

[مرثية العماد الكاتب لنور الدين]

قال العماد: وكنت بالموصل فَسُئِلْتُ نَظْمَ مرثيةٍ في نور الدين، فنظمتُ بعد عودي إلى دمشق في رجب: [الكامل]

الدِّين في ظُلَم لغيبة نورِهِ	والدَّهْرُ في غُمم لِفَقْدِ أميرِه
فلْيندُبِ الإسلامُ حاميَ أهله	والشامُ حافظَ مُلْكِهِ وثُغورِهِ
ما أعظم المِقْدَار في أخطاره	إذْ كان هذا الخَطْبُ في مَقْدوره
ما أكثرَ المتأسِّفين لفقدِ مَنْ	قَرَّتْ نواظِرُهُمْ بِفَقْدِ نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه	أوَ ما كفاه الموتُ في تذكيرِهِ
من للمساجدِ والمدارس بانياً	لله طَوْعاً عن خُلُوصِ ضَميرِهِ
مَنْ يَنْصُرُ الإسلامَ في غَزَواته	فلقد أُصيبَ برُكنه وظَهيرِهِ
مَنْ للفرنج ومن لأَسْرِ ملوكها	مَنْ للهُدى يبغي فَكَاك أسيره
من للخُطُوبِ مُذلِّلاً لجماحها	مَنْ للزَّمانِ مُسَهِّلاً لوعُوره
من كاشِفٌ للمُعْضِلاتِ برأيه	من مُشْرِقٌ في الدَّاجيات بنوره

من للكريم ومن لنعش عِثارِهِ … مَنْ لليتيم ومن لِجبْر كسيره
من للبلادِ ومن لنصر جيوشِها … من للجهاد ومن لحِفْظِ أُموره
مَنْ للفُتوحِ محاولاً أبكارها … بِرَواحِه في غَزْوه وبُكُورِهِ
مَنْ للعُلا وعُهودها مَنْ للنَّدَى … ووفوده مَنْ للحِجا ووفُورِه
ما كنتُ أحسبُ نورَ دينِ محمدٍ … يخبو وليْلُ الشِّرْكِ في دَيْجوره
أَعْزِزْ عليَّ بليثِ غابِ للهُدَى … يخلو الشَّرى من زوره وزئيره
أَعْزِزْ عليَّ بأنْ أراه مُغيَّباً … عنْ مَحْفِلٍ متشرِّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها … مُذْ غُيِّبَتْ غاضَ النَّدَى ببحورِهِ
ولَقَدْ أتى مَنْ كنتَ تُؤمن سِرْبَهُ … وقَّع له بالأمن مِنْ مَحْذُوره
ولَقَدْ أتى مَنْ كنت تُجري رسمه … فَضَعِ العلامة منك في منشورِه
ولَقَدْ أتى منْ كنت تكشفُ كُرْبَهُ … فارفَع ظُلامَتَه بنصْر عشيره
وَلَقَدْ أتى مَنْ كنتَ تُؤثر قُرْبَه … فَأَدِمْ له التَّقْريبَ في تقريره
والجيش قد ركب الغَدَاة لعَرْضِهِ … فاركبْ لتُبْصِرَه أوَانَ عبوره
أنت الَّذي أحييْتَ شَرْعَ محمدٍ … وقضيتَ بعد وفاته بنُشوره
كم قد أقمتَ من الشَّريعة مَعْلَماً … هو مُنذ غبتَ مُعَرَّضٌ لِدُثوره
كم قد أمرتَ بحفر خندقِ مَعْقِلٍ … حتى سَكَنْتَ اللَّحْدَ في محفورِهِ
كم قيصرٍ للرُّوم رُمْتَ بقسره … إرْوَاءَ بيضِ الهند من تامورِه[1]
أُوتيتَ فتح حُصُونه ومَلَكْتَ عُقْـ … ـرَ بلاده وسبيتَ أهلَ قُصُوره
أَزَهِدْتَ في دار الفَناء وأهلها … ورَغِبت في الخُلْدِ المقيم وحُورِه
أوَمَا وعدْتَ القُدْسَ أنك مُنْجِزٌ … ميعادَهُ في فَتْحه وظهوره
فمتى تجيرُ القُدْسَ مِنْ دَنسِ العِدَى … وتقدِّسُ الرَّحْمٰنَ في تطهيره
يا حاملينَ سريره مهلاً فمِنْ … عَجَبٍ نهوضُكمُ بحَمْل ثبيره[2]
يا عابرينَ بِنَعشه أَنَشَقْتُمُ … مِنْ صالحِ الأعمالِ نَشْرَ عَبيره
نزلتْ ملائكةُ السَّماءِ لِدَفْنِهِ … مستجمعين على شَفِيرِ حَفِيرِهِ

---

(١) التأمور، بالهمزة الساكنة: الوعاء، والنفس وحياتها، والقلب وحبته، وحياته، ودمُه، أو الدم، والولد، ووعاؤه، وصومعة الراهب، وناموسه، والماء، وعرِّيسة الأسد، والخمر، والإبريق، والحقّة.

(٢) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.

ومِنَ الجفاء له مُقامي بعده ... هلّا وفيتُ وسرتُ عند مسيره
حَيَّاك مُعْتَلُّ الصَّبا بنسيمه ... وسقاك مُنْهَلُّ الحيا بدُرُوره
ولبسْتَ رضوان المهيْمن ساحِباً ... أذيالَ سُنْدسِ خَزِّه وحَريرِه
وسكنْتَ علِّيِّين في فِرْدَوْسِهِ ... حِلْفَ المَسَرَّة ظافراً بأُجورِه

قال العماد: وجاء نَجّابٌ إلى المَوْصِل، وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكُسوة وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحظوة. فهاجني الطَّرَب لقصده، لسابق معرفته وقديم وُدِّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسُّلْطان على حلب.

وكان العماد في عقائيل[1] ألم، فلمّا شُفي وعاد السُّلْطان إلى حمص قصده فيها وقد تَسلَّم قلعتها في شعبان، في الحادي والعشرين منه.

قال: وكنتُ نظمتُ قصيدةً في الشَّوْق إلى دمشق والتأسُّف عليها، ثم جعلت مَدْحَ السُّلْطان مخلصها، وهي طويلة، أولها[2]: [المتقارب]

أجيرانَ جَيْرونَ مالي مُجيرُ ... سوى عَطْفِكُمْ فاعدِلُوا أوْ فَجُوروا
ومالي سوى طَيْفِكُمْ زائرٌ ... فلا تمنعوه إذا لَمْ تزوروا
يَعِزُّ عليَّ بأنَّ الفؤادَ ... لدَيْكُمْ أسيرٌ وعنكم أَسِيرُ
وما كنتُ أعلم أنّي أعيـ ... ـشُ بعد الأَحِبَّةِ إنـي صَبُورُ
وَفَتْ أدْمُعي غير أن الكَرَى ... وقلبي وصبري كلٌّ غَدُورُ
إلى ناس بَانَاس لي صَبْوَةٌ ... لها الوجدُ داع وذكرى مثيرُ
يزيد اشتياقي وينْمُو كما ... يزيدُ يزيد وثَوْرا يثورُ
ومن بَرَدى بَرْدُ قلبي المشوق ... فها أنا من حَرِّه مستَجيرُ
وبالمَرْج مَرْجُوُّ عَيْشي الذي ... على ذِكْرِهِ العَذْبِ عَيْشي مريرُ
فَقَدْتُكُمُ فَفَقَدْتُ الحياة ... ويومَ اللِّقاء يكونُ النُّشورُ
تطاولْ لسؤليَ عند القُصَير ... فعن نَيْلِهِ اليومَ باعي قَصِيْرُ
وكن لي بريداً بباب البريد ... فأنتَ بأخبارِ شوقي خبير
متى تجد الرِّيَّ بالقريتَين ... خَوامِسُ أثَّرَ فيها الهجيرُ

---

(١) عقائيل: كذا بالأصل، ولعلها: عقابيل: وهي بقايا العلة والعداوة والعشق، وما يخرج على الشفه غبّ الحمى، والشدائد، واحدة الكل: عقبولة وعقبول، بضمهما.

(٢) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ١٩ ـ ٢٩.

ونحو الجُلَيْجِل أُزجي المَطِيَّ ... لقد جَلَّ هذا المَرَامُ الخطيرُ
تُراني أُنيخ بأدنى ضُميرٍ ... مطايا بَراها الوَجَا والضُّمُورُ
وعند القُطَيِّفَة المشتهاة ... قُطُوفٌ بها للأماني سُفُورُ
ومنها بُكوريَ نحو القُصَير ... ومُنْيَةُ عُمْريَ ذاك البُكُورُ
ويا طِيبَ بُشْرايَ من جِلِّقٍ ... إذا جاءني بالنَّجاحِ البشيرُ
ويَبشُرُ الأصدقاءُ الكرامُ ... هنالك بي وتُوفَّى النُّذُورُ
تُرَى بالسَّلامة يوماً يكون ... ببابِ السَّلامة مني عُبورُ
وأنَّ جوازي بباب الصَّغير ... لَعَمْري من العُمْر حظٌّ كبيرُ
وما جَنَّةُ الخُلْدِ إلا دمشقُ ... وفي القَلْبِ شوقٌ إليها سعيرُ
ميادينها الخُضْرُ فِيحُ الرِّحاب ... وسَلْسالُها العَذْبُ صافٍ نميرُ
وجامعها الرَّحْبُ والقُبَّةُ الْـ ... ـمُنيفةُ والفلَكُ المستديرُ
وفي قُبَّةِ النَّسْرِ لي سادَةٌ ... بهمْ للمكارم أُفْقٌ مُنيرُ
وبابُ الفَراديس فِرْدَوْسُها ... وسُكَّانُها أحسنُ النَّاس حورُ
والأرزة فالسَّهْمُ فالنَّيْرَبانِ ... فجنَّاتُ مِزَّتِها فالكُفُورُ
كأنَّ الجواسِقَ مأهولةً ... بروجٌ تَطَلَّعُ منها البُدُورُ
بنيربها تتسبير(١) الهموم ... بربوتها يتربَّى السُّرورُ
وما غَرَّ في الرَّبوة العاشقيـ ... ـنَ بالحُسْنِ إلّا الرَّبيبُ الغَريرُ
وعند المغارة يَوْمَ الخميس ... أغارَ على القَلْبِ مني مُغِيرُ
وعند المُنَيْبِع عَيْنُ الحياة ... مَدَى الدَّهْرِ نابعةٌ ما تَغُورُ
بجسر ابن شَوَّاش تَمَّ السُّكون ... لنفسي بنفسيَ تلك الجسورُ(٢)
وما أنْسَ لا أنْسَ أُنْسَ العبور ... على جسر جِسْرين إني جَسُورُ
وكمْ بِتُّ أَلْهو بِقُرب الحبيـ ... ـب في بيت لِهْيا ونام الغَيُورُ
فأينَ اغتباطيَ بالغُوطتين ... وتلك الليالي وتلك العُصُورُ
وأشجار سَطْرا بَدَتْ كالسُّطُو ... رِ نَمَّقَهُنَّ البليغُ البصيرُ
وأيْنَ تأمَّلْتَ فُلْكٌ يدورُ ... وعينٌ تفُور وبحرٌ يمورُ

---

(١) تتسبير: كذا في الأصل، ولعلها: تستبير، أو تتبرا كما في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام.

(٢) جسر ابن شوَّاش: أحد متنزهات دمشق (معجم البلدان ٣/ ٣٧٠).

وأيــن نَــظَــرْتَ نــســيــمٌ يــرِقُّ وزهــرٌ يــروقُ وروضٌ نَــضِــيْــرُ
إلامَ الــقــســاوة يــا قــاسِــيــون وبــيــن الــسَّــنــا يــتــجــلَّــى سَــنــيــرُ
ومُــنْــذُ ثَــوى نــورُ ديــنِ الإلــــه لــم يــبــقَ لــلــدِّيــن والــشَّــام نُــورُ
ولــلــنَّــاس بــالــمــلــكِ الــنَّــاصِــرِ الــصَّــ(م) ـلاحِ صــلاحٌ ونَــصْــرٌ وخــيــرُ
هــو الــشَّــمْــسُ أفــلاكُــه فــي الــبــلادِ ومَــطْــلِــعُــهُ سَــرْجُــهُ والــسَّــريــرُ
إذا مــا ســطــا أو حــبــا واحــتــبــى فــمــا الــلَّــيــثُ مَــنْ حــاتــمٌ مــا ثــبــيــرُ
بــيــوسُــف مِــصْــرٍ وأيــامِــهِ تَــقَــرُّ الــعــيــونُ وتَــشْــفــى الــصُّــدورُ
مــلــكــتَ فــأَسْــجِــحْ فــمــا لــلــبــلادِ ســواكَ مــجــيــرٌ ومــولًــى نَــصِــيــرُ
وفي مِعْصَمِ المُلك للعزِّ منك سِــوَارٌ ومــنــك عــلــى الــدِّيــن سُــورُ
لــك الــلَّــهُ فــي كــلِّ مــا تــبــتــغــيــه بــحــقٍّ ظــهــيــرٌ ونِــعْــمَ الــظَّــهــيــرُ
أمَــا الــمــفــســدونَ بــمــصــر عَــصَــوْكَ وهــذي ديــارهــمُ الــيــومَ قُــورُ[1]
أمــا الأدعــيــاءُ بــهــا إذْ نَــشَــطْــتَ لإبــعــادهــم زال مــنــك الــفُــتُــورُ
ويــوم الــفــرنــج إذا مــا لــقــوك عَــبُــوسٌ بــرغــمــهــمُ قَــمْــطَــرِيــرُ
نهوضاً إلى القُدْسِ يشفي الغليل بــفــتــح الــفُــتــوحِ ومــاذا عــســيــرُ
سَلِ الله تسهيل صَعْب الخُطُو ب فــهــو عــلــى كــلِّ شــيءٍ قــديــرُ
إلــيــك هَــجَــرْتُ مــلــوكَ الــزمــان فــمــا لَــك والله فــيــهــم نــظــيــرُ
وفــجــرك فــيــه الــقِــرى والــقُــرَان جــمــيــعــاً وفَــجْــرُ الــجــمــيــعِ الــفُــجُــورُ
وأنــتَ تــريــقُ دمــاءَ الــفِــرَنْــجِ وعــنــدَهُــمُ لا تــراقُ الــخــمــورُ

فصل

في فتح بَعْلَبَكّ

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطانُ من حمص وحَصَّنها سار إلى بعلبك، فتسلَّمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يُمْن، فلما شاهد كثرة عساكر السُّلْطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلَّم بعلبك إلى السُّلْطان.

(١) القور: يقال: لقيت منه الأقورين، بكسر الراء والأقوريات: أي الدواهي، والقَوَر، محركة: العور.

قال العماد: وهنأته بأبياتٍ، منها: [الكامل]

بفُتوح عَضْرِك يَفْخَرُ الإسلامُ ... وبنُور نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيّامُ
وبفتح قلعة بَعْلَبَكَّ تهذَّبَتْ ... هذي الممالكُ واستقام الشّامُ
وبكى الحَسُودُ دماً وثَغْرُ الثَّغْرِ من ... فَرَحٍ بنصْرك للهُدَى بَسّامُ
فتحٌ تَسنَّى في الصِّيام كأننا ... شكراً لما مَنَحَ الإلٰه صِيَامُ
من ذا رأى في الصَّوْمِ عيدَ سعادةٍ ... حَلَّت لنا والفِطْرُ فيه حَرَامُ
أسدى صلاح الدِّين والدُّنيا يداً ... بِنَوالها سُوقُ الرَّجاء تُقَامُ
فتملَّ فَتْحك واقصدِ الفتح الذي ... بحصوله لفُتوحك الإتمامُ
دُمْ للعُلا حتى يدومَ نظامُها ... واسلَمْ يَعِزُّ بنصرِك الإسلامُ

قال: ولزمتُ خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله. وكنتُ ليلة عنده وهو يذكر جماعةً من شعراء الزّمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أُسامة بن مُرْشد بن سديد الملك علي بن مُنْقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف. وقد استحسن قصيدةً له طائيَّة، لو عاش الطائيَّان[1] لأقرَّا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها. على أنَّ الشّعراء المحدثين ما منهم إلّا من نظم على رويّها ووزنها، واستمد خِصْب خاطره من مُزنها، فمنهم المَعَرِّي[2]، وابن أبي

(١) الطائيان: هما حاتم الطائي وأبو تمام الطائي. وحاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي، يضرب المثل بجودة شعره كثير، ضاع معظمه، توفي سنة ٤٦ قبل الهجرة (الأعلام ٢/ ١٥١).

وأبو تمام الطائي: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، شاعر وأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم، من قرى حوران بسورية، توفي سنة ٢٣١هـ (الأعلام ٢/ ١٦٥، معاهد التنصيص ١/ ٣٨).

(٢) المعري: هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد، أبو العلاء المعري، من معرة النعمان، الأديب اللغوي، ولد سنة ٣٦٣هـ، بالمعرة، وعمي من الجدري أول سنة ٣٦٧هـ، ودخل بغداد سنة ٣٩٨هـ، ودخلها ثانية سنة ٣٩٩هـ، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله وشرح في التصنيف، توفي سنة ٤٤٩هـ، بالمعرة، له العديد من المصنفات، «إسعاف الصديق»، «الأمالي في الأدب»، «تفسير أمثلة سيبويه»، «تفسير خطبة الفصيح في اللغة»، «تفسير سقط الزند»، «تفسير منار القائف له»، «ثقة الواعظ»، «جامع الأوزان الخمسة»، «الحقير النافع في النحو»، «حماسة الراح في ذم الخمر»، «ذكرى الحبيب فيما في شرح ديوان أبي تمام من الغريب»، «راحة اللزوم في شرح لزوم ما لا يلزم»، «رسالة الغفران»، «سقط الزند» ديوان شعره، «ضوء السقط»، «كتاب الأيك والغصون» في اللغة، «كتاب الفائق» على مثال كليلة ودمنة، «كتاب القوافي»، «اللامع الغزنوي في شرح ديوان المتنبي»، «لزوم ما لا يلزم»، «معجز أحمد»، «مختصر ديوان أبي تمام»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧، وفيات الأعيان ١/ ١١٣ ـ ١١٦، معجم الأدباء ١/ ١٨١، الأعلام ١/ ١٥٧).

حُصَيْنَة[1]، والأرَّجاني[2]. والصَّالح بن رُزِّيك[3]. وقد أوردت جميعها في كتاب «الخريدة»، ومطلع قصيدة المعرِّي[4]: [الطويل]

لمن جِيرةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فلم يُنْطُوا

فنظمتُ في السُّلْطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية، منها[5]: [الطويل]

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرَّهْطُ قَسَطْتُمْ ومن قَلْبِ المحبِّ لكم قِسْطُ

شَرَطْتُمْ لنا حِفْظَ الوِدَادِ وخُنْتُمُ حَنَانَيْكُمُ ما هكذا الوُدُّ والشَّرْطُ

جَعَلْتُمْ فؤادَ المُسْتهام بكم لكم محطّاً فعنه ثِقْلَ هَمِّكُمُ حُطُّوا

مَلَكْتُمْ فَأَنْكَرْتُمْ قديمَ مَوَدَّتي كأنْ لم يكن في البينِ معرفةٌ قَطُّ

فَدَتْ مهجتي من لا يُذَمُّ لمهجتي إذا حاكمَتْهُ وهو في الحُكْم مُشْتَطُّ

وما كنتُ أدري قبلَ سَطْوَة طَرْفِهِ بأنَّ ضعيفاً فاتراً مِثْلَه يَسْطُو

وأهيفَ للإشفاقِ من ضَعْفِ خَصْرِهِ يحلُّ نطاقاً للقلوب به رَبْطُ

يلازمُ قَلبي في الهوى القَبْضُ مثلما يلازمُ كفَّ النَّاصِرِ الملكِ البَسْطُ

مليكٌ حوى الملكَ العقيمَ بضبطه كريمٌ وما للمالِ في يَدِهِ ضَبْطُ

---

(١) ابن أبي حصينة: هو الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار، المعروف بابن أبي حصينة، ولد في معرة النعمان سنة ٣٩٠هـ، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، فامتدح أمراءها، أوفد رسولاً إلى مصر للخليفة المستنصر سنة ٤٣٧هـ، وسنة ٤٥٠هـ، ومدحه سنة ٤٥١هـ، بقصيدة، فمنحه لقب الإمارة، توفي سنة ٤٥٧هـ (وفي كشف الظنون توفي سنة ٥٠٠هـ). (انظر: كشف الظنون ٥/ ٢٧٨، معجم الأدباء ١٠/ ٩٠ ـ ١١٨، تاريخ ابن الوردي ١/ ٥٥٠ ـ ٥٥١، فوات الوفيات ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤).

(٢) الأرجاني: هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني (بفتح الهمزة وتشديد الراء وفتح الجيم وبعد الألف نون، كورة من الأهواز)، القاضي ناصح الدين، أبو بكر الفقيه الشاعر، ولد سنة ٤٦٠هـ، كان قاضياً بتستر وعسكر مكرم، وله شعر رائق، وهو عربي المحتد، توفي سنة ٥٤٤هـ، له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، الأنساب ١/ ١٧٤، معجم البلدان ١/ ١٤٤، وفيات الأعيان ١/ ١٥١ ـ ١٥٥، العبر للذهبي ٤/ ١٢١، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٨، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٥٢ ـ ٥٧).

(٣) الصالح بن رزيل: هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، أبو الغارات، وزير مصر، ولد سنة ٤٩٥هـ، وتوفي سنة ٥٥٦هـ، له ديوان شعره في مجلدين (كشف الظنون ٥/ ٤٣٢).

(٤) عجز البيت:

يظلّلهم ما ظلَّ ينبته الخطُّ

(٥) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٥ ـ ٣١.

إذا لُثِمَتْ أيدي الملوكِ فعندَه مدَى الدَّهرِ إجلالاً له تُلْثَمُ البُسْطُ
عَنا لك طَوْعاً نيلُ مصرٍ ودِجْلَةُ الـ ـعراقِ ودانَ العُرْبُ والعُجْمُ والقِبْطُ
وللنِّيلِ شطٌّ ينتهي سَيْبُه به ونَيْلُكَ للرَّاجينَ نِيلٌ ولا شَطُّ
عدوُّك مثلُ الشَّمْعِ في نار حِقْدِهِ له عُنُقٌ إصلاحُ فاسِدِهِ القَطُّ

وهي ثمانية وثمانون بيتاً.

ولسعادة الأعمى قصيدة طائيّة في السُّلْطان سيأتي ذِكْرُها.

قال العماد: ولما وصلتُ إلى السُّلْطان، ورغبت منه في الإحسان، وجدته لأمري مُغْفلاً، ولشُغلي مهملاً، ثم عرفت أن حُسَّادي قالوا له: متى أعَدْتَ ديوان الكتابة إلى العماد، وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعَّث سِرُّه. فلما عرفتُ هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يُعْنى، فقام بأمري، ونَوَّه بقدري، وأراح سِرِّي، وشَدَّ أَزْري.

فـصـل

فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيين مع السُّلطان في هذه السنة

قال ابنُ شدَّاد: ولما أحسَّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أنَّ الرجل قد استفحل أمره، وعَظُمَ شأنه، وعَلَت كلمته، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقرَّ قدمه في المُلك وتعدَّى الأمر إليه. فجهَّز عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدَّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً، وساروا يريدون لقاء السُّلْطان، وضَرْبَ المصافِّ معه، وردَّه عن البلاد. فوصل إلى حلب والسُّلْطان بحمص، وانضمَّ إليه[1] من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جَمْعٍ عظيم. ولما عرف السُّلْطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة وراسلهُم وراسلُوه، واجتهد أن يُصالحهم فَمَا صالحوه، ورأوا أن المصافَّ ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجرُّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسرُوا بين يديه، وأَسَر جماعةً منهم، ومنَّ عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر شهر رمضان.

(١) إليه: كذا بالأصل، والأصح: إليهم.

ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثَّانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة، وكفر طاب، وبارين.

وقال العماد: لما تسَلَّم السُّلْطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود ـ أخو صاحب الموصل ـ إلى حلب نجدة. ولما عرفوا أن السّلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماة فحَصَروها، وراسلوا في الصُّلْح. فَقَدِمَ السُّلْطان في خِفٍّ من أصحابه، وجاء كُمُشْتِكِين وابن العَجَمي وغيرهما، وأجابهم السُّلْطان إلى ما طلبوا، وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصَّالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردَّ كلّ ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة. فلما رأَوْه مجيباً لكل ما يُلتمس منه وهو في عسكرٍ خفيف قالوا: ما خبره صحيح. فشرعوا في الاشتطاط، وطلبوا الرَّحْبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، وكيف أُلحق به في رضاكم المكروه. فنفَروا وجفلوا، وأصبحوا على الرَّحيل إلى جانب العاصي قريباً من شَيْزَر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصافّ وعَزْم الانتصاف. فعَبَّر السُّلْطان إلى سفح قرون حماة خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه. ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدَّمين منهم فَرُّخْشاه وأخوه تقي الدين. والتقوا، فهزمهم السُّلْطان، ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمتُ في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شِيركُوه قصيدةً، فقد كان له فيها غَنَاء وبلاء حسن، منها: [الكامل]

وَلَقَدْ أَلِفتُ نِفارَها وهَوَيْتُها ... إذ ليس يُنكَرُ للظِّباء نِفارُ

يا جارةً للقلب جائرةً دَعِي ... ظُلمي وإلّا قلتُ جارَ الجارُ

قلبي كَطَرْفِكِ ما يُفيق إفاقةً ... سكران ما دارت عليه عُقَارُ

صَبٌّ بصبِّ الدَّمْع محترِقُ الحشا ... خَطَرَتْ ببالِ بلائه الأخطارُ

لم يَخْشَ من خَطَرِ الهوى حتى حَمى ... ذاكَ القَوامَ شَبيهُهُ الخَطَّارُ

يَذْري الدُّموع كأنَّهن عوارفٌ ... لابْنِ المملَّك شِيركُوه غِزَارُ

من آل شاذي الشَّائدين بُنَى العُلا ... أركانُهنَّ لَهَاذِمٌ وشِفَارُ

حَسُنَتْ بهم للدَّوْلَةِ الأيامُ والـ ... أعمالُ والأحوالُ والآثارُ

قد حاز مُلْكَ الشَّام يوسفُ الذي ... في مصر تَغْبِطُ عَصْرَه الأعْصَارُ

نَصَرَ الهُدَى فتوطَّد الإسلامُ في ... أيامِهِ وتَضَعْضَعَ الكُفَّارُ

لمَّا لقيتَ جُموعَهم منظُومَةً ... صَيَّرْتَ ذاك النَّظْمَ وهو نِثارُ

فـي حـالـتَـيْ جُـودٍ وبـأسٍ لـم يَـزَلْ ... لـلـتِّـبْـرِ والأعـداءِ مِـنْـكَ تَـبَـارُ
تَـهَـبُ الألـوفَ ولا تـهـابُ ألـوفَـهـم ... هـانَ الـعـدوّ عـلـيـك والـدِّيـنـارُ
لـمـا جَرَى الـعـاصـي هنالك طـائـعـاً ... بـدمـائـهـم فَـخَـرَتْ بـه الأنـهـارُ
وتـحـطَّـمَـتْ عـنـد الـقُـرونِ قُـرُونُـهُـمْ ... بـل كَـلَّـتِ الأنـيـابُ والأظـفـارُ
عَـبَـروا الـمَـعَـرَّة مـالـكـيـن مَـعَـرَّةً ... والـعـارُ يُـمـلـكُ تـارةً ويُـعَـارُ
أوَمَـا كـفـاهـم يـوم حـمـص وكـفِّـهـم ... فـي بَـعْـلَـبَـكَّ بـمـثـلـهـا الإنـذارُ

قال: وهنَّأت الملك المُظفَّر تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب بقصيدةٍ، منها: [الكامل]

لا تُـفْـنِ مِـنْ فَـرَقِ الـفِـراقِ الأَدْمُـعَـا ... فـهـي الـشـهـودُ عـلى الـغَـرَام الـمُـدَّعَى
واستبقِ صَبْـرَكَ مـا اسْتَطَعْتَ فإنه ... عَـوْنٌ لـقـلـبـك إن هُـمـا ثَـبـتـا مـعـا
قـلـبٌ أصـابَـتْـهُ الـعـيـونُ ولـم يَـزَلْ ... من مَـسِّـهـا بـالـهـاجـسـاتِ مُـرَوَّعـا
مـا بـالُـه قـد صَـدَّ عـنـد صُـدُودهـم ... عـنـي ولـمَّـا ودَّعُـونـي وَدَّعـا
ومـن الـتـحـيُّـرِ أنـنـي أَبْـصَـرْتُـهُ ... في ظَعْنهم وسألتُ عنه الأَضْلُعا
أصـبـحـتُ إذ شَـيَّـعْـتُـهـم لـثـلاثـةٍ ... صبري وغمضي والفؤاد مشيِّعا

أوَمـا اتَّـقـيـتـم حـيـن رُعْـتُـم سِـرْبَـه ... فـيـه تـقـي الـدِّيـن ذاك الأَرْوَعـا
عـمـر بـن شـاهِـنْـشـاه مَـنْ هـو عـامرٌ ... أركانَ مُلْكِ الشَّام حين تَضَعْضَعا
خَـضَـعَ الـعـدوُّ وذلَّ بـعـد تـعـزُّزٍ ... لـكـمُ وحـقُّ عـدوُّكـم أنْ يـخـضَـعَـا
مِـنْ مـعـشـرٍ غُـرٍّ يَـرَوْنَ جـمـيـعَ مـا ... لـم يـبـذُلُـوه في الـسَّـمـاح مـضـيَّـعـا
في مصرَ والـيـمـنِ اجـتـلـيـنـا مـنـهـمُ ... في عـصـرنـا تـبـعـاً لـيـوسـف تُـبَّـعـا
الـحـاويـان بـمـلـك مـصـر ومـكَّـةٍ ... والـشَّـام والـيـمـن الـحظـايـا الأَرْبـعـا
لـمـا عـصـى الأعـداءُ بـالـعـاصـي جرى ... بـدمـائـهـم طَـوْعـاً سُـيُـولاً دُفَّـعـا

وقال ابنُ أبي طيّ: لما تسلَّم السُّلْطان بَعْلَبَكَّ وأزاح عِللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود ـ أخي سيف الدين صاحب الموصل ـ نجدةً للملك الصَّالح. وكان سببُ وروده أن جماعةَ أمراءِ حلب لما كان السُّلْطان نازلاً على حلب أجمعوا على آرائهم وكاتبوا سيف الدين، وألزموه نجدة ابن عَمِّه، وأخْبَروه أنَّ السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصدٌ إلا الموصل. وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب، وقُطْب الدين ينَال بن حَسَّان، وغَرْس الدين قليج.

وكان سيف الدين منازلاً لسِنجار، وفيها أخوه عماد الدين زَنْكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السُلْطان بقطعةٍ من جيشه فكسرهم، ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره.

فلما وصلت رسالةُ الحلبيين إلى سيف الدين صالحَ أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ نُخَبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك. فاغتنم الحلبيون بُعْدَ السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيَّموا على حماة، وأخذوا في حصارها. واتَّصل بالسُلْطان ذلك، فرحل من بَعْلَبَكَّ إلى حمص، وبلغ عزَّ الدين، فعاد عن حماة، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شَيْزَر.

وراسل النائب بحماة علي بن أبي الفوارس، يقول له: إنما وَصَلْتُ في إصلاح الحال ووَضْعِ أوزار القتال. وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلُمُّ شَعَثَ الفُرْقة. فكتبَ ابنِ أبي الفوارس بذلك إلى السُلْطان، وحَسَّن له الصُلح، وتلطَّف في ذلك غاية التَّلَطُّف.

وقدم أبو صالح ابن العجمي وسعد الدين كُمُشْتِكِين لطلب الصُلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا، وتقرَّر الأمر على أنه يردُّ إليهم جميعَ الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدَها، ويكون نائباً للملك الصَّالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصُلْح، والنُزول عن جميع الحُصُون التي أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع في جانب السلطان، وتجاوز الحدَّ في الاقتراح، وطلب الرَّحْبة وأعمالها. فقال: هي لابن عمي، ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه، فاجتهد السُلْطان به أن يرجع فلم يفعل، وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعدُ نازلاً على حماة، وحدَّثه ما دار بينه وبين السلطان، وهوَّن عليه أبو صالح أمرَ السُلْطان، وأخبره بقِلَّة من معه.

وكان السلطان لما كُوتب في أمر الصُلْح سار في خِفٍ من أصحابه، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعَوَّلوا على لقائه، وانتهاز الفرصة في أمره. فكاتب باقي أصحابه واستعدَّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماة، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يَقْدَمَ عليه باقي عسكره. وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال. وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلةٍ يفتعلها، تسويفاً للأوقات وتقطيعاً للزمان، حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صُدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرْصة، ونالوا منه الغَرَض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد وَصل للسلطان من عسكره أحد. فتجمع أصحاب السلطان كُرْدُوساً واحداً، وأخذوا يحملون يمنةً ويسرةً، ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضَرِي عسكر حلب والعسكر المَوْصلي على أصحاب السُّلْطان حين شاهدوا قِلَّتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولُّون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان، فإنه لو تأخَّر ساعة انكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكَرِّ، والضَّرْب الهَبْر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة، فصدموا عسكر المَوْصِل صدمةً ضعضعتهم.

وكان السُّلْطان في هذه المدة قد كاتَبَ جماعةً من عسكرهم واسْتَفسَدهم إليه، وحمل إليهم الأموال، وهذا هو الذي بَطَّأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السُّلْطان على الثُّبوت ساعة. فلما اشتدَّ القتال لم تنصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قَرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا، وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السُّلْطان أصحابه ألا يُوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً، ولا يُذَفِّفوا على جريح[1]، ورحل حتى نزل في منزلتهم.

ثم سار من وقته مجدّاً حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عَيَّد عيد الفطر، فجاءته رُسُل الملك الصَّالح يسألونه المهادنة، وأن يقرّ الملكُ الصَّالح على ما في يده، وما هو جارٍ تحت حُكْمه من الشَّام الأسفل إلى بلد حماة، فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرَّة وكَفْر طاب، فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتُها، وعليها خَطُّه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصَّالحَ عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغيِّر الدُّعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السِّكَّة باسمه.

ولما حلف السلطان والملك الصَّالح وأمراؤه عاد السلطان قاصداً دمشق. فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السُّود، وتوقيعٌ من الدِّيوان بالسَّلْطنة ببلاد مصر والشَّام.

---

(١) ذفّف على الجريح: أجهز عليه.

وفي هذه الخِلَع يقول ابن سعدان الحلبي[(١)]:

يا أيها المَلْكُ العزيزُ فَضْلُه لقد غَدَوْتَ بالعُلا مَليًّا
كفى أميرِ المؤمنين شَرَفاً أنك أصبحتَ له وليًّا
طارحك الودَّ على شَحْطِ النّوى فكنتَ ذاك الصَّادِقَ الوفيّا
أوْلاكَ من لباسِهِ زخرفةً لم يُولِها قبلك آدمِيًّا
ناسبَتِ الرَّوْضَ سناً وبهجةً حتى حَكَتْهُ رَوْنقاً وزِيّا

قال: ورحل السُّلْطان من حماة إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني، وكان خرج إلى السُّلْطان لما وَصَل إلى الشَّام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حِصْن بعرين، فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نزل السُّلْطان قراحصار، بنيَّة الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة، ولا تُشْمِتُوا بنا العُدَاة، فاستزدنا عليهم كفر طاب والمعرَّة، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرَّة، وسألهم في المعتقلين، إخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتَمَّ الصُّلح، وعَمَّ النُّجح.

ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات، والتقليد بما أراد من الولايات. وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخِلَع، وخص ناصر الدين محمد بن شِيركُوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين، رحمه الله تعالى.

[تسلم صلاح الدين حصن بعرين]

ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوَّال، وأقطع مدينة حماة لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محموداً، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين.

قال العماد: وأذكر أنَّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس

(١) ابن سعدان الحلبي: هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وأورد له ياقوت الحموي أشعاراً في معجم البلدان: «جبل السماق»، «باب الجنان»، «فامية»، «ليلون»، «دابق»، «الدارين».

وادلهمَّ النهار، وغلب على القلوب الاستشعار، وطاحت الأنوار، وخفيت الرُّسوم، وظهرت النجوم؛ وجئنا حمص، ثم بَعْلَبَكَّ، ثم البِقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذِكْرُ ما قرَّره حُسَّادي في خاطر السلطان، وقالوا: شُغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل، وهذا تَصْرفُه برِفدٍ جزيل، ووجهٍ جميل. والسُّلْطان مع شِدَّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النَّجاح في أمري متشوِّف.

وكنت قد أنست مدَّة مقامي بالمعسكر بذي المجد والمفخر، ومورد الكرم والمصدر، الأمير نجم الدين بن مَصَال، وهو ذو فضلٍ وإفضال، وقَبول وإقبال، وله من السُّلْطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إليَّ لفضله، ونباهته ونبله. وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرِّداً بسؤدَدِه ومجده. وكان من أهل السُّنَّة والجماعة، والتُّقى والورع والعفاف والطَّاعة، وله يَدٌ عند السلطان في النُّوَب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الإحسان والبر، لا سيما عند كونه بالإسكندرية محصوراً. وكان إحسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً. فلما ملك أَحَبَّه، واختار قُرْبَه، فلزِمْتُ له التودُّد، وإليه التردُّد، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجلِّ الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفتُ خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشِعْراً، فمن ذلك ما كتبتُه إليه[1]: [السريع]

لعلَّ نجمَ الدِّين ذا الفضل ... يُذكِّرُ الفاضلَ في شُغلي
إنَّ أجلَّ النَّاسِ قَدْراً فتًى ... بفضله يَتْعَبُ من أجلي
ومثلُهُ من يعتني بالعُلا ... ويستديمُ الحَمْدَ من مِثْلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مِدْحةً حين لقيته بحمص في شعبان، منها[2] [الكامل]

عايَنْتُ طَوْدَ سكينةٍ ورأيت شَمْـ ... ـسَ فضيلةٍ وَوَرَدْتُ بَحْرَ فواضِلِ
ورأيتُ سَحْبَان البلاغةِ ساحباً ... ببيانه ذَيْلَ الفَخار لوائِلِ

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٧.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٧ ـ ٣٩.

أبصرتُ قُسّاً في الفَصَاحة معجزاً ... فعرفتُ أني في فهاهة باقِلِ
حِلْفُ الحصافة والفصاحة والسَّما ... حةِ والحماسةِ والتُّقى والنَّائلِ
بحرٌ من الفَضْلِ الغزير خِضَمُّهُ ... طامي العُباب وما لَهُ من ساحِلِ
وجميعُ ما في الأرض سبعة أبحر ... وبحوره تُسْمى بِعَشْرِ أنامِلِ
في كفِّه قَلَمٌ يعجِّلُ جَرْيُه ... ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلِ
يجري ولا جَرْيَ الحُسام إذا جَرَى ... حَدَّاه بل جَرْيَ القضاءِ النَّازِلِ
نابَتْ كتابتُهُ منابَ كتيبةٍ ... كَفَلَتْ بهَزْمِ كتائبٍ وجَحَافِلِ
فَعَدُوُّهُ في عَذْوه ووليُّه ... في عَذْله أكرِمْ بِعادٍ عادِلِ
ريَّان من ماءِ التُّقى صادٍ إلى ... كَسْبِ المحامِدِ وهي خَيْرُ مناهِلِ
يا واحد العَصْرِ الذي بَذَّ الورى ... فضلاً بغير مُشابهٍ ومُشَاكِلِ
مالي وجاهَ الجاهلين فأغْنِني ... عنهمْ كُفيتَهُمُ وَجُدْ بالجاه لي
أرجوك مُعتنياً لدى السُّلطان بي ... كَرَماً فمثلُك يَعْتني بأماثلي
قَرِّر ليَ الشُّغْلَ المبجَّل مُخْلياً ... بالي من الهمِّ المقيمِ الشَّاغِلِ

قال: فدخل الفاضل إلى السُّلْطان، وعَرَّفه أنه فيَّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سَفْرة، وغداً يكاتبك ملوكُ الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم، والعمادُ يفي بذلك ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النُّورية مقدارُه. وأخذ لي خَطَّ السلطان بما قرَّره لي من شغلي، وقد عَرَفَ أن الأجلَّ الفاضل قد أجَلَّ فضلي.

قال: وخدمتُ أمير المؤمنين المستضيء[1] في ذي القَعْدة مع الرّسل بهذه القصيدة[2]: [الطويل]

أصحُّ عقود الغانيات مَرِيضُها ... وأفتكُ ألحاظِ الحِسان غَضِيضُها
ومِنْ عَجَبٍ صَلَّتْ لِقِبْلَةِ بأسِهِمْ ... رؤوسُ أعادٍ من ظُباهم مَحِيضُها

---

(١) المستضيء: هو الخليفة العباسي أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، تولّى الحكم سنة ٥٦٦هـ، عند موت أبيه الإمام المستنجد بالله، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليماً، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، كانت وفاته في سنة ٥٧٥هـ (الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣ ـ ٧٩، وفيات الأعيان ٤/ ٤٧٠، ٧/ ١٥٧.

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٧١ ـ ٧٦.

[ظهور متنبئ في مشغرا]

قال ابن أبي طيّ: وظهر في مَشْغَرا ـ قَريةٌ من قرى دمشق ـ رجلٌ ادعى النبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التَّخاييل والتمويهات ما فُتن به النَّاس، واتَّبعه عالم عظيم من الفَلَّاحين وأهل السَّواد، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل، وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد عقول الفلَّاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوي امرأةً وعلَّمها ذلك، وادَّعت أيضاً النبوَّة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الأُرْتُقي صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر بولده شهاب الدين محمد.

[الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين]

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين(١)

قال العماد: والسُّلْطان نازل بمرج الصُّفَّر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهُدْنة، فأجابهم السُّلْطان بعد أن اشترط عليهم أموراً، فالتزموها.

وكان الشَّام ذلك العام جَدْباً، فأَذِنَ السلطانُ للعساكر المصرية في الرَّحيل إلى بلادهم وإذا استغلُّوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده.

وواظب السلطان على الجلوس في دار العَدْل، وعلى الصَّيْد، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها: [المتقارب]

سواكَ لسهمِ العُلا لن يريشا ... فنسألُ رَبَّ العُلا أن تعيشا

من الناس بالبِرِّ صِدْتَ الكِرام ... وبالبأس في البرِّ صِدْتَ الوحوشا

وكَمْ سِرْتَ من مِصْرَ نحو العريش ... فهدَّمْتَ للمشركينَ العُروشا

سراياكَ تَبعثُ قُدَّامها ... من الرُّعب نحو الأعادي جيوشا

ويوم حماةَ تركتَ العُدَاة ... كما طَيَّرَت بالفلا الرِّيحُ ريشا

قال: ومَدَحتُ مستهل ربيع الأول تقيَّ الدين بقصيدةٍ موسومة، وكان قد فَوَّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أُسبَق إليهما، وهما: [الوافر]

يفيدُ العاقِلَ اليَقِظَ التَّغابي ... لِيُدْرِكَ في الغِنى حَظَّ الغبيِّ

---

(١) وخمسمائة.

ولم تُصِبِ السِّهامُ على اعتدالٍ بها لولا اعوجاجٌ في القِسِيّ
فَقُلْ للدهْرِ يُقْصِرُ عن عنادي أما هو يتَّقي بَأْسَ التَّقي
حَلَفْتُ بربِّ مكَّةَ والمُصَلَّى وثاوي تُرْبِ طَيْبَةَ والغَرِيّ[1]
لأنتم يا بني أيوبَ خيرُ الـ ـوَرى بعد الإمام المستضيّ

[فتنة قطب الدين قايماز في بغداد، وخروجه منها]

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقةً لقطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان الاحتراز.

وكان قايماز هذا مُحَكَّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرسساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافَه، ورام إتلافه، حتى استعاذ منه برباط صَدْر الدين شيخ الشيوخ، فَسَلِمَ به[2].

ثم إنَّ قايماز خالف الخليفة وشقَّ العَصَا، وعَنَّ له حصار الدَّار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لمّا أُحيط بداره، إلا بفتح بابٍ في جداره، وانهزم فوصل إلى الحِلَّة في أوائل ذي القَعْدة سنة سبعين، وهو في موسم الحج، فجمع رجاله وتوجَّه إلى المَوْصِل، وخانه إخوانه، وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى المَوْصِل، وتفرَّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشَّام؛ منهم حسام الدين تميرك، وعز الدين أقبوري بن أزغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله. وكان ذا خزائن مملوَّة، وخَيْلٍ مسوَّمة، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصَّفْح. وكان أقبوري زوج أخت السُّلْطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فَرُّخْشاه ابن أخي السلطان[3].

قلتُ: وفي بعض الكتب عن السُّلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: وما نحسب أنَّا مع الموالاة المشتهرة، والنُّصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدَّولة بالغة، ولأعدائهم دامغة، ولمنازعيهم الأمر قاصمة،

---

(١) ثاوي ترب طيبة: هو رسول الله ﷺ، وطيبة من أسماء مدينة الرسول ﷺ. وثاوي ترب الغريّ: هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والغري من أسماء النجف الأشرف.

(٢) انظر أخبار قايماز وعضد الدين وما بينهما من عداوة في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧١ ـ ٧٢.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧١ ـ ٧٢.

ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة[١]، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة، وكوننا ما أعنا منها بنجدة من رجال، ولا بمادَّةٍ من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال ـ يرد سؤالنا من الدولة ـ أعلاها الله ـ في ذي قُرْبى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالأخبار عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً، وله أعذار لا بأس أن نعيرَه فيها لساناً وبياناً.

ثم ذكرها، ثم قال: وهذا الأمير جُزْءٌ منَّا فكيف يُعدُّ جزء منا عاصياً، وبألسنتنا وسيوفنا يدْعى الخلق إلى الطَّاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحدٍ من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السَّائر ثالث رسولٍ ندب في أمر هذا الأمير، والله وليُّ التَّدْبير.

وقال العماد في «الخريدة»[٢]: كنت جالساً بين يدي الملك النَّاصر صلاح الدِّين بدمشق في دار العدل، أنفِّذُ ما يأمر به من الشُّغْل، فحضَرَ سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان ممدوكاً لبعض الدمشقيين مولداً، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله[٣]، فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين: [الكامل]

حيَّتْك أعطافُ القُدودِ ببانها	لما انثنتْ تِيهاً على كُثْبانِها

ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق، ثم قال: [الكامل]

سُلْطانها الملك ابن أيوب الذي	كَفَّاه لا تنكفُّ عن هطلانها
بمواهبٍ لوْ لمْ أكن نُوحاً لما	نُجِّيتُ يَوْمَ نَداه من طُوفانها
سمحٌ يروحُ إلى النَّدِيِّ براحةٍ	قد أَعْشَبَ المَعْرُوفُ بين بَنَانها
وفتًى إذا زَخَرَتْ بحارُ نَوالِه	غَرِقَتْ بحارُ الأرضِ في خُلْجَانها
تلك السُّيوف المُرْهَفاتُ بِكَفِّهِ	أمضى على الأيام من حِدْثانها

---

(١) وقَمَه، كوعده: قهره، وأذله، أو ردّه أقبح الرد، وحزّنه أشدّ الحزن. والتوقّم: التهدّد والتعمّد، والإطناب في الشيء. وأوقمه: قمعه.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦، ٤١١.

(٣) سعيد بن عبد الله: هو سعادة الضرير الحمصي، توفي سنة ٥٩١هـ. (انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦ ـ ٤٣٢.

مَـلِـكٌ إذا جُـلـيَـتْ عـرائـسُ مُـلْـكِـهِ رَصَـعَـتْ فـريـدَ الـعَـدْلِ فـي تـيـجـانـهـا
فـاسـلَـمْ صـلاحَ الـديـنِ وابْـقَ لـدولـةٍ ذَلَّـتْ لِـدَولـتـهـا مُـلـوكُ زمـانِـهـا
وانـهـضْ إلـى فَـتْـحِ الـسَّـواحِـلِ نَـهْـضَـةً قـادَتْ لـك الأعـداءَ بـعـد حِـرَانـهـا

وهي طويلةٌ.

قال: وقام اليوم الذي يليه، وقد جلس السُّلْطان للعدل، فأنشده ـ يعني قصيدة ـ منها[١]: [البسيط]

هـل بـعـد جِـلِّـقَ إلا أن تـرى حـلَـبـاً وقـد تـحَـلَّـلَ مـنـهـا مُـشْـكِـلٌ عَـقِـدُ
وقـد أتـتْـك كـمـا تـخـتـارُ طـائـعـةً وقـد عَـنَـا لـك مـنـهـا الحِـصْـنُ والـبَـلَـدُ

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك النَّاصر، فمدحه بقصيدة طائية، فأعطاه ألف دينار. فمنها يصف غارته على غَزَّة، وعوده من ذلك الغزو بالعِزَّة[٢]: [الطويل]

فـتًـى مُـذْ غـزا بـالـخـيـلِ والـرَّجْـل غَـزَّةً نأى عن نواحيها الرِّضا ودنا السُّخْطُ
رمـاهـا بـأُسْـدٍ مـا لـهـنَّ مَـرابـضٌ ولا أُجُـمٌ إلا الـذي يُـنْـبِـتُ الـخَـطُّ
وعـاث ضـواحـيـهـا ضُـحًـى بـكـتـائـبٍ مـن الـتُّـرْكِ لا نُـوبٌ طَـغَـامٌ ولا قِـبْـطُ

وله في السلطان قصائد أُخر.

قال: وقام البهاء السِّنْجاري[٣] وأنشد الملك النَّاصر قصيدةً في دار العَدْل بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان، منها[٤]: [الكامل]

يا ظَبْيَةَ الْهَرَمَيْنِ من مصرٍ، على الرَّ (م) بْـعِ الـسَّـلامُ وإنْ تَـقـوَّضَ أوْ عَـفَـا
أَصْـبُـو إلـى عَـصْـرٍ تـقـادَم عَـهْـدُهُ فـأَزيـدُ مِـنْ وَلَـهٍ عـلـيـه تَـلَـهُّـفـا
أحـبـابَـنـا بـالـقَـصْـرِ لـو قَـصَّـرْتُـمُ في الهَجْرِ ما شَمِتَ الحسُودُ ولا اشْتفى

---

(١) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤١٦ ـ ٤١٩.
(٣) البهاء السنجاري: هو أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب السلمي، أبو السعادات المنعوت بالبهاء الفقيه الشافعي، الشاعر، غلب عليه قول الشعر فاشتهر به، وقُدِّم عند الملوك، له أشعار جيدة اشتهرت في عصره، ولد سنة ٥٣٣هـ، وتوفي في أوائل سنة ٦٢٢هـ. وقد ناهز التسعين، له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٢٠٥، معجم البلدان ٣/ ٢٦٣، وفيات الأعيان ١/ ٢١٤، ٢١٧، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣، الوافي بالوفيات ٩/ ٣٢ ـ ٣٤، طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٤) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

أشكو إلى الوادي فيحنو بانُه مِن رِقَةِ الشَّكوى عليَّ تَعَطُّفا
وجرى بي الأملُ الطَّموحُ فأمَّ بي سلطانَ أرضِ الله طُرّاً يُوسُفا
النَّاهب الأرواح في طَلَبِ العُلا والواهب الآجال في حُسْنِ الوفا

فصل

فيما تجدَّد للمواصلةِ والحلبيين

قد سبق ذِكْرُ الصُّلح الذي جرى بين السُّلْطان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبَّخوهم، ونسبوهم إلى العَجَلة في ذلك، وسلوك غير طريق الحَزْم، فحملوهم على النَّقْض والنَّكْث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجَّه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السُّلْطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده. فلما خلا به طالبه السُّلْطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كُمِّه نسخة يمين الحلبيين لهم، وناولها إياه، فتأمَّلها وأخفى سِرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه، وردَّها إليه، وقال: لعلَّها قد تبدلَّت. فعرف الرسول أنه قد غلط، ولم يمكنه تلافي ما فرط. وقال السُّلْطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أيمانهم، أنهم لا يعتمدون أمراً إلّا بمراجعتهم لنا واستئذانهم؟ وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض.

وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الرَّبيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر، يُعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان.

قلت: وفي كتابٍ طويل فاضلي جليلٍ إلى بغداد عن السلطان يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السِّلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات[1] إلى الكُفْر، وعرضنا علينا الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها. وسار رسولنا وحلَّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده، وأمراء مشهده، يميناً جعل الله فيها حَكَماً، وضيَّق في نَكْثها المَجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج

(١) البيكارات، أو البياكير: جمع البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٧٠).

نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعدُ على إزالة خطبنا، والاستنفار لِمن هو على بُعْدنا وقربنا. وقد حلف بها كُمُشْتِكِين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأُولى. فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمينٌ عن الأيمان خارجة، وأردتَ عمراً وأراد الله خارِجة[1].

وانصرف الرَّسول عن بابنا وقد نَزَّهنا الله أن يكون اسمُه معرَّضاً للحِنْث العظيم، والنَّكْث الذَّميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير. والمواقف الشريفة النبوية ـ أعلاها الله ـ مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه.

ثم ذكر أمر الفرنج، ثم قال: والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا يَنْوُون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كفر فما يجاورهم إلا بلادُه، ولا يقارعهم إلا أجناده.

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونُوا للمَمْلوك على المشركين أعواناً، وأن يُمْتَثل أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوه إذا سعى، ويلبُّوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وتطأطأت الرُّؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرةً لا ترقُّ على صَخْرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رِجْس الشِّرْك ومعرَّته. فإن

---

(١) أردت عمراً وأراد الله خارجة: يشير إلى قصة الخوارج الثلاثة الذين اجتمعوا وتعاهدوا على قتل كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص: فقد ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس أن ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، ثم الكندي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذكروا قَتْل علي إخوانهم من أهل النهروان، فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه... وأما صاحب عمرو بن العاص ـ وهو عمرو بن بكر ـ فإنه كمن له ليخرج إلى الصلاة فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مغص شديد في ذلك اليوم فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة ـ وهو خارجة بن أبي حبيبة من بني عامر بن لؤي، وكان على شرطة عمرو بن العاص فحمل عليه الخارجي فقتله وهو يعتقده عمرو بن العاص، فلما أُخذ الخارجي قال: أردت عمراً وأراد الله خارجة، فأرسلها مثلاً، وقيل إن الذي قالها عمرو بن العاص، وذلك حين جيء بالخارجي فقال: ما هذا؟ قالوا: قتل نائبك خارجة، ثم أمر به فضربت عنقه (البداية والنهاية ٧/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣).

قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلَّ من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قَصْده، حريصين على إيصال المكروه إليه.

وقال ابنُ شَدَّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين ـ صاحب الموصل ـ على سِنجار يُحاصر أخاه عماد الدين بِقَصْد أخذها منه ودخوله في طاعته. وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السُّلطان صلاح الدين واعتصم بذلك. واشتدَّ سيف الدين في حصار المكان وضَرْبه بالمنجنيق حتى استُهدِم من سوره ثُلَمٌ كثيرة، وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدُّ أمره ويقوى جأشه، فراسله في الصُّلح، فصالحه.

ثم سار من وقته إلى نَصِيبين، واهتمَّ بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة، وخيَّم على جانب الفرات الشَّامي، وراسل كُمُشْتِكِين والملك الصالح حتى تستقرَّ قاعدة يصل عليها إليهم. فوصل كُمُشْتِكِين إليه، وجَرَت مراجعات كثيرة عزم فيها على العَوْد مراراً، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصَّالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصَّالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه، وضمَّه إليه وبكى. ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها، وسار هو حتى نزل بعين المباركة، وأقام بها مُدَّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم.

وصَعِدَ القلعة جريدةً وأكل فيها خُبْزاً ونزل، وسار راحلاً إلى تل السُّلْطان، ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخَّرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لا يشعرون أنّ في التأخير تدميراً، حتى وصل عسكر مصر، فسار رحمه الله تعالى حتى أتى قرون حماة، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليَزَك، ووجَّهوا من كشف الأخبار، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرَّق عسكره يسقي، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه في تلك السَّاعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا، وتعبّوا تعبئة القتال.

وأصبح القوم على مصاف، وذلك بُكْرة الخميس العاشر من شوَّال، فالتقى العسكران وتَصادما، وجرى قتالٌ عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين، وحمل السلطان بنفسه، فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم فخر الدين عبد المسيح، فمنَّ عليهم وأطلقهم.

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده. وأمسك هو ـ رحمه الله ـ عن تتبع العسكر، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم، فإنهم كانوا قد أبقَوْا الثَّقَل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرَّق الاصطبلات، ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيفِ الدين عزَّ الدين فَرُّخْشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبَرْنا العاصي الله طائعين، وإلى المسارِّ مسارعين، فما عرَّجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مَدَد، ونزلنا الغَسُولة وجُزنا حماة، وخيمنا في مرج بوقُبيس وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم[1]، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوَّة وشِدَّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس. فرتَّب السلطان عسكره، وقوَّى بقوّة قَلبه قلْبَه، وأمدَّ الله بحزب ملائكته حزبه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكَرَك، وجوسلين خال الملك، وقرَّروا معهم أن يدخلوا من مُساعدتهم في الدَّرك. فلما عيَّدْنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السُّلْطان، فعَبرْنا العاصي عند شَيْزَر، ورتَّبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السّلْطان أكتافهم فشلّ مِئِيهِمْ وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأَشْرَقهم بمائهم. ووكل بِسُرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابنَ أخيه فَرُّخْشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدَّاه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدَّمين، ثم مَنَّ عليهم بالخِلَع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل في السُّرادق السيفي فتسلَّمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورَوَاسِيَ عِزّه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجُود، وفرّقها على الحضور والشُّهود، وأبقى

(١) استبعد ابن الأثير الجزري في «الكامل في التاريخ» أن يكون عدد عسكر سيف الدين غازي بن مودود في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، وقال: وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، وإنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس، أقل من خمسمائة، فإنني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر المصاف، ميمنة وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المتولي لذلك، والكاتب له، أخي مجد الدين، أبا السعادات، المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله. إنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه، بأنه هزم بستة آلاف، عشرين ألفاً، والحق أحقّ أن يتبع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل، وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس (انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٤ ـ ٧٥: ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين).

منها نصيباً للرُّسل والوفود. ورأى في بيت الشراب، بل في السُّرادق الخاص، طيوراً من القَمَاريّ والبلابل والهَزَار والبَبَّغاء في الأقفاص، فاستدعى أحد النُّدماء مُظَفَّراً الأقرع فآنسه، وقال: خُذْ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين، فأَوْصِلْها إليه، وسَلِّم منا عليه، وقل له: عدْ إلى اللعب بهذه الطُّيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كُسِرَ القوم ولّوا مُدبرين إلى حلب، فلم يقفْ بعضهم على بعض، وظنُّوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض؛ فتبعَّجت خيولهم، وتموَّجت سيولهم، وما صدَّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلِّقون أبوابها، ويسكِّنون اضطرابها. وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تلِّ السلطان إلى بُزاعة، وجاوز في سَوْقه الاستطاعة، وفرق وفارق الجماعة.

وفي كتاب ابن أبي طيّ: أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرَّك إلى جانبها ليكون رِدْءاً لها ومدداً، فظنَّ باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقَّق ما كان وهماً، فسار على وجهه هارباً لا يلوي على شيء. وتبعهم السُّلْطان، فهلك منهم جماعة قَتْلاً وغرقاً، وأَسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم. ثم رجع وأمر أصحابه برفع السَّيف عن الناس، وتَرك التَّعرُّض لمن وُجد منهم بقتلٍ أو نَهْب.

وفرَّق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسيَّر جَواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عُدْ إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذُّ من مُقاساة الحرب. ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك[1] والمغنين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأنَّ السُّلْطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية. وكان أَنفذَ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردَّهم، وخلعَ عليهم وأرسلهم إلى حلب.

وهنأ العمادُ السُّلْطان رحمه الله تعالى بقصيدةٍ، منها[2]: [الكامل]

فالحمدُ لله الذي إفْضالُه ... حُلْوُ الجنا عالي السَّنا وضَّاحُهُ

---

(١) البرابط: جمع بربط، وهو العود، معرب بربط بالفارسية ومعناه: صدر البط لأنه يشبهه والعود: آل العزف المعروفة. وتسميه العرب: المزهر، بكسر الميم. والجنك: آلة محدثة طيبة النغمة، لذيذ السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مباين لشكل العود ورأسه ممال إلى أسفل (انظر صبح الأعشى ٢/ ١٦٠).

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٧ ـ ٢٢.

عـاد الـعَـدُوُّ بِـظُـلْـمَـةٍ مـن ظُـلْـمِـهِ ... فـي لـيـل وَيْـلٍ قـد خَـبـا مِـصْـبـاحُـهُ
وجـنَـى عـلـيـه جَـهْـلُـه بـوقـوعـه ... فـي قـبـضـة الـبـازي فَـهِـيضَ جَـنَـاحُـهُ
حَـمَـلَ الـسِّـلَاح إلى الـقـتـال ومـا درى ... أنَّ الـذي يَـجْـنـي عـلـيـه سـلاحُـه
أضـحـى يـريـد مـواصـلـيـه صُـدُودَه ... وغـدا يـجـيـد رثـاءه مُـدَّاحُـهُ
إنْ أَفْـسَـدَ الـدِّيـنَ الـغُـلاة(١) بِـحِـنْـثِـهِـمْ ... فـالـنَّـاصِـرُ المـلـك الـصَّـلاحُ صلاحُهُ
قـد كـان عَـزْمُـك لـلإلـه مُـصَـمِّـمـاً ... فـيـهـمْ فـلاحَ كـمـا رأيـتَ فـلاحُـهُ
وكـأنـنـي بـالـسَّـاحـل الأقـصـى وقـد ... سـاحَـتْ بِـبَـحْـر دَم الـفِـرَنْـجَـةِ ساحُهُ
فـاعبُر إلى القوم الفُراتَ لِيشربوا الـ ... ـمَوْتَ الأُجاجَ فقد طَمَى طَفَّاحُهُ
لِـتَـفُـكَّ مـن أيـديـهـمُ رَهْـنَ الـرُّهـا ... عَـجِـلاً ويُـدْرِكَ لـيـلَـهـا إصْـبـاحُـهُ
وابـغُـوا لـحَـرَّان الـخـلاصَ فـكـم بـهـا ... حَـرَّانُ قَـلْـبٍ نـحـوكـمْ مُـلْـتَـاحُـهُ
نَـجُّـوا الـبـلادَ مـن الـبـلاءِ بِـعَـدْلِـكُـمْ ... فـالـظُّـلْـمُ بـادٍ في الـجـمـيـع صُـرَاحُـهُ
واسـتـفـتـحـوا ما كان من مُـسْـتَـغْـلِـقٍ ... فـيـهـا فـربُّـكُـمُ لـكُـمْ فَـتَّـاحُـهُ
أنـتـم رجـالُ الـدَّهـر بـل فُـرْسـانُـهُ ... وَلِـذِي الـحُـلـوم الـطـائـشـات رِجَـاحُـهُ
فُـتَّـاكُـهُ نُـسَّـاكُـهُ ضُـرَّارُهُ ... نُـفَّـاعُـهُ مُـنَّـاعُـهُ مُـنَّـاحُـهُ
وأبـو الـمُـظَـفَّـر يـوسـفٌ مِـطْـعَـامُـه ... مِـطْـعـانُـهُ مِـقْـدامُـهُ جَـحْـجَـاحُـهُ(٢)
وإذا انـتـدَى فـي مَـحْـفِـلٍ فـحـيـيُّـهُ ... وإذا غـدا فـي جَـحْـفَـلٍ فَـوَقَـاحُـهُ

قال: وكان لعز الدين فَرُخْشاه في هذه الوقعة يدٌ بيضاء، وهو محبٌّ للفضل وأهله، باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله؛ فنظمتُ فيه قصيدةً، منها: [الكامل]

نَـصْـرٌ أنـار لـمـلـكِـكُـم بُـرْهـانُـه ... وعـلا لـذلَّـة شـانـئـيـكـم شـانُـهُ
مـا أسـعـدَ الإسـلامَ وهـو مـظـفَّـرٌ ... وأبـو الـمُـظَـفَّـر يـوسـفٌ سُـلْـطـانُـهُ
الـمُـلْـكُ مـرفـوعٌ لـكـم مـقـداره ... والـعَـدْلُ مـوضـوعٌ بـكـم مـيـزانُـهُ
والـدَّهـرُ لا يـأتـي بـغـيـرِ مُـرَادِكُـمْ ... فـهـلِ الـقـضـاءُ لأجـلـكـم جَـرَيـانُـهُ
وكـأنـمـا لله فـي أحـكـامـه ... فَـلَـكٌ عـلـى إيـثـاركـم دَوَرانُـهُ
فـخـراً بـنـي أيـوبَ إن فَـخَـاركـم ... بـذَّ الـمـلـوك الـسَّـابـقـيـن رهـانُـهُ
يـكـفـي حـسـودكـم اعـتـقـالاً هَـمّـه ... فـكـأنـمـا أشـجـانُـه أسـجـانُـهُ

---

(١) في خريدة القصر: «العصاة» بدل: «الغلاة».
(٢) الجحجاح: السيد الكريم.

الدِّين عِزَّ الدين عَزَّ بنصركم والكُفْرُ ذلَّ بعونكم أعوانُهُ
قد كانَ جيشهمُ كبحرٍ زاخرٍ واللابِسُون جواشناً حِيتانُهُ
فطمى لِهُلْكِهِمُ عليهم بَحْرُكُمْ بأساً وغرَّق فُلْكَهُمْ طُوفانُهُ
فَضَل الملوكَ الأكرمينِ بِفَضْله فعلا زمانَهُمُ البهيجَ زمانُهُ
في فَضْله في عَدْله في حِلْمِهِ صِدِّيقُه فارُوقه عُثْمانُهُ
هو في السَّماح وفي اللقاء عَلِيُّه هو في العَفَافِ وفي التُّقى سَلْمانُهُ
من آلِ شاذي الشَّائدين لمجده ببنيه بيتاً عالياً بُنْيانُهُ
بيتٌ من العلياء سام سامقٌ يُبْنى على كيوانها إيوانُهُ[1]
يا سالبَ التِّيجان من أربابها ومن الثَّناءِ مصوغةٌ تِيجانُهُ
والحمدُ مالٌ أنتمُ بُذَّالُهُ والمال حمدٌ أنتمُ خُزَّانُهُ

قال: ثم إن صاحب المَوْصِل أسرع عودته، وواصل لذته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلّقوا الأبواب، وسُقِطَ في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلَّدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلَّدوا.

وقال ابنُ سعدان الحلبي من جُملة قصيدةٍ يهنئ بها السّلْطان بهذه الكسرة: [الطويل]

وما شكَّ قَوْمٌ حين قُمْتَ عليهمُ غَدَاةَ التقى الجمعانِ أنَّك غالبُ
ولو لم تَقُدْ تلك المقانبَ لاغتدى لنفسك في نفس العدوِّ مقانِبُ[2]

قال ابنُ أبي طيّ: وأما سيف الدين فإنه امتدَّت به الهزيمة إلى بُزَاعا، فأقام بها حتى تلاحق به من سَلِمَ من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل. وصار باقي عسكر حلب إلى حلب، في سابع شوال، في أقبح حال وأسوئه، عُراةً حُفاةً فقراء، يتلاوَمُون على نقض الأيمان والعهود.

[خوف أهل حلب من قصد السلطان لهم]

وخاف أهل حلب من قَصْد السُّلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السُّلْطان وخيَّم عليها أيَّاماً، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حَوْلها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها، فإنَّا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها. فصوَّبوا رأيه، فنزلوا على بُزاعا، فتسلَّمها بالأمان، وولاها عِزَّ الدين خُشترين الكُرْدي.

---

(١) كيوان: هو الكوكب زحل.
(٢) المقانب الأولى: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أو زهاء الثلاثمائة، والمقانب الثانية: الذئاب الضارية.

فصل

في فتح جُمْلة من البلاد حوالي حلب[(١)]

قال العماد: ثم نزل السُّلْطان على حِصْن بُزاعة وتسلَّمه في الثَّاني والعشرين من شوَّال، ثم فتح مَنْبِج في التَّاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان، والسلطان لا ينال به إحسان، بل كان في جَرِّ عسكر المَوْصِل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره، فسلَّم القلعة بما فيها، وقُوِّم ما كان سلَّمه بثلاثمائة ألف دينار، منها عين ونقود، ومصوغ ومطبوع ومصنوع، ومنسوج، وغلات، وسَامُه على أن يخدم، فأبَى وأنف، وكبرت نفسه، فتعب سرُّه، وذهب ما جمعه. ومضى إلى صاحب المَوْصِل فأقطعه الرَّقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السُّلْطان منه مرة ثانية في سنة ثمانٍ وسبعين.

وقال العماد: [مجزوء المتقارب]

نُزُولُكَ في مَنْبِجِ ... على الظَّفَرِ المُبْهِجِ
ونُجْحُكَ في المُرتجى ... وَفَتْحُكَ للمُرْتَجِ
دليلٌ على كلِّ ما ... تحاول أو ترتجي
أموركَ فيما ترُو ... مُ واضحةُ المَنْهَجِ
وشانيك دامي الشُّؤو ... نِ منكَ شَقيٌّ شَجِي[(٢)]
ومن كان في حِصْنِهِ ... ومِنْ قَبْلُ لم يَخْرُجِ
يقال لهُ ليس ذا ... بعُشِّكَ قُمْ فادْرُجِ[(٣)]
فَرَأْيُكَ يستنزلُ النُّـ ... (م) ـجُومَ من الأَبْرُجِ
فَعَجِّلْ عُبورَ الفُرات ... وأَسْرِ وَسِرْ وادْلِجِ
وَعُجْ نحو تلك البلاد ... وعن غَيْرِها عَرِّجِ
فحَرَّان والرَّقَّتا ... نِ تاليتَا مَنْبِجِ[(٤)]

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٥ ـ ٧٧: ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين. وذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها.

(٢) الشؤون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين.

(٣) هو من المثل: ليس بعشك فادرجي، يضرب لمن يدّعي أمراً ليس من شأنه (المستقصى ٢/ ٣٠٥).

(٤) الرقتان: تثنية الرقة. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ٥٧: أظنهم ثنوا الرقة والرفقة، كما قالوا العراقان للبصرة والكوفة.

وجَـلَّ عـن الـمُـسْـلـمـيـ ـنَ لـيـلـهـمُ الـمُـدَّجـي

قال ابن أبي طيّ: لما ملك السُّلْطان مَنْبِج، وتسلَّم الحِصْن صَعِدَ إليه وجلس يستعرض أموال ابن حَسان وذخائره، فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفِضَّة والآنية الذَّهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار. فحَانَ من السُّلْطان التفاتة، فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحبُّه ويؤثره اسمه يوسف كان يذخر هذه الأموال له. فقال السُّلْطان: أنا يوسُف وقد أخذت ما خُبِئ لي. فتعجَّب النَّاس من ذلك.

قال: ولمَّا فرغ من مَنْبج نزل على عَزَاز ونصب عليها عِدَّة مجانيق، وجَدَّ في القتال، وبَذَل الأموال.

قال العماد: ثمَّ نزل السّلطان على حِصْن عَزَاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حِصْنٌ منيع رفيع، فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وكان السُّلْطان قد أشفق على هذا الحِصْن من موافقة الحلبيين للفرنج، فإنَّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج، وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ في أَسْرهم، فرأى السّلطان أن يحتاط على المعاقل، ويصونها صَوْنَ العقائل، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة بعد مُدَّة حصارها المذكورة.

وقال العماد قصيدةً، منها: [الرجز]

أعـطـاه رَبُّ الـعـالـمـيـن دولـةً عِـزَّةُ أهـلِ الـدِّيـن فـي إعـزازهـا
حـاز الـعُـلا بـبـأسـهِ وجُـودِهِ وهـو أحـقُّ الـخَـلْـقِ بـاحـتـيـازِهـا
بـجـدّه أفـنـى كـنـوزاً فَـنـيَ الْـ ـمـلـوكُ فـي الـجدِّ عـلـى اكـتـنـازهـا
مـهـلـكُ أهـلِ الـشِّـرْك طُـرّاً رُومِـهـا أرمـنـهـا إفـرنـجـهـا أبـخـازهـا
تـفـاخـرَ الإسـلامُ مـن سُـلْـطـانـه تـفـاخُـرَ الـفُـرْسِ بـأبـراوازهـا[1]
تَـهَـنَّ مـن فَـتْـح عَـزَازٍ نُـصْـرةً أوقـعـتِ الـعُـداة فـي اعْـتـزازِهـا
والـيـوم ذلَّـتْ حـلـبٌ فـإنَّـهـا كـانـت تَـنَـالُ الـعِـزَّ مـن عَـزَازهـا
وحـلـبٌ تـنـفـي كُـمُـشْـتِـكـيـنـهـا كـمـا انـتـفـت بـغـدادُ مـن قَـيْـمـازِهـا[2]

(١) بأبراوازها: كذا بالأصل، ولعل المقصود: كسرى أبرويز ملك الفرس الذي كتب إليه رسول الله ﷺ.

(٢) كمشتكينها: المقصود سعد الدين كمشتكين الخادم صاحب قلعة الموصل. وقيمازها: المقصود قطب الدين قايماز، وكان قايماز محكّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء، =

بَـرَزْت فـي نـصـر الـهـدى بـحـجَّـةٍ وضـوحُ نـهـج الـحـقِّ فـي إبـرازهـا
كـم حـامـلٍ لـلـرُّمْـح عـاد مـبـديـاً عَـجْـزَ عـجـوز الـحـيِّ عـن عـكَّـازهـا
ارفَعْ حظوظي من حضيض نقصها وعـدْ عَـنْ هـمَّـازِهـا لَـمَّـازِهـا
والـشِّـعْـرُ لا بُـدّ لـهُ مـن بـاعـثٍ كـحـاجـة الـخَـيْـلِ إلـى مِـهْـمـازِهـا

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدَّة مقامنا على عَزاز، فأخذوا على غِرَّة وغفلة ما تعجَّلوه، وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم، فما أدركوا إلا فارساً واحداً، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حَرْدِه[1] فقلت للمأمور، وذلك بِمسْمَع من السُّلْطان: تمهَّل ساعة لعله يقبل مني شفاعة، ثم قلت: هذا لا يحِلُّ، وقدرُك بلْ دينُك عن هذا يجِلّ. وما زلت أكرِّر عليه الحديث حتى تبسَّم، وعادت عاطفته ورحم، وأمر بحبسه، وسرَّني سلامة نفسه. ودخل ناصر الدِّين بن أسد الدِّين، وقال: ما هذا الفشل والوَنَى، وإن سكتُّم أنتم فما أسكت أنا. ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لِمَ لا يُقْتلُ هذا الرجل ولماذا اعتقل! فوعظه السُّلْطان واستعطفه، وسكَّن غَيْظه وتعطَّفه، وتلا عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وأُطلق سراحه، وتمَّ في نجاته نجاحُه.

فصل

في وثوب الحشيشيَّة على السُّلْطان مرَّة ثانية على عَزاز، وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القَعْدَة قفز الحشيشية على السّلْطان ليلة الأحد وهو نازلٌ على عَزَاز، وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبةٌ من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات، وحضِّ الرجال، والحثِّ على القتال. وهو بارٌّ ببثِّ أياديه، قارٌّ على الدَّهر بكفِّ عواديه، والحشيشيّة في زِيِّ الأجناد وقُوف، والرجال عنده صفوف،

= وسامه أنواع البلاء، وأخافه، ورام إتلافه. ثم إن قايماز خالف الخليفة وشق العصا، وعنّ له حصار الدار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما أحيط بداره، إلا بفتح باب في جداره، وانهزم فوصل إلى الحلّة سنة سبعين فجمع رجاله وتوجّه إلى الموصل، وخانه إخوانه وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى الموصل (انظر خبره قبل صفحات من هذا الجزء).

(١) الحرد: الغيظ والغضب.

إذ قَفَزَ واحدٌ منهم فضرب رأسه بسكّينِه، فعاقَتْه صفائح الحديد المدفونة في كمته عن تمكينه، ولفحت المدية خدَّه فخدشته. فقوّى السُّلْطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه وأدركه سيف الدين يازكوج[١] فأخذ حُشاشة الحشيشي وبضّعه، وقطَّعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه، فمات بعد أيام. وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس، وضمَّه من تحت إبطيه، وبقيت يَدُ الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضَّرْب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب، فنادى: اقتلوني معه فقد قتلني، وأذهب قوَّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شِيركُوه بسيفه. وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدِماً، فثار عليه أهل السُّوق فقطعوه.

وأما السُّلْطان فإنه ركب وجاء إلى سُرَادقه وقد خرعه الحادث، وقرعه الكارث، وصوتُه جَهْوريّ، وزئيره قَسْوريّ، ودم خده سائل، وعِطْف روعه مائل، وطوق كَزَاغُنْده بتلك الضَّرْبة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك. وكان سلا سلامتَهُ، وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب ورهب، واحترز واحتجب، وضرب حول سُرَادقه على مثال خشب الخَرْكاة[٢] تأزيراً، ووثَّقه تحجيراً، وجلس في بيت الخشب، وبرز للنَّاس كالمحتجب، وما صرَّف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صَرَفه، وإذا ركب وأبصر مَنْ لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه، فإن كان مُسْتَسْعفاً أو مُسْتَسْعِداً أسعفه وأسعده.

ومن كتابٍ فاضلي إلى العادل: السَّلامة شاملة، والرَّاحة بحمد الله للجسم الشريف النَّاصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدشٌ قَطَرَتْ منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها. والرُّكوب على رسمه، والحصار لأعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سراً.

وقال ابنُ أبي طيّ: لما فتح السُّلْطان حِصْن بُزَاعا ومَنْبِج أيقَن مَنْ بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسُّلْطان. فكاتبُوا سِناناً صاحب الحشيشية مرَّة ثانية، ورغَّبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يَفْتك بالسلطان. فأرسل ـ لعنه الله ـ جماعةً من أصحابه،

(١) ولاه صلاح الدين قلعة حلب سنة ٥٧٩هـ، وتوفي بمصر سابع عشر ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ. (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) الخركاه: بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/ ١٤٦).

فجاؤوا بزيِّ الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلَّهم يجدون فُرْصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغولٌ بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا ينزع الزَّرَدِيَّة[1] عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد. وأحسَّ الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسَبح يده بالسكينة إلى خَدِّ السلطان، فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فَتَعْتَعَ السُّلْطان لذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه حتى وضعه على الأرض وركبه لينحره. وكان مَنْ حولَ السلطان قد أدركتهم دهشة أخذت بعقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ـ وقيل: إنه كان حاضراً ـ فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكُرْدي[2] وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته، وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس، فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه، فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكَّن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه. فجاء ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يُخَضْخِضُهُ فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود؛ خال السلطان، فتنكبَ الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصَده أصحابه، وقطعوه بالسُّيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سُرَادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخَرْكاة[3]، ونصب له في وسط سُرَادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، وبَطَلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السُّلْطان.

واضطرب العسكر، وخاف النَّاس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى

---

(١) الزرديّة: نوع من الدروع.

(٢) تقدم قبل قليل في رواية العماد أن الذي اعترضه الأمير داود بن منكلان.

(٣) الخركاه: تقدم التعريف بها قبل قليل.

ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عَزَاز فقاتلها مدَّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة، وصَعِدَ إليها وأصلح ما تهدَّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.

وكانت عَزَاز أولاً للجُفينة غلام نور الدين، فلما ملك السُّلْطان مَنْبِج أخذها منه الملك الصَّالح وقوَّاها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك.

[نزول السلطان على حلب]

ولما فرغ السلطان من أمر عَزَاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشيَّة، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحِجَّة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جَوشَن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيَّق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد.

وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين في حارِم، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائِبها.

وكان سببُ خروجه إليها أن السُّلْطان لما نزل على عَزَاز خاف كُمُشْتِكِين أن ينتقل منها إلى حارِم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كُمُشْتِكِين على كونه خارجاً في حارِم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صُلْح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم. فراسل السلطان يتلطَّف معه الحال ويقول: لو فُسِحَ لي في الدُّخُول إلى حلب لسارعتُ في الخدمة، وأصلحتُ الأمر على ما يرومه السلطان. وراسل أيضاً الملك الصَّالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلتُ خارجاً وقد بلغتني أمورٌ ولا بدّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصَّيرورة إليكم، فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه. فراسل الملك الصَّالحُ السلطانَ في الإِذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ وطلبوا الرَّهائن منه، فنفَّذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضاء الخطيب[1] والعماد كاتب الإِنشاء، وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينةً نصرة الدين بن زَنكي.

---

(١) هو محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل بالسلطان صلاح الدين، وتوفي في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر سنة ٥٧١هـ (الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٣).

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أُخذنا برأي العدل ابن العجمي وجُعِلْنا في بيت، ومنع منا غِلْمانَنا، ولم يُحضر لنا طعامٌ ولا مِصْباح، وبِتْنا في أنكد عيش.

وفي تلك الليلة دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فلما أصبحوا أُحضرتُ أنا وابنُ أبي المضاء إلى مجلس الملك الصَّالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويُضْرِبُ صفحاً عني، ويوهم الجماعة أني وأني: [السريع]

وما درى الغُمْرُ بأني امرؤ ... أُميِّزُ التِّبْرَ من التُّرْبِ

قد عارك الأهوالَ حتى غدا ... بين الوَرَى كالصَّارِم العَضْبِ

قد راضَه الدَّهر فلَو أمَّهُ ... بخطبِهِ ما رِيعَ للخَطْبِ

قال: وعُرضت نسخة اليمين علينا، وصُرفنا، ولم يُلتفت إلينا.

فلما صارا إلى السلطان، وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلةً عليه حتى دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فأطلق نُصْرَة الدين وقاتل أهل حلب.

ولم يزل منازلاً لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ودخول قَراقُوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوَّال وصل أخو السُّلْطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق.

وذكر ابنُ شَدَّاد أنه قَدِمَ في ذي الحِجَّة.

قلت: ولما سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال في آخره: ولقد أحسن عدنان المبشر، إذ طلع علينا طلوعَ الفجر قبل شمسه، وغَرَسَ في القلوب ما يسرُّنا ويسره جنى غَرْسه.

قال ابن أبي طيّ: كان سببُ خروجه من اليمن كراهية البلاد، والشَّوْق إلى أخيه الملك النَّاصر، وأن يُرِيَ ملوكَ الشَّام وغيرها وأمراء العساكر ما أنعم الله به عليه من النِّعم والأموال.

قال: وحُكي أنَّه لما تحدَّث النَّاس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجلٌ يقال له عَبَّاس، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر، وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمسَ الدولة سائرٌ إلى أخيه الملك النَّاصر إلى الشَّام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة يبقَ لكم. واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء يحاصِرُه.

فلما وقف شمسُ الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خَطُّك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: فبأي شيء استحققت منك هذا وقد قرَّبت منزلتك، وأبقيتُ عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدِّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل صبراً بين يديه. فهاب شمسَ الدولة ملوكُ اليمن، وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة.

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة، وتوجَّه إلى الشام، واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ[1]، وعثمان بن علي الزَّنجيلي[2] على عدن، وتوجَّه إلى حَضْرَمَوْت ففتحها، واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون، وكان مقامه بِشبام، واستمرَّ الكُرْدي بها مدَّة.

ثم إنَّ صاحب حضرموت تحرَّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّى شمسُ الدولة ثغر تَعِز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولَّى قلعة تَعْكُر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدّولة إلى السُّلْطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظَّفر، وأعطاه السلطان سُرَادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق

---

(١) هو ابن عم أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٢٦هـ، بقلعة شيزر، وتوفي سنة ٥٨٩هـ، وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٩).

(٢) هو أبو عمرو عثمان بن علي، عز الدين الزنجيلي، توفي في دمشق بعد سنة ٥٩٠هـ، وفي الدارس في تاريخ المدارس: هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ (العقد الثمين ٦/ ٣٤ ـ ٣٥، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٢٦).

وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السُّلْطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

[مقتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد]

قال: وفيها قُتِلَ صدِّيق بن جَوْلة صاحب بُصرى وصَرْخد قَتله ابنُ أخيه، وملك بعده بُصْرى وصَرْخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان، وحلف له على ما يريده من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضي بُصْرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرُّف في القول، فلم يستَقْصِ فيها وجوه التَّأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوَّل عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

[عصيان الأمير غرس الدين بتل خالد]

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كُمُشْتِكِين، فأنهَدَ إليه من حَلَب عسكراً فحاصروه أياماً، وسَلَّم الحِصْن، وصَلُحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سَمَتْ نَفْسُ ابن أخيه تقيِّ الدِّين إلى المُلك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأُخبر أنَّ قلعة ازبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عُمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَت بَرْقة، وإذا مُلكت بَرقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه بهاء الدِّين قَرَاقُوش، وقدَّمه على جماعةٍ من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها.

[دخول قراقوش إلى المغرب]

واجتمع بقراقوش رجلٌ من المغرب فحدَّثه عن بلاد الجريد وفَزَّان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغَّبه في الدُّخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه، وسار في حادي عشر المحرَّم من هذه السنة، فكان يكمن النَّهار ويسير الليل مدَّة خمسة أيام، وأشرف على مدينة أَوْجَلة، فلقيه صاحبها، وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به، ويزوِّجه بنته، ويحفظ البلاد من العرب، وله ثُلُث ارتفاعها، ففعل قَراقُوش ذلك، فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرَّق على رجاله عشرين ألفاً.

وكان إلى جانب أَوْجَلَة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قَرَاقُوش

في أَوْجَلَة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه، ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغَّبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب إلى ذلك، واستخلف على أَوْجَلَة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لِقَراقُوش أموال كثيرة.

واتفق أنَّ صاحب أَوْجَلَة مات، فقتل أهلُ أَوْجَلَة أصحابَ قَرَاقُوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عَنْوَةً، وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمةً عظيمة، واستولى على البلد.

ثم إنَّ أصحابه رغبوا في الرُّجوع إلى مصر، وخشي قَرَاقُوش أن يقيم وحدَه فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام وثَقُلَ عليه العَوْد، وزوَّجه تقي الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأَوْجَلَة، وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال، وأعود إليكم.

[وزارة أبي الحسن علي بن جمال الدين لصاحب الموصل]

قال ابن الأثير[١]: وفي ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحبُ الموصل جلالَ الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير ـ رحمهما الله تعالى ـ ومكَّنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها النَّاس، وبدا منه معرفةٌ بقواعد الدول وأوضاع الدواوين، وتقرير الأمور، والاطِّلاع على دقائق الحسبانات، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حَيَّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمساً وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمِد ـ وكان قد زوَّجه بنته ـ فأُطلق وسار إليه، وبقي بآمِد يسيراً مريضاً، ثم فارقها، وتُوفي بدُنَيْسَر سنة أربع وسبعين، وحُمل إلى الموصل فدفن بها، ثُمّ حمل منها في موسم الحج إلى المدينة، ودُفِنَ عند والده. وكان من أحسن النَّاس صورةً ومعنًى، رحمه الله تعالى.

قال[٢]: ثم إن سيف الدين استناب دُزْدَاراً بقَلْعَة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحِجَّة سنة إحدى وسبعين، وردَّ إليه أزمَّة الأُمور في الحَلِّ والعَقْد، والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إرْبِل وأعمالها، ومعه فيها ولدٌ

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٧٨.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٧٨.

صغير لزين الدِّين علي، لقبه أيضاً زين الدِّين، فكان البلد لولد زين الدِّين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدِّين صورة ومعنًى.

قلت: وفي حادي عشر رجب توفى حافظ الشَّام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدِّمشْقي[1]. رحمه الله تعالى، وحضر السُّلْطان صلاح الدِّين جِنازته، ودفن في مقابر باب الصَّغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السَّلام بن يوسف بن محمد بن مُقلَّد

---

(١) ابن عساكر: هو علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر، ولد في محرم سنة ٤٩٩هـ. وتوفي في رجب من سنة ٥٧١هـ، له من التصانيف: «إتحاف الزائر»، «الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد»، «أربعين البلدان»، «أربعون حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين مدينة»، «الأربعون الطوال»، «أربعين المساواة»، «أربعين المصافحات»، «الأحاديث الخماسيات وأخبار ابن أبي الدنيا»، «الأحاديث المتخيرة في فضائل العشرة»، «أخبار أبي عمرو الأوزاعي»، «الإشراف على معرفة الأطراف» في الحديث، «أمالي في الحديث»، «التاريخ الكبير لدمشق» مشهور، «تاريخ المزة»، «التالي لحديث ملك العالي»، «تبيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط»، «تبيين الأمتان بالأمر بالختان»، «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي موسى الأشعري»، «ثواب الصبر على المصاب بالولد»، «جزء حديث الهبوط وجزء كفرسوسة»، «الزهادة في بذل الشهادة»، «سباعيات في الحديث»، «عوالي شعبة»، «عوالي الثوري»، «عوالي مالك»، «غرائب مالك»، «فضل أصحاب الحديث»، «فضل الجمرتين»، «فضل الربوة»، «فضل عاشوراء»، «فضل عسقلان»، «فضل مقام إبراهيم»، «القول في جملة الأسانيد في حديث المؤيد»، «كتاب الاعتزاز بالهجرة»، «كتاب السداسيات»، «كتاب المسلسلات»، «كتاب المعجم لمن سمع منه وأجاز له»، «فضل الكرم على أهل الحرم»، «فضائل الصديق»، «كتاب الأبدال»، «كتاب العزلة»، «كتاب المغطى في فضل الموطأ»، «مسند أبي حنيفة»، «مسند أهل داريا»، «مسند مكحول»، «المصاب بالولدان»، «معجم الصحابة»، «معجم النسوان»، «مناقب الشبان»، «من وافقت كنيته كنية زوجته»، «الموافقات على الأئمة الثلاث الثقات» في الحديث، «تشريف يوم الجمعة»، «تقوية المنة على إنشاء دار السنة»، «الاقتداء بالصادق في حفر الخندق»، «تكميل الإنصاف والعدل بتعجيل الإسعاف بالعزل»، «تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس»، «رفع التخليط عن حديث الأطيط»، «ذكر البيان من فضل كتابة القرآن»، «دفع التثريب على من فسر معنى التثويب»، «حلول المحنة بحصول الابنة»، «الجواهر واللآلي في الأبدال العوالي»، «الجواب المبسوط لمن ذكر حديث الهبوط»، «مسلسل العيدين»، «المستفيد في الأحاديث السباعية الأسانيد»، «مجموع الرغائب مما وقع من حديث مالك الغرائب»، «معجم أسماء القرى والأمصار»، «معجم الشيوخ والنبلاء»، «معنى قول عثمان: ما تعنيت وما تمنيت»، «المقالة الفاضحة للرسالة الواضحة»، «من لا يكون مؤتمناً لا يكون مؤذناً»، وغير ذلك كشف الظنون ٥/ ٧٠١ _ ٧٠٢.

الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التّنوخي الجُماهِري[١] الصُّوفي ابن الصّوفي، ذكره العماد في «الخريدة» وقال: كان صديقي، وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدِّين وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد.

وذكر العماد من أشعاره مقطَّعات، منها في الحقائق، وأنشدها في مجلسه[٢]: [البسيط]

يا مالكاً مُهْجتي يا مُنْتهى أَمَلي ... يا حاضراً شاهداً في القَلْب والفِكَرِ
خَلَقْتني من تُرَابٍ أنتَ خالِقُهُ ... حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ
أجريتَ في قالبي رُوحاً منوَّرَةً ... تَمُرُّ فيه كَجَري الماء في الشَّجرِ
جمَعْتَ بين صَفَا رُوحٍ منورَةٍ ... وهيكلٍ صُغْتَهُ من مَعْدِنٍ كَدِرِ
إنْ غِبتُ فيك فيا فَخْري ويا شَرَفي ... وإنْ حضرتُ فيا سَمْعي ويا بَصَري
أو احتجبتُ فَسِرِّي منك في وَلَه ... وإنْ خَطَرْتُ فقَلبي منك في خَطَرِ
تبدو فتمحُو رسُومي ثم تثبتُها ... وإنْ تَغَيَّبْتَ عنِّي عشتُ بالأَثَرِ

[عقد الصلح بين الحلبيين والمواصلة وصلاح الدين، وبذل السلطان عزاز لابنه نور الدين]

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بظاهر حلب، فعرف أهلُها أنَّ العُقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة. فدخلوا من باب التذلُّل، ولاذوا بالتوسُّل، وخاطبوا في التَّفضُّل، وطلبوا الصُّلح، فأجابهم، وعفا وعفَّ، وكفى وكفَّ، وأبقى للملك الصَّالح حلب وأعمالها، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها؛ وأراد له الإِعزاز، فرد عليه عَزَاز.

---

(١) هو عبد السلام بن يوسف بن محمد، أبو الفتوح الدمشقي، المتوفى سنة ٥٨١هـ، من تصانيفه: «أنموذج الزمان في شعراء الأعيان»، «ديوان الخطب». (كشف الظنون ٥/ ٥٧١).
والجماهري: بضم الجيم وتخفيف الميم نسبة إلى جماهر بن الأشعر، من القحطانية، من نسله الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري. وفي كشف الظنون: الجماهيري وهو تصحيف.
أما والده أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي الدمشقي الشافعي الصوفي المعروف بالجماهيري (كذا في كشف الظنون) المتوفى سنة ٥٥٨هـ. صنّف «الارتجال في أسماء الرجال» في التاريخ والتراجم، «مجموعة المسائل» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٢، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧، تاج العروس (جمهر)، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٩).

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق المجلد الأول، الجزء الثالث ص٣١٥ ـ ٣١٦.

وقال ابنُ شدَّاد: أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عَزَاز، فوهبها إياها.

قال ابن أبي طيّ: لما تَمَّ الصُّلْح، وانعقدت الأيمان، عوَّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عَزَاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته ـ وكانت صغيرة ـ فأُخرجت إليه، فأكرمها السُلْطان إكراماً عظيماً، وقدَّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عَزَاز، وجميع ما فيها من مالٍ وسلاح وميرة وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصَّالح أُخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه، فقام قائماً، وقبَّل الأرض، وبكى على نور الدين، فسألت أن يردَّ عليهم أعزاز فقال: سمعاً وطاعة. فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصَّالح أنّ له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الدَّاية.

قال العماد: وحلفوا له على كلِّ ما شرطه، واعتذروا عن كل ما أسخطه، وكان الصُّلح عامّاً وللمَواصلة وأهل ديار بكر. وكُتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يَفِ بما عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمةً متعاقدة، حتّى يفيءَ إلى الوفاء والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق.

[محاصرة صلاح الدين لحصن مصياث]

فلما انتظم الصُّلْح ذكر السُلْطان ثأره عند الإِسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البليّة، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرَّم، فحصر حصنهم مصياث، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوْسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبْقارهم، وخرَّب ديارهم، وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم، وقد انتقم منهم[1].

[إغارة الفرنج على البقاع وهزيمتهم]

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدَّم، وهو متولّي بَعْلَبكَّ ومقْطَع أعمالها، ومُدَبِّر أحوالها، والمتحكّم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨١: ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية.

مائتي أسير، وأحضرهم عند السُّلْطان وهو على حصار مصياث، فجدَّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث[1].

قال ابن أبي طيّ: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى، وهو بعيدٌ عنه، فَرُبَّما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سِناناً وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج؛ ووقع من أصحابه عِدّة في الإسار، منهم سيف الدين أبو بكر بن السَّلَّار.

[اجتماع السلطان بأخيه تورانشاه في حماة]

ووصل السُّلْطان إلى حماة وقد استكمل الظَّفَر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر؛ وتعانق الأخوان في المخيّم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق.

وكان قد وصل إلى السُّلْطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمَّنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجِّم المِصْري[2]، أولها: [الكامل]

الـشَّـوْقُ أَوْلَـعُ بـالـقُـلُـوبِ وأَوْجَـعُ ... فَـعَـلَامَ أَدْفَـعُ مـنـه مـا لا يُـدْفَـعُ

وَحَـمَـلْـتُ مِنْ وَجْـدِ الأَحِـبَّـة مُـفْـرداً ... مـا لـيـس تـحـمـلُـه الأَحِـبَّـة أَجْـمَـعُ

لا يَـسـتـقـرُّ بـيَ الـنَّـوى فـي مـوضـعٍ ... إلا تـقـاضـانـي الـتَّـرحُّـلَ مَـوْضِـعُ

فـإلـى صـلاح الـدِّيـن أشـكـو أنـنـي ... مِـن بُـعـده مُـضْـنَـى الـجـوانـح مُـوجَـعُ

جَـزِعـاً لِـبُـعْـدِ الـدَّار مـنـه ولـم أكـن ... لـــولا هـــواه لِـــبُـــعْـــدِ دارٍ أَجْـــزَعُ

فـلأركـبـنَّ إلـيـه مَـتْـنَ عَـزائـمـي ... ويَـخُـبُّ بـي رَكْـبُ الـغَـرام ويُـوضِـعُ

حـتـى أشـاهِـدَ مـنـه أسـعـدَ طَـلْـعَـةٍ ... مـن أُفْـقـهـا صُـبْـحُ الـسَّـعـادةِ يَـطْـلُـعُ

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨١ ـ ٨٢: ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين.

(٢) ابن المنجم المصري: هونشو الدولة، أبو الحسن علي بن مفرج المنجم (وعند ابن خلكان في وفيات الأعيان: نشو الملك). شاعر مصري الأصل، مصري الولادة والوفاة. من طبقة ابن الذروي وابن قلاقس، ولد سنة ٥٤٩هـ، وتوفي سنة ٦٣٠هـ. (انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٦٨ ـ ١٦٩، حسن المحاضرة ١/ ٢٢٦، وفيات الأعيان ١/ ١٩٧).

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رَوِيِّها ووزنها، فقلت، فذكر قصيدةً، منها: [الكامل]

مولاي شمسَ الدَّوْلَةِ الملك الذي شَمْسُ السِّيادَةِ من سَنَاه تَطْلُعُ

ما لي سِواك من الحوادث ملجأٌ ما لي سِواك من النَّوائِبِ مَفْزَعُ

ولأَنْت فَخْرُ الدين فخري في العُلا وملاذُ آمالي ورُكني الأَمْنَعُ

إلا بخدمتِك المُجِلَّة موقعي والله ما للملك عنديَ مَوْقعُ

وبغير قُرْبِكَ كلُّ ما أرجوه من دَرْكِ المُنى متعذِّرٌ متمنِّعُ

النَّصْرُ إن أقبلتَ نحويَ مُقْبِلٌ واليُمْنُ إنْ أسرعتَ نحويَ مُسْرِعُ

قال: ثم سرنا إلى دمشق، ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوَّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظَّم شمس الدولة، وعزم إلى مِصْر السَّفر.

فصل

في ذكر جماعةٍ من الأعيان تجدَّد لهم ما اقتضى ذكرُهُ في هذه السنة

[وفاة كمال الدين بن الشهرزوري وتعيين ابن أخيه ضياء الدين الشهرزوري]

قال العماد: في السَّادس من المحرَّم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[1]، وعمره ثمانون سنة، لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وكان في الأيام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكِّم، وصلاح الدين إذا ذاك يتولى الشِّحْنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخّيه الأحكام الشرعيّة، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قَبُوله إعراضَه، ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشِّحْنكية

(١) هو القاضي كمال الدين، أبو الفضل، محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، قاضي دمشق، وجميع الشام، وإليه الوقوف بها، وكان جواداً فاضلاً، رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول (انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/ ٨٤، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٦٨، مرآة الزمان ٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤١ ـ ٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٧ ـ ٦٠، الوافي بالوفيات ٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١١٧ ـ ١٢١، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٩٩ ـ ١٠٠).

إلى المُلك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السِّلْك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فَرَطَ منه فات وقت تلافيه. فلما ملك دمشق أجْرَاه على حكمه، ولم يؤاخِذه بجُرمه، واحترم نوَّابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشَّرْع بابه، وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه.

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشَّهْرُزُوري[1] قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذَّهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفَّر حظه من الذَّهب، وملَّكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلة، جليَّةً جليلة، ورتَّب له وظائف، وخصَّه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشَّام، وأمْرُه جارٍ على النِّظام.

ولما اشتدَّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جَوْهَرَه العَرَض، أراد أن يبقي القضاء في ذويه، فوصَّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه، علماً منه بأن السلطان يُمضي حُكمه لأجل سوالفه، ويجعلُه عنده من عوائد عوارفه. ومات ولم يخلف مثله، ومن شاهده شاهد العَقْل والفَضْل كُلَّه، بارّاً بالأبرار، مختاراً للأخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام. وقد قوَّاه نور الدين رحمه الله تعالى وولده في أيامه، وسدَّد مرامي مرامه.

وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمزٌ ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق، ومدارسها، والبيمارَسْتان، فاستمرَّت عادته واستقرَّت قاعدته في دولة السلطان. وتوفي ونحن بحلب محاصرون.

وذكر العماد في «الخريدة» لابنه محيي الدين[2] قصيدةً في مرثيته، منها[3]: [الطويل]

أَلِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسيون فَسَلِّموا ... على جَدَثٍ بادي السَّنا وترحَّموا

وبالرَّغم منِّي أن أناجيه بالمُنى ... وأسأل مَعْ بُعْد المدى من يُسَلِّمُ

لقد عَدِمَتْ منك البَرِيَّةُ والداً ... أَحَنُّ من الأمِّ الرَّؤوف وأَرْحَمُ

ولا سيَّما إخوانُ صِدْقٍ بِجلَّقٍ ... هُمُ في سماء المَجْدِ والجُودِ أَنْجُمُ

---

(١) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، ولد ضياء الدين سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.

(٣) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/٣٣٦ ـ ٣٣٩.

نَشَرْتَ لواءَ العَدْلِ فوقَ رؤوسهم فما كان فيهم من يُضَامُ ويُظْلَمُ
لَقِيتَ من الرّحمن عفواً ورحمةً كما كنتَ تعفو ما حَيِيتَ وتَرْحَمُ

قال العماد: وجلس ابنُ أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن إحسانه، وأبقى نُواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه.

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السُّلْطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإحسان، وهو شيخ مذهب الشَّافعي رضي الله عنه، والأقوم بالفُتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدِّين والدُّنيا، والسلطان يؤثر أن يفوِّض إليه منصب القضاء، ولا يرى عَزْل الضِّياء، فأفضى بسرٍّ مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصَّب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل، وأُشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك.

قال العماد: وأول ما اشتريت منه بوكالة السُّلْطان الأرضَ التي ببستان بقر الوحش التي بنيتُ فيها المواضع من الحمَّام والدُّور والاصطبل والخان، وكنتُ قد احتكرتها في الأيام النورية، فملكتُها في الأيام الصَّلاحية.

قلت: قد خربت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار واستمرّ خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصَّفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان[1].

قال: فلما استعفى ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشَّافعي، وكان ينوبُ عن كمال الدين، فأمره السّلْطان أن يجري على رسمه، ويتصرف في حُكْمه.

وكان السلطان لإِحياء القضاء في البيت الزَّكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز

(١) قال أبو شامة في «الذيل على الروضتين» أحداث سنة ٦٤٣هـ: ثم دخلت سنة ٦٤٣هـ ومدينة دمشق محاصرة، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم، ففي تلك الليلة أحرق قصر الحجاج، والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات، ودور عظيمة، ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير.. ثم نصبت على دمشق المجانيق ورميت به بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد وترامى الفريقان، وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس، وباب السلامة، وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر، واشتد الغلاء وعظم البلاء... ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع أول.

عِدَته مُناج، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكيّ الدين[١]، والأوحد قاضيين في دمشق، يحكمان، وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون متولّياً للقضاء، منفرداً بالحكم والإمضاء، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السُّلْطان الملك المعظم فخر الدين.

فلما عُدْنا إلى الشَّام تكلَّم الناس في ذهاب نور بصره، وأنّه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد[٢]، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للنَّاس صرفه عما هو متوليه. واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صُرِف، واستقلَّ به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين بن الزكي، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولّاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال، إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفي صفر وقف السُّلْطان قرية حزم باللِّوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزّاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزّاهد نَصْر المقدسي[٣] رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النَّيْسابوري رحمه الله[٤]، ورأيتُ كتاب الموقف بذلك على هذه الصُّورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله تعالى: الحمد لله وبه توفيقي.

[وفاة شمس الدين بن أبي المضاء]

قال العماد: وفي ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، ونحن في طريق

---

(١) هو قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، وهو أول من خطب بالبيت المقدس لما فتحه السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

(٢) توفي سنة ٦٠١هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠١هـ).

(٣) نصر المقدسي: هو الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود بن أحمد المقدسي، المتوفى سنة ٤٩٠هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٤) قطب الدين النيسابوري: هو مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

الوصول إلى دمشق، توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء[١] بدمشق، وهو أول خطيب بالدِّيار المِصْرية للدولة العباسية. وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء، فيكثر خِلَعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرّب ولده، وجبر بِتربيته يُتْمه.

[تعيين ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى بغداد]

ثم تعين ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري بعده للرسالة إلى الدِّيوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السُّلْطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشَّام، فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصُّحبة، وهو متودد إليَّ بصفاء المحبة.

[زواج السلطان صلاح الدين من عصمة الدين بنت أنر]

وفي آخر صفر تزوَّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله تعالى، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق، رفيعة القدر، مستقلَّة بأمرها، كثيرة الصّدقات، والأعمال الصَّالحات. فأراد السُّلْطان حفظ حرمتها، وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُوله، وزوَّجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر بإذنها، ودخل بها وبات عندها، وقرن بسعده سعدها؛ وخرج بعد يومين إلى مصر.

[نبذة عن أسامة بن منقذ]

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشَّهْرُزُوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أُسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ، وعوده إلى الشَّام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسَّادة القادة العظماء، وقد متَّعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشَّام، وفرسان الإسلام.

ولم يزل بنو منقذ ملّاك شَيْزَر، وقد جمعوا السيادة والمفخر، ولما تفرد بالمعقل منهم من تولاه، لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع

---

(١) هو محمد بن المحسّن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل بالسلطان صلاح الدين، وتوفي ولم يبلغ الأربعين (الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٣).

وعشرين وخمسمائة، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد، وما فيهم إلا ذو فضل وبَذْل، وإحسان وعدل، وما مِنْهم إلا منْ له نظمٌ مطبوع، وشِعْرٌ مصنوع، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم في الأدب، وكانت جَرَتْ له نبوةٌ في أيام الدمشقيين، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين، في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظّافر، وقتل عباسٍ وزيرِهم إخوتَهُ، وإقامة المنعوت بالفائز، وما رَدَف ذلك من الهَزَاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشّام، وسار إلى حصْن كَيْفا وتوطّن. ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق، وذلك في سنة سبعين، وقال: [المتقارب]

حمدتُ على طول عُمْري المشيبا وإنْ كنتُ أكثرتُ فيه الذنوبا
لأني حَييتُ إلى أن لقِيـ ـتُ بعد العدوّ صديقاً حبيبا

قال: وكنتُ أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشَّبيبة، وأنشدني له مجدُ العرب العامري[1] بأصفهان في سنة خمسٍ وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه، في سنٍّ قلعها: [البسيط]

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهرَ صُحْبَتَهُ يشقى لنفعي ويَسْعى سَعْيَ مجتهدِ
لم أَلْقَهُ مُذْ تصاحبْنا فحين بدَا لِناظريَّ افترقنا فُرْقَة الأَبَدِ

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه؛ مع كثيرٍ من شعره المبتكر من جنسه.

قلتُ: ومن عجيبِ ما اتفق أني وجدت هذين البَيْتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات، في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي[2]، ومات ابن منير سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة. قرأت في ديوانه: وقال في الضِّرْس: [البسيط]

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهرَ صُحْبَتَهُ يسعى لنفعي وأجني ضرَّه بيدي

---

(١) مجد العرب العامري: في كشف الظنون: الغامدي وهو تصحيف، والصحيح العامري: وهو علي بن محمد بن غالب العامري، الشاعر المعروف بمجد العرب، أبو فراس، من كبار شعراء العراق في تلك الفترة، أقام في أصفهان من سنة ٥٣٧هـ، إلى سنة ٥٤٨هـ، توفي بالموصل سنة ٥٧٣هـ. (وفي كشف الظنون توفي سنة ٧٥٠هـ وهو خطأ)، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٧٢٠، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٤١ ـ ١٧١، فوات الوفيات ٣/ ٨٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) تقدّمت ترجمته في الجزء الأول وفي الجزء الثاني.

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بَصَري ... ومن تِلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلُو بِبَثِّيَ من خالٍ بوجنته ... مِداده زائِدُ التقصير للمَدَد

ثم قال:

لم ألقه مُذ تصاحبنا... البيت

فالأشبه أنَّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غَيَّر فيهما كلمات. وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورةٍ أخرى حسنة: [البسيط]

وصاحبٍ ناصح لي في معاملتي

ويجوز أن يكون أُسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك. ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله أعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مُرْهَفاً[1] وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضِّله على جميع الدَّواوين. ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشَّام، وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر. فلما جاء مؤيد الدولة أبوه، أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملَّكه من أعمال المعرَّة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً. وإذا كان بدمشق جالسهُ وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه.

وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذَّبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحلِّ مشكلاته، وبلغ عمره ستّاً وتسعين سنة، فإن مولده سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدَّم من أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كونه بشَيْزَر، وذكرت له أيضاً ترجمة حسنة في «تاريخ دمشق».

فصل

في رُجوع السُّلْطان إلى مِصْر

خرج من دمشق يومَ الجمعة، رابع شهر ربيع الأول.

---

(١) هو عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، توفي في ثاني صفر سنة ٦١٣هـ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

قال العماد: ولما استتمت للسلطان بالشَّام أمورُ ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمْحَلت بعده من جُوده جَود السَّحاب، وتقدَّمه الأمراء والملوك. وخرج بُكْرة الجمعة، ونزل بمرج الصُّفَّر، ثم رحل عنه قبل العَصْرِ إلى قريب الصَّنَمَيْن، وخرجتُ معه وقلبي نزوع إلى أهلي، فما نزلتُ منزلاً إلا نَظَمْتُ أبياتاً. فقلتُ يوم المسير وقد عبرتُ بالخِيارة: [الطويل]

أقول لِرَكْبٍ بالخيارَة نُزَّلِ ... أثيروا فما لي في المقَام خِيارُ
همُ رحلُوا عنك الغداةَ وما دَرَوْا ... بأنهمُ قد خَلَّفوك وساروا
حليفَ اشتياق يرى من يحبه ... وفي القَلْب مِنْ نارِ الغَرَام أُوارُ
أجيروا من البَلْوى فؤادي فعندكُمْ ... ذِمامٌ له يا سادتي وجِوَارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقيع: [المنسرح]

رأيتُني بالفقيع منفرداً ... أضيَعَ مِنْ فَقْعِ قاعها الضَّائعْ
بعت بمصرٍ دمشقَ عن غررٍ ... مني فيا غَبْنَ صَفْقَةِ البائعْ
صبْريَ والقلبُ عاصيان وما ... غيرُ همومي وأَدْمُعي طائعْ

وقلت بالفَوَّار: [الطويل]

تحدَّر بالفَوَّار دَمْعي على الفَوْرِ ... فقلتُ لجيراني أجيرُوا من الجَوْرِ
وأَصْعَبُ ما لاقيتُ أنيَ قانعٌ ... من الطَّيْفِ مذ بنْتم بزُورٍ من الزَّوْرِ

وقلت بالزَّرقاء: [الطويل]

ولَمْ أنسَ بالزرقاء يوم وَدَاعِنا ... أناملَ تَدْمى حَيْرةً للتَّنَدُّمِ
أعدتُك يا زرقاءُ حمراءَ إنني ... بكيتُك حتى شِيبَ ماؤك بالدَّمِ
تأخَّر قلبي عِنْدَهُمْ مُتخلِّفاً ... وخالَفْتُهم في عَزْمتي والتقدُّمِ
فيا ليت شِعْري هل أعودُ إليهمُ ... وهل لَيْتَ شِعْري نافعٌ للمتيَّمِ

قال: وقلتُ وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشَّوْبك، وفيها تختطف الفرنجُ القاصدين إلى مصر: [السريع]

طريقُ مِصْرَ ضيِّقُ المَسْلكِ ... سالكُهُ لا شكَّ في مَهْلكِ
وَحُبُّ مِصْرٍ صار حُبًّا لمن ... أوقعه في شَبَكِ الشَّوْبكِ
لكنَّما مِنْ دُونها كعبةٌ ... محجُوجة مبرُورة المَنْسَكِ
بها صلاحُ الدين يُشكي الذي ... إليه من أيَّامهِ يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب،

وإيراد البعيد منها والقريب. واتفق أن السلطان سَيَّرَ إلى مِصْر الملك المظفر تقي الدين، وكان لا يَسْتدعي من شاديه، إلا إنشادها في ناديه، ويطرب لسماعها، ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقتُ بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي. وهي هذه[1]: [الطويل]

هَجَرْتُكُمُ لا عن مَلَالٍ ولا غَدْرِ ... ولكن لمقدُورٍ أُتيحَ مِنَ الأَمْرِ
وأعلمُ أني مخطىءٌ في فِراقِكُمْ ... وعُذْرِيَ في ذنْبي وذنْبيَ في عُذري
أرى نُوَباً للدَّهْرِ تُحصى ولا أرى ... أشدَّ من الهِجْرانِ في نُوَبِ الدَّهْرِ
بعيني إلى لُقْيا سواكم غِشَاوةٌ ... وسمعيَ عَنْ نجْوى سواكم لَذُو وَقْرِ
وقلبي وصَبْري فارقاني لِبُعْدِكُمْ ... فلا صَبْر في قلبي ولا قَلْبَ في صَدْري
وإني على العَهْدِ الذي تَعهدُونَهُ ... وسِرِّي لكُمْ سِرِّي وجَهْرِي لكم جَهْري
تجرَّعْتُ صِرْفَ الهَمِّ من كأسِ شَوْقِكُمْ ... وها أنا في صَحْوي نزيفٌ من السُّكْرِ
وإنَّ زماناً ليس يَغْمُرُ مَوْطني ... بسُكْناكُمُ فيه فَلَيْس مِنَ العُمْرِ
وأُقسم لو لم يَقْسِمِ البَيْنُ بيننا ... جَوَى الهَمِّ ما أمسيتُ مُقْتَسَمَ الفِكْرِ
أسيرُ إلى مِصْرَ وقَلْبي أسيرُكُم ... ومِنْ عَجَبٍ أَسْري وقَلبيَ في أَسْرِ
أخِلَّايَ قد شَطَّ المَزَارُ فأرسلوا الـ ... ـخيالَ وزُورُوا في الكَرى وارْبَحُوا أَجْري
تذكَّرْتُ أحبابي بجِلَّق بَعدمَا ... ترحَّلْتُ والمشتاقُ يأنَسُ بالذِّكْرِ
وناديتُ صَبْري مستغيثاً فلم يُجب ... فأسبلْتُ دَمْعي للبكاء على صَبْرِي
ولمَّا قَصَدنا من دمشق غَباغِباً ... وبِتْنا من الشَّوْقِ المُمِضِّ على الجَمْرِ
نَزَلْنا برأسِ الماء عند وَدَاعِنا ... موارد من ماءِ الدُّموعِ التي تجري
نزلنا بصَحْراء الفُقيع وغُودِرَتْ ... فواقعُ من فَيْضِ المَدَامِعِ في الغُدْرِ
ونهنهتُ بالفوار فيضَ مدامعي ... ففاضت وباحَتْ بالمكتَّم من سِرِّي
سَرَينا إلى الزَّرْقاء منها ومن يُصِبْ ... أُواماً يَسِرْ حتى يرى الوِرْدَ أَو يَسْرِي[2]
تذكَّرْتُ حَمَّام القُصَيرِ وأهلَه ... وقد جُزْتُ بالحَمَّام في البَلَدِ القَفْرِ
وبالقريتَين القرْيتين وأين من ... مغاني الغواني منزل الأُدْمِ والعُفْرِ
ورَدْنا من الزَّيتون حِسْمَى وأيلةً ... ولم نستَرِحْ حتى صَدَرْنا إلى صَدْرِ
غَشِينا الغَوَاشي وهي يابسةُ الثَّرى ... بعيدةُ عهد القُطْرِ بالعَهْدِ والقَطْرِ

---

(١) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/٦ ـ ٩).

(٢) الأوام: شدة العطش.

وضَنَّ علينا بالنَّدى ثَمَدُ الحصى ... ومن يرتجي رِيًّا من الثَّمَد النَّزْرِ
فقلتُ اشرحي بالخمسِ صَدْراً مطيَّتي ... بِصَدْرِ وإلا جادَكَ النِّيلُ للعشْرِ
رأينا بها عَيْنَ المواساة إننا ... إلى عين موسى نَبذلُ الزَّادَ للسَّفْرِ
وما جَسَرَتْ عَيْني على فَيْضِي عبرةٍ ... أُكَفْكِفُها حتى عَبَرنا على الجِسْرِ
ومِلْنا إلى أَرْضِ السَّدِير وجَنَّةٍ ... هنالك من طَلْحٍ نضيدٍ ومن سِدْرِ
وجُبْنا الفَلا حتى أصَبْنا مباركاً ... على بركة الجُبِّ المبشِّر بالقَصْرِ
ولما بدا الفُسْطاط بَشَّرْتُ رِفقتي ... بمن يتَلقَّى الوَفْدَ بالوَفْر والبِشْرِ
بَكَتْ أُمُّ عمرو مِنْ وشيكِ تَرَحُّلِي ... فيا خَجْلَتي مِنْ أُم عمرٍو ومِنْ عمرو
تقول إلى مِصْر تصير تعجُّباً ... وماذا الذي تبغي ومَنْ لك في مِصْرِ
فقلتُ ملاذي النَّاصرُ المَلِكُ الذي ... حَصَلْتُ بجَدْواه على المُلْكِ والنَّصْرِ
فقالتْ أقِمْ لا تَعْدَمِ الخيرَ عندنا ... فقلتُ وهل تُغْني السَّواقي عن البحرِ
ثِقي برجُوعٍ يَضْمَنُ الله نُجْحَه ... ولا يقتضي أنْ نبدل العُسْرُ باليُسْرِ
عطيَّتُهُ قد ضاعَفَتْ مُنَّة الرّجا ... ونعمته قد أضعفت مُنَّة الشُّكْرِ

قال: وكان الدُّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزِيِّ الأجمل والعِزِّ الأكمل.

وتلقَّى السُّلْطان أخوهُ ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صَدْر، وعبر إلينا عند بحر القُلْزُم الجِسْر، وتلقَّانا خَيْرُ مصر، ووصلت إلينا ثمراتُها، وجُليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها، وزاد اغتباطها، ودخل السُّلْطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إيرادَهُ وإصْداره.

وكانت قد صَعُبت عليَّ مفارقة دمشق وأهلها، لقِلَّة الوثوق بأنّي أحصل بمثلها، فنظمت يوم خُروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، منها: [المجتث]

بِمُهجتي خِنِثُ العِطْـ ... ـفِ مستلذُّ الدَّلالِ
يقول لي بانكسارٍ ... ورقَّةٍ واعْتلالِ
معاتباً بحديثٍ ... أصفى من السَّلْسَالِ
ما مِصْرُ مثل دمشقٍ ... بعتَ الهُدَى بالضَّلالِ
فقلتُ عنَّت أمورٌ ... عجيبةُ الأشكالِ
أسيرُ في طلب العِزِّ (م) ... مثل سَيْرِ الهِلالِ
لم يبلغ البدرُ لولا الـ ... ـمَسيرُ أوجَ الكمالِ

وكـيـف أتـرك شُـغْـلـي وإنَّـهُ رأسُ مـالـي
صـلاح حـالـي صـلاح الـدِّ (م) يـن الـغـزيـر الـنـوَالِ
مـا لـي أفـارق مَـلْـكـاً مـلَّـكْـتُـهُ آمـالـي
يـا نـاصـرَ الـدِّيـن قـلـبـي عـلـيـه فـي بَـلْـبـالِ

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة، وسيّدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدةٍ، منها: [الخفيف]

كيف لا يغتدي لي الدَّهْرُ عبداً وأنا عبدُ عَبْدِ عَبْدِ الرَّحيمِ
بدوام الأجَلِّ سَيِّدِنا الفا ضِلِ يا دَوْلَةَ الأفاضِلِ دُومي
إن آراءه تنوب لدى المَلْـ ـك منابَ الأرواحِ عندَ الجُسومِ
مالكُ الحَلِّ في الممالك والعَقْـ ـد وحُكْم التَّحليل والتَّحريمِ
مُعْمِلٌ للنَّفاذ في كلِّ قُطْرٍ قَلَماً حاكماً على إقليمِ
يتلَقَّى الملوكُ في كلِّ أرضٍ كُتْبَهُ القادماتِ بالتَّعْظيمِ
ناحلُ الجسم ذو خطابٍ به يَصْـ ـغُرُ للدَّهرِ كلُّ خَطْبٍ جسيمِ

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعز الدين فَرُّخْشاه ـ وهما ابنا أخي السُّلْطان، وهو شاهنشاه بن أيوب ـ وهمام الدين بُزْغُش الشنباشي؛ والي القاهرة، ومدح فَرُّخْشاه بقصيدةٍ حسنة، منها: [الخفيف]

شادنٌ كالقضيب لَدْنُ المهزَّهْ سَلَبَتْ مُقْلتاه قلبي بغمزَهْ
كلّما رُمْتُ وَصْلَهُ رامَ هجري وإذا زدتُ ذِلّةً زاد عِزَّهْ
للصِّبا من عِذارِهِ نسجُ حُسْنٍ رَقَمَ المِسْكُ في الشَّقائق طَرْزَهْ
وعزيزٌ عليَّ أنَّ اضطِباري فيه قد عَزَّه الغَرامُ وبَزَّهْ
ما رأى ما رأيتُ مجنونُ ليلى في هواهُ ولا كُثَيِّر عَزَّهْ
ما ذَكرنا الفُسْطاط إلا نسينا ما رأينا بالنَّيْرَبين والأرزَهْ
فمها الجِيرة الجوازي لها الميـ ـزةُ حُسْناً على ظباء المِزَّهْ
ونصيري عليه نائل عز الدِّ (م) ين ذي الفَضْلِ خلَّد الله عِزَّهْ
فرَّغ الكَنزَ من ذخائر مالٍ مالئاً من نفائِسِ الحَمْدِ كَنْزَهْ
هِمَّةٌ مستهامةٌ بالمعالي للدَّنايا أبِيَّةٌ مُشْمَئِزَّهْ

قال العماد: وتوفَّرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزُّه في الجزيرة والجِيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العِزّ والرَّوْضة، ودار الملك والنّيل

والمقياس، ومراسي السُّفن، ومجاري الفلك والقصور بالقَرَافة، وربوع الضِّيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

[زيارة العماد الكاتب للأهرامات]

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشَّهرزُوري(١) أن يفرّجنا في الأهرام، فقد كنا شُغفنا بأخبارها في الشَّام، فخرج بنا إليها، ودُرْنا تلك البرابي(٢) والبراري، والرِّمال والصحاري، وأحمدنا المقارَّ والمقاري، وهالَنا أبُو الهول، وضاق في وصفه مجال القَوْل، ورأينا العجائب، ورَوْينا الغرائب، واستصْغَرْنا في جَنْب الهرمَيْن كلَّ ما استعظمناه، وتداولنا الحديثَ في الهرمِ ومَنْ بناه، فكلٌّ يأتي في وصفهما بما نقله، لا بما عقلَه، واجتهدوا في الصُّعوَد إليه فلم يُوجد من تَوَقَّله، وحارت العُقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهُّم حدوده، فيَا لَهُ مِنْ مولودٍ للدَّهْرِ قبل الطُّوفان، انقرَضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسُمَّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه وثَمُوده، ويُدلُّ إحكامُه وعلوُّه على همة بانيه في بأسه وجوده، وإنَّ في الأرض الهرمين كما أنَّ في السماء الفرقدين، وهما كالطَّودَيْن الرَّاسخيْن، وكالجبلين الشَّامخين، قد فنِيت الدُّهور وهما باقيان، وتقاصَرت القُصُور وهما راقيان، وكأنَّهما لأُمِّ الأرض ثَدْيان، وعلى ترائب التُّراب نَهْدَان، ولسُلطان العالَم علَمان، وإلى مراقي الأملاك سُلَّمان، وهُما للَّيل والنهار رقيبان، ولرَضْوى ولشَمَام نسيبان، ومن زُحلِ والمريخ قريبان، ولِعَوادي الخُطوب خطيبان، ولثَوْرِ الفَلَك رَوْقان(٣)، ولشخص الكُرَة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعةً ممن كان يقيم الضِّيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان، فذكر منهم النَّاصح مؤدب أولاد السُّلْطان، وله دارٌ مشرفة على النيل. وذكر منهم اللسان الصُّوفي البَلْخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دارٌ أيضاً على شاطئ النيل برسم ضيافة من نَزَل به.

---

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

(٢) البرابي: جمع برباة أو بربا: وهو اسم أطلقه المصريون على جميع المعابد والآثار القديمة، وهذا القول الذي قال به ابن جبير يؤيده ياقوت إذ يقول: بَرْبا كلمة قبطية، وهي اسم للبناء المحكم القديم الذي كان يقام في الأيام الوثنية، وكان يستعمل موضعاً للسحر. ويستعمل سفروس الأشمونيني المؤرخ النصراني لبطارقة الإسكندرية كلمة بربا بمعنى محدد ووثيق وهو المعبد الوثني تمييزاً له من العمائر المقامة للعبادة المسيحية، والكلمة العربية «بربا» هي رواية في رسم الكلمة القبطية «بربية» أي المعبد واستعمالها أكسبها الجمع الفصيح أي «برابي» (دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٦٤).

(٣) الروق: القرن.

قال: ثم وقف السُّلْطان دارَه على الصُّوفية من بعده، وانتقل بعد سنين إلى النَّعيم وخُلْده.

فـصـل

في بيع الكُتُب وعِمارة القلعة والمدرسة والبيمارَسْتان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القَصر كلّ أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتَّبة البُيوت، مقسَّمة الرُّفوف، مفهرسة بالمعروف. فقيل للأمير بهاء الدين قَراقُوش، متولِّي القصر، والحالّ والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العُثّ، وتساوى سمينُها والغَث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها، وإخراجها من بُيوت الخزانة إلى أرضها. وهو تركيٌّ لا خِبرة له بالكُتب، ولا دُرْبة له بأَسْفار الأدب. وكان مقصود دلَّالي الكتب أن يُوكسوها، ويخرِّموها ويعكسوها. فأُخرجت ـ وهي أكثر من مائة ألف ـ من أماكنها، وغُرِّبت من مساكنها، وخربت أوكارُها، وأُذهبت أنوارُها، وشُتّت شملها، وبُتّ حَبْلُها، واختلط أدبيُّها بنجُوميّها، وشرعيُّها بمنطقيِّها، وطبيُّها بهندسيِّها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلُها بمشاهيرها.

وكان فيها من الكُتب الكبار، وتواريخ الأمْصار، ومصنَّفات الأخبار، ما يشتمل كلُّ كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلَّداً، إذا فُقِدَ منها جُزءٌ لا يُخلَف أبداً، فاختلطت واختبطَتْ، فكان الدَّلال يخرج عشرة عشرة من كلِّ فنّ كتباً مبتَّرة، فتُسام بالدُّون، وتُباع بالهُون، والدَّلال يعرف كلّ شدَّة، وما فيها من عدَّة، ويعلم أنّ عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفَّق كتاباً قد تقوَّم عليه بعشرة، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيت الأمر حَضَرْت القصر، واشتريْت كما اشتروا، ومَرَيْتُ الأطباء[1] كما مَرَوْا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السُّلْطان ما ابتَعْتُه، وكان بمائتين، أنعم عليَّ بها، وأبرأ ذمَّتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عَيَّنْتُ عليه من كتبها.

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلَّدات كثيرة انتُقيَت له من القصر، وهو ينظر

(١) المري: مسح ضرع الناقة لتدر لبناً. والأطباء: جمع طبي، بكسر الطاء وضمها: حلمات الضرع.

في بعضها، وبسط يدي لقبضها، وقال: كنتَ طلبت كُتباً عيَّنتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت: كلها، وما أستغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمَّال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقلَّ نوال.

قال: وكان السلطان لما تملَّك مصر رأى أنَّ مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كلَّ واحدة بسور احتاجت إلى جُنْدٍ مفرد يحميها، وإني أرى أنْ أدير عليهما سوراً واحداً من الشَّاطئ إلى الشَّاطئ.

[أمر صلاح الدين ببناء القلعة على جبل المقطم]

وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المُقطَّم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم، وانتهى به إلى أعلى مِصْر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان ثبتاً رفعه النواب، وتكمَّل فيه الحساب، ومبلغه ـ وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ـ تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البُرْج بالكوم الأحمر سبع آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع. وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النِّيل إلى النِّيل، على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشميّ[1] بتولي الأمير بهاء الدِّين قَراقُوش الأَسَدي.

وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقَّها من إحكام العمل، وقَطْع الخَندق وتعميقه، وحَفْر واديه وتضييق طريقه. وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدَّرج المنحُوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولمْ يتأتَّ له هذا كله في سنين متَقاربة لولا إعانة رَبِّه المُعين.

وتُوفِّي السُّلْطان وقد بقي من السُّور مواضع والعمارة فيه مستمرّة، ووظائفُ نفقاتها مستدرَّة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتُّرْبة المقدسة الشَّافعيّة، ورتَّب قواعدها بفرط

(١) طول الذراع الهاشمي: ٦١,٦ سم. والقصبة الهاشمية ٣٦٩,٦ سم (النظم الإسلامية ص٤١٦).

الألمعيَّة، وتولاها الفقيه الزَّاهد نجم الدِّين الخبُوشاني[١]، وهو الشيخُ الصَّالح الفقيهُ الوَرِع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دارٍ في القَصْر بيمارَسْتاناً للمرضى، واستغفرَ الله تعالى بذلك واسترضى، ووقف على البيمارَسْتان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسْداها، واهتمْ بفرائضَ ونوافل فأدَّاها.

فصل

في خروج السُّلْطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: ثمَّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفْضَل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دِمْياط، ورأى في الحضور بالثَّغر المذكور ومشاهدتِه الاحتياط، وكانَ له بها سَبْيٌ كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلدِ يومين، ووهَبَ لي منه جارية.

ثمَّ وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وتردَّدْنا مع السُّلْطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي[٢]، وداومنا الحضور عنده، واجتلَيْنا من وجهه نُورَ الإِيمان وسَعْدَه، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبْت رابع شهر

(١) نجم الدين الخبوشاني: هو الأمير العالم محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (نسبة إلى خبوشان بليدة بناحية نيسابور)، نجم الدين، أبو البركات الشافعي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ. من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي» من فروع الشافعية (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، الفتح القسي ص ٥٧٧، رحلة ابن جبير ص٤٨، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤، العبر للذهبي ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٤، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) أبو طاهر السلفي: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي الحافظ، أبو طاهر، صدر الدين الأصبهاني الشافعي، ولد سنة ٤٧٨، وتوفي سنة ٥٧٦هـ، من تصانيفه: «أربعين البلدانية» في الحديث، «سداسيات» في الحديث، «سلفيات من أجزاء الحديث»، «سلماسيات» أمالي يعرف بالمجالس الخمسة، «شرط القراءة على الشيوخ»، «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، «معجم السفر»، «المعجم لمشيخة أصبهان»، «المعجم لمشيخة بغداد» (كشف الظنون ٥/ ٨٧).

رمضان، واغتنمنا الزَّمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العُمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر.

وشاهدنا ما استجدَّه السُّلْطان من السُّور الدائر، وما أبقاه من حُسْن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثُّغور وتعمير الأسطول.

[أمر صلاح الدين بتعمير الأسطول]

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السُّلْطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنَّه لا يُخْلي نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكُفَّار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أخْلقت سُفُنه وتغيَّرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجَمع له من الأخشاب والصُّنَّاع أشياء كثيرة، ولما تَمَّ عَمَلُ المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السِّلاح، والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرِّجال، وولَّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً، وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يُبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقُلت في معنى تنقُّلي في البلاد: [البسيط]

يوماً بجيٍّ ويوماً في دمشقَ وبالـ ... ـفُسطاط يوماً ويوماً بالعِرَاقَيْنِ
كأنَّ جسمي وقلبي الصَّبَّ ما خُلقا ... إلا ليُقْتسما بالشَّوْقِ والبَيْنِ

وقلت يوم الخروج من القاهرة: [الكامل]

يا باخلاً عند الوَداعِ بوقفةٍ ... لو سامني رُوحي بها لم أَبْخلِ
ما كان ضَرَّكَ لوْ وقَفْتَ لِسائلٍ ... تركَ الفؤادَ بدائه في المنزل
هلّا وَقَفْتَ لقلبِ مَنْ أحرقته ... مقدارَ إطفار الحريقِ المُشْعَلِ
إن أسْرِ مُرْتحلاً ففي أسْرِ الهوى ... قلبي لديك مُقَيّداً لم يَرْحَلِ
عَذُبَ العذابُ لدى فؤادي المبتَلى ... إذْ كنتَ أنتَ معذِّبي والمبتلي

وقلت: وقد نزلنا بين مُنية غَمْر ومُنية سَمنُّود: [الطويل]

نَزَلْتُ بأرض المُنيَتين ومُنيتي ... لقاؤكُمُ الشّافي وَوَصْلُكم المجدي
سأبْلَى ولا تَبْلى سريرةُ وُدِّكم ... وتؤنسني إنْ مُتّ في وحشة اللَّحْدِ

قال: وعُدْنا من الإسكندرية في شهر رمضان، فصُمنا بقيَّة الشهر بالقاهرة، والسُّلْطان متوفرٌ في ليله ونهاره، على نَشْر العدل وإنشاره، وإفاضة الجُود

وإغزاره، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام الباطل وإنكاره.

وقال: ومِنْ مدائحي في السُّلْطان ما أنشدته إياه سادس شَوَّال[١]: [المتقارب]

فَدَيْتُكَ من ظالمٍ مُنْصِفِ ... وناهيكَ من باخِلٍ مُسْرِفِ[٢]

أيبلغُ دهريَ قصدي وقد ... قَصَدْتُ بمصر ذَرا يوسف

ويوسف مِصْرٍ بغير التُّقَى ... وبذل الصَّنائعِ لم يُوصَفِ

فَسِرْ وافْتَحِ القُدْسَ واسفكْ به ... دماءَ متى تُجْرِها يَنْظُفِ

وأهْدِ إلى الإسبتارِ التَّبَار ... وهُدَّ السُّقوفَ على الأُسْقُفِ

وخَلِّصْ من الكُفْرِ تلك البلاد ... يُخَلِّصْكَ الله في المَوْقِفِ

[وصول رسل الموصل إلى صلاح الدين بمصر]

قال: وفيها وصل رُسُل المواصلةِ وصاحبي الحِصْن وماردين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسولِ صاحب حِصْن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طيّ: وصل رسول المَوْصِل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري بهدية وقود، فخرج الموكبُ إلى لقائه، وأكرمه السُّلْطان واحترمه. وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج، فأُسر رسول صاحب الحِصْن، ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قَرَاقُوش إلى أَوجَلَة وتلك البلاد فجمع أموالاً ورجع إلى مصر، ثم أراد الرُّجوع فمنعه العادل، ثم خلَّصه فَرُّخْشاه، فرجع وفتح بلاد فزّان بأسرها.

قال العماد: ثم خرج السُّلطان إلى مرج فاقُوس، مِنْ أعمال مصر الشَّرْقية، لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص. واقترح عليَّ أن أمدح عز الدين فَرُّخْشاه بقصيدةٍ موسُومة، ألزم

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٥ ـ ١٧.

(٢) في «خريدة القصر»: «مسعفِ» بدل: «مسرفِ».

فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحِجَّة فقلت: [السريع]

مَـوْلَايَ عـزَّ الـديـن فَـرُّخْـشَـهْ ... الـدَّهْـرَ مَـنْ يَـرْجُـك لا يَـخْـشَـهْ
تَـلْـقـاه سَـمْـحَ الـكَـفِّ دَفَّـاقـهـا ... طَـلْـقَ الـمـحـيَّـا كَـرَمـاً بَـشَّـهْ
إنْ شـئـتَ فـوتـاً بـالـرَّدى فَـالْـقَـهُ ... أو شـئـتَ فـوزاً بـالـعُـلا فـاغْـشَـهْ
يُـديـم بـالأيـدي وبـالأَيْـدِ فـي ... حَـزبـي لُـهـاه والـعِـدَى بـطـشـهْ
كـم مَـلِـكٍ عـاداكـمُ لـم يَـبِـتْ ... إلا جَـعَـلْـتُـمْ عَـرْشَـهُ نَـعْـشَـهْ
خَـوَّفْـتُـمُ الـشِّـرْكَ فـلا قـمـصُـهُ ... أَمَّـنْـتُـمُ يـومـاً ولا فُـنْـشَـهْ
أورَثَـك الـسُّـؤدد يـا ابـن الـعُـلا ... والـدُّك الـسَّـيِّـد شـاهِـنْـشَـهْ

وقال في «الخريدة»(١): كنا مخيمين بمرج فاقوس، مصمِّمين على الغَزَاة إلى غزَّة، وقد وصلت أساطيل ثَغرَيْ دمياط والإسكندرية بسبي الكُفَّار، وقد أَوْفَتْ على ألف رأس عِدَّة من وصل في قيد الإسار، فحضر ابنُ رَوَاحة(٢) منشداً مهنئاً بعيد النَّحْر، سنة اثنتين وسبعين، ومُعَرِّضاً بما وَهبه الملك النَّاصر من الإماء والعبيد، قصيدة، منها: [الوافر]

لـقـد خَـبَـرَ الـتَّـجـاربَ مـنـهُ حَـزْمٌ ... وقَـلَّـبَ دَهْـرَهُ ظَـهْـراً لِـبَـطْـنِ
فـسـاقَ إلـى الـفـرنـج الـخـيـلَ بـرّاً ... وأدركـهـمْ عـلـى بـحـرٍ بِـسُـفْـنِ
لـقـد جَـلَـبَ الـجـواريَ بـالـجـواري ... يَـمِـدْن بـكـل قـدٌ مُـرجَـحِـنِّ(٣)
يـزيـدهُـمُ اجـتـمـاعُ الـشَّـمْـلِ بُـؤسـاً ... فـمـرنـانٌ تـنـوحُ عـلـى مُـرِنِّ
زَهَـتْ إسـكـنـدرِيَّـةُ يـوم سِـيـقُـوا ... ودمـيـاطٌ فـمـا مُـنِـيـا بِـغَـبْـنِ
يـرونَ خـيـالَـه كـالـطَّـيْـفِ يَـسْـري ... فـلـو هَـجَـعـوا أتـاهُـمْ بـعـد وَهْـنِ

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٩١ ـ ٤٩٦.
(٢) ابن رواحة: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة، الشاعر الفقيه، ولد بحماة سنة ٥١٥هـ، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق، فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من مؤرخ الشام ابن عساكر وآخرين، ورحل إلى مصر أيام الصالح بن رزيك، ولما أراد الرجوع إلى الشام ركب البحر، فقطع عليه فرنج صقلية الطريق فأسروه بصقلية، وذلك نحو سنة ٥٦٠هـ، وبقي في أسرهم مدة، ثم عاد إلى حماة، ثم سافر إلى مصر، وأقام فيها في ظل السلطان صلاح الدين، وهناك أسمع ولده من الحافظ السلفي، قتل شهيداً بمرج عكا سنة ٥٨٥هـ (معجم الأدباء ١٠/ ٤٦ ـ ٥٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٨١ ـ ٤٩٦، مفرج الكروب ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، فوات الوفيات ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، الوافي بالوفيات ١٢/ ٤١٣ ـ ٤١٦).
(٣) الجواري الأولى: الإماء، والجواري الثانية: السفن، والمرجحن: المائل.

أبـادَهُـمُ تـخـوُّفُـهُ فـأمـسـى ... مُـنـاهُـمْ لـو يُـبَـيِّـتُـهـمْ بـأمْـنِ
تـمـلَّـك حَـوْلـهـم شـرقـاً وغـربـاً ... فـصـارُوا لاقـتـنـاصٍ تـحـتَ رَهْـنِ
أقـام بـآل أيـوبِ ربـاطـاً ... رأت مـنـه الـفـرنـج مـضـيـق سِـجْـنِ
رجـا أقـصـى الـمـلـوكِ الـسِّـلْـم مـنـهـم ... ولـم يَـرَ جُـهْـدَه فـي الـبَـأس يُـغْـنـي

وفي هذه السَّنة أبطل السُّلْطان المَكْس الذي كان بمكة على الحاجِّ، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شَرَع مجاهد الدين، يعني قايماز[١] دُزْدَار قلعة المَوْصِل، في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط، والمدرسة والبيمارَسْتان وكلّها متجاورات.

قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل، وهو متولِّيها، والحاكم في الدولة الأتابكية النُّورية. وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحِجَّة، سنة إحدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين، وأُعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصلُه من أعمال شبختان، وأُخذ منها وهو طفل. وكان عاقلاً خيِّراً، ديِّناً فاضلاً، يعلم الفِقْه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنَّوادر والتَّواريخ شيئاً كثيراً، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصَّوْم، وله وِرْدٌ يصلّيه كل ليلة، ويكثر الصدقة، وبنى عِدَّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عِدَّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار، إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في «الخريدة»[٢]: نزلنا ببركة الجُبّ لقصد فرض الجهاد، وعَرْضِ الأجناد، فكتب الأسعد بن مَمَّاتي[٣] إليَّ أبياتاً في الملك النَّاصر، ويعرض بالشِّطْرنج

(١) هو مجاهد الدين قايماز الرومي الحاكم على الموصل، الذي بنى الجامع المجاهدي والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة. ولما مات عز الدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسه وضيق عليه وآذاه فتوفي في الحبس سنة ٥٩٤هـ (انظر الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٥١، والذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٤هـ).

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣) الأسعد بن مماتي: هو أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي المليح مماتي، القاضي وحيد الدين أبو المكارم الدمشقي، كان ناظر الدواوين بمصر، حنبلي المذهب، توفي سنة ٦٠٦هـ، من تصانيفه: «أخائر الذخائر»، «أعلام النصر»، «باعث الجلد عند حادث الولد»، «ترجمان الجمان»، «تلقين التفنن»، «تهذيب =

فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين[١]: [المديد]

يـا كـريـمَ الـخِـيْـم فـي الـخِـيَـم أهـيـفٌ كـالـرِّيـم ذو شَـمَـم[٢]
عـجـبـي لـلـشَّـمْـسِ إذ طَـلَـعَـتْ مـنـه فـي داجٍ مـن الـظُّـلَـم
كـيـف لا تُـصْـمِـي لـواحـظُـه ورُمـاة الـطَّـرْف فـي الـعَـجَـم
لا تـصـدْ قَـلْـبَ الـمـحـبِّ لـكـم لا يـحـلّ الـصَّـيـدُ فـي الـحَـرَمِ
يـا صـلاحَ الـدِّيـنِ يـا مـلـكـاً قـد بـراه الله لـلأُمَـم
أضـحـتِ الـكُـفَّـارُ فـي نِـقَـم وغـدا الإسـلامُ فـي نِـعَـم
إنْ يَـكُ الـشِّـطْـرنـج مـشـغـلـةً لـعـلـيِّ الـقَـدْر والـهِـمَـم
فـهْـي فـي نـاديـك تـذكـرةٌ لأمـورِ الـحَـرْبِ والـكَـرَم
فـلـكـم ضـاعَـفْـتَ عِـدَّتـهـا بـالـعـطـاءِ الـجـمِّ لا الـقَـلَـم
ونَـصَـبْـتَ الـحَـرْبَ نـصـبـتـهـا فـانـثَـنَـتْ كـفَّـاك بـالـقِـمَـم
فـابْـقَ لـلأقـدارِ[٣] تـرفـعـهـا وأُمـورُ الأقـدارَ كـالـخَـدَم

[وفاة القاضي الشريف أبي محمد عبد الله العثماني]

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الدِّيباجي من ولد الدِّيباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عَفَّان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي إلياس، من بيت القضاء والعلم. وكان واسعَ الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية، قيماً بالأدب، متصرِّفاً في النظم والنثر، إلا أنه مقلٌّ من النظم، أوحد عصره في علم الشرُّوط، وقوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في «الخريدة».

= الأفعال»، «حجة الحق على الخلق»، خصائص المعروف في المعميات»، «خلاصة في الفروع»، «درة التاج» ديوان شعره، «روائع الوقايع»، «زواهر السدف وجواهر الصدف»، «سر الشعر»، «سيرة السلطان صلاح الدين»، «سلاسل الذهب»، «علم النشر»، «الفاشوش في أحكام قراقوش»، «قرص العناب»، «قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج»، «قوانين الدواوين» يتعلق بدواوين مصر ورسومها، «كتاب الحض على الرض»، «كتاب المنجل»، «كرم البحار في حفظ الجار»، «لطائف الذخيرة لابن بسام»، «مذاهب المواهب»، «ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار»، «ميسور النقد»، «نظم كليلة ودمنة»، «النهاية شرح الهداية للمحفوظ» في الفروع وغير ذلك. (كشف الظنون ٥/ ٢٠٥).

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٠٦.

(٢) الخيم: الشيمة والخلق والسجية.

(٣) في «خريدة القصر»: «فابق للإسلام» بدل: «فابق للأقدار».

[عودة السلطان إلى القاهرة، وعزمه على غزو غزة وعسقلان]

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسُّلطان مخيم بمرج فاقُوس[(١)]، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميميَّة في منتصف المحرَّم، وخدمه بها هناك في المخيم، أوَّلها[(٢)]: [مخلع البسيط]

رِيمٌ هَضِيمٌ يَرُومُ هَضْمِي ... مِنْ سُقْمِ عَيْنَيْهِ عَيْنُ سُقْمِي
إنْ رُمتَ يا عاذلي صلاحي ... فَخَلِّني والهوى وزَغْمِي
لومُكَ يُذكي الغرام قُلْ لي ... أنت نصيحي أم أنتَ خصمي
أيا زماني الغشوم أَقْصِرْ ... إنَّك لا تستطيع غَشْمِي[(٣)]
عَبْدُ الرّحيم الرحيمُ أضحى ... عوني على خَطْبِكَ المُلِمّ
بالفاضلِ الأفضلِ الأجلّ ... المُفْضِلِ الأشرفِ الأَشَمّ
غيثُ غياثٍ وجودُ جودٍ ... وبَحْرُ عِلْمٍ وطَوْدُ حِلْمِ
يراعُهُ في اليمين منهُ ... يستخرجُ الدُّرَّ من خِضَمّ

قال: وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرَّم علم الدين الشَّاتاني[(٤)]، وهو من أدباء المَوْصِل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر، وأهدى النَّظم والنثر، واصطنعه عزّ الدين فَرُّخْشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رِفْده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السُّلْطان بالمخيّم بكلمة، مطلعها[(٥)]: [الطويل]

غدا النَّصْرُ مَعْقُوداً برايَتك الصَّفْرا ... فَسِرْ وافتحِ الدُّنيا فأنتَ بها أَحْرى

قلت: لم يذكر العمادُ من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشَّاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في «تاريخ دمشق».

---

(١) في البرق الشامي ٣/ ٢٣: مرج الفاقوس.

(٢) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٢٤ ـ ٢٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٥٢ ـ ٥٤. والقصيدة في البرق الشامي من ١١١ بيتاً.

(٣) لا تستطيع غشمي: أي لا تستطيع ظلمي. والغشم: الظلم. والغشوم: الظلوم.

(٤) علم الدين الشاتاني: هو أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم، فقيه غلب عليه الشعر واشتهر به، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ، (وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤، الوافي بالوفيات ١٢/ ١٧٥ ـ ١٧٨).

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٢٩.

وذكره العماد في «الخريدة»، وذكر فيها من هذه القصيدة[١]: [الطويل]

يمينك فيها اليُمْنُ واليُسْرُ في اليُسْرى فَبُشرى لمن يرجو النَّدى منهما بُشرى

قال العماد: وكانت الأعلام السلطانية صُفراً، لا يفارق نشرها نصراً.

قلت: وفيها يقول بعضُ الفضلاء: [الطويل]

إذا اسْوَدَّ خَطْبٌ دونَه الموتُ أحمرُ أتَتْ بالأيادي البيضِ أعلامُهُ الصُّفْرُ
فمذ ظهرت منصوبةً جُزِمَتْ بها ظهورُ العِدَى من رفعها انخفض الكُفْرُ
ولِمْ لا يجوز الأرضَ شرقاً ومغرباً ولله في إعلاءِ رُتْبَتِهِ سِرُّ

وقال العماد[٢]: وعاد السُّلْطان إلى القاهرة وأقام بها، ثم اهتمت بالغزاة هِمَّته إلى غَزَّة وعَسْقَلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جُمادى الأولى بعد الصَّلاة، وخَيَّم بظاهرِ بِلْبيس في خامسه بخميسه، ثم تقدَّمنا منه إلى السَّدير، وخيمنا بالمبرَّز، ثم نُودي: خذُوا زادَ عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإِعواز ذلك عند توسُّط ديار الكُفَّار.

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السِّعْر في الارتفاع، فقلت لغُلامي: قد بدَا لي ـ وقد خطر الرُّجوع من الخطر ببالي ـ فاعْرِض للبيع أجْمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السِّعْر الغالي، وأنا صاحبُ قلم لا صاحب عَلَم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندم. والمدى بعيد، والخَطْبُ شديد، وهذه نوبة السُّيوف لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإِسلام. والواجب على كل منا أن يلزم شُغْلَه، ولا يتعدَّى حدَّه، ولا يتجاوز محلَّه، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قِلَّة العِدَّة. وأظهرت سرِّي للمولى الأجل الفاضل، فسرَّه إشفاقاً علي، وإحساناً إلي. وكان السلطان أيضاً يؤثر إيثاري، ويختار اختياري، فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أَوْلى. فقال: تَعود وتدعو لنا، وتسْأل اللَّهَ أنْ يبلِّغنا في النَّصْر سُؤْلنا.

وكنتُ قد كتبت أبياتاً إلى المخدُوم الفاضل ونحن بالمبرَّز في العشرين من الشهر[٣]: [الرمل]

قِيلَ في مِصْرَ نائلٌ عدد الرَّمْـ ـلِ وَوَفْرٌ كنيلِها المَوْفُورِ

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦٤.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٣١.
(٣) الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٣، ولفظ العماد في البرق: وكنت قد كتبت أبياتاً إلى المخدوم الفاضل بقبول العذر منها على سبيل المداعبة.

فـاغـتـرزنـا بـهـا وسِـرْنـا إلـيـهـا ووقـعـنـا كـمـا تـرى فـي الـغُـرورِ
وحـظِـيـنـا بـالـرَّمْـلِ والـسَّـيـر فـيـه ومُـنِـعْـنـا مـن نِـيـلـهـا الـمَـيْـسُـورِ
وبـرزنـا إلـى الـمـبـرّز نـشـكـو سَـدَراً مـن نـزولـنـا بـالـسَّـديـرِ[١]
قـيـل لـي سِـرْ إلـى الـجـهـاد ومـاذا بـالـغٌ فـي الـجـهـاد جـهـدُ مـسـيـري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو سـي يُـرَى مُـوتَـراً إلـى مـوتـورِ
أنـا لـلـكُـتْـب لا الـكـتـائـب إقـدا مي وللصُّحف لا الصِّفاح حضوري
كـاد فـضـلـي يـضـيـع لـولا اهـتـمـامُ الـ ـفـاضـل الـفـائـض الـنَّـدى بـأمـوري
فـأنـا مـنـه فـي مـلابـس جـاهٍ رافـلاً مـنـه فـي حـبـيـر حُـبـورِ
فـهْـو رَقَّـى مـن الـحـضـيـض حـظـوظـي وسـمـا بـي إلـى سـريـر الـسُّـرورِ

وقال[٢]: وما انقطعتُ عن السُّلْطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد عَصَمَ الله[٣] فيها من النَّبْوَة، وكانت غزوات السلطان بعدها مُؤيَّدة، والسَّعادات فيها مجدَّدة.

وكنتُ لما فارقت القاهرة استَوحشت، وتشوَّقْتُ إلى أصدقائي وتشوشت[٤]، وكتبت من المخيم بِبِلْبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفَرَّاش[٥]، وقد أقام بالقاهرة، وكان صاحباً لي من الأيام النُّورية، واستشرته في التأخر عن السلطان. فكتب في الجواب: رافِقْه ولا تفارقْه. فكرهت رأيه، فكتبتُ إليه[٦]: [البسيط]

إذا رضيـتُـم بـمَـكْـرُوهـي فـذاك رضـا لا أبـتـغـي غـيـر مـا تَـبـغُـون لـي غَـرَضـا

---

(١) السدر: الدوار.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٣٦.
(٣) في البرق الشامي: وقد عصمني الله.
(٤) في البرق الشامي: وتشوقت إلى أصدقائي وتعطشت وتسورت بوحشة الوحدة وتشوشت.
(٥) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، كان قاضي العساكر الصلاحية، وكان رسول صلاح الدين إلى السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود وأولاده، سلطان سلاجقة الروم ليصلح بينهم، وتردد بينهم مراراً أكثر من سنة، توفي في ربيع الأول سنة ٥٨٨هـ في ملطية في طريق عودته (تاريخ ابن الفرات ٤/ ٩٩ وسترد ترجمته في وفيات سنة ٥٨٨هـ من هذا الكتاب).
(٦) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٤، وهي فيه من ٢٥ بيتاً.

وإن رأيتم شفاء القلْبِ في مَرَضي فإنني مُسْتطيبٌ ذلك المَرَضا
أنتم أشرتم بتعذيبي فصرتُ له مُستعْذباً أَسْتَلِذُّ الهمَّ والمضَضا
أصبحتُ ممتعضاً من أجل أني لا أرى[1] صديقاً لما ألقاه ممتعضا
إن رمتمُ عِوَضاً بي[2] في محبَّتكم فحاشَ لله أن أبغي بكم عِوَضا
لله عيشٌ تَقضَّى عِنْدَكُمْ ومضى وكان مثلَ سحابٍ بَرْقُه ومَضَا
العَيْشُ دانٍ جناه الغَضّ عندكمُ والقلبُ محترِقٌ مني بجمرِ غَضَا
ما كنتُ أَعْهَد منكمْ ذا الجفاء ولا حسبتُ أنَّ وِدَادي عندكم رُفضا
قد أظلمَ الأفقُ في عيني لغيبتكم فإنْ أَذِنْتَ[3] لشخصي في الحضور أَضَا
ولستُ أوّل صَبٌّ من أحبته لمَّا جفوا ما قَضى أوطاره وقضى
مُروا بما شئتُمُ مِن محنةٍ وأذَى فقد رأيتُ امْتثالَ الأمرِ مُفْتَرضا
طوبى لكم مصرُ والدَّار التي قُضِيَتْ فيها المآربُ والعَيْش الذي خُفضا
بعيشكم إن خَلَوْتُمْ بانبساطِكُم تذكَّروا ضَجِراً بالعيش مُنْقَبِضا
رضيتُمُ سفري عنكم وأعهدُكم بسَفرتي عنكُمُ لا تُظهرون رِضا
هلا تكلَّفتمُ قولاً أُسَرُّ به هيهات جوهركم قد عادَ لي عَرَضا
تفضَّلوا واشرحوا صدري بِقُرْبِكُمُ أو فاشْرحُوا ليَ ذا المعنى الَّذي غَمُضا

فكتب إليَّ في جوابها أبياتاً، منها[4]: [البسيط]

لا تَنْسُبُوني إلى إيثار بُعْدِكُمُ فلَسْتُ أرضى إذا فارقتكم عِوَضا
ولي وِدادٌ تولَّى الصِّدْقُ عُقْدَتَهُ فما تَراه على الأيَّام مُنْتَقِضا
يلقاك قلبي على سُبْلِ العتاب له بصحَّةٍ ليس يخشى بَعْدَها مَرَضا
وصرت كالدَّهرِ يجني أهلُه أسفاً ويَلْتقي من عِتاب المُذْنِب المضَضَا

قال: ثمّ ودّعت وعُدْت، ونهضوا وقعَدْت[5].

(١) في البرق الشامي: «أرضى» بدل: «أرى».
(٢) في البرق الشامي: «لي»، بدل: «بي».
(٣) في البرق الشامي: «أذنتم» بدل: «أذنت».
(٤) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٥، والقصيدة فيه من ١٤ بيتاً.
(٥) في البرق الشامي: ثم ودعت السلطان وعدت، وقربوا وبعدت، وسعدوا وسعدت، ونهضوا وقعدت.

فصل

في نوبة كسرة الرَّمْلة(١)

وكانت على المسلمين بالجملة، وذلك يوم الجمعة غُرَّة جمادى الآخرة أو ثانيه.

ورحل السُّلْطان بعساكره فنزل على عَسْقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأُولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسْرى، فضرب أعناقهم، وتفرَّق عسكره في الأعمال مُغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا.

وتوسَّط السُّلطان البلاد، واستقلَّ يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة، بالرَّمْلة، راحلاً ليقصد بعض المعاقل، فاعترضه نَهْرٌ عليه تلُّ الصَّافية فازدحمت على العُبور أثقال العساكر المتوافية، فما شعروا إلا بالفرنج طالبةً بأطلابها، حازبةً بأحْزابها، ذابَّةً بذئابها، عاويةً بكلابها، وقد نفر نفيرُهم، وزفر زفيرهم. وسرايا المسلمين في الضِّياع مغيرة، ولرِحَا الحرب عليهم في دورهم مديرة، فوقف الملك المُظَفَّر تقي الدين وتلقَّاهم بصدره، وباشرهم بِبيضِه وسُمْره، فاستُشهد من أصحابه عِدَّة من الكرام، انتقلُوا إلى نعيم دار المقام؛ وهلك من الفرنج أضعافها.

وكان لتقيِّ الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ما طرَّ شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر، اسمه شاهِنشاه، وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجيء إلى المَلِك وهو يعطيك المُلك. وزوَّر له كتاباً، فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلما تفرَّد به شَدَّ وثاقه، وغلَّه وقيَّده، وحمله إلى الدَّاوية، وأخذ به مالاً، وجدَّد عندهم له حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكَّه السُّلْطان بمالٍ كثير، وأطلق للدَّاوية كلّ مَنْ كان لهم عنده من أسير. فَغِلَظُ القلبِ التقوي على ذلك الولد جَرَّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه.

قال: ولو أن لتقيِّ الدين رِدْءاً لأردى القوم، لكن النَّاس تفرَّقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم، وصوَّب العدوُّ بجملتهم حملتهم على السُّلْطان، فثبت ووقف

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨٥ ـ ٨٦: ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة. والبرق الشامي ٣/ ٣٦ ـ ٥٠: ذكر نوبة الرملة ونبوة الحملة.

على تقدمة من تخلّف، وسمعته يوماً يصف تلك النَّوْبة، ويشكر من جماعته الصُحْبَة، ويقول: رأيت فارساً يحثُّ نحوي حصانه، وقد صوَّب إلى نَحْري سِنانه، فكاد يُبْلغني طعانَه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كلّ واحد إلى واحدٍ منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكَّنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسُوَيد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر، واتَّفق لسعادة السُّلْطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدو دونه وضايقوه.

فما زال السُّلْطان يسير ويقف، حتى لم يبق مَنْ ظنّ أنه يتخلف، ودخل اللَّيل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزَّاد والعلف ولا قليل، وتعسَّفوا السُّلوك في تلك الرِّمال والأوعاث والأوْعار، وبقُوا أياماً ولياليَ بغير ماء ولا زادٍ حتى وصلوا إلى الدِّيار. وأذن ذلك بتلف الدَّواب وترجّل الركاب، ولُغوب الأصحاب، وفُقِد كثير ممن لم يُعرف له خبر، ولم يظهر له أثر. وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى[1] وأخوه الظَّهير، ومن كان في صُحبتهم، فَضلَّ الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقُرب الأعداء، فأكمنوا في مغارة، وانتظروا مَنْ يدلُّهم مِن بلد الإسلام على عمارة. فدلَّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم، وسعى في أَسْرهم وعطبهم، فأُسروا، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين، بستين سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكُفَّار.

قال: وما اشتدَّت هذه النَّوْبة بكسرة، ولا عَدم نُصرة، فإن النَّكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها، وأدركت كلُّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكن الخروج من تلك البلاد شتَّت الشَّمْل، وأوعر السهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل الرَّمْل.

ومما قدَّره الله تعالى من أسباب السَّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أنَّ الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية[2] والأدلاء، وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه، وغِلْمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبثَّ أصْحابه في تلك الرِّمال، والوهاد والتِّلال، حتى أخذ خبر السُّلْطان وقصده، وأوضح بأدلائه جَدَده، وفرَّق ما كان معه من الأَزْوَاد

---

(١) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، تقدّمت ترجمته.

(٢) الكنانية: نسبة إلى بني كنانة بن خزيمة بن مدركة، كان منهم بدمياط وما حولها من الديار المصرية طائفة، كما كان منهم فرقة بمناطق أخرى من مصر (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، للقلقشندي ص١٣٤ ـ ١٣٦).

على المنقطين، وجمعهم في خِدْمة السُّلْطان أجمعين، فسَهُل ذلك الوَعْر، وأنِس بعد الوحشة القَفْر، وجُبر الكسر.

وكان النَّاس في مبدأ توجُّه السُّلْطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدَّثوا وقالوا: لو قعد وتخلَّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثم عُرف أنَّ السَّلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا، وأُشيع بأن السلطان نصره الله، وأنَّ الفرنج كسروا وغلبوا. فركبت لأسمع حديث النجَّابين وكيف نصر الله المسلمين وإذا هُم يقولون: أبشروا فإن السُّلْطان وأهلَه سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقُلت لرفيقي: ما بُشِّر بسلامة السلطان إلا وقد تَمَّت كسرة، وما ثَمَّ سوى سلامته نُصرة.

ولما قرب خرجنا لتلقِّيه، وشكرنا الله على ما يسَّره من ترقيه وتوقِّيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامتُه مناب الدهر[1]، وسيَّرْنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبَتُها هائلة، ووقعتها غائلة[2].

وقال القاضي ابن شدَّاد: خرج السُّلْطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّمْلة، وذلك في أوائل جمادى الأُولى، وكان مقدم الفرنج البرنز أرناط ـ وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى ـ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان ـ قدَّس الله روحه ـ صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تَعَبَّوْا تعبئة الحرب، فلما قارَبَ العدوّ رأى بعضُ الجماعة أن يغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالَ اللقاء وراء ظهورهم تلٌّ معروف بأرض الرَّمْلة، فبينا اشتغَلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج، وقدر الله تعالى كسرهم، فانكسرُوا كسرةً عظيمة، ولم يكن لهم حِصْن قريبٌ يأوُون إليه، فطلبوا جهة الدِّيار المصرية، وضلُّوا في الطريق وتبدَّدُوا، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى. وكان وَهْناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرَّمْلَة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسر حِطِّين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

---

(١) في البرق الشامي: النصر.

(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٤٢، ولفظه: فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعتها غائلة، فنبّه الله بها العزمات وصرف بها عن الأزمن أزمّة الأزمات.

قال العماد الكاتب: وحيث كانت للملك المظفَّر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، أنشدته قصيدةً، منها[١]: [الوافر]

سقى اللّهُ العراقَ وساكنيه وحَيَّاه حيَا الغيثِ الهَتُونِ
وجيراناً أمِنْت الجَوْرَ منهم وما فيهم سِوَى وافٍ أمينِ
صفَوْا والدَّهرُ ذو كَدَرٍ وقِدْماً وفَوْا بالعهد في الزَّمن الخؤونِ
بنو أيوبَ زانوا المُلْكَ منهم بحِلْية سُؤْدَدٍ وتُقًى ودينِ
ملوكٌ أصبحوا خيرَ البرايا لِخَيْرِ رَعِيَّةٍ في خير دينِ[٢]
أسانيدُ السيادةِ عن عُلاهم مُعَنْعَنةٌ مصحَّحةُ المُتُونِ
بنو أيوب مثلُ قريشَ مجداً وأنت لها كأنزعها البطينِ[٣]
أخفت الشِّرْكَ حتى الذُّعْرُ منهم يُرى قبل الولادةِ في الجنينِ
ويومَ الرَّمْلَةِ المرهوب بأساً تركت الشِّركَ منزعج القَطِينِ
وكنتَ لعسكرِ الإسلام كَهْفاً أوى منه إلى حِصْنٍ حَصِينِ
وقد عَرَفَ الفرنج سُطَاك لما رأوا آثارها عينَ اليقينِ
وأنت ثَبتَّ دون الدِّين تحمي حِماهُ أَوَانَ ولَّى كلُّ دينِ[٤]

قال: واهتمَّ السُّلْطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وافتقاد الناس بالنُّقود، والسنايا[٥] الصَّادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد، وتكثير المدد، وتعويض ما نفق[٦] من الدواب، فسلَوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طيّ: وقال ابن سَعْدَان الحلبي[٧] يمدح السُّلْطان، ويذكر ما فعله على عَسْقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة، من قصيدة: [البسيط]

قَرَّبْت من عسقلانٍ كلّ نائبة باتت تقلّ بوكّافٍ من الأسَلِ

---

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٤٦ ـ ٥٠، والقصيدة فيه من ٩٧ بيتاً.
(٢) في البرق الشامي: «حين» بدل: «دين».
(٣) الأنزع البطين: هو الإمام علي بن أبي طالب، وقد كان يوصف بذلك. والنزع: انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبي الجبهة. والبطين: الكبير البطن.
(٤) في البرق الشامي: «دونِ» بدل: «دين».
(٥) في البرق الشامي: النسايا.
(٦) في البرق الشامي: وتعويض ما وقت.
(٧) هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وأورد له ياقوت الحموي في معجم البلدان أشعاراً متفرقة: جبل السماق، باب الجنان، فامية، ليلون، دابق، الدارين.

فاض النَّجيعُ عليها وهي مُمْحِلةٌ ... فأضْبَحَتْ مَرْتَعاً للخيلِ والإبلِ
قُل للفرنجيّة الخذلى رُوَيْدكم ... بالثأر أو تخرجَ الشِّعْرَى من الحَمَلِ
ترقَّبوها من الفوّارِ طالعةً ... خوارق الأرض تمحو رونق الأُصُلِ
كأنني بنواصيهنّ يَقْدُمها ... كاسٍ من الجود عُرْيانٍ من البَخَلِ
حَسْبُ العِدَى يا صلاحَ الدين حسبهمُ ... أن يقرفوك بجرحٍ غير مُنْدَمِلِ
وهل يخاف لسانَ النَّحْل ملتمسٌ ... مرَّت على أصبعيه لذَّةُ العَسَلِ

فصل

في وفاة كُمُشْتِكِين(١) وخروج السُّلْطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد(٢): وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبِّري الملك الصَّالح، واستولى على أمره العَدْل بن العجمي أبو صالح. وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين الخادم مقدَّم العسكر، وأمير المعشر، وهو صاحب حِصْن حارِم، وقد حسده أمثالُه من الأمراء والخُدَّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الإسماعيلية يوم الجمعة بعد الصَّلاة في جامع حلب فقتلوه.

واستقل كُمُشْتِكِين بالأمر، فتكلَّم فيه حُسَّادُه وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرَك ومُشيرَك ابنَ العجمي إلا كمشتكين، فهو الذي حَسَّن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السُّلْطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارِم، وأوقعوا بها لأجله العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبَوْا وأبَوْا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوَّفوه بالصَّرعة، فلما طال أمره، قصر عُمره، واستبدَّ الصِّغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجَرَّد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصَّالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولّى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصَّالح من حلب إلى حارِم ومعه كُمُشْتكِين، فعاقبه

---

(١) انظر حادثة مقتل كمشتكين وابن العجمي في: البرق الشامي ٣/ ٥٠ ـ ٥٢، والكامل في التاريخ ١٠/ ٨٧ ـ ٨٨، ومرآة الزمان ٨/ ٣٤٦ ـ ٣٥٠.
(٢) البرق الشامي: ٣/ ٥٠.

ليأمُرَ مَنْ بها بالتَّسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعُلِّق منكوساً ودُخِّن تحت أنفه فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها. ثم إنه أخذها بعد ذلك.

[نزول الفرنج على حارم ورجوعهم عنها]

قال ابن شدَّاد: أما الملك الصَّالح فإنه تخبَّطَ أمرُه، وقبض كُمُشْتِكِين صاحبَ دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقابل عسكر الملك الصَّالح العساكر الإفرنجيَّة، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلَّموها إلى الملك الصَّالح في العشر الأواخر من شهر رمضان. ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارِم طالبين بلادَهم، ثم عاد الصَّالح إلى حلب، ولم يَزَلْ أصحابه على اختلاف بميل بعضهم إلى جانب السلطان، قدَّس الله روحه.

[فسخ الفرنج للهدنة ومهاجمتهم لحماة وانهزامهم]

قال العماد[١]: ووصل في هذه السنة إلى السَّاحل من البحر كندٌ كبير يقال له اقلندس[٢]، أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خُلُوَّ الشَّام من ناصري الإِسلام. ومن جملة شروط هُدْنة الفرنج أنهم إذا وَصَلَ لهم ملك أو كبير، ما لهم في دَفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عادَ عادت الهُدْنة كما كانت، وهانت الشدة ولانت. وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنَّدوا الجنود، ونزلوا على حماة في العشرين من جُمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي[٣] مريض، ونائب السُّلْطان بدمشق يومئذٍ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون بلذَّاتهم، وكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب[٤] بالقُرْب، فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطَّعْن والضَّرْب، وجرت ضروبٌ من الحروب، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدُّروب، ونصر الله أهل الإِسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين ونزلوا على حِصْن حارم، كما تقدَّم ذكره. فرحَّلهم عنه الملك الصَّالح بعد حصاره أربعة أشهر.

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٢ ـ ٥٥. وانظر أيضاً «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨٦ ـ ٨٧: ذكر حصر الفرنج حماة.

(٢) في البرق الشامي: افلند.

(٣) هو خال السلطان صلاح الدين (انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨/ ٣٥٠).

(٤) من أمراء السلطان صلاح الدين، تردد ذكره كثيراً في فترة حكم صلاح الدين، وورد ذكره في ترجمة ابنه في وفيات الأعيان ٢/ ١٨٠. توفي سنة ٥٨٨هـ وانظر أيضاً النجوم الزاهرة ٦/ ١١٧.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: خرج الكُفَّار إلى البلاد الشَّامِيَّة، فاسخين لِعَقْدٍ كان مُحْكماً، غادرين غدْراً صريحاً، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشَّام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جُمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمَّن كتاب سيف الدِّين ـ يعني المشطوب ـ أنّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجلٍ ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصُّدور، ورزق عليهم النصر والظهور. ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرَّقة أحزابُهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشَّريفة النَّبويَّة الأحزاب.

قال العماد[١]: وتسامعَ الحلبيُّون بيومِ رحيلنا[٢] من مصر لِقَصد الشَّام لنُصْرة الإسلام، وقالوا: أوَّلُ ما يصل صلاح الدِّين يتسلَّم حارِم. فراسلُوا الإفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبُوهم، وقالُوا لهم: صلاح الدِّين وَاصِل، وما لكُم بعد حصوله عندكم حاصل. فرحل الفرنج بقَطِيعةٍ من المال أخذوها، وعِدَّة من الأسارى خلَّصوها.

ثم تُوفِّي خالُ السُّلْطان شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارِمي، في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش، ابن خال السُّلْطان قبله بثلاثة أيَّام وذلك أوان وقعة الرَّمْلَة[٣].

ولمَّا سمع السُّلْطان بنزولُ الفرنج على حارم رحل من البِرْكة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل أَيْلَة في عاشر الشَّهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنيَّة الحج في السنة القابلة. ووصل السُّلْطان إلى دمشق في الرَّابع والعشرين من شَوَّال[٤].

ومما نظمه العماد في التَّشوق إلى مصر قوله[٥]: [الرمل]

ساكني مِصْرِ هَناكُمْ طِيبُها إنَّ عَيْشي بَعْدَكُمْ لَمْ يَطِبِ

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) في البرق الشامي: بعزم رحلينا.

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٥ ـ ٥٦: ذكر وفاة شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان وصهره وولده تكش ابن أخت السلطان، وكان وفاة الولد يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة ووفاة الوالد يوم الأحد حادي عشر الشهر وبينهما ثلاثة أيام.

(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٦ ـ ٥٨: ذكر الرحيل من المخيم بالبركة إلى الشام يوم عيد الفطر بعد صلاة العيد يوم الخميس.

(٥) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٦٣، والقصيدة فيه من ١٣ بيتاً.

لا عَدِمْتُم راحةً من قُرْبِها فأنا من بَعْدِها في تَعَبِ
بَعُدَ العَهْدُ بأخبارِكُمُ فابْعثوا أخبارَكُمْ في الكُتُبِ
ليْت مِصْراً عرفَت أنّي وإنْ غِبْتُ عنها فالْهوَى لم يَغِبِ

ومن ذلك قوله[1]: [المتقارب]

تَذَكَّرْتُ في جِلِّقٍ دارَكم بِمِصْرَ ويا بُعْدَ ما بيننا
وما أتمنَّى سِوى قُرْبِكُمْ وذلك والله كلُّ المُنَى
لكم بالجِنان وطيبِ المَقَامِ وحُسْنِ النَّعيمِ بمصر الهنا

ومن ذلك أيضاً[2]: [البسيط]

يا ساكني مِصْرَ قد فُقْتُمْ بفضلكمُ ذوي الفَضَائل من سُكّان أَمْصَارِ
لله دَرُّكُمُ من عُصْبَةٍ كَرُمَتْ وَدَرُّ مِصْرِكُمُ الغَنَّاء مِنْ دَارِ

ومن ذلك أيضاً: [مجزوء الكامل]

يا حبَّذا مِصْرٌ وبِرْ كَتُها وصَدْرٌ والعَرِيشُ
فهناك أملاكي الَّذيـ ـنَ سَمَتْ بِعِزِّهِمُ العُرُوشُ

قال[3]: ووصل كتابٌ من الفاضل يذكر فيه أن العدو ـ خذله الله تعالى ـ نهض ووصل إلى صَدْر، وقاتَل القلعة ولم يتمَّ له أمر، فصرف الله شَرَّه، وكفى أمره.

ووصل من الفرنج مستأمِنٌ وذكر أنَّهم يريدُون الغارة على فاقُوس فاستقلُّوا أنفسهم وعرَّجوا، وذكر أنَّهم مَضَوْا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القَصْد.

قال: وأما نوبة العدو في الرَّمْلة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرُها، وعلى الكُفَّار باطنها، ولزمنا ما نَسِّي من اسمها، ولزمهم ما بَقِّى من غرمها، ولا دليل أدلَّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشّام، نخوضُ بلاد الفرنج بالقَوافل الثَّقيلة، والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد[4]: ولما دَخَلْنا دمشق وجَدْنا رُسُل دار الخلافة، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذٍ صاحبُ المخزن ظهير الدين أبو بكر

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٦٣، والقصيدة فيه من سبعة أبيات.
(٢) البيتان في البرق الشامي ٣/ ٦٤، وهي فيه من خمسة أبيات.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٦٦ ـ ٦٨.
(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ٦٩.

منصور بن نصر العَطَّار[١]، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الإيراد والإصدار، وقد توفَّر على محبَّة السُّلْطان وتربية رجائه، وتلْبية دعائه. ووصل كتابُه ورسوله بكلّ ما سَرَّ السَّرائر، ونوَّر البصائر.

فصل

في ذكر أولاد السُّلْطان[٢]

قال العماد: وفي هذه السَّنة وُلد بمِصْر للسُّلْطان ابنُه أبو سليمان داود.

وكتب الفاضل إلى السُّلْطان يهنئه به ويقول: إنه وُلد لسبعٍ بقين من ذي القَعْدة، وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفي لاثني عشر ولداً، بل لاثْنَي عشر نجماً متوقِّداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المَوْلى يقظةً ورأى تلك الأنجم حُلُماً، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجوداً، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جُدُود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً[٣].

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده[٤]، وجرى ذكرُ أولاده، واعْتِضادِه بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفتُ أيام مواليدهم في أعوامها، لأنشأتُ رسالةً على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم.

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وُلد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمسٍ وستِّين وخمسمائة[٥].

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدِّين، وُلد بمصر ثامن جُمادى الأولى سنة سبعٍ وستين[٦].

---

(١) كان صاحب مخزن الخليفة، وناب في الوزارة، توفي سنة ٥٧٥هـ، له ترجمة وافية في مرآة الزمان ٨/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٧٥ ـ ٧٩.

(٣) البرق الشامي ٣/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٤) البرق الشامي ٣/ ٧٦، وفيه: ذكر مواليد أولاد السلطان على ما سمعته منه في آخر عهده بالبيت المقدس سنة ثمان وثمانين.

(٥) توفي فجأة يوم الجمعة، في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ، ونقل إلى ظاهر حلب فدفن بها، وعمره سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥٦ ـ ٢٦٥، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٢هـ، وفيات الأعيان ٣/ ٩٥، السلوك ١/ ٢١٦، مختصر أبي الفداء ٣/ ١٣٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، مفرج الكروب ٤/ ١٥٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٨، كنز الدرر ص٢٧٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٢، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٦) توفي ليلة الأحد سابع عشر محرم، سنة ٥٩٥هـ، وكان سنه ٢٧ سنة، ومدة ملكه ست سنين =

الظافر أبو العبَّاس خضر مظفر الدِّين، ولد بمصْر في خامس شعبان سنة ثمانٍ وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه[1].

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدِّين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمانٍ وستين[2].

المعِزّ أبو يعقُوب إسحاق فتح الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين[3].

المؤيَّد أبو الفتح مسعود نجم الدِّين، وُلد بدمشق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه[4].

الأعزُّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو لأم العزيز[5].

الزَّاهر أبو سلَيْمان داود مجير الدِّين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو لأم الظَّاهر[6].

= إلا شهراً. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٣٥ ـ ٢٥١، مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، مفرج الكروب ٣/ ٨٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٥هـ، وفيات الأعيان ٢/ ٤١٤، مختصر أبي الفداء ٣/ ٩٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٧٨، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، شذرات الذهب ٤/ ٣١٩).

(١) توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٢٧هـ. بحرّان (انظر ترجمته في شفاء القلوب ص٢٦٦، وفيات الأعيان ٧/ ٢٠٥، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٨٧، ترويح القلوب ص٩٤).

(٢) توفي يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦١٣هـ. وكان عمره أربعاً وأربعين سنة وشهوراً، ومدة ملكه بحلب إحدى وثلاثين سنة. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥٢ ـ ٢٥٥، مرآة الزمان ٨/ ٥٧٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ، مفرج الكروب ٣/ ٢٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ٧١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢١٧، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٤ ـ ٣٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٨٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٤٢، تاريخ ابن الفرات ٥/ ١٩٥، شذرات الذهب ٥/ ٥٥).

(٣) توفي في ذي الحجة سنة ٦٢٥هـ، وله سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٤) توفي سنة ٦٠٦هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥١ ـ ٢٥٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٦هـ، مفرج الكروب ٣/ ١٩٨، السلوك ١/ ١٧١، البداية والنهاية ١٣/ ٥٥، مختصر أبي الفداء ٣/ ١١٢، تاريخ ابن الفرات ٥/ ٩٧).

(٥) توفي سنة ٦٢٤هـ (ترويح القلوب ص٩٤)، وفي الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٨٧: توفي سنة ٦٢٧هـ، وانظر ترجمته في شفاء القلوب ص٢٧٠.

(٦) مرض بالعسكر الكاملي، ثم توفي سنة ٦٣٢هـ، (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٦ ـ ٢٦٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٧، السلوك ١/ ٢٥٠، مفرج الكروب ٢/ ٤٢٤، مختصر أبي الفداء ٣/ ١٥٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٠).

المفضَّل أبو محمد موسى قطب الدِّين، ثم نعت بالمظفَّر، ولد بمصر سنة ثلاثٍ وسبعين. وهو لأم الأفضل[١].

الأشرف أبو عبد الله محمَّد عز الدِّين، وُلد بالشَّام سنة خمسٍ وسبعين[٢].

المُحسنِ أبو العباس أحمد ظهير الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين، وهو لأم الأشرف[٣].

المعظَّم أبو منصور تورانشاه فخر الدِّين، ولد بمصر في ربيع الأوَّل سنة سبعٍ وسبعين أيضاً[٤].

قلت: ومات سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة وهي السَّنة التي أخرب العدوُّ من التتار ـ خذلهم الله تعالى ـ فيها مدينة حلب وغيرها، والله أعلم.

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأوَّل سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعز[٥].

الغالب أبو الفتح مَلِكْشاه نصير الدين، مولده بالشَّام في رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعظم[٦].

المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظَّم لأبويه، ولد بحرَّان بعد وفاة السُّلْطان[٧].

---

(١) توفي سنة ٦٣١هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، السلوك ١/ ٢٤٩، ترويح القلوب ص٩٣).

(٢) توفي سنة ٦٠٥هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٥هـ، الوافي بالوفيات ٥/ ٢٥١).

(٣) توفي بحلب رابع محرم سنة ٦٣٤هـ، وحمل إلى الرقة فدفن بها بقرب عمار بن ياسر (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٧ ـ ٢٦٨. مفرج الكروب ٢/ ٢٤٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٨، شذرات الذهب ٥/ ١٦٢).

(٤) هو آخر من بقي من إخوته، وكان كبير البيت الأيوبي توفي سابع وعشرين ربيع الأول، سنة ٦٤٨هـ بحلب. ودفن بدهليز داره، وله ثمانون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩)، ذيل مرآة الزمان ١/ ١٥، السلوك ١/ ٤٤١، النجوم الزاهرة ٧/ ٩٠، شذرات الذهب ٥/ ٢٩٢، ترويح القلوب ص١٠٠).

(٥) لم يذكر سنة وفاته (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، مفرج الكروب ٢/ ٤٢٥، ترويح القلوب ص٩٥).

(٦) وقيل العادل، ناصر الدين، ولم تذكر سنة وفاته. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، ترويح القلوب ص٩٦).

(٧) نصرة الدين، وقيل: سيف الدين، وقيل: بل إنهما اثنان، ولم يذكر سنة وفاته (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧١، ترويح القلوب ص٩٦).

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع.

وقال في آخر كتاب «الفتح القُدسي»، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب: إنَّ السُّلطان لما تُوفِّي خلَّف سبعةَ عشرَ ولداً وابنةً صغيرة.

فقد فاته هنا ذكر اثنين، وهما عماد الدِّين شاذي[1]، لأم ولد، ونصير الدين مروان[2]، لأم ولد، وأمَّا البنت فهي مؤنسة خاتون[3]، تزوَّجها الملك الكامل محمَّد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وهو ابن عمِّها الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن دَرَج في حياته[4]، كالملك المنصور حسن، وسيأتي ذكر وفاته، والأمير أحمد وهو الذي رثاه العَرْقَلة بقوله: [مجزوء الرجز]

أيّ هـــلالٍ كُــسِــفــا ... وأيّ غُــصْــنٍ قُــصِــفــا

كــان ســراجــاً قــد طــفــا ... عــلــى الــورى ثــمّ انــطــفــا

لــم يَــركــبْ الــخــيــلَ ولــم ... يــقــلُــدوه مُــرْهــفــا

قــل لــلــنُّــحــاة وَيْــحَــكُــمْ ... أحــمــدُكُــمْ قــد صُــرِفــا

صــبــراً صــلاحَ الــدِّيــن يــا ... ربَّ الــسَّــمــاحِ والــوَفَــا

قال العماد[5]: وورد من الفاضل كتابٌ تاريخه من منتصف ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وسبعين ذكر فيه فصولاً متعددة، منها: للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالاً، ويجب أن تستجند[6] للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً، وقيل: القلاع أنوفٌ من حلَّها شَمَخَ بها: [الكامل]

ما في الرِّجال على النِّساء أمين

ومنها أبيات في ذكر السَّلام[7]: [الكامل]

مـمـلـوكُ مـولانـا ومـمـلـوكُ ابـنـه ... وأخـيـه وابـن أخـيـه والـجـيـران

---

(١) ويسمى عمر بن يوسف بن أيوب، ولم يذكر سنة ولادته ولا وفاته (انظر: شفاء القلوب ص٢٧١، وترويح القلوب ص٩٧).

(٢) هو نصرة الدين، توفي في السابع والعشرين من رجب سنة ٦٥٢هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٥٢هـ).

(٣) هي مؤنسة خاتون بنت يوسف بن أيوب، ولم يكن له من الإناث سواها، تزوجها ابن عمها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، ودخل بها سنة ٥٩٦هـ (شفاء القلوب ص٢٧١).

(٤) ذكر في شفاء القلوب ص٢٦٩: الصالح إسماعيل مات في حياة أبيه.

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٨١.

(٦) في البرق الشامي: يستجير.

(٧) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٨١ ـ ٨٢.

طيّ الكتاب إليه منه إجابة لسلام مَوْلانا ابنه عثمان
والله قد ذَكَر السَّلام وأنه يجزي بأحسن منه في القُرْآنِ
وغريبة قد جئتُ فيها أوّلاً ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسوليَ السلطان في إرسالها والنَّاس رُسْلُهُم إلى السُّلْطانِ

قلت: ووصف الفاضل الملك المُؤيَّد في كتاب آخر فقال: وقد تمطَّت به السِّنّ وامتدَّت، وتأهبّت السَّعادة لخطبته واعتدَّت، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدَّت.

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا، إذْ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العِلْمُ والعَلم.

ومن كتاب آخر في المعنى: فلقد زادَتْ هذه المنقَبة في مناقبه، ونظمت عقود سُؤدد في ترائبه: [الطويل]

فما تَرْجَمَ الإنسانُ عن سِرِّ فَضْلِهِ بأفضل من تقريبه لأُولي الفَضْلِ

قال العماد[1]: وخرج السُّلْطان للصيد في ذي الحِجَّة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعَدِمْتُ أُنسي، فرجعت مع عزّ الدين فَرُّخْشاه لحمًّى عَرَتْه فشكا منها، ألا تزور إلّا نهاراً جهاراً، ولا تفارقي بعرق، بالضدِّ من الحُمَّى التي وصفها أبو الطيب المتنبي[2]،

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٥.
(٢) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي أبو الطيب المتنبي، ولد سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٤هـ. ويشير العماد هنا إلى القصيدة التي قالها المتنبي عندما أصابته الحمى في مصر، فقال يصفها ويعرض بالرحيل عن مصر وذلك في ذي الحجة سنة ٣٤٨هـ، ومطلعها: [الوافر]

ملومكما يجلّ عن الملام ووقعُ فعاله فوق الكلامِ

ويقول في وصف الحمى:

وزائرتي كأنّ بها حياءً فليس تزور إلا في الظلامِ
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقامِ
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجامِ
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهامَ
إذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرامِ

انظر الأبيات في ديوان المتنبي ٢/ ٢٤٦ (طبعة دار الكتب العلمية).

فنظمت فيه كلمة طويلة، أوَّلها[١]: [الوافر]

يمينك دَأْبُها بَذْلُ اليسارِ ... وكفُّك صَوْبها بِدَرُ النُّضارِ
وإنك من ملوكِ الأرْضِ طُرّاً ... بمنزلة اليمينِ مِنَ اليسارِ
وأنتَ البَحْرُ في بَثِّ العطايا ... وأنت الطَّوْدُ في نادي الوقار

ومنها في وصف الحُمَّى:

وزائرةٍ وليس بها حَيَاءٌ ... فليْسَ تزور إلّا في النَّهارِ
ولو رَهِبَتْ لدى الإقدام جوري ... لما رَغِبَتْ جِهاراً في جِواري
أتتْ والقلبُ في وَهَجِ اشتياقٍ ... لتظهر ما أُواري من أُواري
ولو عرفت لظى سطواتِ عَزْمي ... لكانت من سُطَاي على حِذَارِ
تقيمُ فحين تُبصر من أناتي ... ثباتَ الطَّوْدِ تُسْرع في الفِرَارِ
تفارقني على غير اغتسالٍ ... فلم أحلُل لزَوْرَتِها إزاري
أيا شمسَ الملوكِ بقيتَ شمساً ... تنيرُ على الممالك والدِّيارِ
أحمَّاك استعارَتْ لَفْحَ نارٍ ... لِعَزْمِكَ لم تَزَلْ ذاتَ اسْتِعارِ

فصل

[قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة]

قال العماد[٢]: وفي العشر الأوَّل من ذي القعدة قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء[٣] وزير الخليفة ببغداد، على أيدي الملاحدة، وكان قد توجَّه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا، غربي دِجْلة، كهلٌ في يده قِصَّة يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قِصَّته، فانتهز فيه فُرْصته، فقتله، وبَدَر

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٨٥ ـ ٨٦، وهي فيه من ٢٤ بيتاً.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٦ ـ ٨٨. والكامل في التاريخ ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) هو أبو الفرج، محمد بن عبد الله بن هبة الله بن مظفر ابن الوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة، ولد سنة ٥١٤هـ، وكان أبوه أستاذدار المقتفي لأمر الله، فلما مات ولي عضد الدين مكانه، وبقي إلى أن مات المقتفي، فأقره المستنجد، فلما ولي المستضيء سنة ٥٦٦هـ، استوزره، ثم عزله سنة ٥٦٧هـ، ثم أعيد إلى الوزارة سنة ٥٧٠هـ، وبقي فيها حتى مقتله (انظر ترجمته الوافية في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩، مرآة الزمان ٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٥ ـ ٧٧، الوافي بالوفيات ٣/ ٣٣٥).

كمال الدين أبو الفضل ابن الوزير[١] فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوَّج[٢] فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقُطع الملاحدة وأحرقوا، واستقلَّ ظهير الدين أبو بكر منصور، بن نصر المعروف بابن العطَّار[٣] صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدناً مصافياً.

قلت: وابن العطَّار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الأثير: وكنت حينئذٍ ببغداد عازماً على الحجّ، فعبر عضد الدِّين دِجْلة في شبارة[٤]، فلما ركب دابته والنَّاس معه ما بين راكب وراجل، تقدَّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه، فتقدم إليه الباطنيّة فقتلوه بالجانب الغربي، وقُتل الباطنية وأحرقوا، وحُمل من موضعه إلى دارٍ له بِقَطُفْتا في الجانب الغربي، فتوفي بها.

قال العماد[٥]: ووردت مطالعة الفاضل إلى السُّلْطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين، وفيها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فقد كان ـ عفا الله عنه ـ قتل ولدَيْ الوزير ابن هُبيرة[٦] وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى: [مجزوء الرجز]

مَنْ يُرِ يوماً يُرَ بِهْ وَالدَّهْرُ لا يُغْتَرُّ بِهْ

وهذا البيت بيت ابن المُسْلمة عريق في القتل، وجدُّه[٧] هو المقتول بيد البساسِيري[٨] في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر،

---

(١) هو عبيد الله بن محمد، توفي سنة ٥٧٦هـ («خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٦).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسين، قتل ولم يبلغ الثلاثين، (انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٨٢، ومرآة الزمان ٨/ ٢٢٢).

(٣) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨/ ٢٢٨.

(٤) الشبارة: نوع من المراكب.

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٩ ـ ٩١.

(٦) تقدّمت ترجمة الوزير ابن هبيرة في هذا الجزء.

(٧) هو علي بن الحسين بن أحمد، أبو القاسم بن المسلمة، ولد سنة ٣٩٧هـ، وقتل سنة ٤٥٠هـ (طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣).

(٨) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله، كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وكان مقدماً زمن القائم بأمر الله على جميع الأتراك، وخطب له على المنابر في العراق وخراسان، ثم إنه خرج على القائم، وأخرجه من بغداد، وخطب فيها للمستنصر =

فهو من ذُرِيَّة لم تزل قاتلة مقتولة، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المُصِمّة كما قال دُريد[١]: [الطويل]

أبـى الـمـوتُ إلا آل صِـمَّـة

والأبيات المولى يحفظها، وهي في «الحماسة»، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشَّهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله. قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: [الكامل]

إنَّ المساءةَ قد تسرُّ وربما ... كان السُّرورُ بما كَرِهْتَ جديرا

إنَّ الوزيرَ وزيرَ آل محمد ... أَوْدَى فمن يَشْناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سَلَمة الخَلَّال[٢] أول وزير لبني العَبَّاس.

قلت: وبلغني أنَّ الفاضل كان ينشد: [الطويل]

وأحسنُ من نيل الوزارة للفتى ... حياةٌ تريه مَصْرَعَ الوزراءِ

[وفاة القاضي أحمد
ابن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري]

قال العماد[٣]: وكان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري[٤] قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقَّف في المَوْصِل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن

= العبيدي صاحب مصر، وذلك سنة ٤٥٠هـ، وبقي سنة حتى قتله عسكر طغرلبك السلجوقي سنة ٤٥١هـ، وطيف برأسه في بغداد (الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩ ـ ٣٤٨، وفيات الأعيان ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨ ـ ١٤٠).

(١) يروى البيت بتمامه:

أبى القتل إلا آل صمة إنهم ... أبوا غيره والقدر يجري إلى القدرِ

والبيت في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٢٤.

(٢) أبو سلمة الخلال: هو حفص بن سليمان الخلال، أوّل من لقب بالوزارة في الإسلام، وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس، وكان يعرف بوزير آل محمد والذي سرعان ما قتل بتحريض من الخليفة السفاح في رجب سنة ١٣٢هـ (صبح الأعشى ٣/ ٢٩٥).

والبيتان قالهما سليمان بن المهاجر البجلي. انظر: تاريخ الطبري ٧/ ٤٥٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٦.

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، ولد سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

عمه القاضي عماد الدين أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري[1]، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك، وفيه[2]: [المتقارب]

يُدلَّى ابنُ عشرين في لَحْدِهِ وتسعون صاحِبُها راتِعُ

اغتُبط[3] الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعُمِّر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل: [الطويل]

ليُعْلم أن الشّيب ليس بمُسلم وأن الشباب الغضَّ ليس بمانع

وليكون العبد حذِراً من بغتات الآجال، في كلّ الأحوال، والله يطيل للمولى العمر، كما أطال له في القَدْر ويُسمع منه ولا يُسمع فيه، ويبقيه سنداً للدين الحنيفيّ فإن بقاءه يكفيه.

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني:

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة، قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدَّم من أكابر الأمراء.

ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وستمائة، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطلع عليه وجميع المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

[نجز الجزء الثاني من كتاب الروضتين
ويليه الجزء الثالث
ويبدأ بحوادث سنة (٥٧٤هـ)]

(١) ولد سنة ٥٢٧هـ، بالموصل، وولي القضاء فيها، (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨).
(٢) البيت في البرق الشامي ٣/ ٩٢.
(٣) في البرق الشامي: اعتبط، بالعين المهملة.

فهرس المحتويات